وفيات الأعيان

وأنباء أبناء الزمان

لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان
(٦٠٨ - ٦٨١ هـ)

حققه
الدكتور إحسان عباس

المجلد السادس

دار صادر
بيروت

وفيات الأعيان

٦

حَرْفُ الواو



٧٦٨

واصل بن عطاء

أبو حُذيفة واصل بن عطاء المعتزلي ، المعروف بالغَزَّال ، مولى بني ضبة ، وقيل مولى بني مخزوم ؛ كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علوم [١] الكلام وغيره ، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غيناً ؛ قال أبو العباس المبرد في حقه في كتاب «الكامل» [٢] : كان واصل بن عطاء أحد الأعاجيب ، وذلك أنّه كان ألثغ قبيح اللثغة في الراء ، فكان يخلص كلامه من الراء ولا يُفْطَنُ لذلك ، لاقتداره على الكلام وسهولة ألفاظه ففي ذلك [٣] يقول الشاعر من المعتزلة وهو أبو الطروق [٤] الضبي يمدحه بإطالة الخطب واجتنابه الراء على كثرة تردُّدها في الكلام ، حتّى كأنها ليست فيه :

عليم بإبدال الحروف وقامِعٌ ... لكل خطيبٍ يغلبُ الحقَّ باطلُهْ

وقال آخر [٥] :

---

٧٦٨ – ترجمته وأخباره في أمالي المرتضى ١ : ١٦٣ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٤٣ والانتصار : ٢٠٦ والبيان ١ : ٣٢ والفرق بين الفرق : ١١٧ ومختصر الفرق : ٩٧ والفوات ٢ : ٦٤٢ ومرآة الجنان ١ : ٢٧٤ والنجوم الزاهرة ١ : ٣١٣ ولسان الميزان ٦ : ٢١٤ ومقاتل الطالبيين : ٢٩٣ وطبقات المعتزلة : ٢٨ وشذرات الذهب ١ : ١٨٢ وروضات الجنات : ٧٣٨ . وقد وقعت تراجم حرف الواو بعد تراجم حرف الهاء في النسخة بر ، وهكذا وردت عند دي سلان.

١ ر : علم .

٢ الكامل ٣ : ١٩٣ .

٣ ق ص : على ذلك .

٤ ن ق : طروق ؛ بر : الطروف .

٥ ن : الآخر .

ويجعل البرَّ قَمْحاً في تصرُّفه   وخالف الراء حتى احتال للشَّعَرِ
ولم يُطقْ مَطراً، والقول يعجله ،   فعاذَ بالغَيْثِ إشفاقاً من المطرِ

وممّا يحكى عنه ، وقد ذكر[1] بشار بن برد ، فقال : أما لهذا الأعمى المكتني[2] بأبي معاذ مَنْ يقتله ؟ أما والله لولا أن الغيلة خلق من أخلاق الغالية لبعثت إليه من يَبْعَج بطنه على مضجعه ، ثم لا يكون إلا سدوسياً أو عقيلياً ، فقال : هذا الأعمى ، ولم يقل بشار ولا ابن برد ولا الضرير ، وقال : من أخلاق الغالية ، ولم يقل المغيرية ولا المنصورية ، وقال : لبعثت ، ولم يقل لأرسلت ، وقال : على مضجعه ، ولم يقل على مرقده ولا على فراشه ، وقال : يبعج ، ولم يقل يبقر ، وذكر بني عقيل لأن بشاراً كان يتوالى إليهم ، وذكر بني سدوس لأنّه كان نازلاً فيهم .

وذكر السمعاني في كتاب « الأنساب »[3] في ترجمة المعتزلي أن واصل بن عطاء كان يجلس إلى الحسن البصري رضي الله عنه ، فلما ظهر الاختلاف وقالت الخوارج بتكفير مرتكبي الكبائر وقالت الجماعة بأنهم مؤمنون وإن فسقوا بالكبائر ، فخرج واصل بن عطاء عن الفريقين وقال : إن الفاسق من هذه الأمّة لا مؤمن ولا كافر ، منزلة بين منزلتين ، فطرده الحسن عن مجلسه فاعتزل عنه ، وجلس إليه عمرو بن عُبَيد ، فقيل لهما ولأتباعهما : معتزلون — وقد أحَلْتُ في ترجمة عمرو بن عبيد على هذا الموضع في تبيين الاعتزال ولأي معنى سموا بهذا الاسم ، وقد ذكرت في ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي أنّه الذي سماهم بذلك — .

وكان واصل بن عطاء المذكور يضرب به المثل في إسقاطه حرف الراء من كلامه ، واستعمل الشعراء ذلك في شعرهم كثيراً ، فمنه قول أبي محمد الخازن من جملة قصيدة طنانة طويلة يمدح بها الصاحب أبا القاسم إسماعيل بن عبّاد — المقدم ذكره — وهو :

---

١ ن ص ع ق بر من : وذكر ، وكذلك في المبرد .
٢ بر من : المكني .
٣ انظر اللباب ٣ : ١٥٦ .

نعم تجنَّب لا يوم العطاء كما تجنّب ابنُ عطاء لفظة الراء

وقال آخر في محبوب له ألثغ :

أعد لثغة لو أن واصِل حاضرٌ ليسمعها ما أسقطَ الراء واصلُ

وقال آخر :

أجعلت وَصْلي الراء لم تَنْطقْ به وقَطَعْتني حتى كأنّك واصل

لله دره ما أحسن قوله : « وقطعتني حتّى كأنك واصل » .

وقال آخر .

فلا تَجْعَلَنّي مثل همزة واصل فيلحقني حذف ولا راء واصل

وقال أبو عمر يوسف بن هارون الكندي الأندلسي القرطبي الرمادي الشاعر المشهور ، إلا أنّه لم يتعرض إلى ذكر واصل ، وكانت وفاته سنة ثلاث وأربعمائة :

لا الراء تطمعُ في الوصال ولا أنا الهجرُ يجمعنا فنحنُ سواء

فإذا خلوت كتبتها في راحتي وقَعدْتُ منتحباً أنا والراء

وهذا الباب متسع ، فلا حاجة إلى الإطالة فيه ، ويكفي منه هذا الأنموذج .

وقد عمل الشعراء في اللثغة التي هي إبدال الثاء من السين شعراً كثيراً ، فمن ذلك ما يُعزَى لأبي[1] نواس ، ولم أجدها في ديوانه ، والله أعلم ، إلا أن تكون في رواية علي بن حمزة الأصبهاني ، فإنها أكثر[2] الروايات ، ولم أكشف هذه الأبيات منها ، وهي أبيات حلوة ظريفة :

وشادن ساءلتُ عن إسمه فقالَ لي إثميَ مرداثُ

بياتَ يُعاطـني سُخاميّةً وقال لي : قد هجَع الناث

أمـا ترى حُثْنَ أكاليلنا زينهـا النـثرين والآث

[1] ع ق بر من : إلى أبي .

[2] ع ن ص من بر : أكبر .

فعدت من لثغته ألثغـا   فقلت : أين الطاث والكاث

ولو شرعت في ذكر ما قيل على هذا النمط لطال الشرح . ولم أجد في لثغة الراء إلا قليلاً ، فمن ذلك قول بعضهم :

أمـا وبياض الثغر ممّن أحبّه   ونقطةِ خالِ الخدّ في عطفة الصُّدْغِ
لقد فتنَتني لثغةٌ مَوْصِليّة   رمتنيَ في تيار بحر هوى اللثغ
ومستعجم الألفاظ عقْرَبُ صدغه   مسلطةٌ دون الأنام على لدغي
يـكادُ أصمُّ الصمِّ عندَ حديثه   إلى اللثغة الغنّاء من لفظه يُصغي
يقول وقد قبّلْتُ واضحَ ثغره   وكان الذي أهوى ونلت الذي أبغي
وقد نفضت كأس الحميّا وأظهرت   على خده من لونها أحسن الصبغ
تغَفّقْ فغشْفُ الحمغ من كغم غيقتي   يزيدك عند الشغب سُكْغاً على[1] سكغ

ولقد أجاد هذا الشاعر وجمع في البيت الأخير راءات كثيرة وأبدلها بالغين ؛ وللخبزأرزي الشاعر المقدم ذكره في غلام يلثغ بالراء أيضاً لكنه لم يستعمل اللثغة إلا في آخر البيت الأخير من الأربعة أبيات[2] :

وشادن بالكرخ ذي لثغة   وإنّما شرطيَ في اللثغ
ما أشبه الزنبور في خصره   حتّى حكى العقرب في الصدغ
في فمهِ درياقُ لدغٍ إذا   أحرق قلبي شدة اللدغ
إن قلت في ضمي له أين هو   تفْديك روحي قال لا أدْغي

وقد تسلسل الكلام وخرجنا عن المقصود من أخبار واصل بن عطاء .

وكان طويل العنق جداً بحيث كان يعاب به ، وفيه يقول بشار بن برد الشاعر المشهور المقدم ذكره[3] :

---

١ ن ق : إلى .

٢ بر من : لكنه لم يستعمل اللثغة إلا في البيت الأخير وهو قوله .

٣ الكامل ٣ : ١٩٢ .

ماذا مُنيت بغزّال له عُنُق كنقنق الدوِّ إن ولّى وإن مَثُلا
عُنْقَ الزرافةِ ، ما بالي وبالكمُ تكفّرون رجالاً كفروا رجلا ؟

وكانت بينهما منافسات وأحقاد ، وقد تقدم كلام واصل في حق بشار .

وقال المبرد في كتاب « الكامل »[1] : لم يكن واصل بن عطاء غزّالاً ،ولكنه كان يلقب بذلك لأنّه كان يلازم[2] الغزّالين ليعرف المتعففات من النساء فيجعل صدقته لهن ؛ ثم قال : وكان طويل العنق ، ويروى عن عمرو بن عبيد أنّه نظر إليه من قبل أن يكلمه فقال : لا يصلح هذا ما دامت عليه هذه العنق .

وله من التصانيف كتاب «أصناف المرجئة » وكتاب في «التوبة » ، وكتاب « المنزلة بين المنزلتين » وكتاب خطبته التي أخرج منها الراء ، وكتاب « معاني القرآن » وكتاب « الخطب في التوحيد والعدل » وكتاب ما جرى بينه وبين عمرو ابن عبيد وكتاب « السبيل إلى معرفة الحق » وكتاب في « الدعوة » وكتاب « طبقات أهل العلم والجهل » وغير ذلك .

وأخباره كثيرة . وكانت ولادته سنة ثمانين للهجرة بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلّم ؛ وتوفي سنة إحدى وثمانين ومائة ، رحمه الله تعالى .

---

١ المصدر السابق .

٢ ع بر من : يلزم ، وكذلك في الكامل .

٧٦٩
وثيمة ابن الفرات

أبو يزيد وثيمة بن موسى بن الفرات الوشّاء ، الفارسي الفَسَوي ؛ كان قد خرج من بلده إلى البصرة ثم سافر إلى مصر ، وارتحل منها إلى الأندلس تاجراً ، وكان يتجر في الوشي .

وصنف كتاباً في أخبار الردة[١] ، وذكر فيه القبائل التي ارتدت بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلّم ، والسرايا التي سيرها إليهم أبو بكر الصديق رضي الله عنه ، وصورة مقاتلتهم وما جرى بينهم وبين المسلمين في ذلك ومَنْ عاد منهم إلى الإسلام ، وقتال مانعي الزكاة ، وما جرى لخالد بن الوليد المخزومي ، رضي الله عنه مع مالك بن نُوَيرة اليربوعي أخي مُتَمِّم بن نويرة الشاعر المشهور صاحب المراثي المشهورة في أخيه مالك ، وصورة قتله ، وما قاله متمم من الشعر في ذلك وما قاله غيره ، وهو كتاب جيد يشتمل على فوائد كثيرة ، وقد تقدم في ترجمة أبي عبد الله محمد الواقدي أنّه صنف في الردة كتاباً أيضاً أجاد فيه ، ولم أعرف لوثيمة المذكور من التصانيف سوى هذا الكتاب .

وهو رجل مشهور ذكره أبو الوليد ابن الفَرَضي صاحب « تاريخ الأندلس »[٢] في كتابه ، وذكره الحافظ أبو عبد الله الحميدي في كتاب « جذوة المقتبس »[٣] وأبو سعيد ابن يونس في تاريخ مصر ، وأبو سعد السمعاني في كتاب « الأنساب » في ترجمة الوشاء[٤] فقال : كان يتجر في الوشي ، وهو نوع من الثياب المعمولة

٧٦٩ – ترجمته في الفوات ٢ : ٦٢٥ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٤٧ ومرآة الجنان ٢ : ١١٨ والشذرات ٢ : ٨٩ .

١ ينقل ابن حجر في الإصابة نقولا كثيرة عن كتاب وثيمة هذا .

٢ تاريخ ابن الفرضي ٢ : ١٦٥ .

٣ الجذوة : ٣٤١ .

٤ انظر اللباب ٣ : ٢٧٤ .

من الإبريسم ، فعرف به جماعة منهم وثيمة المذكور .

ثم إن وثيمة عاد من الأندلس إلى مصر ومات بها يوم الاثنين لعشر خلون من جمادى الآخرة سنة سبع وثلاثين ومائتين ، رحمه الله تعالى .

(293) وقال أبو سعيد ابن يونس المصري في تاريخه : كان لوثيمة ولد يقال له أبو رفاعة عمارة بن وثيمة[1] ، حدث عن أبي صالح كاتب الليث بن سعد وعن أبيه وثيمة وغيرهما ، وصنف تاريخاً على السنين وحدث به ، ومولده بمصر ، وتوفي ليلة الخميس لست بقين من جمادى الآخرة سنة تسع وثمانين ومائتين .

ووَثيمة : بفتح الواو وكسر الثاء المثلثة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الميم وبعدها هاء ساكنة ؛ والوثيمة في الأصل الجماعة من الحشيش والطعام ، والوثيمة الصخرة ، وبها سمي الرجل ، والله أعلم بالصواب ، والوثيمة أيضاً الحجر الذي يقدح النار . تقول العرب في أيمانها : والذي أخرج العَذْقَ من الجريمة ، والنار من الوثيمة : العذق – بفتح العين المهملة – النخلة ، والجريمة النواة .

وأما الفارسي والفسوي فقد تقدم الكلام عليهما في ترجمة الشيخ أبي علي الفارسي النحوي وأرسلان البساسيري فأغنى عن الإعادة .

وإذ ذكرنا متمم بن نويرة وأخاه مالكا فلا بد من ذكر طرف من أخبارهما ، فإنها مستملحة .

(294) كان مالك بن نويرة المذكور رجلاً سَرِيّاً نبيلاً يردف الملوك ، وللردافة موضعان أحدهما : أن يردفه الملك على دابته في صيد أو غيره من مواضع الأنس ، والموضع الثاني أنبل ، وهو أن يخلف الملك إذا قام عن مجلس الحكم فينظر بين الناس بعده . وهو الذي يضرب به المثل فيقال : مرعى ولا كالسَّعْدان ، وماء ولا كصَدّاء ، وفتى ولا كمالك . وكان فارساً شاعراً[2] مطاعاً في قومه ، وكان فيه خُيَلاء وتقدم ، وكان ذا لمّة كبيرة ، وكان يقال له الجَفُول ، وقدم على النبي صلى الله عليه وسلّم فيمن قدم

---

[1] انظر بروكلمان (الترجمة العربية) ٣ : ٤٥ .

[2] ق ص : فارساً شجاعاً شاعراً .

من العرب فأسلم ، فولاه النبي صلى الله عليه وسلّم صدقة قومه . ولمّا ارتدت العرب بعد موت النبي صلى الله عليه وسلّم بمنع الزكاة كان مالك المذكور من جملتهم ، ولمّا خرج خالد بن الوليد رضي الله عنه لقتالهم في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه نزل على مالك وهو مقدم قومه بني يربوع وقد أخذ زكاتهم وتصرف فيها ، فكلمه خالد في معناها ، فقال مالك : إنّي آتي بالصلاة دون الزكاة ، فقال له خالد : أما علمت أن الصلاة والزكاة معاً لا تقبل واحدة دون أخرى ، فقال مالك : قد كان صاحبك يقول ذلك ، قال خالد : وما تراه لك صاحباً ؟ والله لقد همَمْتُ أن أضرب عنقك ، ثم تجاولا [1] في الكلام طويلاً فقال له خالد : إنّي قاتلك ، قال : أو بذلك أمرك صاحبك ؟ قال : وهذه بعد تلك ؟ والله لأقتلنك . وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وأبو قتادة الأنصاري رضي الله عنه حاضرين فكلما خالداً في أمره ، فكره كلامهما ، فقال مالك : يا خالد ، ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذي يحكم فينا ، فقد بعثت إليه غيرنا ممن جرمه أكبر من جرمنا ، فقال خالد : لا أقالني الله إن أقلتك ، وتقدم إلى ضرار بن الأزْوَرِ الأسدي بضرب عنقه ، فالتفت مالك إلى زوجته أم متمم وقال لخالد : هذه التي قتلتني ، وكانت في غاية الجمال ، فقال له خالد : بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام ، فقال مالك أنا على الإسلام ، فقال خالد : يا ضرار اضرب عنقه ، فضرب عنقه وجعل رأسه أثفية لقدر ، وكان من أكثر الناس شعراً — كما تقدم ذكره — فكانت القدر على رأسه حتى نضج الطعام ، وما خلصت النار إلى شوَاه من كثرة شعره .

قال ابن الكلبي في جمهرة النسب : قتل مالك يوم البطاح ، وجاء [2] أخوه متمم فكان يرثيه .

وقبض خالد امرأته ، فقيل إنّه اشتراها من الفيء وتزوج بها ، وقيل إنها اعتدت بثلاث حيض ثم خطبها إلى نفسه فأجابته ؛ فقال لابن عمر وأبي قتادة رضي الله عنهما يحضران النكاح فأبيا ، وقال له ابن عمر رضي الله عنه :

---

١ ن : تجادلا .

٢ ن : ونجا .

تكتب إلى أبي بكر رضي الله عنه وتذكر له أمرها فأبى وتزوجها ، فقال في ذلك أبو زهير السعدي :

ألا قل لحيّ أوطئوا بالسنابك   تطاول هذا الليل من بعد مالك
قضى خالد بغياً عليه لعرسه   وكان له فيها هوًى قبل ذلك
فأمضى هواه خالد غير عاطف   عنان الهوى عنها ولا متمالك
وأصبح ذا أهل ، وأصبح مالك   إلى غير شيء هالكاً في الهوالك
فمن لليتامى والأرامل بعده   ومن للرجال المعدمين الصعالك
أُصيبت تميم غثها وسمينها   بفارسها المرجو تحت الحوارك

ولمّا بلغ الخبر أبا بكر وعمر رضي الله عنهما، قال عمر لأبي بكر رضي الله عنه : إن خالداً قد زنى فارجمه ، قال : ما كنت لأرجمه فإنّه تأول فأخطأ ، قال : فإنّه قتل مسلماً فاقتله به ، قال : ما كنت لأقتله به ، إنّه تأول فأخطأ ، قال : فاعزله ، قال : ما كنت لأشيم سيفاً سله الله عليهم أبداً ، هكذا سرد هذه الواقعة وثيمة المذكور والواقدي في كتابيهما ، والعهدة عليهما .

(295) وكان أخوه متمم بن نويرة ، وكنيته أبو نهشل[1] الشاعر المشهور[2] ، كثير الانقطاع في بيته قليل التصرف في أمر نفسه اكتفاء بأخيه مالك، وكان أعور دميماً ، فلما بلغه مقتل أخيه حضر إلى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وصلى الصبح خلف أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فلما فرغ من صلاته واستند في[3] محرابه قام متمم فوقف بحذائه واتكأ على سيَة قوسه ثم أنشد :

نعم القتيلُ إذا الرياحُ تناوحت   خلف البيوت قتلت يا ابن الأزورِ
أدعوته بالله ثم غدرته   لو هُوْ دعاك بذمّة لم يغدر

وأومأ إلى أبي بكر رضي الله عنه ، فقال : والله ما دعوته ولا غدرته :

---

١ ق : وكنيته نهشل ؛ المختار : متمم بن نويرة نهشل الشاعر ... الخ .
٢ ن : المذكور .
٣ ع : وانفتل في ؛ ن : وأسند في ؛ وانظر التعازي : ٦ .

ولنعم حشو الدرع كان وحاسِراً ولنعم مأوى الطارق المتنوّر
لا يمسكُ الفحشاء تحت ثيـابـه حلوٌ شمائله عفيفُ المئزر

ثم بكى وانحط على سِيَـةِ قوسه ، فما زال يبكي حتى دمعت عينه العوراء ، فقام إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : لوددت أنّك رثيت زيداً أخي بمثل ما رثيت به مالكاً أخاك ، فقال : يا أبا حفص ، والله لو علمت أن أخي صار بحيث صار أخوك ما رثيته ، فقال عمر رضي الله عنه : ما عزاني أحد عن أخي بمثل تعزيته . وكان زيد بن الخطاب رضي الله عنه قتل شهيداً يوم اليمامة ، وكان عمر رضي الله عنه يقول : إنّي لأهش[1] للصَّبا لأنها تأتيني من ناحية أخي زيد ، ويروى عن عمر رضي الله عنه أنّه قال : لو كنت أقول الشعر كما تقول لرثيت أخي كما رثيت أخاك . ويروى أن متمماً رثى زيداً فلم يُجِدْ ، فقال له عمر رضي الله عنه : لم ترث زيداً كما رثيت مالكاً ، فقال : إنّه والله ليحركني[2] لمالك ما لا يحركني لزيد .

وقال له عمر رضي الله عنه يوماً : إنك لجزل فأين كان أخوك منك ، فقال : كان والله أخي في الليلة ذات الأزيز والصُّرّاد يركب الجمل الثَّفال ، ويجنب الفرس الجرور ، وفي يده الرمح الثقيل ، وعليه الشملة الفلوت ، وهو بين المزادتين ، حتى يصبح وهو متبسم .

والأزيز : بفتح الهمزة وزاءين الأولى منهما مكسورة وبينهما ياء مثناة من تحتها ، صوت الرعد .

والصُّرّاد ، بضم الصاد المهملة وتشديد الراء وفتحها وبعد الألف دال مهملة ، غيمٌ رقيق لا ماء فيه .

والثَّفال : بفتح الثاء المثلثة والفاء ، وهو الجمل البطيء في سيره لا يكاد يمشي من ثقله .

والجَرور : بفتح الجيم على وزن فَعُول ، الفرس الذي يمنع القياد .

والشملة الفلوت : التي لا تكاد تثبت على لابسها .

---

١ ن ص ق : أهش .
٢ ر ن ع بر من ص : يحركني .

والمزادة : الراوية ، وهي معروفة .

وقال له عمر رضي الله عنه يوماً : خبّرنا عن أخيك، قال: يا أمير المؤمنين، لقد أسرت مرة في حي من أحياء العرب ، فأخبر أخي ، فأقبل ، فلما طلع على الحاضرِ[1] ما كان أحد قاعداً إلا قام على رجليه ، وما بقيت امرأة إلا وتطلعت من خلال البيوت ، فما نزل عن جمله حتى لقوه بي برمتي فحلني هو ، فقال عمر رضي الله عنه : إن هذا لهو الشرف .

والرمة : بضم الراء المهملة ، الحبل البالي ، ومنه قولهم « دفع إليه الشيء برمته » أصله : أن رجلاً دفع إلى رجل بعيراً بحبل في عنقه ، فقيل ذلك لكل من دفع شيئاً بجملته .

وقال متمم أيضاً لعمر رضي الله عنه : أغار حيٌّ من أحياء العرب على حيّ أخي مالك وهو غائب ، فجاءه الصريخ ، فخرج في آثارهم على جمل يسوقه مرّة ويركبه أُخرى ، حتى أدركهم على مسيرة ثلاث وهم آمنون ، فما هو إلا أن رأوه فأرسلوا ما في أيديهم من الأسرى والنعم وهربوا ، فأدركهم أخي ، فاستسلموا جميعاً حتى كتفهم ، وصدر بهم إلى بلاده مكتوفين ، فقال عمر رضي الله عنه : قد كنّا نعلم سخاءه وشجاعته ، ولم نعلم كل ما تذكره[2] .

وله فيه المراثي النادرة ، فمن ذلك أبياته الكافية ، وهي في كتاب « الحماسة »[3] في باب المراثي :

لقد لامني عند القبور على البكا ... رفيقي لتذراف الدموع السوافكِ

فقال أتبكي كل قبر رأيته ... لقبر ثوى بين اللوى والدكادك ؟

فقلت له إن الشجا يبعث الشجا ... فدعني فهذا كله قبر مالك

وله فيه قصيدته العينية[4] ، وهي طويلة بديعة ، ومن جملتها قوله[5] :

---

١ بر : الحاضرين .

٢ ق : تذكر له ؛ ع : يذكر .

٣ شرح المرزوقي ، الحماسية : ٢٦٥ .

٤ ص : وله القصيدة العينية .

٥ المفضلية رقم : ٦٧ .

وكنا كندمانيْ جذيمة حقبة   من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
وعشنا بخير في الحياة ، وقبلنا   أصاب المنايا رهط كسرى وتبعا
فلمّا تفرقنا كأنّي ومالكا   لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

(296) وقد يتشوف الواقف على هذا الكتاب إلى الوقوف على شيء من أخبار جذيمة المذكور ونديميه – وهو بفتح الجيم وكسر الذال المعجمة وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح الميم وبعدها هاء ساكنة – وكنيته أبو مالك جذيمة بن مالك بن فهم بن دَوْس بن الأزد الأزدي ، صاحب الحيرة وما والاها ، وهو الأبرش والوضّاح ، وإنّما قيل له ذلك لأنه كان أبرص ، فكانت العرب تهابه أن تنسبه إلى البرص فعرفته بأحد هذين الوصفين . وهو من ملوك الطوائف ، وكان بعد عيسى عليه السلام بثلاثين سنة ، وكان من تيهه لا ينادم إلا الفرقدين .

وكان له ابن أخت يقال له عمرو بن عدي بن نصر بن ربيعة بن الحارث ابن مالك اللخمي ، ويقال له عمم لأنّه أول من اعتمّ ، ابن نمارة بن لخم ، وبقية النسب معروف ، واسم الأخت المذكورة رَقاش ؛ وكان جذيمة شديد المحبة له ، فاستهوته الجن ، وأقام زماناً يتطلبه فلم يجده ، فأقبل رجلان من بني القيْن يقال لأحدهما مالك والآخر عقيل ابنا فارح [بن مالك بن كعب بن القين ، واسمه النعمان ، بن جسر بن شيع الله بن أسد بن وبرة بن ثعلبة بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة ، وسمي القين بعبد كان له فحضنه فاشتهر به] [1] فصادفا عمراً في البرّية وهو أشعث الرأس طويل الأظفار سيء الحال ، فعرفاه وحملاه إلى خاله جذيمة بعد أن لما شعثه وأصلحا حاله ، فقال لهما جذيمة من فرط سروره به : احتكما علي ، فقالا : منادمتك ما بقيت وبقينا ، فقال : ذلك لكما ، فهما نديماه اللذان يضرب بهما المثل ، ويقال : إنّهما نادماه أربعين سنة لم يعيدا عليه حديثاً حدثاه به ، وإياهما عنى أبو خراش الهذلي بقوله في مرثية أخيه عروة [2] :

تقول أراهُ بعد عروة لاهياً   وذلك رزء لو علمتِ جليلُ

---

١ زيادة من ر .

٢ ديوان الهذليين : ١١٨٩ ولم يرد منها إلا البيت الثالث في : ع بر من .

فلا تحسبي أنّي تناسيت عهده ولـكن صبري يا أميمَ جميل
ألم تعلمي أن قد تفرق قبلنـا نديمـا صفاء : مالك وعقيل

هذه خلاصة حديثهم ، وإن كان فيه طول ، وإنّما قصدت الإيجاز .

وذكر أبو علي القالي في كتابه الذي جعله ذيلاً على أماليه[1] أن متمماً المذكور قدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان به معجباً ، فقال : يا متمم ، ما يمنعك من الزواج لعل الله تعالى أن ينشر منك ولداً ، فإنّكم أهل بيت قد درجتم ؟ فتزوج امرأة من أهل المدينة ، فلم تحظ عنده ولم يحظ عندها ، فطلقها ثم قال :

أقول لهند حين لم أرض عقلهـا : أهذا دلال العشق ، أم أنت فاركُ ؟
أم الصرم تهوِينَ[2] فكلُّ مفارقٍ عليَّ يسيرٌ بعد ما بـان مالك

فقال له عمر رضي الله عنه : ما تنفك تذكر مالكاً على كل حال ، فلم يمض على هذا الأمر إلا قليل حتّى طعن عمر رضي الله عنه، ومتمم بالمدينة، فرثى عمر رضي الله عنه[3] . وبالجملة فإنّه لم ينقل عن أحد من العرب ولا غيرهم أنّه بكى على ميته ما بكى متمم على أخيه مالك .

حكى الواقدي في كتاب « الردة » أن عمر رضي الله عنه قال لمتمم : ما بلغ من حزنك على أخيك ؟ فقال له : لقد مكثت سنة لا أنام بليل حتّى أصبح ، ولا رأيت ناراً رفعت بليل إلا ظننت نفسي ستخرج ، أذكر بها نار أخي ، كان يأمر بالنار فتوقد حتّى يصبح مخافة أن يبيت ضيفه قريباً منه ، فمتّى يرى النار يأوي إلى الرحل ، ولهو بالضيف يأتي مجتهداً أسرُّ من القوم يقدم عليهم القادم لهم من السفر البعيد ، فقال عمر رضي الله عنه : أكرم به .

وحكى الواقدي أيضاً أنّه قال له : ما لقيت على أخيك من الحزن والبكاء ؟ قال : كانت عيني هذه قد ذهبت ، وأشار إليها ، فبكيت بالصحيحة وأكثرت

---

١ ذيل الأمالي : ١٧٨ .

٢ ذيل الأمالي : ما تهوى .

٣ أورد القالي من رثائه لعمر ثلاثة أبيات .

البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدموع ، فقال عمر رضي الله عنه : إن هذا لحزن شديد ، ما يحزن هكذا أحد على هالكه .

وقد ضربت الشعراء الأمثال بمالك وأخيه متمم في أشعارهم ، فمن ذلك قول ابن حَيّوس الشاعر المقدم ذكره من جملة قصيدة :

وفجعة بين مثل صَرْعةِ مالك　　ويقبحُ بي أن لا أكونَ متمما

ومنه قول أبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللّبانة في قصيدته التي يرثي بها المعتمد بن عباد صاحب اشبيلية لما قبض عليه يوسف بن تاشفين — حسبما شرحناه في ترجمة المعتمد — وهو قوله :

حكيتَ وقد فارقت ملكك مالكا　　ومن وَلَهي أحكي عليك متمما

ومن ذلك أيضاً قول بعضهم ، وأظنه ابن منير — المذكور في حرف الهمزة — وهو أيضاً من جملة أبيات ، ثم حققت قائله وهو نجم الدين أبو الفتح يوسف ابن الحسين بن محمد ، عرف بابن المجاور الدمشقي :

أيا مالكي في القلب منك نويرة　　وإنسانُ عيني في هواك متمم

ومنه قول أبي الغنائم ابن المعلم الشاعر — المقدم ذكره — من جملة أبيات يصف فيها منزلاً ويدعو له بالسقيا ، فقال :

سقاه الحيا قبلي وجئت متمما　　فلو مالك فيه دُعِيتُ متمما

ومنه قول القاضي السعيد ابن سناء الملك :

بكيت بكلتا مقلتيَّ كأنني　　أتمم ما قد فات عين متممِ

وهذا باب يطول شرحه ، وقد جاوزنا الحد بالخروج عما نحن بصدده .

ومتمم : بضم الميم وفتح التاء المثناة من فوقها ، وبعدها ميمان الأولى منهما مشددة مكسورة .

وصدّا في قولهم « ماء ولا كصدّا » فيه ثلاث لغات : صُدّا : بضم الصاد

المهملة وتشديد الدال المهملة وألف مقصورة ، وصَدّاء مثل الأول لكن الصاد مفتوحة والألف ممدودة ، فمن ضم قصرَ ومن فتح مد ، واللغة الثالثة صدءاء : بتخفيف الدال وهمزتين متواليتين والصاد مفتوحة ، وهي بئر معروفة مشهورة ماؤها عذب نمير ، والله أعلم .

٧٧٠
البحتري

أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد بن شملال بن جابر بن سلمة بن مسهر بن الحارث بن خيثم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة ، وهو طيء ، بن أُدد ابن زيد بن كهلان بن سبإ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ، الطائي البحتري الشاعر المشهور ؛ ولد بمَنْبِجَ ، وقيل بِزَرْدَفَنَة[1] وهي قرية من قراها ، ونشأ وتخرج بها ، ثم خرج إلى العراق ومدح جماعة من الخلفاء أولهم المتوكل على الله ، وخلقاً كثيراً من الأكابر والرؤساء ، وأقام ببغداد دهراً طويلاً ثم عاد إلى الشام ، وله أشعار كثيرة ذكر فيها حلب وضواحيها ، وكان يتغزل بها[2] ، وقد روى عنه أشياء من شعره أبو العباس المبرد ومحمد بن خلف بن المرزبان والقاضي أبو عبد الله المحاملي ومحمد بن أحمد الحكيمي وأبو بكر الصولي وغيرهم .

---

٧٧٠ — ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ٢٤٨ وتاريخ بغداد ١٢ : ٤٤٦ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٣٤ والشريشي ١ : ٣٦ والمنتظم ٦ : ١١ ومرآة الجنان ٢ : ٢٠٢ والأغاني ٢١ : ٢٩ والموشح : ٣٣٠ والنجوم الزاهرة ٣ : ٩٩ وعبر الذهبي ٢ : ٧٣ والشذرات ٢ : ١٨٦ وأخبار البحتري للصولي (ط . دمشق ١٩٥٨) وقد أخذت مخطوطة ق ابتداء من هذه الترجمة تعتمد التلخيص والإيجاز على غير ما كان عليه الحال في التراجم السابقة ؛ وأول الترجمة متابع لما في تاريخ الخطيب .

١ ص ن : بجردفنة ، وضبطت كذلك في ختام الترجمة في هاتين النسختين .

٢ ق ن : وتغزل بها ؛ بر من : وتغزل فيها .

قال صالح بن الأصبغ التنوخي المنبجي[1] : رأيتُ البحتري هاهنا عندنا قبل أن يخرج إلى العراق، يجتاز بنا في الجامع من هذا الباب ، وأومأ إلى جنبتي المسجد، يمدح أصحاب البصل والباذنجان ، وينشد الشعر في ذهابه ومجيئه ، ثم كان منه ما كان ، وعلْوَةُ التي شبب بها في كثير من أشعاره هي بنت زريقة الحلبية ، وزريقة أمها[2] .

وحكى أبو بكر الصولي في كتابه الذي وضعه في «أخبار أبي تمام الطائي»[3] أن البحتري كان يقول : أول أمري في الشعر ونباهتي فيه أنّي صرت إلى أبي تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعري ، وكان يجلس فلا يَبْقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعري أقبل عليّ وترك سائر الناس، فلما تفرقوا قال لي : أنت أشعر من أنشدني ، فكيف حالك ؟ فشكوت خـلّة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان[4] ، وشهد لي بالحذق وشفع لي إليهم وقال لي : امتدحهم ، فصرت إليهم فأكرموني بكتابه ووظفوا لي أربعة آلاف درهم ، فكانت أول مال أصبته .

وقال أبو عبادة المذكور[5] : أول ما رأيت أبا تمام ، وما كنت رأيته قبلها ، أنّي دخلت إلى أبي سعيد محمد بن يوسف ، فامتدحته بقصيدتي التي أولها :

أأفاق صبٌّ من هوًى فأفيقا ... أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فأنشدته إياها ، فلما أتممتها سُرّ بها ، وقال لي : أحسن الله إليك يا فتى ، فقال له رجل في المجلس : هذا ، أعزّك الله ، شعري علقه هذا الفتى ، فسبقني به إليك ، فتغير أبو سعيد وقال لي : يا فتى ، قد كان في نسبك وقرابتك ما يكفيك أن تمت به إلينا ، ولا تحمل نفسك على هذا ، فقلت : هذا شعري أعزّك

---

١ تاريخ بغداد ١٣ : ٤٤٧ .

٢ ق : ثم شبب بعلوة بنت زريقة الحلبية ؛ وسقط هذا من: بر من.

٣ أخبار أبي تمام : ٦٦ وأخبار البحتري : ٥٥ — ٥٦ .

٤ أورد الصولي نص الكتاب وهو : «يصل كتابي هذا على يد الوليد أبي عبادة الطائي وهو على بذاذته شاعر فأكرموه» . (أخبار أبي تمام : ٦٦) .

٥ أخبار أبي تمام : ١٠٥ — ١٠٦ وأخبار البحتري : ٦٣ .

الله ، فقال الرجل : سبحان الله يا فتى لا تقل هذا ، ثم ابتدأ فأنشد من القصيدة أبياتاً ، فقال لي أبو سعيد : نحن نبلغك ما تريد ، ولا تحمل نفسك على هذا ، فخرجت متحيراً لا أدري ما أقول ، ونويت أن أسأل عن الرجل مَنْ هو ، فما أبعدت حتى ردني أبو سعيد ثم قال لي : جنيت عليك فاحتمل ، أتدري من هذا ؟ فقلت : لا ، قال : هذا ابن عمك ، حبيب بن أوس الطائي أبو تمام ، فقم إليه ، فقمت إليه فعانقته . ثم أقبل عليّ يقرظني ويصف شعري وقال : إنما مَزَحتُ معكَ ؛ فلزمته بعد ذلك وكثر عجبي من سرعة حفظه .

وروى الصولي أيضاً في كتابه المذكور أن أبا تمام راسل أم البحتري في التزوج بها ، فأجابته وقالت له : اجمع الناس للإملاك ، فقال : الله أجل من أن يذكر بيننا ، ولكن نتصافح ونتسافح [1] .

وقيل للبحتري [2] : أيما أشعر أنت أم أبو تمام ؟ فقال : جيده خير من جيدي ورديئي خير من رديئه .

وكان يقال لشعر البحتري : سلاسل الذهب ، وهو في الطبقة العليا .

ويقال إنّه قيل لأبي العلاء المعري أي الثلاثة أشعر ، أبو تمام أم البحتري أم المتنبي ؟ فقال: حكيمان ، والشاعر البحتري . ولعمري ما أنصفه ابن الرومي في قوله :

والفتى البحتري يسرق ما قا ل ابن أوس في المدح والتشبيبِ
كل بيت له يُجوّد معنـا ه فمعناه لابن أوس حبيب

وقال البحتري [3] : أنشدت أبا تمام شيئاً من شعري ، فأنشدني بيت أوس ابن حَجَر [4] :

إذا مقرم منا ذَرَا حدُّ نابه تخمّطَ فينا نابُ آخر مقرمِ

---

١ أخبار البحتري : ١٤٤ وأخبار أبي تمام : ٢٤٦ وفيه : نتماسح ونتسافح .
٢ أخبار أبي تمام : ٦٧ .
٣ تاريخ بغداد ١٣ : ٤٤٧ – ٤٤٨ . ٤ ديوانه : ١٢٢ .

وقال : نعيت إليّ نفسي ، فقلت : أعيذك بالله من هذا ، فقال : إن عمري ليس يطول وقد نشأ لطيّء مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان المنقري رأى شبيب بن شيبة ، وهو من رهطه ، وهو يتكلم فقال : يا بني ، نعى نفسي إليّ إحسانك في كلامك ، لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله ، قال : فمات أبو تمام بعد سنة من هذا .

وقال البحتري[1] : أنشدت أبا تمام شعراً لي في بعض بني حُميد وصلت به إلى مال له خطر[2] ، فقال لي : أحسنت ، أنت أمير الشعر بعدي ، فكان قوله هذا أحب إلي من جميع ما حويته .

وقال ميمون بن هارون : رأيت أبا جعفر أحمد بن يحيى بن جابر بن داود البلاذري المؤرخ ، وحاله متماسكة ، فسألته ، فقال : كنت من جلساء المستعين فقصده الشعراء ، فقال: لستُ أقبل إلا ممن قال مثل قول[3] البحتري في المتوكل:

ولوّأن مشتاقاً تكلف فوق ما   في وسعه لمشى إليك المنبرُ

فرجعت إلى داري وأتيته وقلت : قد قلت فيك أحسن مما قاله البحتري فقال : هاته ، فأنشدته :

ولو أن بُرْدَ المصطفى إذ لبسته   يظن لظن البردُ أنك صاحبه
وقال – وقد أعطيته ولبسته – :   نعم ، هذه أعطافه ومناكبه

فقال : ارجع إلى منزلك ، وافعل ما آمرك به ، فرجعت ، فبعث إلي سبعة آلاف دينار ، وقال : ادخر هذه للحوادث من بعدي ، ولك عليّ الجراية والكفاية ما دمت حيّاً .

وللمتنبي في هذا المعنى :

لو تَعْقِلُ الشجر التي قابلتها   مدت مُحَيّية إليك الأغصنا

---

١ المصدر نفسه .

٢ ق : مال جزيل .

٣ قول : سقطت من ق ن .

وسبقهما أبو تمام بقوله :

لو سعت بقعة لإعظام نُعمى   لسعى نحوها المكان الجديبُ

والبيت الذي للبحتري من جملة قصيدة طويلة أحسن فيها كل الإحسان، يمدح بها أبا الفضل جعفراً المتوكل على الله ، ويذكر خروجه لصلاة عيد الفطر ، وأولها[1] :

أخفي هوى لك في الضلوع وأظهرُ   وأُلام من كمد عليك وأعذرُ

والأبيات التي يرتبط بها البيت المقدم ذكره هي[2] :

بالبر صمت وأنت أفضل صائم   وبسنة الله الرضيّة تفطرُ
فانعم بيوم الفطر عيناً إنّه   يومٌ أغرّ من الزمان مشهرُ
أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل   لَجِبٍ يُحاط الدين فيه وينصر
خلنا الجبالَ تسيرُ فيه وقد غدَتْ   عدداً يسيرُ بها العديدُ الأكثر
فالخيلُ تصهلُ ، والفوارس تدعي   والبيضُ تلمع ، والأسنة تزهرُ
والأرضُ خاشعةٌ تميدُ بثقلها   والجوُّ معتكرُ الجوانبِ أغبرُ
والشمسُ طالعةٌ توقّد في الضحى   طوراً ويطفيها العجاجُ الأكدرُ
حتى طلعتَ بضوء وجهك فانجلى   ذاك الدجى وانجاب ذاك العِثْيَرُ
فافتَنّ فيكَ الناظرون فإصبعٌ   يومى إليكَ بها وَعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها   من أنعمِ الله التي لا تُكْفَرُ
ذكروا بطلعتك النبيَّ فهلّلوا   لما طلعتَ من الصفوف وكبروا
حتّى انتهيتَ إلى المصلّى لابساً   نورَ الهدى يبدو عليك وَيظهر
ومشيتَ مِشْيةَ خاشعٍ متواضعٍ   للهِ لا يُزْهى ولا يتكبر
فلوَآن مشتاقاً تكلّف غير ما   في وُسعهِ لمشى إليكَ المنبرُ

---

[1] ديوان البحتري : ١٠٧٠ .
[2] ن : وهي طويلة ستة عشر بيتاً وأولها .

أيّدْتَ من فصْلِ الخطابِ بحكمةٍ تنبي عن الحقّ المبينِ وتُخبرُ
ووقفت في بـرد النـبي مـذكراً باللهِ تنـذرُ تارَةً وتبشر

هذا القدر هو المقصود ممّا نحن فيه ، وهذا الشعر هو السحر الحلال على الحقيقة ، والسهل الممتنع ، فللّه دره ! ما أسلس قياده وأعذب ألفاظه ، وأحسن سبكه وألطف مقاصده ، وليس فيه من الحشو شيء ، بل جميعه نُخَب .

وديوانه موجود وشعره سائر ، فلا حاجة إلى الإكثار منه هاهنا ، لكن نذكر من وقائعه ما يستظرف : فمن ذلك أنّه كان له غلام اسمه نسيم فباعه ، فاشتراه أبو الفضل الحسن بن وهب الكاتب — وقد سبق ذكر أخيه سليمان في حرف السين — ثم إن البحتري ندم على بيعه وتبعته نفسه ، فكان يعمل فيه الشعر ويذكر أنّه خدع وأن بيعه لم يكن من مراده ، فمن ذلك قوله[1] :

أنسيمُ هـل للدهر وعـدٌ صادقُ فيمـا يؤمله المحبُّ الوامقُ
ما لي فقدتك في المنام ولم تزلْ عونَ المشوق إذا جفاه الشائق
أمُنِعْتَ أنت من الزيارة رقبةً منهم فهل مُنِـعَ الخيالُ الطارق
اليومَ جازَ بيَ الهوى مقداره في أهله وعلمت أنّي عاشقُ
فليهنىء الحسنَ بن وهب أنّه يلقى أحبته ونحن نفارق

وله فيه أشعار كثيرة .

ومن أخباره[2] أنّه كان بحلب شخص يقال له طاهر بن محمد الهاشمي ، مات أبوه وخلف له مقدار مائة ألف دينار ، فأنفقها على الشعراء والزوّار في سبيل الله ، فقصده البحتري من العراق ، فلما وصل إلى حلب قيل له : إنّه قد قعد في بيته لديون ركبته ، فاغتمّ البحتري لذلك غماً شديداً وبعث المدحة إليه مع بعض مواليه ، فلما وصلته ووقف عليها بكى ، ودعا بغلام له وقال له : بع داري ، فقال له : أتبيع دارك وتبقى على رؤوس الناس ؟ فقال : لا بد من بيعها ، فباعها

---

١ ديوانه : ١٥١٣ .

٢ أخبار البحتري : ١٢٤ والديوان : ١٦٦٦ .

بثلثمائة دينار ، فأخذ صرّة وربط فيها مائة دينار ، وأنفذها إلى البحتري ، وكتب إليه معها رقعة فيها هذه الأبيات :

لو يكون الحباء حَسْبَ الذي أنـ ت لدينا به محلّ وأهْلُ
لحبيت اللجينَ والدرَّ واليا قوت حَشْواً وكان ذاك يقلُّ
والأديبُ الأريبُ يسمحُ بالعذ ر إذا قَصّر الصديق المقلُّ

فلما وصلت الرقعة إلى البحتري رد الدنانير ، وكتب إليه :

بـأبي أنت والله للبرّ أهلُ والمساعي بعدٌ وسَعْيُكُ قبلُ
والنوال القليل يكثر إن شا ء مُرَجّيك والكثير يقلُّ
غير أنّي رددت برك إذ كا ن رباً منك ، والربا لا يحلّ
وإذا ما جزيتَ شعراً بشعر قُضي الحقُّ . والدنانير فضل

فلما عادت الدنانير إليه حل الصرة ، وضم إليها خمسين ديناراً أُخرى ، وحلف أنّه لا يردها عليه ، وسيرها ، فلما وصلت إلى البحتري أنشأ يقول :

شكرتكَ إنّ الشكر للعبد نعمةٌ ومَن يشكر المعروفَ فالله زَائدُهْ
لكل زمانٍ واحدٌ يقتدى به وهذا زمانٌ أنت لا شك واحدهْ

وكان البحتري كثيراً ما ينشد لشاعر أنسي اسمه ، ويعجبه قوله :

حمامَ الأراك ألا فاخبرنـا لمن تندبـين ومن تُعْوِلينا
فقد شُقْتِ بالنوح منا القلوب وأبكيت بالندب منّا العيونا
تعالَيْ نُقِمْ مأتماً للهمومِ ونعولُ إخواننا الظاعنينا
ونسعدكــنَّ — وتسعدننـا فإن الحزينَ يُوَاسِي الحزينا

ثم إني وجدت هذه الأبيات لنبهان الفقعسي من العرب .

وكان البحتري[1] قد اجتاز بالموصل ، وقيل برأس عين ، ومرض بها مرضاً

---

١ أخبار البحتري : ١٢٢

شديداً ، وكان الطبيب يختلف إليه ويداويه ، فوصف له يوماً مزوّرة[1] ، ولم يكن عنده من يخدمه سوى غلامه ، فقال للغلام : اصنع هذه المزورة ، وكان بعض رؤساء البلد عنده حاضراً ، وقد جاء يعوده ، فقال ذاك الرئيس : هذا الغلام ما يحسن طبخها ، وعندي طباخ من صفته وصفته ، وبالغ في حسن صنعته ، فترك الغلام عملها اعتماداً على ذلك الرئيس وقعد البحتري ينتظرها ، واشتغل الرئيس عنها ونسي أمرها ، فلما أبطأت عنه وفات وقت وصولها إليه ، كتب إلى الرئيس :

وجدتُ وعدَكَ زوراً في مزورة ... حلفت مجتهداً إحكام طاهيها
فلا شفى الله من يرجو الشفاء بها ... ولا علت كف مُلْق كفَّه فيها
فاحبس رسولك عني أن يجيء بها ... فقد حبستُ رسولي عن تقاضيها

وأخباره ومحاسنه كثيرة فلا حاجة إلى الإطالة . ولم يزل شعره غير مرتب حتى جمعه أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف ، وجمعه أيضاً علي بن حمزة الأصبهاني ، ولم يرتبه على الحروف بل على الأنواع كما صنع بشعر أبي تمام .

وللبحتري أيضاً كتاب « حماسة » على مثال « حماسة أبي تمام » وله كتاب « معاني الشعر » . وكانت ولادته سنة ست ، وقيل خمس ومائتين . وتوفي سنة أربع وثمانين ، وقيل خمس وثمانين ، وقيل ثلاث وثمانين ومائتين ، والأول أصح ، والله أعلم . وقال ابن الجوزي في كتاب « أعمار الأعيان » : توفي البحتري وهو ابن ثمانين سنة ، والله أعلم بالصواب ، وكان موته بمنبج ، وقيل بحلب ، والأول أصح .

وقال الخطيب في « تاريخ بغداد »[2] : إنّه كان يكنى أبا الحسن وأبا عبادة ، فأشير عليه في أيام المتوكل أن يقتصر على أبي عبادة فإنها أشهر ، ففعل .

---

١ المزورة : نوع من الحساء يصنع للمريض .
٢ تاريخ بغداد ١٣ : ٤٤٧ .

وأهل الأدب كثيراً ما يسألون عن قول أبي العلاء المعري[1] :

وقال الوليدُ : النبعُ ليس بمثمر   وأخطأ ، سربُ الوحش من ثمر النبعِ

فيقولون : مَن هو الوليد المذكور ؟ وأين قال النبع ليس بمثمر ؟ ولقد سألني عنه جماعة كثيرة ، والمراد بالوليد هو البحتري المذكور ، وله قصيدة طويلة يقول فيها[2] :

وعيرتني سِجال العُدْمِ جاهلةً   والنبعُ عُرْيان ما في فرعه ثَمَرُ

وهذا البيت هو المشار إليه في بيت المعري ، وإنّما ذكرت هذا لأنّه فائدة تستفاد .

وعبيد الله وأخوه أبو عبادة ، ابنا يحيى بن الوليد البحتري ، اللذان مدحهما المتنبي في قصائده ، هما حفيدا البحتري الشاعر المذكور ، وكانا رئيسين في زمانهما .

والبحتري : بضم الباء الموحدة وسكون الحاء المهملة وضم التاء المثناة من فوقها وبعدها راء ، هذه النسبة إلى بحتر ، وهو أحد أجداده ، كما تقدم ذكره في عمود نسبه .

وزَرْدَفْنَة[3] : بفتح الزاي وسكون الراء وفتح الدال المهملة ، وسكون الفاء وفتح النون وبعدها هاء ساكنة ، وهي قرية من قرى منبج ، بالقرب منها .

ومنبج : بفتح الميم وسكون النون وكسر الباء الموحدة وبعدها جيم ، وهي بلدة بالشام بين حلب والفرات بناها كسرى لما غلب على الشام ، وسماها مَنبه ، فعرّبت فقيل منبج ، ولكونها وطن البحتري كان يذكرها في شعره كثيراً ، فمن ذلك قوله في آخر قصيدة طويلة يخاطب بها الممدوح ، وهو أبو جعفر محمد ابن حميد بن عبد الحميد الطوسي[4] :

---

١ من قصيدة له في وداع بغداد مطلعها :

نبيي من الغربان ليس على شرع   يخبرنا أن الشعوب إلى صدع

(انظر شروح السقط : ١٣٤٨) ؛ يقول : زعم البحتري أن النبع غير مثمر وقد أخطأ ، لأن القسي تعمل من النبع ويصطاد بها الحيوان ، فذلك هو ثمره .

٢ ديوان البحتري : ٩٥٤ .

٣ ص ن : وجرد فنة ، بفتح الجيم وسكون الراء ... الخ .

٤ ديوان البحتري : ٤٠٥ .

لا أنسيَنْ زمناً لديك مُهذّباً وظلالَ عيش كان عندك سجسجِ
في نعمة أوطنتها وأقمت في أفيائها فكأنّني في منبجِ

وكان البحتري مقيماً بالعراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان ، وله الحرمة التامة ، فلما قتلا ، كما هو مشهور في أمرهما ، رجع إلى منبج ، وكان يحتاج للتّرداد إلى الوالي بسبب مصالح أملاكه ، ويخاطبه بالأمير لحاجته إليه ، ولا تطاوعه نفسه إلى ذلك ، فقال قصيدة منها[1] :

مضى جعفرٌ والفتحُ بين مرمَّلٍ وبين صبيغ بالدماء مضرّجِ
أأطلب أنصاراً على الدهر بعدما ثوى منهما في التربِ أوسي وخزرجي
أولئك ساداتي الذين بفضلهم حلبت أفاويق الربيع المثجّج
مضوا أمماً قصداً وخُلّفتُ بعدهم أُخاطبُ بالتأمير واليَ منبج

وذكر المسعودي في « مروج الذهب »[2] أن هارون الرشيد اجتاز ببلاد منبج ومعه عبد الملك بن صالح وكان أفصح ولد العباس في عصره ، فنظر إلى قصر مشيّد وبستان معتمر بالأشجار كثير الثمار ، فقال : لمن هذا ؟ فقال : هو لك ولي بك يا أمير المؤمنين ، قال : وكيف بناء هذا القصر ؟ قال : دون منازل أهلي ، وفوق منازل الناس . قال : فكيف مدينتك ؟ قال : عذبة الماء باردة الهواء ، صلبة الموطأ قليلة الأدواء ، قال : فكيف ليلها ؟ قال : سحَر كله ، انتهى كلام المسعودي .

(297) وعبد الملك المذكور هو أبو عبد الرحمن عبد الملك بن صالح بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، رضي الله عنه . وكانت منبج إقطاعاً له وكان مقيماً بها . وتوفي سنة تسع وتسعين ومائة بالرقة، رحمه الله تعالى . وله بلاغة وفصاحة أضربتُ عن ذكرها خوف الإطالة .

وذكر ياقوت الحموي في كتابه « المشترك »[3] : باب السقيا خمسة مواضع ،

---

١ ديوانه : ٤١٨ .
٢ مروج الذهب ٣ : ٤٠٥ .
٣ المشترك : ٢٥٠ .

ثم قال في آخر هذا الباب : والخامس قرية على باب منبج ذات بساتين ، وهي وقف على ولد البحتري الشاعر ، وقد ذكرها أبو فراس ابن حمدان في شعره .

٧٧١

الوليد بن طريف الشاري

الوليد بن طريف بن الصلت بن طارق بن سيحان بن عمرو [بن فدوكس ابن عمرو] بن مالك الشيباني – هكذا ذكره أبو سعد السمعاني في كتاب « الأنساب » في موضعين أحدهما في ترجمة الأراقم[1] ، والآخر في ترجمة السيحانيّ ، بكسر السين المهملة – الشاري ، أحد الشجعان الطغاة الأبطال ؛ كان رأس الخوارج وكان مقيماً بنصيبين والخابور وتلك النواحي ، وخرج في خلافة هارون الرشيد وبغى ، وحشد جموعاً كثيرة ، فأرسل إليه هارون الرشيد جيشاً كثيفاً مقدمه أبو خالد يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني – وسيأتي ذكره في حرف الياء إن شاء الله تعالى – فجعل يخاتله ويماكره ، وكانت البرامكة منحرفة[2] عن يزيد فأغروا به الرشيد وقالوا : إنّه يراعيه لأجل الرحم ، وإلا فشوكة الوليد يسيرة ، وهو يواعده وينتظر ما يكون من أمره ، فوجه إليه الرشيد كتاب مغضب وقال : لو وجهت أحد الخدم لقام بأكثر ممّا تقوم به ولكنك مداهن متعصب ،

٧٧١ – أخباره في تاريخ الطبري وابن الأثير (ج : ٦) والنجوم الزاهرة ٢ : ٩٥ واليعقوبي ومروج الذهب والعيون والحدائق : ٢٩٦ ومرآة الجنان ١ : ٣٧٠ والسمط : ٩١٣ ومعاهد التنصيص ٣ : ١٦١ وعبر الذهبي ١ : ٢٧٢ والشذرات ١ : ٢٨٨ ؛ والزيادة في نسبه من النسختين ص ن ولم يرفع النسب : في بر من ، وقال ابن حزم في الجمهرة : الوليد بن طريف بن عامر الخارجي وهو من بني صيفي بن حيي بن عمرو بن بكر بن حبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب .

١ كذا قال ، مع أن ابن الأثير يستدرك على السمعاني في هذه المادة « الأرقمي » ويقول إنه فاته النسبة إلى الأراقم .

٢ ن : منحرفين .

وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن أخرت مناجزة الوليد ليبعثن إليك من يحمل رأسك إلى أمير المؤمنين ، فلقي الوليد فظهر عليه فقتله ، وذلك في سنة تسع وسبعين ومائة عشية أول[1] خميس في شهر رمضان ، وهي واقعة[2] مشهورة تضمنتها التواريخ .

وكان للوليد المذكور أخت تسمى الفارعة ، وقيل فاطمة[3] ، تجيد الشعر وتسلك سبيل الخنساء في مراثيها لأخيها صَخْر ، فرثت الفارعة أخاها الوليد بقصيدة أجادت فيها ، وهي قليلة الوجود ، ولم أجد في مجاميع كتب الأدب إلا بعضها ، حتى إن أبا علي القالي لم يذكر منها في أماليه سوى أربعة أبيات ، فاتفق أنّي ظفرت بها كاملة فأثبتها لغرابتها مع حسنها ، وهي هذه[4] :

بتلٍّ نَهاكَىْ[5] رسمُ قبرٍ كأنه ... على جبلٍ فوق الجبالِ منيفِ
تضمّنَ مجداً عُدْمُلِياً وسؤددا ... وهمةَ مقدام ورأيَ حصيف
فيا شجرَ الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تحزن على ابن طريف
فتى لا يحبُّ الزادَ إلا من التقى ... ولا المالَ إلا من قَنَاً وسيوف
ولا الذخرَ إلا كل جَرْداء صلدم ... معاودةً للكرّ بين صفوف[6]
كأنك لم تشهدْ هناك ولم تقمْ ... مقاماً على الأعداء غيرَ خفيف
ولم تستلم يوماً لوردِ كريهةٍ ... من السَّرد في خضراء ذات رفيف
ولم تسعَ يومَ الحربِ ، والحربُ لاقح ... وسُمْرُ القنا ينكزنها[7] بأنوف
حليفَ الندى ما عاش يرضى به الندى ... فإن مات لا يرضى الندى بحليف
فقدناكَ فقدانَ الشباب وليتنا ... فديناك من فتياننا بألوف

---

[1] أول : سقطت من ن ع .   [2] ن ع : وقعة .

[3] سماها ابن حزم في الجمهرة « ليلى » وكذلك ورد اسمها في حماسة البحتري .

[4] هي أكثر أبياتاً مما جاء به المؤلف ، في حماسة البحتري : ٢٧٦ وانظر حماسة ابن الشجري : ٨٩.

[5] ن ص : نباق ؛ ق : بناق ؛ حماسة البحتري : نباثا .

[6] ع : وكل رقيق الشفرتين حليف ؛ حماسة البحتري : وأجرد عالي المنسجين غروف .

[7] ن ص ع ق : ينهزنها .

وما زال حتى أزهق الموتُ نفسه شَجًى لعدوٍّ أو لجاً[1] لضعيف

ألا يا لقومي للحمامِ وللبلى وللأرض همَّتْ بعده برجوف

ألا يا لقومي للنوائبِ والردى ودهرٍ مُلحٍّ بالكرامِ عنيف

وللبدر من بين الكواكب إذ هوى وللشمس لمّا أزمعت بكسوف[2]

ولليث كل الليث إذ يحملونه إلى حفرةٍ ملحودةٍ وسقيف

ألا قاتل الله الحشى حيث[3] أضمرتْ فتًى كان للمعروف غيرَ عيوف

فإن يكُ أرداه يزيدُ بن مزيد فربَّ زُحوف لفها بزحوف

عليه سلامُ الله وقفاً فإنّني أرى الموتَ وقّاعاً بكلّ شريف

ولها فيه مراثٍ كثيرة ، فمن ذلك قولها فيه أيضاً :

ذكرتُ الوليدَ وأيّامه إذ الأرض من شخصه بلقعُ

فأقبلتُ أطلبه في السماء كما يبتغي أنفَه الأجدع

أضاعك قومُك فليطلبوا إفادةَ مثلِ الذي ضيعوا

لوَ انّ السيوفَ الّتي حدّها يصيبك تعلم ما تصنع

نبَتْ عنك إذ جعلت هيبةً وخوفاً لصولك لا تقطع

وكان الوليد يوم المصاف ينشد :

أنا الوليدُ بن طريف الشاري قَسْوَرةٌ لا يُصْطَلى بناري

جوركمُ أخرجني من داري

ويقال إنّه لما انكسر جيش الوليد وانهزم تبعه يزيد بنفسه حتّى لحقه على مسافة بعيدة فقتله وأخذ رأسه ، ولما قتله وعلمت بذلك أخته المذكورة لبست عدة حربها وحملت على جيش يزيد ، فقال يزيد : دعوها ، ثم خرج فضرب

---

١ لجا : تخفيف لجأ ، أي ملجأ .

٢ سقط البيت من : ص ن ق .

٣ ص : كيف .

بالرمح فرسها وقال : اغربي غرب الله عينك[1] فقــد فضحت العشيرة ، فاستحيت وانصرفت .

وطريف : بفتح الطاء المهملة وكسر الراء وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها فاء .

وتل نهاكي – أظنه في بلد نصيبين – وهو موضع الواقعة المذكورة .

والخابور : نهر معروف أوله من رأس عين وآخره عند قرقيسيا، يصب في الفرات ، وعلى هذا النهر مدن صغار تشبه الكبار في عمارة بلادها وأسواقها وكثرة خيراتها ، وهو مشهور فلا حاجة إلى ضبطه .

والشاري : بفتح الشين المعجمة وبعد الألف راء وهو واحد الشّراة ، وهم الخوارج ، وإنّما سمّوا بذلك لقولهم : إنّا شرينا أنفسنا في طاعة الله ، أي بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة .

(297) والخنساء : اسمها تماضر ، بضم التاء المثناة من فوقها وفتح الميم وبعد الألف ضاد مكسورة معجمة وبعدها راء ، وهي ابنة عمرو بن الشريد السلمي . والخنَس : تأخر الأنف عن الوجه مع ارتفاع الأرنبة ، ولذلك قيل لها الخنساء ، لأنها كانت على هذه الصفة[2] ، وأخبارها مع أخيها مشهورة في مراثيها وغيرها ، – وقد سبق طرف من أخبار أخيها صخر في ترجمة أبي أحمد العسكري في حرف الحاء – وقد اختلف في موضع قبره ، فقيل إنّه مدفون عند عسيب ، وهو جبل مشهور ببلاد الروم ، وإن القبر الذي هناك ينسب إلى امرىء القيس بن حُجْر الكندي الشاعر المشهور ليس لامرىء القيس ، وإنّما هو لصخر المذكور ، وقيل إن كل واحد من امرىء القيس وصخر مدفون هناك ، وقال الحافظ أبو بكر الحازمي المقدم ذكره في كتاب « ما اتفق لفظه وافترق مسماه » : إن عسيباً جبل حجازي ، ودفن عنده صخر أخو الخنساء، فعلى هذا يكون عسيب اسماً لجبلين : أحدهما بالروم وهو الأشهر ، والآخر بالحجاز ، وكان من لوازم ياقوت الحموي أن يذكره في كتابه الذي وضعه في البلاد المشتركة الأسماء ، ولم أجده ذكره فيه ، والله أعلم .

---

1 ع ص ق بر من : عليك .

2 هنا تنتهي الترجمة موجزة في ق .

٧٧٢

وهب بن منبه

أبو عبد الله وهب بن منبه[١] اليماني ، صاحب الأخبار والقصص ؛ وكانت له معرفة بأخبار الأوائل وقيام الدنيا وأحوال الأنبياء، صلوات الله عليهم وسلامه، وسير الملوك ، وذكر عنه ابن قتيبة في كتاب « المعارف »[٢] أنّه كان يقول : قرأت من كتب الله تعالى اثنين وسبعين كتاباً . ورأيت له تصنيفاً ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير وأخبارهم وقصصهم وقبورهم وأشعارهم ، في مجلد واحد ، وهو من الكتب المفيدة . وكان له إخوة منهم : همام بن منبه[٣] ، كان أكبر من وهب ، وروى عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، وهو معدود من جملة الأبناء .

ومعنى قولهم : « فلان من الأبناء » أن أبا مرّة سيف بن ذي يزن الحميري صاحب اليمن ، لما استولت الحبشة على ملكه ، توجه إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس يستنجده عليهم ، وقصته في ذلك مشهورة وخبره طويل ؛ وخلاصة الأمر أنّه سير معه سبعة آلاف وخمسمائة فارس من الفرس ، جعل مقدمهم وَهْرز ، هكذا قاله ابن قتيبة[٤] . وقال محمد بن إسحاق : لم يسير معه

---

٧٧٢ – ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ٢٥٩ وطبقات ابن سعد ٥ : ٣٩٥ (ط : ليدن) وحلية الأولياء ٤ : ٢٣ وتهذيب التهذيب ١١ : ١٦٦ ومرآة الجنان ١ : ٢٤٨ وميزان الاعتدال ٤ : ٣٥٢ وتذكرة الحفاظ : ١٠٠ وأقواله منشورة في كتب التفسير ككتاب الطبري وكتب الأدب كعيون الأخبار والمعارف وغير ذلك ؛ وانظر بروكلمان (الترجمة العربية) ١ : ٢٥١ – ٢٥٢ ، وكتابه التيجان طبع في الهند (١٣٤٧ ﻫ) .

١ زاد في ن : بن كامل بن سلغ بن ذي كبار .

٢ المعارف : ٤٥٩ .

٣ ذكر ابن قتيبة أيضاً معقل بن منبه وعمر بن منبه .

٤ المعارف : ٦٣٨ .

سوى ثمانمائة فارس ، فغرق منهم في البحر مائتان ، وسلم ستمائة . قال أبو القاسم السهيلي : والقول الأول أشبه بالصواب ، إذ يبعد مقاومة الحبشة بستمائة فارس . فلما وصل الجيش إلى اليمن جرت الواقعة بينهم وبين الحبشة ، فاستظهرت الفرسُ عليهم وأخرجوهم من البلاد ، وملك سيف ابن ذي يزن ووَهْرز ، وأقاموا أربع سنين ، وكان سيف بن ذي يزن قد اتخذ من أولئك الحبشة خدماً ، فخلوا به يوماً وهو في متصيد له فزرقوه بحرابهم فقتلوه وهربوا في رؤوس الجبال ، وطلبهم أصحابه فقتلوهم جميعاً ، وانتشر الأمر باليمن ، ولم يملكوا عليهم أحداً ، غير أن أهل كل ناحية ملكوا عليهم رجلاً من حمير ، فكانوا كملوك الطوائف ، حتى أتى الله بالإسلام . ويقال إنها بقيت في أيدي الفرس ونواب كسرى فيها ، وبُعِثَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وباليمن من قواد أبرويز عاملان ، أحدهما : فيروز الديلمي ، والآخر داذويه ، وأسلما ، وهما اللذان دخلا على الأسود العَنْسي مع قيس بن المكشوح لما ادعى الأسودُ النبوة باليمن وقتلوه ، والقصة في ذلك مشهورة ، فلا حاجة إلى ذكرها . والمقصود من هذا كله أن جيش الفرس لما استوطن اليمن تأهلوا ، ورزقوا الأولاد ، فصار أولادهم وأولاد أولادهم يُدعون الأبناء ، لأنهم من أبناء أولئك الفرس . وكان طاوس العالم – المقدم ذكره – منهم أيضاً ، وقد أومأت إلى ذلك في ترجمته ، ولم أشرحه كما فعلت هاهنا .

وأخبار وهب شهيرة فلا حاجة إلى ذكر شيء منها ، ويكفي في هذا الموضع ذكر هذه الفائدة . وتوفي وهب المذكور في المحرم سنة عشر ، وقيل أربع عشرة ، وقيل ست عشرة ومائة بصنعاء اليمن ، وعمره تسعون[1] سنة ، رضي الله عنه .

وقد تقدم الكلام على صنعاء في ترجمة عبد الرزاق الصنعاني .

وفي هذه الترجمة أسماء أعجمية ، لو قيدتها لطال الشرح[2] ، وهي مشهورة فتركتها لذلك .

---

١ ق : سبعون .

٢ ن : شرحها .

٧٧٣

أبو البختري

أبو البختري وهب بن وهب بن وهب[1] بن كثير بن عبد الله بن زَمَعَة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب ، القرشي الأسدي المدني ؛ حدث عن عبيد الله بن عمر العمري وهشام بن عُرْوَة بن الزبير وجعفر ابن محمد الصادق وغيرهم ، وروى عنه رجاء بن سهل الصاغاني وأبو القاسم ابن سعيد بن المسيب وغيرهما . وكان متروك الحديث مشهوراً بوضعه ، انتقل من المدينة إلى بغداد في خلافة هارون الرشيد ، فولاه القضاء بعسكر المهدي في شرقي بغداد — وقد تقدم الكلام على هذا الموضع في ترجمة الواقدي في حرف الميم — ثم عزله وولاه القضاء بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلّم بعد بكار بن عبد الله الزبيري ، وجعل إليه ولاية حربها مع القضاء ، ثم عزله فقدم بغداد وأقام بها إلى أن توفي .

وذكر الخطيب في « تاريخ بغداد »[2] في ترجمة القاضي أبي يوسف يعقوب ابن إبراهيم الحنفي أنّه كان قاضي القضاة في بغداد ، فلما مات ولى الرشيد مكانه أبا البختري وهب بن وهب القرشي .

وكان فقيهاً أخبارياً ناسباً جواداً سرياً سخياً يحب المديح ويثيب عليه العطاء الجزيل ، وكان إذا أعطى قليلاً أو كثيراً أتبعه عذراً إلى صاحبه ، وكان يتهلّل عند طلب الحاجة إليه حتى لو رآه من لا يعرفه لقال هذا الذي قُضِيَتْ حاجته ، وكان جعفر الصادق بن محمد الباقر — المقدم ذكره — قد تزوج بأمه بالمدينة ، وله

---

٧٧٣ — ترجمته في طبقات ابن سعد ٧ : ٣٣٢ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٦٠ ونسب قريش : ٢٢٢ ولسان الميزان ٦ : ٢٣١ وميزان الاعتدال ٤ : ٣٥٣ ومرآة الجنان ١ : ٤٦٣ وعبر الذهبي ١ : ٣٣٤ والشذرات ١ : ٣٦٠ وهذه الترجمة موجزة في ق تشبه أن تكون تلخيصاً .

١ ابن وهب : تكررت مرتين فقط في : ن ق بر من .

٢ تاريخ بغداد ١٤ : ٢٤٣ .

عنه روايات وأسانيد ، واسم أمه عَبْدَة بنت علي بن يزيد بن بركة بن عبد يزيد ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها بنت عقيل بن أبي طالب .

وقد ذكره الخطيب في « تاريخ بغداد »[1] وبالغ في تقريظه والثناء عليه ، وقال: دخل عليه شاعر فأنشده :

إذا افترّ وهْبٌ خلته بَرْقَ عارض　　تبعق في الأرضين أسعدَه السَّكْبُ
وَما ضرَّ وَهْباً ذمُّ مَن خالف الملا　　كما لا يضر البدرَ ينبحهُ الكَلْبُ
لكلِّ أناسٍ مِنْ أبيهم ذَخيرةٌ　　وَذُخْرُ بني فهرٍ عقيدُ الندى وهبُ

قال : فاستهل أبو البختري ضاحكاً وسر سروراً شديداً ، ثم دعا عوناً له فأسر إليه شيئاً ، فأتاه بصُرّة فيها خمسمائة دينار ، فدفعها إليه .

وحكى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب « الأغاني »[2] في ترجمة أبي دُلَفَ العجلي ، قال : أخبرني أحمد بن عبيد الله بن عمّار ، قال : كنا عند أبي العباس المبرد يوماً وعنده فتى من ولد أبي البختري وهب بن وهب القاضي أمرد حسن الوجه ، وفتى من ولد أبي دُلَفَ العِجْلي شبيه به في الجمال ، فقال المبرد لابن أبي البختري : أعرف لجدّك قصة طريفة[3] من الكرم حسنة لم يُسْبَق إليها ، فقال: وما هي ؟ قال : دعي رجل من أهل الأدب إلى بعض المواضع فسقوه نبيذاً غير الذي كانوا يشربون منه[4] ، فقال فيهم :

نبيذان في مجلس واحد　　لإيثار مثر على مُقْتِرِ
فلو كان فعلك ذا في الطّعام　　لزمت قياسك في المسكر
ولو كنت تطلب شأو الكرام　　صنعت صنيع أبي البختري
تتبع إخوانه في البلاد　　فأغنى المقلَّ عن المكثر

---

١ تاريخ بغداد ١٣ : ٤٥١ .

٢ الأغاني ٨ : ٢٥٣ .

٣ ر : لطيفة ؛ الأغاني : ظريفة .

٤ ر ن : يشربونه .

فبلغت الأبيات أبا البختري فبعث إليه بثلثمائة دينار ، قال ابن عمار : فقلت له : قد فعل جدُّ هذا الفتى في مثل هذا المعنى ما هو أحسن من هذا ، قال : وما فعل ؟ قلت : بلغه أن رجلاً افتقر بعد ثروة ، فقالت له امرأته : افترض في الجند ، فقال :

إليكِ عني فقد كلّفتني شَطَطاً حَمْل السلاح وقولَ الدارعين قِفِ
أمن رجال المنايا خِلتِني رَجُلاً أُمْسي وأُصْبِحُ مشتاقاً إلى التّلفِ
تمشي المنايا إلى غَيْري فأكرهها فكيف أمشي إليها بارز الكتِفِ
حسبتِ أن نزال القرن مِن خلقي أو أن قلبيَ في جَنْبَيْ أبي دُلفِ

فأحضره أبو دلف ثم قال : كم أمّلَت امرأتك أن يكون رزقك ؟ قال : مائة دينار ، قال : وكم أملت أن تعيش ؟ قال : عشرين سنة ، قال : فذلك على ما أملت امرأتك في مالنا دون مال السلطان ، وأمر بإعطائه إياه ، قال : فرأيت وَجْه ابن أبي دلف يتهلّل، وانكسر ابنُ أبي البختري انكساراً شديداً ، انتهى كلام صاحب الأغاني في هذا الفصل ؛ وقد سبق في ترجمة أبي دلف القاسم ابن عيسى العِجْلي ذكر هذه الأبيات وقائلها وصورة الحال[١] ، وبينها وبين هذه الرواية اختلاف يسير .

(298) وأما الأبيات الأولى التي في أبي البختري ، فهي لأبي عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عطية العطوي الشاعر المشهور[٢] ، ونسبته – بالعَطوي – إلى جده عطية المذكور ، وهو من البصرة من موالي بني ليث بن بكر بن عبد مَناة بن كنانة ، وكان معتزلياً ، وله ديوان شعر .

وروى الخطيب أيضاً في تاريخه[٣] أن أبا البختري ، قال : لأنْ أكون في قوم أعلم مني أحب إلي من أكون في قوم أنا أعلم منهم لأني إن كنت أعلمهم لم أستفد وإن كنت مع من هم أعلم مني استفدت .

وروى أيضاً في تاريخه[٤] أن هارون الرشيد لما قدم المدينة أعظم أن يرقى منبر

---

١ انظر ج ٤ : ٧٥ .
٢ معجم المرزباني : ٣٧٧ .
٣ ص : ٤٥٢ .
٤ المصدر نفسه .

رسول الله صلى الله عليه وسلّم في قباء ومنطقة ، فقال أبو البختري : حدثني جعفر بن محمد ، يعني جعفر الصادق، عن أبيه قال : نزل جبريلُ على النبي صلى الله عليه وسلّم وعليه قَباء ومِنْطقَة مخنجراً[1] بخنجر ، فقال المعافى التميمي[2] :

وَيْلٌ وَغَوْلٌ لأبي البختري	إذا توافى الناسُ للمحشرِ
من قوْله الزُّورَ وإعلانهِ	بالكذب في الناس على جعفر
والله ما جالسَهُ ساعَةً	للفقه في بَدْوٍ ولا محضر
ولا رآهُ الناسُ في دهْرِه	يَمُرُّ بين القبرِ والمنبر
يا قاتَلَ الله ابن وَهبٍ لقد	أعلن بالزُّورِ وبالمنكر
يزعمُ أن المصطفى أحمداً	أتاه جبريلُ التّقيُّ البري
عليه خف وَقَبا أسْودٌ	مخَنْجراً في الحقوِ بالخِنجرِ

وحكى جعفر الطيالسي أن يحيى بن مَعين وقف على حلقته وهو يحدث بهذا الحديث عن جعفر الصادق ، فقال له : كذبت يا عدُوّ الله على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : فأخذني الشرط ، فقلت لهم : هذا يزعم أن رسول رب العالمين جبريل نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه قباء ، قال فقالوا لي : هذا والله قاضٍ كذاب ، وأفرجوا عني .

وقال ابن قتيبة في كتاب «المعارف»[3] : وكان أبو البختري ضعيفاً في الحديث؛ وقال الخطيب في تاريخه[4] : قال إبراهيم الحربي : قيل لأحمد بن حنبل تعلم أحداً روى « لا سَبْق إلا في خف أو حافر أو جناح » ؟ فقال : ما روى هذا إلا ذاك الكذاب أبو البختري .

وله من التصانيف كتاب « الروايات »[5] . كتاب « طَسْم وجديس » . كتاب

---

١ ن : محتجزاً .

٢ تاريخ بغداد : التيمي .

٣ المعارف : ٥١٦ .

٤ تاريخ بغداد ١٣ : ٤٥٥ .

٥ ص ع ر : الرايات .

« صفة النبي صلى الله عليه وسلّم » . كتاب « فضائل الأنصار » . كتاب « الفضائل الكبير » ويحتوي على جميع الفضائل . كتاب « نسب ولد إسماعيل عليه السلام » ويحتوي على قطعة من الأحاديث والقصص . وأخباره ومحاسنه كثيرة ؛ وتوفي سنة مائتين للهجرة ببغداد ، في خلافة المأمون ، رحمه الله تعالى . وقد ذكره ابن قتيبة في كتاب « المعارف » في موضعين ، عقد له أولاً ترجمة وتكلم على حاله ، ثم ذكره في ثلاثة أسماء في نسق[1] : أبو البختري وهب بن وهب ، وعد معه في ملوك الفرس بهرام بن بهرام بن بهرام ، وفي الطالبيين حسن بن حسن ابن حسن ، وفي غسان الحرث الأصغر بن الحرث الأعرج بن الحرث الأكبر ، هؤلاء الذين ذكرهم ابن قتيبة ، وقد جاء في المتأخرين أبو حامد الغزالي وهو محمد بن محمد بن محمد ، وقد سبق ذكره في المحمدين .

وأبو البختري : بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها راء ، وهو مأخوذ من البخترة التي هي الخيلاء ، وهو يتصحف على كثير من الناس بالبحتري وهو الشاعر المقدم ذكره .

وزمعة : بفتح الزاي والميم والعين المهملة وبعدها هاء ساكنة ،وهي في الأصل اسم للهَنَة الزائدة من وراء الظلف ، وبها سمي الرجل .

وقد تقدم الكلام على الأسدي والمدني[2] .

قلت : وبعد الفراغ من هذه الترجمة ظفرت بنكتة ينبغي إلحاقها بها ، وهي أن أبا البختري المذكور قال : كنت أدخل على هارون الرشيد وابنُه القاسم الملقب بالمؤتمن بين يديه ، فكنت أدمن النظر إليه عند دخولي وخروجي ، فقال له بعض ندمائه: ما أرى أبا البختري إلا يحب رؤوس الحملان، ففطن له الرشيد ، فلما دخلت عليه قال : أراك تدمن النظر إلى أبي القاسم[3] ، تريد أن تجعل انقطاعك إليه[4] ، قلت : أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن ترميني بما ليس في ، وأمّا إدماني

---

١ المعارف : ٥٩٠ .

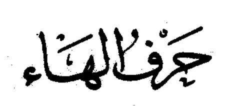
٢ هنا تنتهي الترجمة في : ع بر من .

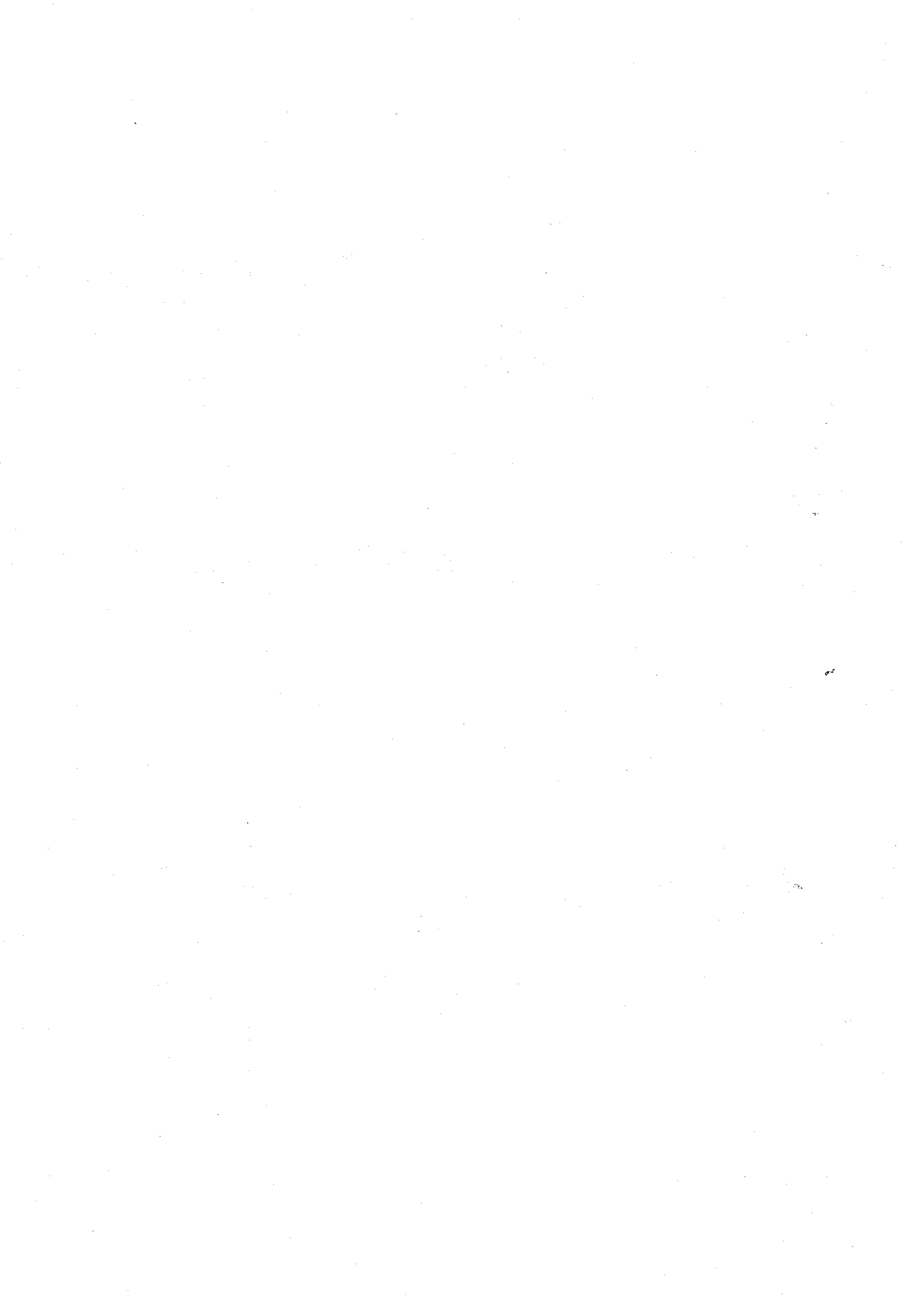
٣ كذا في المختار أيضاً وسماه أولا « القاسم » ولعل الصواب في الموطن الثاني « ابني القاسم » .

٤ ن ص ر : انقطاعه اليك .

النظر إليه فلأن جعفراً الصادق رضي الله تعالى عنه روى بإسناده عن آبائه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم [1] « ثلاث يزدن في قوّة النظر [2] : النظر إلى الخضرة ، وإلى الماء الجاري ، وإلى الوجه الحسن ، نقلتها من خط القاضي كمال الدين ابن العديم من مسودة تاريخه ، والله تعالى أعلم بالصواب .

١ ر : أخبر عن النبي (ص) أنه قال ..الخ .
٢ ص ن ر : البصر .


حرف الهاء



٧٧٤
ابن الشجري

الشريف أبو السعادات هبة الله بن علي بن محمد بن حمزة الحسني ، المعروف بابن الشجري البغدادي ، كان إماماً في النحو واللغة وأشعار العرب وأيامها وأحوالها كامل الفضائل ، متضلعاً من الآداب ، صنف فيها عدّة تصانيف ، فمن ذلك كتاب « الأمالي » ، وهو أكبر تواليفه وأكثرها إفادة ، أملاه في أربعة وثمانين مجلساً ، وهو يشتمل على فوائد جمة من فنون[1] الأدب ، وختمه بمجلس قَصره على أبيات من شعر أبي الطيب المتنبي تكلم عليها وذكر ما قاله الشراح فيها وزاد من عنده ما سنح له، وهو من الكتب الممتعة، ولما فرغ من إملائه حضر إليه أبو محمد عبد الله المعروف بابن الخشاب ــ المقدم ذكره ــ والتمس منه سماعه عليه فلم يجبه إلى ذلك ، فعاداه وردّ عليه في مواضع من الكتاب ونسبه فيها إلى الخطأ ، فوقف أبو السعادات المذكور على ذلك الرد ، فرد عليه في رده وبين وجوه غلطه ، وجمعه كتاباً سماه « الانتصار » وهو على صغر حجمه مفيد جداً ، وسمعه عليه الناسُ ، وجمع أيضاً كتاباً سمّاه « الحماسة » ضاهى به حماسة أبي تمام الطائي ، وهو كتاب غريب مليح[2] أحسن فيه ، وله في النحو عدة تصانيف وله « ما اتفق لفظه واختلف معناه » وشرح « اللمع » لابن جني ، وشرح « التصريف الملوكي » .

---

٧٧٤ ــ ترجمته في عبر الذهبي ٤ : ١١٦ والبدر السافر ، الورقة : ٢١٩ وانباه الرواة ٣ : ٣٥٦ وفي الحاشية ذكر لمصادر أخرى ، وهذه الترجمة موجزة في ق ، ولكن على طريقة مختلفة عن الايجاز المعتمد في المختار .

١ بر : وفنون .

٢ ص : مليح غريب .

وكان حسن الكلام حلو الألفاظ فصيحاً جيد البيان والتفهيم[1] ، وقرأ الحديث بنفسه على جماعة مَن الشيوخ المتأخرين مثل أبي الحسن[2] المبارك بن عبد الجبار ابن أحمد بن القاسم الصيرفي ، وأبي علي محمد بن سعيد بن نبهان[3] الكاتب وغيرهما .

وذكره الحافظ أبو سعد ابن السمعاني في كتاب « الذيل » ، وقال : اجتمعنا في دار الوزير أبي القاسم علي بن طراد الزينبي وقت قراءتي عليه الحديث ، وعلقت عنه شيئاً من الشعر في المدرسة ، ثم مضيت إليه وقرأت عليه جزءاً من أمالي أبي العباس ثعلب النحوي .

وحكى أبو البركات عبد الرحمن بن الأنباري النحوي — المقدم ذكره — في كتابه الذي سماه « مناقب الأدباء »[4] أن العلامة أبا القاسم محمود الزمخشري — المقدم ذكره — لما قدم بغداد قاصداً الحج في بعض أسفاره مضى إلى زيارة شيخنا أبي السعادات ابن الشجري ومضينا معه إليه ، فلما اجتمع به أنشده قول المتنبي :

واستكبر الأخبار قبل لقائه ... فلما التقينا صَغّرَ[5] الخبرَ الخُبرُ

ثم أنشده بعد ذلك :

كانت مُساءلة الرّكبان تخبرنا[6] ... عن جعفر بن فلاح أحسن الخبرِ
ثم التقينا فلا والله ما سمعت ... أذني بأحسن مما قد رأى بصري

وهذا البيتان قد تقدم ذكرهما في ترجمة جعفر بن فلاح[7] ، وهما منسوبان

---

١ بر : والتفهم .
٢ ع ن : الحسين .
٣ ر ن : بيان ؛ وسقطت من : بر من .
٤ طبقات الأدباء : ٢٧٤ — ٢٧٥ .
٥ المختار : أصدق .
٦ ع بر من : تخبرني .
٧ انظر ج ١ : ٣٦١ .

إلى أبي القاسم محمد بن هانىء الأندلسي – وقد تقدم ذكره أيضاً – وينسبان إلى غيره أيضاً ، والله أعلم .

قال ابن الأنباري ، فقال العلامة الزمخشري : روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنّه لما قدم عليه زيد الخيل قال له : « يا زيد، ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون ما وصف لي ، غيرك » . قال ابن الأنباري ، فخرجنا من عنده ونحن نعجب ، كيف يستشهد الشريف بالشعر والزمخشري بالحديث وهو رجل عجمي [1] ؟ .

وهذا الكلام ، وإن لم يكن عين كلام ابن الأنباري ، فهو في معناه ، لأني لم أنقله من الكتاب ، بل وقفت عليه منذ زمان وعلق معناه بخاطري ، وإنّما ذكرت هذا لأن الناظر فيه قد يقف على كتاب ابن الأنباري فيجد بين الكلامين اختلافاً فيظن أنّي تسامحت في النقل .

وكان أبو السعادات المذكور نقيب الطالبيين بالكرخ نيابة عن والده الطاهر، وله شعر حسن فمن ذلك قصيدة يمدح بها الوزير نظام الدين أبا نصر المظفر بن علي ابن محمد بن جهير ، وأولها :

هذي السُّدَيْرَةُ والغديرُ الطافحُ فاحفظْ فؤادكَ إنّني لك ناصحُ
يا سِدْرة الوادي الذي إن ضلّه الـ ساري هداهُ نشرُهُ المتفاوح
هل عائدٌ قبلَ المَماتِ لمغرمٍ عيشٌ تقضّى في ظلالك صالح
ما أنصف الرشأ الضنينُ بنظرةٍ لما دعا مُصْغي الصبابة طامح
شطَّ المزارُ به وبوّىء منزلاً بصميم قلبك فهو دانٍ نازح
غصن يعطّفه النسيمُ وفوقه قمر يحفُّ به ظلامٌ جانح
وإذا العيونُ تساهمته لحاظها لم يروَ منه الناظرُ المتراوح
ولقد مررنا بالعقيقِ فشاقنا فيه مراتعُ للمَها ومسارح

---

[1] نص كلامه : فتعجب الحاضرون من كلامهما ، لأن الخبر كان أليق بالشريف والشعر أليق بالزمخشري .

ظللنا به نبكي فكم من مضمرٍ وجداً أذاع هواه دمعٌ سافح
مَرَّتِ الشؤونَ رسومُها فكأنّما تلك العِراصُ المقفراتُ نواضح
يا صاحبيَّ تأمّلا حُييتما وسقى دياركما الملِثُّ الرائح
أدُمًى بدتْ لعيوننا أم ربربٌ أم خرَّد أكفالهن رواجح
أم هذه مُقَل الصوارِ رَنَتْ لنا[1] خلَلَ البراقع أم قنا وصفائح
لم يبق جارحةٌ وقد واجهننا إلاّ وهن لها بهن جوارح
كيف ارتجاعُ القلبِ من أسْرِ الهوى ومن الشقاوة أن يُراضَ القارح
لو بلَّه من ماءِ ضارجَ شَرْبةٌ ما أثّرتْ للوجدِ فيه لواقح

ومن هاهنا يخرج إلى المديح فأضربت عنه خوف الإطالة. ولم يكن المقصود إلا إثبات شيء من نظمه ليستدل به على طريقه فيه[2] .

ومن شعره أيضاً :

هل الوجد خافٍ والدموع شهودُ وهل مكذبٌ قول الوشاة جحودُ
وحتى متى تُفْنِي شؤونك بالبكا وقد حد حداً للبكاء لبيد
وإنّي وإن جفّت[3] قناتيَ كبرة لذو مرة في النائبات جليد

وفيه إشارة إلى أبيات لبيد بن ربيعة العامري[4] :

تمنّى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضرْ
فقوما فنوحا بالذي تعلمانه ولا تخمشا وَجْهاً ولا تحلقا شعر
وقولا : هو المرء الذي لا صديقه أضاع ، ولا خان العهود ولا غدر

---

١ بر : لقد رنت .

٢ ن ص ر : على المراد من طريقه فيه .

٣ ق : خفت ؛ ع بر من : حنت .

٤ ديوان لبيد : ٢١٣ ؛ وفي ع بر من : فتذكر بعدها إن شاء الله تعالى ؛ ولم يورد الأبيات .

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبك حولاً كاملاً فقد اعتذر

وإلى هذا أشار أبو تمام الطائي بقوله [١] :

ظعنوا فكان بكايَ حولاً بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيدِ

وقال الشريف [٢] أبو السعادات المذكور : أنشدني أبو إسماعيل الحسين الطغرائي – قلت : قد تقدم ذكره – لنفسه [٣] :

إذا ما لم تكن ملكاً مطاعاً فكن عبداً لمالكه مطيعا
وإن لم تملك الدنيا جميعاً كما تهواه فاتركها جميعا
هما سببان [٤] من ملك ونسكٍ ينيلان الفتى الشرف الرفيعا
فمن يقنع من الدنيا بشيء سوى هذين عاش [٥] بها وضيعا

وكان بين أبي السعادات المذكور وبين أبي محمد الحسن بن أحمد بن محمد ابن جكينا البغدادي الحريمي الشاعر المشهور – وهو المذكور في ترجمة أبي محمد القاسم بن علي الحريري صاحب المقامات – تنافُسٌ جرت [٦] العادة بمثله بين أهل الفضائل ، فلما وقف على شعره عمل فيه قوله :

يا سيدي والذي يعيذك من نظم قريض يصدا به الفكرُ
مالك من جدك النبيّ سوى أنك ما ينبغي لك الشعر

وشعره وماجراياته كثيرة ، والاختصار أولى .

---

١ ديوان أبي تمام ١ : ٣٩٢ .
٢ هذا النص حتى آخر الأبيات سقط من : ع بر من .
٣ ديوان الطغرائي : ٦٧ .
٤ ص ر : سيان ؛ وكذلك في الديوان .
٥ ن ص ر : يحي .
٦ ص ر : كما جرت .

وكانت ولادته في شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة . وتوفي يوم الخميس السادس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة ، ودفن من الغد في داره بالكرخ من بغداد ، رحمه الله تعالى .

والشجري : بفتح الشين المعجمة والجيم وبعدها راء ، هذه النسبة إلى شجرة ، وهي قرية من أعمال المدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام . وشجرة أيضاً اسم رجل ، وقد سمت به العرب ومَنْ بعدها ، وقد انتسب إليه خلق كثير من العلماء وغيرهم ، ولا أدري إلى مَنْ ينتسب الشريف المذكور منهما هل نسبته إلى القرية ، أم إلى أحد أجداده كان اسمه شَجرة ، والله أعلم .

وقد تقدم الكلام على الكرخ في ترجمة معروف الكرخي ، رضي الله عنه[1] ، فأغنى عن إعادته .

٧٧٥

البديع الاسطرلابي

أبو القاسم هبة الله بن الحسين بن يوسف ، وقيل أحمد ، المنعوت بالبديع الأسْطُرْلابي الشاعر المشهور ، أحد الأدباء الفضلاء ؛ كان وحيد زمانه في عمل الآلات الفلكية ، متقناً لهذه الصناعة ، وحصل له من جهة عملها مال جزيل في خلافة الإمام المسترشد ، ولما مات لم يخلفه في شغله مثله . وقد ذكره أبو المعالي الحظيري في كتابه الذي سمّاه « زينة الدهر » وذكره العماد الأصبهاني في كتاب

---

١ ر : رحمه الله تعالى .

٧٧٥ – ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ٢٧٣ والفوات ٢ : ومرآة الجنان ٣ : ٢٦١ وابن العبري : ٣٦٣ ومرآة الزمان : ١٨٤ وأخبار الحكماء : ٢٢٢ وابن ابي أصيبعة ١ : ٢٨٠ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٧٥ ؛ ولا تزيد هذه الترجمة عن تسعة سطور في ق .

« الخريدة » ، وكل منهما أثنى عليه ، وأورد عدة مقاطيع من شعره ، فمن ذلك قوله :

أهْدي لمجلِسه الكريم ، وإنّما أهْدي لهُ ما حزْت من نَعمائهِ
كالبَحْر يمطرُه السحاب وما لهُ فَضْلٌ عليه لأنّه من مائه

وهذان البيتان من أسيرِ[1] شعره ، وقد قيل إنهما لغيره .
وله أيضاً :

أذاقــني حُمْرة المنـايا لما اكتَسى خُضْرة العذارِ
وقـد تبَدى السوادُ فيـه وكارتي بَعْدُ في العيـارِ

هكذا وجدت هذين البيتين في « زينة الدهر » تأليف أبي المعالي الحظيري منسوبين إلى البديع المذكور ، ورأيت في موضع آخر أنهما لأبي محمد ابن جكينا — المذكور في ترجمة الشريف أبي السعادات ابن الشجري — والله أعلم . وهذه العبارة من اصطلاح البغاددة فإنهم يقولون : « كارتي في العيار » بمعنى أنّه ناشب معه لم يتخلص[2] منه، والكارة عندهم في الدقيق بمثابة الجملة في ديار مصر.
ومن شعره :

قال قومٌ عشِقْتَه أمرَدَ الخـ ـد وقد قيل : إنّه نكريشُ
قُلتُ فرْخُ الطاوس أحسَنُ ما كا ن إذا ما علا عليه الريشُ

قوله « نكريش » لفظة عجمية ، والأصل فيها نيك ريش ، معناها لحية جيدة ، وهو على ما تقرر من اصطلاح العجم أنهم يقدمون ويؤخرون في ألفاظهم المركبة ، فنيك : جيد ، وريش : لحية .
وكان كثير الخلاعة يستعمل المجون في أشعاره حتى يفضي به إلى الفحش في اللفظ ، فلهذا اقتصرت له على هذه النبذة مع كثْرة شعره ، وكان قد جمعه

---

١ ر : أشهر .
٢ ع ن : يخلص .

ودوّنه ، واختار ديوان ابن حجاج ورتبه على مائة وأحد وأربعين باباً ، وجعل كل باب في فن من فنون شعره ، وقفاه وسماه « درة التاج من شعر ابن حجاج » وكان ظريفاً في جميع حركاته ؛ وتوفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، بعلة الفالج ، ودفن بمقبرة الوردية بالجانب الشرقي من بغداد ، رحمه الله تعالى .

والأسْطُرلابي[1] : بفتح الهمزة وسكون السين المهملة وضم الطاء المهملة وبعدها راء ثم لام ألف ثم باء موحدة ، هذه النسبة إلى الأسْطُرْلاب ، وهو الآلة المعروفة ، قال كوشيار[2] بن لبان بن باشهري الجيلي صاحب كتاب « الزيج » في رسالته التي وضعها في علم الأسطرلاب : إن الأسطرلاب كلمة يونانية معناها ميزان الشمس ، وسمعت بعض المشايخ يقول : إن لاب اسم الشمس بلسان اليونان فكأنّه قال : أسطر الشمس ، إشارة إلى الخطوط التي فيه ؛ وقيل إن أوّلَ مَن وضعه بطليموس صاحب المجسطي ، وكان سبب وضعه له أنّه كان معه كرة فلكية وهو راكب ، فسقطت منه ، فدأستها دابته فخسفتها[3] ، فبقيت على هيئة الأسطرلاب ، وكان أرباب علم الرياضة يعتقدون أن هذه الصورة لا ترسم إلا في جسم كري على هيئة الأفلاك ، فلما رآه بطليموس على تلك الصورة علم أنّه يرتسم في السطح ويكون نصف دائرة ويحصل منه ما يحصل من الكرة ، فوضع الأسطرلاب ، ولم يسبق إليه ، وما اهتدى أحد من المتقدمين إلى أن هذا القدر يتأتى في الخط . ولم يزل الأمر مستمراً على استعمال الكرة والأسطرلاب إلى أن استنبط الشيخ شرف الدين الطوسي — المذكور في ترجمة الشيخ كمال الدين ابن يونس رحمهما الله تعالى، وهو شيخه في فن الرياضة[4] — أن يضع المقصود من الكرة والأسطرلاب في خط فوضعه وسمّاه « العصا » وعمل له رسالة بديعة . وكان قد أخطأ في بعض هذا الوضع ، فأصلحه الشيخ كمال الدين المذكور ،

---

١ ص : والاصطرلابي .

٢ ع : كوشياد . وكوشيار (٤٤٢ – ٤٩٤) انظر كشف الظنون تحت مادة « زيج كوشيار » .

٣ ر : فسحقتها .

٤ ترجمة كمال الدين ابن يونس ج ٥ : ٣١١ وذكر شرف الدين الطوسي ص : ٣١٤ من الجزء المذكور .

وهذبه ، والطوسي أول من أظهر هذا في الوجود ، ولم يكن أحد من القدماء يعرفه . فصارت الهيئة توجد في الكرة التي هي جسم لأنها تشتمل على الطول والعرض والعمق ، وتوجد في السطح الذي هو مركب من الطول والعرض بغير عمق ، وتوجد في الخط الذي هو عبارة عن الطول فقط بغير عرض ولا عمق ، ولم يبق سوى النقطة ، ولا يتصور أن يعمل فيها شيء لأنها ليست جسماً ولا سطحاً ، ولا خطاً ، بل هي طرف الخط ، كما أن الخط طرف السطح ، والسطح طرف الجسم ، والنقطة لا تتجزأ ، فلا يتصور أن يرتسم فيها شيء ، وهذا وإن كان خروجاً عمّا نحن بصدده لكنه أيضاً فائدة ، والاطلاع عليه أولى من إهماله ، وسياق الكلام جره والله تعالى أعلم [1] .

٧٧٦

ابن القطان البغدادي

أبو القاسم هبة الله بن الفضل بن القطان عبد العزيز بن محمد بن الحسين بن علي ابن أحمد بن الفضل بن يعقوب بن يوسف بن سالم[2]، المعروف بابن القطان الشاعر المشهور البغدادي ؛ قد سبق شيء من شعره وطرف من خبره في ترجمة حيص بيص في حرف السين ، وفي ترجمة ابن السوادي في أواخر حرف العين [3] .

وكان أبو القاسم المذكور قد سمع الحديث من جماعة من المشايخ ، وسُمع

---

١ علق بعضهم في هامش المختار بخط مختلف عن خط الأصل عند هذا الموضع بقوله : تأمل ما في هذا الكلام من الخطأ والخبط وسبب ذلك تكلم المصنف وغير المصنف فيما لا علم له به ، فيستغرب كلامه من لا يعرف ذلك العلم ويستعظمه ، ولم يعلم ما تحته من التخليط ..الخ .

٧٧٦ – انظر أخبار الدولة السلجوقية : ١٢٠ ولسان الميزان ٦ : ١٨٩ ومرآة الزمان : ١٨٧ ومرآة الجنان ٣ : ٣١٥ والمنتظم ١٠ : ٢٠٧ وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٨٣ – ٢٩٠ .

٢ ص ر ن : ابن غانم المتوثي .

٣ انظر ٢ : ٣٦٣ ، ٣ : ٤٨١ .

عليه ، وكان غاية في الخلاعة والمجون ، كثير المزاح والمداعبات[1] ، مغرى بالولوع بالمتعجرفين والهجاء لهم ، وله في ذلك نوادر ووقائع وحكايات ظريفة ، وله ديوان شعر . وقد ذكره أبو سعد السمعاني في كتاب « الذيل » فقال : شاعر مجود[2] ، مليح الشعر رقيق الطبع ، إلا أن الغالب عليه الهجاء ، وهو ممن يتقى لسانه ، ثلاّب ، ثم قال : كتبت عنه حديثين لا غير ، وعلقت عنه مقطعات من شعره .

(299) وذكر الحافظ السِّلَفي أباه أبا عبد الله الفضل بن عبد العزيز ،وقال : إن بعض أولاد المحدثين سأله عن مولده فقال : سنة ثماني عشرة وأربعمائة ليلة الجمعة رابع عشر رجب . وقال أبو غالب شجاع بن فارس الذهلي : مات يوم الأربعاء ، ودفن من الغد لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وتسعين وأربعمائة ، بمقبرة معروف الكرخي ، رضي الله عنه .

وذكر العماد الكاتب الأصبهاني في كتاب « الخريدة »[3] أبا القاسم المذكور فقال : وكان مجمعاً على ظَرفه ولطفه ، وله ديوان شعر أكثره جيد ، وعبث فيه بجماعة من الأعيان وثَلَبَهم ، ولم يسلم منه أحد لا الخليفة ولا غيره ؛ وأخبرني بعض المشايخ أنّه رآه وقال : كنت يومئذ صبياً فلم آخذ عنه شيئاً لكنني رأيته قاعداً على طرف دكان عطار ببغداد ، والناس يقولون : هذا ابن الفضل الهجّاء .

وسمع الحديث من جماعة منهم أبوه وأبو طاهر محمد بن الحسن[4] الباقلاني وأبو الفضل أحمد بن الحسن بن خيرون الأمين وأبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمد بن طلحة بن محمد بن عثمان الكرخي[5] وغيرهم .

وله مع حَيْصَ بَيْصَ ماجرايات ، فمن ذلك أن الحيص بيص خرج ليلة من دار الوزير شرف الدين أبي الحسن علي بن طراد الزينبي ، فنبح عليه جرو كلب

---

١ ص ن ر : والمداعبة .

٢ من بر ر : مجيد .

٣ ترجمته في الخريدة (قسم العراق) ٢ : ٢٧٠ والنص المشار اليه غير موجود في الخريدة على هذا النحو .

٤ ص ن : الحسين .

٥ ع : النعالي الكرخي .

وكان متقلداً سيفاً ، فوكزه بعقب السيف فمات ، فبلغ ذلك ابن الفضل المذكور ، فنظم أبياتاً وضمنها بيتين لبعض العرب قتل أخوه ابناً له ، فقُدم إليه ليقتاد منه فألقى السيف من يده وأنشدهما ، والبيتان المذكوران يوجدان في الباب الأول من كتاب « الحماسة » ، ثم إن ابن الفضل المذكور عمل الأبيات في ورقة وعلقها في عنق كلبة لها أجر[1] ورتب معها مَن طردها وأولادها إلى باب دار الوزير كالمستغيثة ، فأخذت الورقة من عنقها وعرضت على الوزير فإذا فيها :

يا أهل بغداد إن الحيص َ بَيْص َ أتى ... بفعلة أكسبته الخزي في البلد

هو الجبان[2] الذي أبدى تشاجعه ... على جُرَيّ ضعيف البطش والجلد

وليس في يده مال يَديه به ... ولم يكن ببواء عنه في القوَد

فأنشدت جعدة[3] من بعدما احتسبت ... دم الأبيلق عند الواحد الصمد

« أقول للنفس تأساء وتعزية ... إحدى يدي أصابتني ولم تُرِد »[4]

« كلاهما خلف من فقد صاحبه ... هذا أخي حين أدعوه وذا ولدي »

والبيت الثالث مأخوذ من قول بعضهم :

قوم إذا ما جنى جانيهمُ أمنوا ... من لؤم أحسابهم أن يقتلوا قَوَدا

[وهو من جملة أبيات في الكراس الذي أوله لقي بشار ، وينظر في الحماسة][5]
وهذا التضمين في غاية[6] الحسن ، ولم أسمع مثله مع كثرة ما يستعمل الشعراء

---

١ ن : جراء ؛ بر من : جرو .

٢ ص : الجريء .

٣ ق ن والمختار : فأنشدت أمه ، وهذا لا يستدعي ضبط لفظة « جعدة » كما في سائر النسخ ، في آخر الترجمة .

٤ الحماسية رقم : ٤٦ في شرح المرزوقي .

٥ ما بين معقفين سقط من ع ق والمختار ؛ ويبدو أنه من تحويلات المؤلف في المسودة على كراريس كانت لديه ؛ وفي ر : الذي أوله كفى اشارة ؛ وفي ص : لقي اشارة تنظر في الحارة ؛ والبيت من الحماسية رقم ٦٦ في شرح المرزوقي .

٦ بر : نهاية .

التضمين في أشعارهم ، إلا ما أنشدني الشيخ مهذب الدين أبو طالب محمد المعروف بابن الحيمي – المذكور في ترجمة الشيخ تاج الدين الكندي في حرف الزاي[1] – لنفسه وأخبرني أنّه كان بدمشق وقد رسم السلطان بحلْق لحية شخص له وجاهة بين الناس ، فحلق نصفها ، وحصلت فيه شفاعة ، فعفا عنه في الباقي ، فعمل فيه ولم يصرح باسمه ، بل رمزه وستره ، وهو :

زرت ابن آدم لما قيل قد حلقوا   جميع لحيته من بعد ما ضُربا
فلم أر النصف محلوقاً فعدت له   مهنئاً بالذي منها له وُهبا
فقام ينشدني والدمع يخنقه   بيتين ما نظما ميناً ولا كذبا
إذا أتتك لحَلْق الذقن طائفة   «فاخلَعْ ثيابك منها مُمْعِناً هربا»
« وإن أتوك وقالوا : إنها نصف   فإنّ أطيَبَ نصفيها الذي ذهبا »

والبيتان الأخيران منها في كتاب « الحماسة »[2] أيضاً في باب مذمة النساء ، لكن الأول منهما فيه تغيير ، فإن بيت الحماسة :

لا تَنْكِحنّ عجوزاً إن أتيت بها   واخلَعْ ثيابَكَ منها مُمْعِناً هربا

وحضر ليلة الحيص بَيْص وابن الفضل المذكور على السّماط عند الوزير في شهر رمضان ، فأخذ ابن الفضل قَطاة مشوية ، وقدمها إلى الحيص بيص، فقال الحيص بيص للوزير : يا مولانا هذا الرجل يؤذيني ، فقال الوزير : كيف ذلك ؟ قال : لأنّه يشير إلى قول الشاعر :

تَميمٌ بُطْرق اللؤم أهدى مِن القطا   وَلَوْ سلكَتْ سُبْلَ المكارم ضلّتِ

وكان الحيص تميمياً – كما تقدم في ترجمته – وهذا البيت للطرماح بن حكيم الشاعر[3] ، وهو من جملة أبيات ، وبعد هذا البيت :

---

١ انظر ج ٢ : ٣٤٠ .

٢ الحماسية رقم : ٨٧٠ في شرح المرزوقي .

٣ ديوان الطرماح : ٥٩ .

أرى اللّيل يجلوه النهارُ ، ولا أرى　　خلال المخازي عن تميم تجلّتِ
ولو أن بُرغوثاً على ظهر قملة[1]　　يَكُرُّ على صَفّيْ تميم لوَلّتِ

ودخل ابن الفضل المذكور يوماً على الوزير المذكور الزينبي ، وعنده الحيص فقال : قد عملت بيتين ولا يمكن أن يعمل لهما ثالث ، لأنني قد استوفيت المعنى فيهما ، فقال له الوزير : هاتِهما ، فأنشده :

زار الخيالُ نَحيلاً مِثلَ مُرْسله　　فما شَفانيَ منه الضَّمُّ والقُبَلُ
ما زارني قَطُّ إلا كي يوافقني　　على الرُّقاد فينفيه ويرْتحلُ

فالتفت الوزير إلى الحيص وقال له : ما تقول في دعْواه ؟ فقال : إن أعادهما سمع الوزير لهما ثالثاً ، فقال له الوزير : أعدهما ، فأعادهما ، فوقف الحيص بيص لحظة ثم أنشد :

وما درَى أن نومي حيلَةٌ نُصبَتْ　　لطيْفِه حين أعْيا اليَقْظةَ الحِيَلُ

فاستحسن الوزير ذلك منه .

وسمعت لبعض المعاصرين[2] ، ولم أتحقق أنها له حتى أعينه ، وقد أخذ هذا المعنى ونظمه وأحسن فيه ، وهو :

يا ضرّة القمرين مَنْ لمتيمٍ　　أرْدَيته وأحَلْت ذاك على القَضا
وحَياة حُبّك لم ينَمْ عن سَلْوَة　　بل كان ذلك للخيال تعرضا
لا تأسفي إنْ زارَ طَيْفُكِ في الكرى　　ما كان إلا مِثل شخصك مُعرِضا

ثم وجدت هذه الأبيات لأبي العلاء بن أبي الندى المعروف[3] .
ولما هجا قاضي القضاة جلال الدين الزينبي بالقصيدة الكافية — المقدم ذكرها

---

١ ق ص ر : فارة .
٢ ع : العيارين .
٣ ن : الشاعر المعروف .

في ترجمة ابن السوادي[1] — ، ولولا طولها لذكرتها ؛ سير إليه أحد الغلمان فأحضره وصفعه وحبسه ، فلما طال حَبْسُه كتب إلى مجد الدين ابن الصاحب أستاذ الدار الخليفتية :

إليك أظلُّ مجدَ الدين أشكو ... بلاء حلَّ لستُ له مطيقا
وقوماً بلّغوا عني مُحالا ... إلى قاضي القضاة النّدْب سيقا
فأحضرني بباب الحكم خصمٌ ... غليظٌ جرّني كما وزيقا
وأخفق نعله بالصفع رأسي ... إلى أن أوجس القلب الخفوقا
على الخصم الأداء وقد صفعنا ... إلى أن ما تهدينا الطريقا
فيا مولاي هبْ ذا الإفك حقا ... أيحبسُ بعد ما استوفى الحقوقا

ولمّا خرج من الحبس أنشد :

عند الذي طرّفَ بي أنّه ... قد غض من قدري وآذاني
فالحبس ما غير لي خاطراً ... والصفع ما لين آذاني

وقد سبق في ترجمة الحيص أبياته الميمية في هجوه ، وجواب الحيص عنها .

ولمّا ولي الزينبي المذكور الوزارة دخل عليه ابن الفضل المذكور والمجلس محتفل بأعيان الرؤساء ، وقد اجتمعوا للهناء ، فوقف بين يديه ودعا له وأظهر الفرح والسرور[2] ورقص ، فقال الوزير لبعض من يفضي إليه بسره : قبح الله هذا الشيخ ، فإنّه يشير برقصه إلى ما تقول العامة في أمثالها « ارقص للقرد في زمانه » . وقد نظم هذا المعنى في أبيات وكتبها إلى بعض الرؤساء ، وهي :

يا كمالَ الدين الذي ... هو شخصٌ مشخّصُ
والرئيسُ الذي به ... ذنبُ دهري يمحّص
خذ حديثي فإنّه ... نبأ سوف يرخص

---

١ انظر ج ٣ : ٤٨٢ .

٢ ع ن ر بر من : السرور والفرح .

كلما قلت قد تبغـ ـدَدَ قومي تحَمْصَصوا
ليس إلا ستر يشا ل وبابٌ مجصَّص
وغواشٍ على الرعو سِ عليها المقرنص
والرواشين والمنا ظر والخيل ترقص
وأنا القرد كل يو م لكلب أبصبص[1]
كلٌّ من صفق الزما ن له قمت أرقص
محنٌ لا يفيدُ ذا النو نِ منها التبرصص[2]
فمتى أسمع الندا ء وقد جا مخلّص

ومثل هذا قول بعضهم[3] :

إذا رأيتَ امرءاً وضيعاً قد رفع الدهرُ من مكانِهْ
فكنْ له سامعاً مطيعاً معظماً من عظيم شانه
فقد سمعنا بأن كسرى قد قال يوماً لترجمانه
إذا زمانُ السباع ولّى فارقص[4] للقرد في زمانه

وحكي أنّه دخل مرّة على بعض أهل بغداد وقد تولى ولاية كبيرة لم يكن من أهلها ، فسلم عليه ودعا له وهنأه بالولاية ،وأظهر الفرح والسرور ، ثم خرج ، فقال بعض الحاضرين : هذا يشير إلى قول الناس في أمثالهم : « ارقص للقرد في زمانه » .

وله القصيدة الرائية المشهورة التي جمع فيها خلقاً من الأكابر ونبز كل واحد منهم بشيء ، وفيها يقول[5] :

---

١ ق ص : أحفص ؛ ن : أحنبص ؛ بر : لقرد أبصبص .
٢ التبرصص : لعله سلوك طريق برصيصا أحد عباد بني اسرائيل .
٣ سقط الشعر من ع وكذلك بر من ، الحكاية التي بعده .
٤ ن ق : أرقص .
٥ أورد ابن أبي أصيبعة عدداً من أبياتها .

تكريتُ تُعجزنا ونحن بجهلنا نمضي لنأخذ ترمذاً من سَنْجَرِ

ومنها البيت السائر ، وهو :

نسب إلى العباس ليس شبيهه في الضعف غير الباقلاء الأخضرِ

وأنشدني له بعض أصحابنا المتأدبين قوله :

سعى إحسانه بيني وبين الدهر بالصلحِ
أيادٍ ملأت بيتي على بيت من المدح

ودخل يوماً على الوزير ابن هُبيرة وعنده نقيب الأشراف ، وكان ينسب إلى البخل ، وكان في شهر رمضان والحر شديد ، فقال له الوزير : أين كنت ؟ فقال : في مطبخ سيدي النقيب ، فقال له : ويحك ! أيش عملت في شهر رمضان في المطبخ ؟ فقال : وحياة مولانا كسرت الحر ، فتبسم الوزير وضحك الحاضرون وخجل النقيب . وهذا الكلام على اصطلاح أهل تلك البلاد ، فإنهم يقولون : كسرت الحرّ في الموضع الفلاني ، إذا اختار موضعاً بارداً يَقيل فيه[1] .

وقصد دار بعض الأكابر في بعض الأيام فلم يؤذن له في الدخول ، فعزّ عليه فأخرجوا من الدار طعاماً وأطعموه كلاب الصيد وهو يُبْصره ، فقال : مولانا يعمل بقول الناس : لعن الله شجرة لا تظل أهلها .

وقعد يوماً مع زوجته يأكل طعاماً ، فقال لها : اكشفي رأسك ، ففعلت ، وقرأ ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحد ﴾ (الإخلاص : ١) فقالت له : ما الخبر ؟ فقال : إن المرأة إذا كشفت رأسها لم تحضر الملائكة عليهم السلام ، وإذا قرىء ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحد ﴾ هربت الشياطين ، وأنا أكره الزحمة على المائدة .

وأخباره[2] كثيرة ؛ وكانت ولادته سنة سبع وسبعين وأربعمائة ، وقال السمعاني : سألته عن مولده فقال : ولدت ضاحي نهار يوم الجمعة السابع من ذي الحجة سنة ثمان وسبعين . وتوفي يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان سنة ثمان وخمسين

١ زاد في المختار : قصد أنه لبخله لا يطبخ شيئاً فيه ، فهو بارد لذلك .

٢ المختار : وأخباره ونوادره ، وهنا تنتهي الترجمة في المختار .

وخمسمائة ببغداد ، ودفن بمقبرة معروف الكرخي ، رحمه الله تعالى ، وقال السمعاني : توفي يوم عيد الفطر ، والله أعلم .

ولولا إيثار الاختصار لذكرت من أحواله ومضحكاته شيئاً كثيراً ، فإنّه كان آية في هذا الباب .

وقوله في الأبيات الدالية « ولم يكن ببَوَاء عنه في القود » فالبواء – بفتح الباء الموحدة وبعدها الواو والهمزة ممدودة – ومعناها السواء ، يقال : دم فلان بَواء لدم فلان ، إذا كان مكافئاً له .

وجعدة المذكورة في هذه الأبيات أيضاً – بفتح الجيم والدال المهملة وبينهما عين مهملة ساكنة وفي الأخير هاء ساكنة – وهو اسم من أسماء الكلبة ، هكذا سمعته ولم أره في شيء من كتب اللغة ، بل الذي قاله أرباب اللغة إنّ « أبا جعدة » كنية الذئب ، و « جعدة » اسم النعجة ، كني الذئب بها لمحبته إياها ، والله أعلم .

[والمتوثي : بفتح الميم وتشديد التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وبعدها ثاء مثلثة ، هذه النسبة إلى متوث ، وهي بلدة بين قُرْقوب وكورة الأهواز] [1] .

٧٧٧

ابن سناء الملك

القاضي السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضي الرشيد أبي الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبي عبد الله محمد بن هبة الله بن محمد السعدي ، الشاعر المشهور ، المصري صاحب الديوان الشعر البديع والنظم الرائق ، أحد الفضلاء الرؤساء النبلاء ، وكان كثير التخصص والتنعم وافر السعادة محظوظاً من الدنيا ، أخذ الحديث عن الحافظ أبي الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السّلفي الأصبهاني رحمه الله تعالى ،

---

١ زيادة من ص ن ر . لأنه ورد ذكر : ابن غانم المتوثي ، في نسبه .

٧٧٧ – ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ٢٦٥ والخريدة (قسم مصر) ١ : ٦٤ وعبر الذهبي ٥ : ٢٩ والشذرات ٥ : ٣٥ والبدر السافر ، الورقة : ٢١٧ وعقود الجمان ٩ : ٢٠٩ .

واختصر كتاب « الحيوان » للجاحظ ، وسمى المختصر « روح الحيوان » وهي تسمية لطيفة[وله كتاب مصايد الشوارد][1] ، وله ديوان جميعه موشحات سماه « دار الطراز »[2] وجمع شيئاً من الرسائل الدائرة بينه وبين القاضي الفاضل وفيه كل معنى مليح[3] .

واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها . ودخل في ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين ابن عُنَيْن – المقدم ذكره في المحمدين – فاحتفلوا به وعملوا له دعوات ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ؛ وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافل سطرت عنهم ، ولولا خشية التطويل لذكرت بعضها .

ومن محاسن شعره بيتان من جملة قصيدة يمدح بها القاضي الفاضل رحمه الله تعالى ، وهما[4] :

ولو أبْصرَ النَّظّام جوْهرَ ثغْرِها ... لما شك فيه أنّه الجوهر الفردُ
ومن قال إن الخيزرانة قَدُّها ... فقولوا له إياك أن يَسمع القدُّ

ومن شعره ايضاً[5] :

لا الغصن يحكيك ولا الجؤذرُ ... حُسْنُك مما كثروا أكثرُ
يا باسماً أبدى لنا ثغره ... عقداً ولكن كلّه جوهر
قال ليَ اللاحي : أما تسمعُ[6] ... فقلت : يا لاحي أما تبصر

وله يتغزل بجارية عمياء[7] :

---

١ زيادة من ر .

٢ ليس هذا القول بدقيق، لأن دار الطراز يحتوي مقدمة في الموشحات ، ونماذج من موشحات الأندلسيين وبعض موشحات ابن سناء الملك .

٣ ر : بديع مليح ؛ والكتاب المشار إليه هو « فصوص الفصول » ومنه نسخة بباريس رقم : ٣٣٣٣.

٤ ديوانه : ٢٢٥ – ٢٢٦ .   ٥ ديوانه : ٣٤٤ .

٦ ن ق والمختار : أما تستمع ؛ بر من : ألا تستمع ،وما أثبتناه ورد في الديوان .

٧ ديوانه : ٤٨٤ – ٤٨٥ .

شمس بغير الشّعر لم تحتجب   وفي سوى العينين لم تكسفِ
مُغْمَدَةَ المرهَفِ لكنها   تجرح بالجفن[1] بلا مرهف
رأيت منها الخلد في جؤذر   ومقلتي يعقوب في يوسف

وله في غلام ضرب ثم حبس[2] :

بنفسيَ من لم يضربوه لريبة   ولكن ليبدو الورد في سائر الغصنِ
ولم يودِعوه السجن إلاّ مخافة   من العين أن تعدو على ذلك الحسن
وقالوا له شاركتَ في الحسن يوسفا   فشاركهُ أيضاً في الدخول إلى السجن

[وله في غلام جميل الصورة حفر حومة التلاق فأصابه حجر فانكسرت أسنانه فقال[3] :

نثر الدهر عقد ثغر حبيبي   فدموعي عليه تحكي انتثاره
كل سن كالأقحوانة كانت   فغدت بالدماء كالجلناره
كان في حومة التلاق وماكا   ن بعيداً في جملة النظارة
فأتته الأحجار شوقاً وزارتـ   ـه فلا مرحباً بتلك الزيارة
كيف ينسى الفؤاد ثغر حبيب   حسدتني عليه تلك الحجارة]

وله من جملة أبيات[4] :

وما كان تركي حبه عن ملالة   ولكن لأمر يوجب القول بالترك
أراد شريكاً في الذي كان بيننا   وإيمان قلبي قد نهاني عن[5] الشرك

١ الديوان : تقتل بالغمد .
٢ ديوانه ٧٨٣ .
٣ ديوانه : ٣٦١ ، وهذه زيادة من ر .
٤ ديوانه : ٥٢٨ .
٥ ر : لا يميل إلى .

وله أيضاً[1] :

يـا عاطل الجيد إلا من محاسنه عطّلتُ فيك الحشا إلا من الحزنِ
في سلك جسميَ دُرُّ الدمع منتظم فهل لجيدكَ في عقد بلا ثمن
لا تخش منى فإنّي كالنسيم ضنى وما النسيم بمخْشِيٍّ على الغصن

وهذا البيت مأخوذ من قول ابن قلاقس — وقد تقدم ذكره في ترجمته — وهو :

أعندما همت به روضة أعَلّ جسمي لأكون النسيم

ومن نثره في وصف النيل في سنة كان ناقصاً ، ولم يوف الزيادة التي جرت بها العادة، يقال إنّه كتبه من جملة رسالة إلى القاضي الفاضل ، وهو : « وأما أمر الماء فإنّه نضبت مشارعــه ، وتقطعت أصابعه ، وتيمم العمود لصلاة الاستسقاء ، وهم المقياس من الضعف بالاستلقاء » وهذا من أحسن ما يوصف به نقصان النيل .

وكان بمصر شاعر يقال له أبو المكارم هبة الله بن وزير بن مقلد الكاتب[2] ، فبلغ القاضي السعيد المذكور عنه أنّه هجاه ، فأحضره إليه وأدبه وشتمه ، وكتب[3] إليه نشو الملك أبو الحسن علي بن مفرج المعريّ الأصل ، المصري الدار والوفاة ، المعروف بابن المنجم ، الشاعر المعروف :

قل للسعيد أدام الله نعمتـه صديقنا ابن وزير كيف تظلمه
صَفَعْته إذ غدا يهجوك منتقما فكيف من بعد هذا ظلت تشتمه[4]
هجو بهجو ، وهذا الصفع فيه رِباً والشرع ما يقتضيه ، بل يحرمه

---

١ ديوانه : ٨٥٥ .
٢ ترجمته في الخريدة (قسم مصر) ٢ : ١٤٣ وانظر الحاشية .
٣ ص : فكتب .
٤ ر : من بعد هذا اذن قد ظلت تشتمه ؛ بر من : وأنت من بعد هذا .

فإن تقل ما لهجو عنده ألمٌ   فالصفعُ والله أيضاً ليس يؤلمه

ولما مدح السعيد المذكور شمس الدولة توران شاه أخا السلطان صلاح الدين – المقدم ذكره في حرف التاء – بقصيدته التي أولها[1] :

تقنعتُ لكنْ بالحبيبِ المعممِ   وفارقت لكن كل عيش مذمم

تعصب عليه جماعة من شعراء مصر ، وعابوا هذا الاستفتاح وهجنوه[2] ، فكتب إليه ابن الذروي[3] الشاعر المذكور في ترجمة سيف الدولة المبارك بن منقذ:

قل للسعيد مقال من هو معجب   منه بكل بديعةٍ ما أعجبا
لقصيدك الفضل المبين ، وإنّما   شعراؤنا جهلوا به المستغربا
عابوا التقنع بالحبيب ولو رأى   الطائي ما قد حكته لتعصبا

ونوادر القاضي السعيد كثيرة . وتوفي في العشر الأول من شهر رمضان ، سنة ثمان وستمائة بالقاهرة ، وذكر صاحبنا الكمال ابن الشعار في « عقود الجمان » أنّه توفي يوم الأربعاء ، رابع الشهر المذكور ، رحمه الله تعالى .

وذكره العماد الكاتب ، في كتاب « الخريدة » ، فقال[4] : كنت عند القاضي الفاضل في خيمته بمرج الدلهمية ، ثامن عشر ذي القعدة ، سنة سبعين يعني وخمسمائة ، فأطلعني على قصيدة له كتبها إليه من مصر ، وذكر أن سنه لم يبلغ إلى عشرين سنة ، فأعجبت بنظمه . ثم ذكر القصيدة العينية ، التي أولها :

فراقٌ قضى للهم والقلبِ بالجمعِ   وهَجْرٌ تولى صلح عيني مع الدمعِ .

وعلى هذا التقدير يكون مولده في حدود سنة خمسين وخمسمائة ، وقيل

---

١ ديوانه : ٦٩٦ .
٢ ر بر من والمختار : وهجوه .
٣ هو الوجيه أبو الحسن علي بن يحيى (الخريدة – قسم مصر – ١ : ١٨٧ والحاشية) .
٤ الخريدة ١ : ٦٤ – ٦٥ .

إنّه ولد سنة ثمان وأربعين . والله أعلم .

ثم قال العماد بعد الفراغ من ذكر هذه القصيدة : ثم وصل – يعني القاضي السعيد المذكور – إلى الشام . في شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وخمسمائة في الخدمة الفاضلية . فوجدته في الذكاء آية . قد أحرز في صناعة النظم والنثر غاية . تلقى عرابة العربية له باليمين راية . وقد ألحفه الإقبال الفاضلي في الفضل قبولا . وجعل طين خاطره على الفطنة مجبولا . وأنا أرجو أن ترقى في الصناعة رتبته ، وتغزر عند تمادي أيامه في العلم نغبته ، وتصفو من الصبا منقبته ، وتروى بماء الدربة رويته ، وتستكثر[1] فوائده ، وتؤثر قلائده[2] .

(300) وتوفي والده جعفر في منتصف شهر رمضان سنة ثمانين وخمسمائة. ثم رأيت بخط بعض أصحابنا ممّن له عناية بهذا الفن أنّه توفي يوم الثلاثاء خامس ذي الحجة سنة اثنتين وتسعين . ومولده منتصف شوال سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، والله أعلم .

(301) وأما أبو المكارم هبة الله بن وزير بن مقلد، الشاعر المصري المذكور في هذه الترجمة ، فإن عماد الدين الأصبهاني ذكره في كتاب « الخريدة » وقال : عدت إلى مصر في سنة ست وتسعين[3] وخمسمائة فسألت عنه فأخبرت بوفاته ، رحمه الله تعالى .

---

١ ص : وستكثر .

٢ هنا تنتهي الترجمة في : ع بر من .

٣ ص ر : ست وسبعين .

٧٧٨

هبة الله البوصيري

أبو القاسم وأبو الكرم ، هبة الله بن علي بن مسعود[١] بن ثابت بن هاشم بن غالب بن ثابت ، الأنصاري الخزرجي ، المُنَسْتيري الأصل ، المصري المولد والدار ، المعروف بالبوصيري ؛ كان أديباً كاتباً له سماعات عالية وروايات تفرد بها وألحق الأصاغر بالأكابر في علو الإسناد ، ولم يكن في آخر عصره في درجته مثله ، وسمع بقراءة الحافظ أبي الطاهر السّلفي وإبراهيم بن حاتم الأسدي على أبي صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المديني إمام الجامع العتيق بمصر ، رحمهم الله تعالى أجمعين — والبوصيري المذكور آخر من روى في الدنيا كلها عن أبي صادق مرشد بن يحيى بن القاسم المديني المذكور — وأبي الحسين علي بن الحسين ابن عمر الفراء الموصلي وأبي عبد الله محمد بن بركات هلال السعيدي النحوي سماعاً . وروى أيضاً عن أبي الفتح سلطان بن إبراهيم بن المسلم المقدسي ، وهو آخر من روى عنه سماعاً في الأرض كلها . وسمع عليه الناس وأكثروا ، ورحلوا إليه من البلاد . وكان جده مسعود[٢] قدم من المُنَسْتير إلى بوصير ، فأقام بها إلى أن عرف فضله في دولة المصريين ، فطُلب إلى مصر ، وكتب في ديوان الإنشاء وولد له علي والد أبي القاسم المذكور بمصر ، واستقروا بها وشهروا .

وكان أبو القاسم يسمى «سيد الاهل» أيضاً ، لكن هبة الله أشهر ؛ وكانت ولادته سنة ست وخمسمائة بمصر ، وقيل بل ولد يوم الخميس خامس ذي القعدة سنة خمسمائة . وتوفي في الليلة الثانية من صفر سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ،

---

٧٧٨ – انظر حسن المحاضرة ١ : ١٥٨ والنجوم الزاهرة ٦ : ١٨٢ ومرآة الجنان ٣ : ٤٠٩ والمشتبه : (بوصير) وعبر الذهبي ٤ : ٣٠٦ والشذرات ٤ : ٣٣٨ ؛ ولا تزيد هذه الترجمة في ق عن أربعة أسطر .

١ ق ن ص : سعود .

٢ ق ن ص : سعود ؛ ع : سعيد ؛ وسقطت اللفظة من : بر من .

ودفن بسفح المقطم ، رحمه الله تعالى ؛ وقال ياقوت الحموي في كتاب البلدان المشتركة الأسماء[1] : إنّه مات في شوال رحمه الله تعالى .

والخزرجي[2]: بفتح الخاء المعجمة وسكون الزاي وفتح الراء[3] وبعدها جيم ، هذه النسبة إلى الخزرج ، وهو أخو الأوس – بفتح الهمزة وسكون الواو وبعدها سين مهملة – وهما ابنا حارثة بن ثعلبة بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء ، وتمام النسب معروف ، وهما ابنا قَيْلة – بفتح القاف وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة – ومن ذريتهما أنصار النبي صلى الله عليه وسلّم بالمدينة .

والمُنَسْتير : بضم الميم وفتح النون وسكون السين المهملة وكسر التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ، وهي بليدة بإفريقية ، بناها هرثمة بن أعين الهاشمي في سنة ثمانين ومائة . وكان هارون الرشيد قد ولاّه إفريقية ، وقدم إليها[4] يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر سنة تسع وسبعين ومائة ، وقد تقدمت الحوالة على هذا الموضع في ترجمة الأمير تميم بن المعز بن باديس .

وبوصير : بضم الباء الموحدة وسكون الواو وكسر الصاد المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ، وتعرف ببوصير قوريدس ، ويقال كوريدس ، وهي بليدة بأعمال البهنسا من صعيد مصر ، وقد تقدم الكلام في ترجمة عبد الحميد الكاتب على بوصير[5] الفيوم ، وبالجيزة أيضاً بليدة يقال لها بوصير[5] السدر . وبكورة السمنودية أيضاً بليدة يقال لها بوصير ، فهذا الاسم يشترك فيه أربعة بلاد ، والكل بالديار المصرية .

والمنستير معبد بين المهدية وسوسة يأوي إليه الصالحون المنقطعون للعبادة ،

---

١ انظر المشترك : ٧٠ وفيه أنه مات في ثاني صفر .

٢ بر : والخزرجي قد تقدم الكلام عليه .

٣ ر : وبعدها راء مفتوحة .

٤ ر ع : عليها .

٥ ن : أبو صير .

وفيه قصور شبيهة بالخانقاهات وعلى تلك القصور سور واحد ، ذكره ياقوت في كتابه ، والله أعلم .

٧٧٩
أمين الدولة ابن التلميذ

أبو الحسن هبة الله بن أبي الغنائم صاعد بن هبة الله بن إبراهيم بن علي ، المعروف بابن التلميذ النصراني الطبيب ، الملقب أمين الدولة البغدادي ؛ ذكره العماد الأصبهاني في كتاب « الخريدة » فقال : سلطان الحكماء ، وبالَغَ في الثناء عليه وقال : هو مقصد العالم في علم الطب ، بقراط عصره وجالينوس زمانه ، خُتم به هذا العلم ، ولم يكن في الماضين من بلغ مداه في الطب ، عمر طويلاً وعاش نبيلاً جليلاً ، ورأيته وهو شيخ بهيُّ المنظر ، حسن الرواء ، عذب المجتلى والمجتنى ، لطيف الروح ظريف الشخص ، بعيد الهم عالي الهمة ، ذكي الخاطر مصيب الفكر حازم الرأي ، شيخ النصارى وقسيسهم ورأسهم ورئيسهم ، وله في النظم كلمات رائقة ، وحلاوة جنية ، وغزارة بهية ، ومن شعره في الميزان لغزاً :

ما واحدٌ مختلفُ الأسماء ... يعدلُ في الأرضِ وفي السماء
يحكم بالقسْطِ بلا رياء ... أعمى يُري الإرشادَ كلَّ راء
أخرسُ لا من علةٍ وداء ... يغنى عن التصريح بالإيماء
يجيبُ إن ناداه ذو امتراء ... بالرفع والخفض عن النداء
يفصحُ إن عُلّق في الهواء

---

٧٧٩ – ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ٢٧٦ وعبر الذهبي ٤ : ١٧٢ وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٥٩ وفيه قسط وافر من شعره ، وتاريخ الحكماء : ٣٤٠ .

فقوله « مختلف الأسماء » يعني ميزان الشمس ، وهو الاسطرلاب ، وسائر آلات الرصد ، وهو معنى قوله «يحكم في الأرض وفي السماء»، وميزان الكلام النحو ، وميزان الشعر العروض ، وميزان المعاني المنطق ، وهذه الميزان والمكيال والذراع وغير ذلك ؛ ثم ذكر بعد ذلك جملة من مقاطيع شعره نأتي بذكر بعضها إن شاء الله تعالى .

وذكر في ترجمة الحكيم معتمد الملك أبي الفرج يحيى بن التلميذ النصراني الطبيب [1] ما مثاله : وكان أبو الحسن ابن صاعد حين توفي معتمد الملك أبو الفرج قام مقامه ، وهو ابن بنته ، فنسب إليه وعرف به .

وذكر في كتاب « أنموذج الأعيان من شعراء الزمان ، فيمن أدرك بالسماع أو بالعيان [2] » أن ابن التلميذ المذكور كان متفنناً في العلوم ذا رأي رصين وعقل متين ، وطالت خدمته للخلفاء والملوك ، وكانت منادمته أحسن من التبر المسبوك والدر في السلوك ، اجتمعت به مراراً في آخر عمره ، وكنت أعجب في [3] أمره ، كيف حرم الإسلام مع كمال فهمه ، وغزارة عقله وعلمه ، والله يهدي من يشاء بفضله ، ويضل من يريد بحكمه . وكان إذا ترسل استطال وسطا ، وإذا نظم وقع بين أرباب النظم وسطا ؛ وأورد شيئاً من شعره أيضاً .

وذكره أبو المعالي الحظيري — المقدم ذكره في حرف السين [4] — في كتابه « زينة الدهر » وأورد له مقاطيع ، فمن ذلك قوله :

يا من رماني عن قوس فرقته ... بسهم هَجْرٍ على تلافيه
ارض لمن غابَ عنك غيبته ... فذاك ذنبٌ عقابُهُ فيه

وذكر العماد في « الخريدة » البيت الثاني منسوباً إلى أبي محمد ابن جكينا البغدادي ، وضم إليه بعده :

لو لم ينله من العقاب سوى ... بعدك عنه لكان يكفيه

---

١ ترجمة معتمد الملك في أخبار الحكماء : ٣٦٤ .
٢ ص ر : والعيان .
٣ ص : من .
٤ ج ٢ : ٣٦٦ .

وذكر له الحظيري أيضاً :

عاتبت إذ لم يزر خيالك والـ نومُ بشوقي إليك مسلوب
فزارني منعماً وعاتبني كما يقال المنام مقلوب

ومما ذكر له العماد في « الخريدة » قال : وأنشدني أبو المعالي هبة الله بن الحسن بن محمد بن المطلب قال : أنشدني أبو الحسن ابن التلميذ لنفسه :

كانت بلهنية الشبيبة سكرةً فصحوت واستأنفت سيرة مجملِ
وقعدت أرتقب الفناء كراكبٍ عرف المحل فبات دون المنزل

والثاني منهما ذكره ابن المنجم في كتاب «البارع » لمسلم بن الوليد الأنصاري[1] .
وذكر أن أبا محمد ابن جكينا المذكور مرض فقصده ليعالجه فعالجه ، فلما عوفي أعطاه دراهم ، فعمل فيه :

لما تيممته وبي مرض إلى التداوي والبرء محتاجُ
آسى وواسى فعدت أشكره فِعْلَ امرىء للهموم فراج
فقلت إذ برّني وأبرأني هذا طبيب عليه زرباج[2]

وعمل فيه أيضاً في المعنى :

جاد واستنقذ المريض وقد كا د ضنى أن يلف ساقاً بساقِ
والذي يدفع المنون عن النفـ ـس جدير بقسمة الأرزاق

وقصد مرة أن يعبر إليه دجلة ليداويه ، فكتب إليه :

---

١ زاد في ن ص : وقد استعمله ابن التلميذ ها هنا تضميناً ، ر : وقد استعمله ها هنا ابن التلميذ مضمناً .

٢ هكذا وردت اللفظة في المختار والنسخ ن ص ق ع ؛ بالباء الموحدة ، وفي بعض أصول دي سلان زرياج أو ذرياج . وقدر أن تكون صورة من ترياق ؛ ولعلها من الفارسية « زورباز » أي قوة الساعد .

إن امرأ القيس الذي هام بذات المحمل
كان شفاه عَبْرة وعـبرة تصلح لي

وكان ابن جكينا المذكور قد عمي في آخر عمره ، وجرت بينهما منافرة في أمر واشتهى مصالحته[1] ، فكتب إليه :

وإذا شئت أن تصالح بشا ر بن برد فاطرح عليه أباه

فسير إليه ما طلب واسترضاه ؛ وكانت له معه وقائع كثيرة ، وإنّما كتب إليه هذا البيت لأن بشار بن برد كان أعمى – كما تقدم ذكره في ترجمته – فلما عمي شبه نفسه به ، وكان مطلوبه برداً .

ومعنى قوله « فاطرح عليه أباه » لأن عادة أهل بغداد إذا أراد الإنسان أن يصالح من خاصمه ، والخصم ممتنع ، يقال له : اطرح عليه فلاناً ، بمعنى ادخل عليه به ، ليشفع له ، وقد حصلت له التورية في هذا البيت .

ومن الشعر المنسوب إليه وهو مشهور قوله ، ثم وجدتّهما للناصح ابن الدهان النحوي الموصلي :

تَعِس القياس فللغرام قضيةٌ ليست على نهج الحجى تنقادُ
منها بقاءُ الشوق وهو بزعمهم عَرَضٌ وتفنى دونه الأجساد

وقوله أيضاً ، وذكر العماد في « الخريدة » أن هذين البيتين لأبي علي المهندس المصرى ، وهما :

تقسم قلبي في محبة معشرٍ بكلّ فتى منهم هواي منوطُ
كأن فؤادي مركزٌ وهمُ له محيطٌ وأهوائي إليه خطوط

وقوله أيضاً :

جودهُ كالطبيب فينا يداوي سوءَ أحوالنا بحسنِ الصنيعِ

---

[1] ر : أن يصالحه .

فهو كالموميا إذا انكسر العظـ ـمُ ، ومثل الترياق للملسوع

ثم وجدت هذين البيتين في ديوان ابن حجاج الشاعر .

وقوله في ولده سعيد :

حبي سعيداً جوهرٌ ثابتٌ وحبه لي عرَضٌ زائلُ
بـه جهاتي الستُّ مشغولةٌ وهو إلى غيري بها مائل

وكان أبو القاسم علي بن أفلح الشاعر — المقدم ذكره[1] — قد نقه من المرض وهو يعالجه ، فكتب إليه يشكو جوعه ، وقد نهاه عن استعمال الغذاء إلا بأمره ، والذي كتبه[2] :

أنـا جوعان فأنقذ نيَ من هذي المجاعهْ
فرَجي في الكسرة الخبـ ـزِ ولو كانت قطاعه
لا تقلْ لي ساعةً تصـ ـبرُ ، مالي صبر ساعه
فخواي اليوم لا يقـ ـبل في الخبز شفاعـه

فوقف ابن التلميذ على هذه الأبيات وكتب إليه جوابها :

هـكذا أضيافُ مثلي يتشاكَوْنَ المجاعــه
غير أني لست أعطيـ ـك مُضراً بشفاعــه
فتعلـلْ بسويـــقٍ فهو خير من قطاعه
بحيـاتي قـل كما نـر سمه سمعـاً وطاعه

فلما وصلت الأبيات إلى ابن أفلح كتب[3] :

إن مرسومك عنـدي قد توخيتُ استماعـه

---

١ انظر ج ٣ : ٣٨٩ (الترجمة : ٤٧٦) .

٢ انظر بعض هذه المحاورة الشعرية في ابن أبي أصيبعة .

٣ ن : كتب جوابه ؛ ر : جوابها ؛ بر من ص : الجواب .

غير أني لم أقل من نيّتي سمعاً وطاعه
ودفعتُ الجوعَ والله فلم أسطعْ دفاعه
فاكفني كلفته الآن وأربحني[1] صداعه

فكتب إليه ابن التلميذ :

أنا في الشعر ضعيفُ الطبعِ منزورُ البضاعه
ولك الخاطرُ قد أوتيَ طبعاً وصناعه
ومتى لم تُكْفَ شرَّ الجوع لم أُكْفَ صداعه
فعلى اسم الله قدِّمْ أخذه من بعد ساعه

(302) وكان بين ابن التلميذ المذكور وبين أوحد الزمان أبي البركات هبة الله ابن علي بن ملكان[2] الحكيم المشهور صاحب كتاب « المعتبر »[3] في الحكمة تنافر وتنافس كما جرت العادة بمثله بين أهل كل فضيلة وصنعة ، ولهما في ذلك أمور ومجالس مشهورة ، وكان يهودياً ثم أسلم في آخر عمره ، وأصابه الجذام فعالج نفسه بتسليط الأفاعي على جسده بعد أن جوّعها ، فبالغت في نَهْشه ، فبرىء من الجذام وعمي ، وقصته في ذلك مشهورة ، فعمل فيه ابن التلميذ المذكور :

لنا صديق يهودي حماقتُه إذا تكلم تبدو فيه من فيه
يتيهُ والكلب أعلى منه منزلةً كأنّه بعدُ لم يخرج من التيه

---

[1] ق ر : وارحني من .

[2] ترجمة أوحد الزمان في تاريخ الحكماء : ٣٤٣ وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٥٩ وفي كليهما « ابن ملكا » – دون نون – وكذلك في هذا الموضع من النسخ ص ع والمختار ، إلا أن المؤلف حين ضبطه في آخر الترجمة ذكر فيه النون ، وكذلك ورد الضبط في ع ص اللتين سقطت النون فيهما في هذا الموضع .

[3] يعد هذا الكتاب من أجل كتب أوحد الزمان ، قال القفطي « أخلاه من النوع الرياضي وأتى فيه بالمنطق والطبيعي والإلهي فجاءت عبارته فصيحة ومقاصده في ذلك الطريق صحيحة وهو أحسن كتاب صنف في هذا الشان في هذا الزمان » .

وكان ابن التلميذ كثير التواضع ، وأوحد الزمان متكبراً ، فعمل فيهما البديع الأسطرلابي المقدم ذكره[1] :

أبو الحسن الطبيبُ ومُقْتفيه أبو البركات في طَرَفيْ نقيضِ
فهـذا بالتّواضـع في الثريّا وهـذا بالتكبر في الحضيض

ولابن التلميذ في الطب تصانيف مليحة ، فمن ذلك كتاب « أقراباذين » وهو نافع في بابه ، وبه عمل أطباء هذا الزمان . وله كناش وحواش على كليات ابن سينا ، وغير ذلك .

(303) وكان شيخه في الطب أبا الحسن هبة الله بن سعيد[2] صاحب التصانيف المشهورة . منها كتاب « التلخيص » و « المغني » في الطب وهو جزء واحد ، وكتاب « الإقناع » وهو أربعة أجزاء ، وقد انتقدوا عليه هذه التسمية وقالوا : كان ينبغي أن يكون الأمر بالعكس ، لأن المغني هو الذي يغني عن غيره ، فكان الكتاب الأكبر أولى بهذا الاسم ، والإقناع هو الذي تقع القناعة به، فالمختصر أولى بهذا الاسم . وله كل شيء مليح من تصنيف في طب أو أدب .

وكان حسن السّمْت كثير الوقار[3] ، حتى قيل إنّه لم يسمع منه بدار الخلافة مدة تردداه إليها شيء من المجون سوى مرة واحدة بحضرة المقتفي الخليفة ، وذلك أنّه كان له راتب بدار القوارير ببغداد ، فقطع ولم يعلم به الخليفة ، فاتفق أنّه كان عنده يوماً ، فلما عزم على القيام لم يقدر عليه إلا بكلفة ومشقة من الكبر ، فقال له المقتفي : كبرت يا حكيم ، فقال : نعم يا مولانا ، وتكسرت قواريري ، وهذا في اصطلاح أهل بغداد أن الإنسان إذا كبر يقال « تكسرت قواريره » فلما قال الحكيم هذه اللفظة ، قال الخليفة : هذا الحكيم لم أسمع منه

---

١ انظر تاريخ الحكماء : ٣٤٦ .

٢ كذا في النسخ ؛ وترجم له ابن أبي أصيبعة باسم أبي الحسن سعيد بن هبة الله بن الحسين ، وقد توفي سنة ٤٩٥ ، وقصة تسميته للمغني والاقناع مذكورة في ابن ابي أصيبعة .

٣ هنا عاد الحديث إلى ابن التلميذ (انظر أخبار الحكماء : ٣٤١) والجملة السابقة « وله كل شيء مليح من تصنيف في طب أو أدب » لا يدرى إلى من تنصرف من الرجلين ، فان المؤلف هنا وصل الكلام دون فصل موضح .

هزلاً منذ خدمنا ، فاكشفوا قضيته ، فكشفوها فوجدوا راتبه بدار القوارير قد انقطع ، فطالعوا الخليفة بذلك[1] ، فتقدم بردها عليه ، وكان الذي قد قطعه الوزير عون الدين بن هُبيرة ، وزاده إقطاعاً آخر[2] ، وأخباره كثيرة[3] .

وتوفي في صفر سنة ستين وخمسمائة ببغداد ، وقد ناهز المائة من عمره ، وقال ابن الأزرق الفارقي في تاريخه : مات ابن التلميذ في عيد النصارى . وكان قد جمع من سائر العلوم ما لم يجتمع في غيره ، ولم يبق ببغداد من الجانبين من لم يحضر البيعة وشهد جنازته .

وليس في هذه الترجمة ما يحتاج إلى التقييد سوى مَلْكان جَدّ أوحد الزمان — وهو بفتح الميم والكاف وبينهما لام ساكنة وبعد الألف نون .

وقد تقدم في ترجمة ابن الجواليقي ما دار بينهما بحضرة الإمام المقتفي[4] .

قلت : وبعد فراغي من ترجمة أمين الدولة ابن التلميذ المذكور وقفت على كتاب جَمَعه شيخُنا موفق الدين أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف البغدادي ، وجعله سيرة لنفسه ، وجميعه بخطه ، وذكر في أوائله ابن التلميذ ، ووصفه بالعلم في صناعة الطب وإصابته ، ثم قال : ومنها أنّه أُحضرت إليه امرأة محمولة لا يعرف أهلها في الحياة هي أم في الممات ، وكان الزمان شتاء ، فأمر بتجريدها ، وصبّ عليها الماء المبرد صبّاً متتابعاً كثيراً ، ثم أمر بنقلها إلى مجلس دفيء قد

---

١ ر : فطالبوا الخليفة بردها .

٢ علق ابن المؤلف في المختار عند هذا الموضع بايراد حكاية مشابهة ، وهي حكاية أحد الخلفاء ، وكيف زار المدينة وسأل عن فتىً يعرفه بمعالمها وأحوالها وما فيها من مياه ومنازل وقبائل .. الخ وأن الخليفة وعده عطاء وكان الفتى معسراً ، ثم نسي الأمر ، فلما وقف الفتى على أحد البيوت قال للخليفة ، يا أمير المؤمنين: هذا بيت عاتكة الذي يقول فيه الأحوص « يا بيت عاتكة الذي تعزل » ، فاستغرب الخليفة ذلك لأن الفتى لم يكن يبدأه القول حتى يسأله ، فسرد الخليفة القصيدة في نفسه فوقف عند قول الشاعر فيها :

وأراك تصدق ما تقول وبعضهم ... مذق الكلام يقول ما لا يفعل

ففطن لوعده ؛ وانما لخصنا الحكاية لأنها مبتورة في المختار بسبب ضياع أوراق في هذا الموضع .

٣ ر : وأخباره ونوادره كثيرة .

٤ هنا تنتهي الترجمة في : ع بر من .

بُخّر بالعود والند ، ودفئت [1] بأصناف الفراء ساعة ، فعطست وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع أهلها إلى منزلها .

ومنها : أنّه أُتي مرّة بمريض [2] يعرق دماً في زمن الصيف ، فسأل تلاميذه قدر خمسين نفساً ، فلم يعرفوا المرض ، فأمره بأكل خبز شعير مع باذنجان مشويّ ، ففعل ذلك ثلاثة أيام ، فبرىء ، وسأله أصحابه عن العلة ، فقال : إن دمه قد رق ومسامّه قد انفتحت ، وهذا الغذاء من شأنه تغليظ الدم وتكثيف المسام .

ومن مروءته أن ظهر داره كان يلي المدرسة النظامية ، فإذا مرض فقيه نقله إليه وقام في مرضه عليه ، فإذا أبلّ وهب له دينارين وصرفه .

(304) وذكر شيخنا موفق الدين قبل هذا أن ولد أمين الدولة المذكور كان شيخه وانتفع به ، وكان شيخاً قد ناهز ثمانين سنة ، ولديه تجربة فاضلة وغوص على أسرار الطبيعة ، يرى الأمراض كأنّها من وراء زجاج ، لا يعتريه فيها ولا في مداواتها شك ، وكان أكثر ما يصف المفردات أو ما يقل تركيبه ، ولم أر من يستحق اسم الطب غيره . وكان يقول : ينبغي للعاقل أن يختار من اللباس ما لا تحسده عليه العامة ، ولا تحتقره فيه الخاصة ، وكذا كان لباسه الأبيض الرفيع .

ثم قال : وخنق في دهليز داره الثلث الأول من الليل ، وكان قد أسلم قبل موته ، وفي نفسي عليه [3] حسرات ، رحمه الله تعالى ؛ نقلته ملخصاً .

---

١ ر ن : ودثرت .

٢ ص ر ن : ودخل اليه رجل مترف .

٣ ن ص ر : منه .

٧٨٠
هارون ابن المنجم

أبو عبد الله هارون بن علي بن يحيى بن أبي منصور ، المنجم البغدادي الأديب الفاضل ؛ — وقد تقدم ذكر ولده عليّ في حرف العين [1] — وكان هارون المذكور حافظاً راوية للأشعار ، حسن المنادمة لطيف المجالسة .

صنف كتاب « البارع » في أخبار الشعراء المولدين ، وجمع فيه مائة وواحداً وستين شاعراً ، وافتتحه بذكر بشار بن برد العقيلي ، وختمه بمحمد بن عبد الملك ابن صالح ، واختار فيه من شعر كل واحد عيونه ، وقال في أوله : إنّي لمّا عملت كتابي في أخبار الشعراء المولدين ذكرت ما اخترته من أشعارهم ، وتحريت في ذلك الاختيار أقصى ما بلغته معرفتي وانتهى إليه علمي ، والعلماء تقول : دلّ على عاقل [2] اختيارُه ، وقالوا : اختيار الرجل من وفور عقله ، وقال بعضهم : شعر الرجل قطعة من كلامه ، وظنّه قطعة من عقله ، واختياره قطعة من علمه . وطوّل الكلام في هذا ، وذكر أن هذا الكتاب مختصر من كتاب ألفه قبل هذا في هذا الفن ، وأنّه كان طويلاً فحذف منه أشياء واقتصر على هذا القدر ، وبالجملة فإنّه من الكتب النفيسة ، فإنّه يغني عن دواوين الجماعة الذين ذكرهم ، فإنّه مخض أشعارهم وأثبت منها زبدتها وترك زَبَدها ؛ وهذا الكتاب هو الذي ذكرته في ترجمة العماد الكاتب الأصبهاني وقلت : إن كتاب « الخريدة » وكتاب الحظيري والباخَرْزِي والثعالبي فروع عليه ، وهو الأصل الذي نسجوا على منواله . وله كتاب « النساء وما جاء فيهن من الخبر ومحاسن ما قيل فيهن من الشعر

....

٧٨٠ — ترجمته في الفهرست : ١٤٤ ومعجم المرزباني : ٤٨٥ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٦٢ ومرآة الجنان ٢ : ٤١ وحماسة ابن الشجري : ٢٤٢ ، وزاد في نسبه في ص ر : واسم أبي منصور أبان جشنس .

[1] انظر ج ٣ : ٣٧٥ .

[2] ر : كلّ عاقل .

والكلام الحسن » ولم أظفر له بشيء من الشعر حتى أورده . وذكر هو في كتابه « البارع » المذكور أباه أبا الحسن علي بن يحيى بن أبي منصور ، وسرد له مقاطيع – وقد ذكرته في ترجمة مفردة في حرف العين فلينظر هناك[1] – ثم أردفه بذكر أخيه يحيى بن علي بن يحيى ، وعدّ له جملة مقاطيع أوردها ، ولا حاجة بنا إلى ذكرها في هذا الموضع ، بل نذكرها في ترجمته ، إن شاء الله تعالى .

وتوفي أبو عبد الله المذكور سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وهو حدث السن ، رحمه الله تعالى ، وسيأتي ذكر أخيه يحيى بن علي في حرف الياء إن شاء الله تعالى .

وكان أبو منصور جد أبيه منجم أبي جعفر المنصور أمير المؤمنين ، وكان مجوسياً .

(305) وكان ابنه يحيى متصلاً بذي الرياستين الفضل بن سهل – المقدم ذكره – وكان الفضل يعمل برأيه في أحكام النجوم ، فلما حدثت الكائنة على الفضل – حسبما ذكرناها في ترجمته – صار يحيى المذكور منجم المأمون ونديمه ، فاجتباه واختص به ، ورغبه في الإسلام فأسلم على يده ، فصار بذلك مولاه .

وهم أهل بيت منهم[2] جماعة من الفضلاء والأدباء والشعراء ، وجالسوا الخلفاء ونادموهم ، وقد عقد لهم الثعالبي في كتاب « اليتيمة »[3] باباً مستقلا ، وذكر فيه جماعة منهم ، رحمهم الله تعالى .

وتوفي يحيى المذكور بحلب عند خروج المأمون إلى طرسوس ، ودفن بها في مقابر قريش ، فقبره هناك مكتوب عليه اسمه[4] .

---

١ انظر ج ٣ : ٣٧٣ .

٢ ع ر ن : فيهم .

٣ انظر اليتيمة ٣ : ٣٩٢ – ٣٩٥ .

٤ اسمه : سقطت من ر بر من ص ع ؛ ن : فقبره هناك مشهور ، والله أعلم بالصواب .

٧٨١
هشام بن عروة

أبو المنذر هشام بن عُرْوَة بن الزبير بن العوام ، القرشي الأسدي ، — قد تقدم ذكر أبيه في حرف العين[1] — ؛ وكان هشام أحد تابعي المدينة المشهورين المكثرين في الحديث ، المعدودين من أكابر العلماء وجلة التابعين ، وهو معدود في الطبقة الرابعة من أهل المدينة ، رضي الله عنهم .

وسمع عمه عبد الله بن الزبير وابن عمر ، رضي الله عنهما ، ورأى جابر ابن عبد الله الأنصاري وأنس بن مالك وسهل بن سعد ، وقيل إنّه رأى ابن عمر ولم يسمع منه ، وروى عنه يحيى بن سعيد الأنصاري وسفيان الثوري ومالك ابن أنس وأيوب السختياني وابن جريج وعبيد الله بن عبد الله بن عمر[2] والليث ابن سعد وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد القطان ووكيع وغيرهم . وقدم الكوفة أيام أبي جعفر المنصور فسمع منه الكوفيون .

وكانت ولادته سنة إحدى وستين للهجرة ، وقال أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن محمد الذهلي : ولد عمر بن عبد العزيز وهشام بن عروة والزهري وقتادة والأعمش ليالي قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، وكان قتله يوم عاشوراء سنة إحدى وستين للهجرة . وقدم بغداد على المنصور ، وتوفي بها سنة ست وأربعين ومائة ، وقيل سنة خمس وأربعين ، وقيل سنة سبع ، رضي الله عنه ، وصلى عليه المنصور ، ودفن بمقبرة الخيزران بالجانب الشرقي ، وقيل

---

٧٨١ – ترجمته في نسب قريش : ٢٤٨ وتاريخ بغداد ١٤ : ٤٧ ومرآة الجنان ١ : ٣٠٢ وتهذيب التهذيب ١١ : ٤٨ ورجال ابن حبان : ٨٠ وتذكرة الحفاظ : ١٤٤ وعبر الذهبي ١ : ٢٠٦ وميزان الاعتدال ٤ : ٣٠١ .

١ انظر ج ٣ : ٢٥٥ .

٢ بن عبد الله : سقطت من ن ع ؛ بن عمر : سقطت من ص ؛ بر : وعبد الله بن عمر .

بل قبره بالجانب الغربي خارج السوق نحو باب قطربل وراء الخندق على[1] مقابر باب حرب ، وهو ظاهر هناك معروف ، وعليه لوح منقوش أنّه قبر هشام بن عروة ، ومن قال إنّه بالجانب الشرقي قال : إن القبر الذي بالجانب الغربي هو قبر هشام بن عروة المروزي[2] صاحب عبد الله بن المبارك . والله أعلم .

وله عقب بالمدينة وبالبصرة[3] .

وذكر الخطيب في « تاريخ بغداد »[4] أن المنصور قال له يوماً : يا أبا المنذر ، تذكر يوم دخلت عليك أنا وإخوتي الخلائف وأنت تشرب سويقاً بقصبة يراع ، فلما خرجنا من عندك قال لنا أبونا : اعرفوا لهذا الشيخ حقّه ، فإنّه لا يزال في قومكم بقية ما بقي ، فقال : لا أذكر ذلك يا أمير المؤمنين . فلما خرج هشام قيل له : يذكرك أمير المؤمنين ما تمتُّ به إليه فتقول لا أذكره ! فقال : لم أكن أذكر ذلك ، ولم يعودني الله في الصدق إلا خيراً .

وروي عنه[5] أنّه دخل على المنصور فقال : يا أمير المؤمنين ، اقض عني ديني ، قال : وكم دينك ؟ قال : مائة ألف ، قال : وأنت في فقهك وفضلك تأخذ ديناً مائة ألف ليس عندك قضاؤها ؟ فقال : يا أمير المؤمنين شبَّ فتيان من فتياننا ، فأحببت أن أبوئهم ، وخشيت أن ينتشر[6] علي من أمرهم ما أكره ، فبوأتهم واتخذت لهم منازل وأولمتُ عنهم ثقة بالله وبأمير المؤمنين ، قال : فردد عليه مائة ألف ! ! استعظاماً لها ، ثم قال : قد أمرنا لك بعشرة آلاف[7] ، فقال : يا أمير المؤمنين ، أعطني ما أعطيت وأنت طيب النفس ، فإنّي سمعت أبي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أنّه قال « من أعطى عطية وهو بها طيب النفس بورك للمعطي وللمعطى » قال : فإنّي طيب النفس بها ، وأهوى إلى يد المنصور

---

١ ع ن ص بز من : أعلى .

٢ ن : المزني المروزي .

٣ انظر صفحات متفرقة من كتاب نسب جمهرة قريش .

٤ تاريخ بغداد ١٤ : ٣٩ .

٥ المصدر السابق .

٦ ق والمختار : ينشر .

٧ ص : بعشرة ألف درهم ، المختار : بعشرة ألف .

يريد أن يقبلها فمنعه وقال : يا ابن عروة ، إنّا نكرمك عنها ونكرمها عن غيرك .
وأخباره كثيرة ، رضي الله عنه .

٧٨٢
هشام ابن الكلبي

أبو المنذر هشام بن أبي النضر محمد بن السائب بن بشر بن عمرو ، الكلبي النسابة الكوفي ؛ — قد تقدم ذكر أبيه في المحمدين وما جرى له مع الفرزدق الشاعر — وحدث هشام عن أبيه وروى عنه ابنُه العباس ، وخليفة بن خياط ، ومحمد بن سعد كاتب الواقدي ، ومحمد بن أبي [1] السري البغدادي ، وأبو الأشعث أحمد بن المقدام وغيرهم . وكان من أعلم الناس بعلم الأنساب ، وله كتاب « الجمهرة » في النسب وهو من محاسن الكتب في هذا الفن ، وكان من الحفاظ المشاهير .

ذكر الخطيب في « تاريخ بغداد » عنه أنّه دخل بغداد وحدث بها ، وأنّه قال : حفظت ما لم يحفظه أحد ونسيت ما لم ينسه أحد ، كان لي عم يعاتبني على حفظ القرآن ، فدخلت بيتاً وحلفت أن لا أخرج منه حتى أحفظ القرآن ، فحفظته في ثلاثة أيام ، ونظرت يوماً في المرآة فقبضت على لحيتي لآخذ ما دون القبضة فأخذت ما فوق القبضة .

وله من التصانيف شيء كثير ، فمن ذلك كتاب « حلْف عبد المطلب وخزاعة » وكتاب « حلف الفضول » وكتاب « حلف تميم وكلب » وكتاب

---

٧٨٢ — ترجمته في الفهرست : ٩٥ وتاريخ بغداد ١٤ : ٤٥ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٨٧ ولسان الميزان ٦ : ١٩٦ وعبر الذهبي ١ : ٧٤٦ ومرآة الجنان ٢ : ٢٩ وتاريخ ابن خلدون ٢ : ٢٦٢ ونزهة الألباء : ٥٩ ونور القبس : ٢٩١ وميزان الاعتدال ٤ : ٣٠٤ .

١ أبي : سقطت من المختار .

« المنافرات » وكتاب « بيوتات قريش » وكتاب « فضائل قيس عيلان » وكتاب « الموءودات »[1] وكتاب « بيوتات ربيعة » وكتاب « الكنى » وكتاب « شرف قُصَي وولده في الجاهلية والإسلام » وكتاب « ألقاب قريش » وكتاب « ألقاب اليمن » وكتاب « المثالب » وكتاب « النوافل »[2] وكتاب « ادعاء زياد معاوية » وكتاب « أخبار زياد بن أبيه » وكتاب « صنائع قريش » وكتاب « المشاجرات » وكتاب « المعاتبات »[3] وكتاب « ملوك الطوائف » وكتاب « ملوك كندة » وكتاب « افتراق ولد نزار » وكتاب « تفريق[4] الأزد » وكتاب « طَسْم وجديس » وتصانيفه تزيد على مائة وخمسين تصنيفاً ، وأحسنها وأنفعها كتابه المعروف بالجمهرة في معرفة الأنساب ، ولم يصنف في بابه مثله ، وكتابه الذي سماه « المنزل » في النسب أيضاً ، وهو أكبر من الجمهرة ، وكتاب « الموجز » في النسب ، وكتاب[5] « الفريد » صنفه للمأمون في الأنساب ، وكتابه « الملوكي » صنفه لجعفر بن يحيى البرمكي في النسب أيضاً .

وكان واسع الرواية لأيام الناس وأخبارهم ، فمن روايته أنّه قال : اجتمعت بنو أمية عند معاوية بن أبي سفيان ، فعاتبوه في تفضيل عمرو بن العاص وادعاء زياد بن أبيه ، فتكلم معاوية ، ثم حرك عمراً على الكلام ، فقال في بعض كلامه : أنا الذي أقول في يوم صفين[6] :

إذا تخازرت وما بي من خَزَرْ ثم كسرتُ العين من غير عَوَرْ
ألْفَيْتَني ألوى بعيد المستمر أحمل ما حُمّلْتُ من خير وشر
كالحية الصماء في أصل الشجر

---

١ ص : المودات .

٢ وكتاب النوافل : سقط من ص ن ؛ ع : النواقل .

٣ ص : المعاينات .

٤ الفهرست : تفرق .

٥ ص ن : وكتابه .

٦ انظر الرجز وتخريجه في فصل المقال : ١١٧ .

أما والله ما أنا بالواني ولا الفاني ، وإنّي أنا الحية الصماء التي لا يسلم سليمها ، ولا ينام كليمها ، وإنّي أنا المرء إن همزت كسرت ، وإن كويت أنضجت ، فمن شاء فليشاور ، ومن شاء فليؤامر ، مع أنهم والله لو عاينوا من يوم الهرير ما عاينت أو لو ولوا ما وليت لضاق عليهم المخرج ، ولتفاقم بهم[1] المنهج ، إذ شد علينا أبو الحسن وعن يمينه وشماله المباشرون من أهل البصائر وكرام العشائر ، فهناك والله شخصت الأبصار ، وارتفع الشرار ، وتقلصت الخصى إلى مواضع الكلى ، وقارعت الأمهات عن ثكلها ، وذهلت عن حملها ، واحمرت الحدق ، واغبر الأفق ، وألجم العرق ، وسال العلق ، وثار القتام ، وصبر الكرام ، وخام اللئام ، وذهب الكلام ، وأزبدت الأشداق ، وكثر العناق ، وقامت الحرب على ساق ، وحضر الفراق ، وتضاربت الرجال بأغماد سيوفها بعد فناء من نبلها وتقصُّف من رماحها ، فلا يسمع يومئذ إلا التغمغم من الرجال ، والتحمحم من الخيل ، ووقعٌ السيوف على الهام كأنّه دق غاسل بخشبته على منصبه ، ندأب ذلك يوماً حتى ظعن الليل بغسقه ، وأقبل الصبح بفلقه ، ثم لم يبق من القتال إلا الهرير والزئير ، لعلمتم أنّي أحسن بلاء ، وأعظم غناء ، وأصبر على اللأواء منكم ، وإنّي وإياكم كما قال الشاعر :

وأغضي على أشياء لو شئت قلتها ... ولو قلتها لم أبق للصلح موضعا
وإن كان عودي من نُضار فإنني ... لأكرمه من أن أخاطر خروعا

والمأثور عنه كثير .

وتوفي سنة أربع ومائتين ، وقيل سنة ست ، والأول أصح ، والله أعلم بالصواب ، رحمه الله تعالى .

---

[1] ر : عليهم .

٧٨٣
هشام صاحب الكسائي

أبو عبد الله هشام بن معاوية الضرير ، النحوي الكوفي ، صاحب أبي الحسن علي بن حمزة الكسائي ؛ أخذ عنه كثيراً من النحو ، وله فيه مقالة تُعْزى إليه ، وله فيه تصانيف عديدة ، فمن ذلك كتاب « الحدود » وهو صغير ، وكتاب « المختصر » وكتاب « القياس » وغير ذلك .

وكان إسحاق بن إبراهيم بن مصعب قد كلم المأمون يوماً ، فلحن في بعض كلامه ، فنظر إليه المأمون ففطن لما أراد ، فخرج من عنده ، وجاء إلى هشام المذكور فتعلم عليه النحو .

قال أبو مالك الكندي : توفي هشام بن معاوية الضرير النحوي سنة تسع ومائتين ، رحمه الله تعالى .

---

٧٨٣ – ترجمته في إنباه الرواة ٣ : ٣٦٤ وانظر الحاشية ، ونور القبس : ٣٠٢ وأهمل صاحب المختار هذه الترجمة .

٧٨٤
الفرزدق

أبو فراس همام – وقال ابن قتيبة في « طبقات الشعراء » : هميم بالتصغير [١] ابن غالب ، وكنيته أبو الأخطل ، ابن صعصعة بن ناجية بن عقال بن محمد بن سفيان بن مجاشع بن دارم ، واسمه بحر ، بن مالك ، واسمه عوف سمي بذلك لجوده ، ابن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم بن مرّ ، التميمي ، المعروف بالفرزدق ، الشاعر المشهور صاحب جرير .

(306) كان أبوه غالب من جلة قومه وسرواتهم ،وأمّه ليلى بنت حابس أخت الأقرع بن حابس . ولأبيه مناقب مشهورة ومحامد مأثورة، فمن ذلك أنّه أصاب أهلَ الكوفة مجاعةٌ وهو بها فخرج أكثر الناس إلى البوادي . فكان هو رئيس قومه، وكان سحيم بن وثيل الرياحي رئيس قومه ، واجتمعوا بمكان يقال له صَوْأر في أطراف السماوة من بلاد كلب على مسيرة يوم من الكوفة – وهو بفتح الصاد المهملة وسكون الواو وفتح الهمزة وبعدها راء – فعقَرَ غالب لأهله ناقة وصنع [٢] منها طعاماً، وأهدى إلى قوم من بني تميم لهم جلالة جفاناً من ثريد، ووجه إلى سحيم جفنة ، فكفأها وضرب الذي أتاه بها وقال : أنا مفتقر إلى طعام غالب ؟ إذا نحر هو ناقة نحرت أنا أُخرى ، فوقعت المنافرة بينهما ، وعقر [٣] سحيم لأهله ناقة ، فلما كان من الغد عقر لهم غالب ناقتين ، فعقر سحيم لأهله [٤] ناقتين ،

---

٧٨٤ – ترجمته في الشعر والشعراء : ٣٨١ والأغاني (الساسي) ٨ : ١٨٠ ، ١٩ : ٢ والموشح : ٩٩ وطبقات ابن سلام : ٧٥ والشريشي ١ : ١٤٢ والخزانة ١ : ١٠٥ وشرح شواهد المغني : ٤ وأمالي المرتضى ١ : ٤٣ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٩٧ ومرآة الجنان ١ : ٢٣٤ وعبر الذهبي ١ : ٢٣٦ والشذرات ١ : ١٤١ ومعاهد التنصيص ١ : ٤٥ وراجع بروكلمان (الترجمة العربية) ١ : ٢٠٩ – ٢١٤ .

١ لم يرد هذا في الشعر والشعراء المطبوع وإنما جاء اسمه « همام » .

٢ ر : فصنع .

٣ بر : ونحر .

٤ لأهله : سقطت من ص .

فلما كان اليوم الثالث عقر غالب ثلاثاً ، فعقر سحيم ثلاثاً ، فلما كان اليوم الرابع عقر غالب مائة ناقة ، فلم يكن عند سحيم هذا القدر ، فلم يعقر شيئاً وأسرّها [1] في نفسه . فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة قال بنو رياح لسحيم : جررت علينا عار الدهر ، هلا نحرت مثل ما نحر ، وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين ؟ فاعتذر بأن إبله كانت غائبة ، وعقر ثلثمائة ناقة وقال للناس : شأنكم والأكل ، وكان ذلك في خلافة علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، فاستفتي في حل الأكل منها فقضى بحرمتها وقال : هذه ذبحت لغير مأكلة ، ولم يكن المقصود منها إلاّ المفاخرة والمباهاة ، فألقيت لحومها على كناسة الكوفة فأكلتها الكلاب والعقبان والرخَم ، وهي قصة مشهورة [2] ، وعمل فيها الشعراء أشعاراً كثيرة . فمن ذلك قول جرير يهجو الفرزدق ، وهو بيت [3] تستشهد به النحاة في كتبهم ، وهو من جملة قصيدة :

تعدُّونَ عقرَ النيب أفضَلَ مجدكم ... بني ضوطَرَى لولا الكميَّ المقنعا

ومن ذلك قول المحلّ ، أخي بني قَطَن بن نهشل [4] :

وقد سرني أن لا تَعُدَّ مجاشع ... من المجد إلا عقْرَ نابٍ بصوأر

وكان غالب المذكور أعور .

(307) وسحيم المذكور ، هو ابن وثيل بن عمرو بن جوين بن وهيب [5] بن حميري الشاعر الذي يقول [6] :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

---

١ المختار : فأسرها .

٢ انظر النقائض : ٤١٤ والأمالي ٣ : ٥٢ والخزانة ١ : ٤٦١ ومعجم البلدان : (صوأر) .

٣ ن والمختار : وهذا البيت .

٤ ر بر من : المجن بن نهشل أخي بني قطن ؛ وهو المحل بن كعب النهشلي (انظر معجم المرزباني : ٤٥٠ والنقائض : ٩٤٢ ، ٩٥٥ ، ٩٥٧) .

٥ المختار : وهب ؛ وفي هامش الأصمعيات : أهيب .

٦ مطلع الأصمعية الأولى ، الاصمعيات : ٣ .

وهذا البيت من جملة أبيات ، وله ديوان شعر صغير . والوثيل الرشاء الضعيف ، وقيل الليف .

وكان الفرزدق كثير التعظيم لقبر أبيه ، فما جاءه أحد واستجار به إلا نهض معه وساعده على بلوغ غرضه . فمن ذلك ما حكاه المبرد في كتاب « الكامل »[1] أن الحجاج بن يوسف الثقفي لمّا وّلى تميم بن زيد القيني بلاد السند دخل البصرة ، فجعل يخرج من أهلها من شاء ، فجاءت عجوز الى الفرزدق فقالت : إنّي استجرت بقبر أبيك ، وأتت منه بحُصّيات ، فقال : ما شأنك ؟ قالت : إن تميم ابن زيد خرج بابن لي معه ، ولا قرة لعيني ولا كاسب عليّ غيره ، فقال لها : وما اسم ابنك ؟ فقالت : خنيس ، فكتب إلى تميم مع بعض مَن شخص :

تميمَ بن زيدٍ لا تكونَنّ حاجتي بظهرٍ فلا يَعيا عليّ جوابُها
وهبْ لي خنيساً واحتسبْ فيه منّة لعَبرَةِ أمّ ما يسوغُ شرابُها
أتتني فعاذَتْ يا تميمُ بغالبٍ وبالحفرَةِ السافي عليها تُرابُها
وقَدْ عَلم الأقوامُ أنكَ ماجدٌ وليثٌ إذا ما الحربُ شبَّ شهابها

فلما ورد الكتاب على تميم تشكك في الاسم فلم يعرف أخنيس أم حبيش . ثم قال : انظروا من له مثل هذا الاسم في عسكرنا ، فأصيب ستة ما بين خنيس وحبيش ، فوجه بهم إليه .

وحضر يوماً[2] الفرزدق ونصيب الشاعر المشهور ، عند سليمان بن عبد الملك الأموي وهو يومئذ خليفة ، فقال سليمان للفرزدق : أنشدني شيئاً ، وإنما أراد سليمان أن ينشده مدحاً له ، فأنشده في مدح أبيه :

وركبٍ كأنّ الريح تطلبُ عندَهم لها تِرَةً من جذبها بالعصائبِ
سَرَوْا يخْبطون الرّيحَ وهْيَ تلفّهمْ إلى شُعبِ الأكوارِ ذاتِ الحقائبِ
إذا آنسوا ناراً يقولونَ إنها[3] وقَدْ خصرَتْ أيديهمُ نارُ غالب

---

١ الكامل ٢ : ٨٦ – ٨٨ .
٢ الكامل ١ : ١٨٣ .
٣ ر من بر : ليتها ، وكذلك في الكامل .

فأعرض سليمان عنه كالمغضب ، فقال نصيب : يا أمير المؤمنين ، ألا أنشدك في رويِّها ما لعله لا يتضع عنها ، قال : هاتِ ، فأنشده :

أقولُ لركبٍ صادرينَ لقيتهمْ قفا ذاتِ أوشالٍ ومولاك قاربُ[1]
قفوا خبروني عن سليمانَ إنني[2] لمعرُوفهِ منْ أهل ودّان طالبُ
فعاجوا فأثنَوْا بالذي أنتَ أهلهُ ولَوْ سكتوا أثنت عليك الحقائبُ

فقال سليمان للفرزدق : كيف تراه ؟ فقال : هو أشعر أهل جلدته ، ثم قام وهو يقول :

وخير الشعر أشرفه رجالاً وشر الشعر ما قال العسدُ

(308) وكان نصيب عبداً أسود لرجل من أهل وادي القرى ، فكاتب على نفسه ومدح عبد العزيز بن مروان ، فاشترى ولاءه ، وكنيته أبو الحجناء ، وقيل أبو محجن .

وللفرزدق في مفاخر أبيه أشياء كثيرة .

(309) وأما جده صَعْصعة بن ناجية فإنّه كان عظيم القدر في الجاهلية ، واشترى ثلاثين موءودة ، منهن بنت لقيس بن عاصم المنقري ، وفي ذلك يقول الفرزدق يفتخر به :

وجدي الذي منع الوائدات وأحيا الوئيد فلم يوأد

وهو أول من أسلم من أجداد الفرزدق ، وقد ذكره في كتاب « الاستيعاب »[3] في جملة الصحابة ، رضوان الله عليهم أجمعين[4] .

وقد اختلف العلماء أهل المعرفة بالشعر في الفرزدق وجرير والمفاضلة بينهما ، والأكثرون على أن جريراً أشعر منه ، وكان بينهما من المهاجاة والمعاداة ما هو

---

١ قارب : وارد إلى الماء .
٢ ص ر ن بر من : إنه .
٣ الاستيعاب : ٧١٨ .
٤ ص ر ق : رضي الله عنهم .

مشهور ، وقد جمع لهما كتاب يسمى « النقائض » وهو من الكتب المشهورة . وكان جرير قد هجاه بقصيدته الرائية ، التي من جملتها :

وكنتَ إذا حللتَ بدار قوم ظعنت بخزية وتركت عارا

فاتفق بعد ذلك أن الفرزدق نزل بامرأة من أهل المدينة ، وجرى له معها قضية يطول شرحها . وخلاصة الأمر أنّه راودها عن نفسها بعد أن كانت قد أضافته وأحسنت إليه فامتنعت عليه ، فبلغ الخبر عمر بن عبد العزيز ، رضي الله عنه ، وهو يومئذ والي المدينة ، فأمر بإخراجه من المدينة ، فلما أخرج وأركبوه ناقته ليسفّروه[1] قال : قاتل الله ابن المراغة — يعني جريراً — كأنّه شاهد هذا الحال ، حيث قال : وكنت إذا حللت بدار قوم . . . وأنشد البيت المذكور .

وشهد الفرزدق عند بعض القضاة شهادة فقال له : قد أجزنا شهادتك ، ثم قال لأصحاب القضية : زيدونا في الشهود ، فقيل للفرزدق حين انفصل عن مجلس القاضي : إنّه لم يُجز شهادتك ، فقال : وما يمنعه من ذلك ، وقد قذفت ألف مُحْصَنَة[2] ؟

ومن شعره المشهور قوله ، وهو مقيم بالمدينة :

هما دلّتاني من ثمانينَ قامة كما انقضّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسرُه

فلما استوت رجلايَ في الأرض قالتا أحَيٌّ فيرجى أم قتيلٌ نحاذره

فقلت: ارفعا الأسبابَ لا يشعروا بنا وأقبلتُ في أعجاز ليل أبادره

أحاذر بوّابَيْنِ قد وُكلا بنا وأسودَ من ساجٍ تصرُّ مسامره

فلما بلغت جريراً الأبيات عملَ من جملة قصيدة طويلة[3] :

لقد ولدتْ أمُّ الفرزَدق فاجراً فجاءتْ بِوزوَازٍ قصيرِ القوادِمِ

---

[1] ص : ليسفره ؛ بر من ن : لينفوه .

[2] وشهد الفرزدق ... محصنة : سقط من : ع بر من .

[3] النقائض : ٣٩٥ ؛ وهذه القصيدة حسبما جاء في النقائض جواب على قصيدة للفرزدق مطلعها :

تحن بزوراء المدينة ناقتي حنين عجول تبتغي البو رائم

يوصِّلُ حَبْلَيه إذا جن ليلُه ... ليرْقى إلى جاراتهِ بالسلالم
تدليتَ تزني منْ ثمانينَ قامة ... وقَصَّرْت عن باع العلا والمكارم
هوالرجسُ يا أهل المدينة فاحذروا ... مداخلَ رجسٍ بالخبيثات عالم
لقد كان إخراجُ الفرزدق عنكمُ ... طهوراً لما بين المصلّى وواقم

فلما وقف الفرزدق على هذه القصيدة جاوبه بقصيدة طويلة يقول في جملتها :

وإن حراماً أن أسب مقاعساً[1] ... بآبائيَ الشمِّ الكرامِ الخضارمِ
ولكنَّ نَصْفاً لو سببتُ وسبَّني ... بنو عبد شمس من مناف وهاشم
أولئك أمثالي فجئني بمثلهم ... وأعْبَدُ أن أهجو كليباً بدارم[2]

ولمّا سمع أهل المدينة أبيات الفرزدق المذكورة أولاً ، اجتمعوا وجاءوا إلى مروان بن الحكم الأموي ، وكان يومئذ والي المدينة من قبل معاوية بن أبي سفيان الأموي ، فقالوا له : ما يصلح أن يقال مثل هذا الشعر بين أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أوجب على نفسه الحد ، فقال مروان : لست أحدُّه أنا ، ولكن أكتب إلى من يحده ، ثم أمره بالخروج من المدينة وأجله ثلاثة أيام ، وفي ذلك يقول الفرزدق :

توعدني وأجلني ثلاثاً ... كما وعدت لمهلكها ثمودُ

ثم كتب مروان إلى عامله يأمره فيه أن يحده ويسجنه ، وأوهمه أنّه قد كتب له بجائزة ، ثم ندم مروان على ما فعل ، فوجه عنه سفيراً وقال : إني قلت شعراً فاسمعه ، ثم أنشده[3] :

قل للفرزدق والسفاهة كاسمها ... إن كنت تاركَ ما أمرْتُك فاجلسِ

---

١ ر : مقاصماً ؛ ق ن ص والمختار : مقاعصاً ؛ ومقاعس : هو الحارث بن عمر بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم .
٢ أعبد : آنف .
٣ انظر معجم البلدان : (الجلس) وديوان الفرزدق ١ : ٣٨٤ .

وَدَعِ المدينة إنها مرهوبةٌ   واقصد لمكة أو لبيت المقدس
وإذا اجتنبت من الأمور عظيمةً   فخُذَنْ لنفسك بالزِّماعِ الأكيس

– قوله « فاجلس » أي اقصد الجَلْساء ، وهي نجد ، وسميت بذلك لارتفاعها ، لأن الجلوس في اللغة هو الارتفاع – ؛ ولمّا وقف الفرزدق على الأبيات فطن لما أراد مروان ، فرمى الصحيفة وقال :

يا مرو[1] إن مطيّتي محبوسة   ترجو الحباء وربها لم ييأس
وحَبَوتني بصحيفة مختومة   يخشى علي بها حباء النقرس
ألق الصحيفة يافرزدق لاتكن   نَكدا كمثل[2] صحيفةالمتلمس

وإذ ذكرنا صحيفة المتلمس فقد يتشوف الواقف على هذا الكتاب أن يعلم قصتها[3] :

(310) ومن خبرها أن المتلمس ، واسمه جرير بن عبد المسيح بن عبد الله ابن زيد بن دوفن[4] بن حرب بن وهب بن جُلَيّ[5] بن أحمس بن ضبيعة الأضجم ابن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وإنّما لقب بالمتلمس لقوله من جملة قصيدة :

فهذا أوان العرض حيّ ذبابه   زنابيره والأزرق المتلمسُ

– وهو بضم الميم وفتح التاء المثناة من فوقها واللام وكسر الميم الثانية وتشديدها وبعدها سين مهملة – كان قد هجا عمرو بن هند اللخمي ملك الحيرة ، وهجاه أيضاً[6] طرفة بن العبد البكري الشاعر المشهور ، وهو ابن أخت المتلمس المذكور ، فاتصل

١ ن ر : مروان .
٢ ع بر من : نكداء مثل ؛ ر : نكراء مثل .
٣ انظر ترجمة المتلمس وخبر الصحيفة في الأغاني ٢٣ : ٥٢٤ وما بعدها .
٤ ع : دوقن .
٥ ن ر ع بر من : حلى .
٦ أيضاً : سقطت من : ص ن .

هجوهما[1] بعمرو بن هند المذكور ، فلم يُظهر لهما شيئاً من التغير ، ثم مدحاه بعد ذلك فكتب لكل واحدٍ منهما كتاباً إلى عامله بالحيرة[2]، وأمره بقتلهما إذا وصلا إليه ، وأوهمهما أنه قد كتب لهما بصلة ، فلما وصلا إلى الحيرة قال المتلمس لطرفة : كل واحد منا قد هجا الملك ، ولو أراد أن يعطينا لأعطانا ولم يكتب لنا إلى الحيرة ، فهلم ندفع كتبنا إلى من يقرؤها ، فإن كان فيها خير دخلنا الحيرة[3] ، وإن كان فيها شر فررنا قبل أن يعلم بمكاننا ؛ فقال طرفة بن العبد : ما كنت لأفتح كتاب الملك ، فقال المتلمس : والله لأفتحن كتابي ولأعلمن ما فيه ولا أكون كمن يحمل حتفه بيده ، فنظر المتلمس فإذا غلام قد خرج من الحيرة ، فقال له : أتقرأ يا غلام[4] ؟ فقال : نعم ، فقال : هلمّ فاقرأ هذا الكتاب . فلما نظر إليه الغلام قال : ثكلت المتلمس أُمه ، فقال لطرفة : افتح كتابك فما فيه إلا مثل ما في كتابي ، فقال : إن كان اجترأ عليك فلم يكن ليجترىء عليّ ويوغر صدور قومي بقتلي . فألقى المتلمس صحيفته في نهر الحيرة وفر إلى الشام ، ودخل طرفة الحيرة فقتل ، وقصته في ذلك مشهورة ، فصار يضرب المثل بصحيفة المتلمس لكل من قرأ صحيفة فيها قتله؛ وإلى هذا أشار الحريري في المقامة العاشرة بقوله : « ففضضتها فعلَ المُتَلمّس من مثل صحيفة المتلمس » . وللأبله الشاعر ، — المقدم ذكره في المحمدين — قصيدة يقول فيها :

يقرا المتيم من صحيفة خده   في الهجر مثل صحيفة المتلمسِ

رجعنا إلى تتمة خبر الفرزدق :

ثم[5] خرج هارباً حتى أتى سعيد بن العاص الأموي ، وعنده الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر رضي الله عنهم ؛ فأخبرهم الخبر ، فأمر له كل واحد منهم

---

[1] ر : خبر هجوهما .   [2] كذا ورد ، ولعل صوابه « بهجر » .

[3] ر : المدينة .

[4] يا غلام : سقطت من ر .

[5] ع ن : ثم إنه .

بمائة دينار وراحلة ، وتوجه إلى البصرة . وقيل لمروان : أخطأت فيما فعلت فإنّك عرضت عرضك لشاعر مضر ، فوجه وراءه رسولاً ومعه مائة دينار وراحلة ، خوفاً من هجائه .

ومن أخبار الفرزدق أنّه حكى أنّه نزل في بعض أسفاره في بادية وأوقد ناراً فرآها ذئب فأتاه فأطعمه من زاده وأنشد[1] :

وأطلس عسال وما كان صاحباً ... دعوت بناري مَوْهِناً فأتاني
فلما أتى قلتُ ادنُ دونك إنّني ... وإيّاك في زادي لمشتركان
فبتُّ أقدُّ الزادَ بيني وبينه ... على ضوء نارٍ مرةً ودخانِ
وقلتُ له لما تكشر[2] ضاحكاً ... وقائم سيفي في يدي بمكان
تَعَشَّ ، فإن عاهدتني لا تخونني ... نكن مثل مَن ، ياذئب ، يصطحبان
وأنت امرؤ يا ذئب والغدرَ كنتما ... أخَيَّيْنِ كانا أرضعا بلبان
ولو غَيْرَنا نبهتَ تلتمسُ القرى ... رماك بسهم أو شَباة سِنان

وكان قد أنشد سليمان بن عبد الملك الأموي قصيدة ميمية ، فلما انتهى منها إلى قوله[3] :

ثلاث واثنتان فهن خمس ... وسادسة تميل إلى شمامِ
فبتن بجانبيَّ مصرعاتٍ ... وبتُّ أفضُّ أغلاقَ الختام
كأن مفالقَ الرمان فيه ... وجمر غضاً قعدن عليه حام

فقال له سليمان : قد أقررت عندي بالزنا وأنا إمام ، ولا بد من إقامة الحد عليك ، فقال الفرزدق : ومن أين أوجبت علي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : بقول الله تعالى ﴿ الزّانية والزّاني فاجْلدُوا كلَّ وَاحدٍ مِنهُما مائةَ جَلْدة ﴾ (النور : ٢)

---

١ ديوانه ٢ : ٣٢٩ .
٢ ر : تبسم .
٣ الشعر والشعراء : ٣٨٩ .

فقال الفرزدق : إن كتاب الله يدرؤه عني بقوله تعالى : ﴿ والشّعَراء يتّبعُهم الغاوُون . ألَمْ ترَ أنّهُم في كلّ وادٍ يهيمون . وأنّهم يقولُون ما لا يفعلون ﴾ (الشعراء : ٢٢٤) فأنا قلت ما لم أفعل ، فتبسم سليمان ، وقال : أولى لك .

وتُنسبُ إليه مكرمة يرجى له بها الجنة ، وهي أنّه لما حج هشام بن عبد الملك في أيام أبيه ، فطاف وجهد أن يصل إلى الحجر ليستلمه ، فلم يقدر عليه لكثرة الزحام ، فنصب له منبر وجلس عليه ينظر إلى الناس ، ومعه جماعة من أعيان أهل الشام ، فبينما هو كذلك إذ أقبل زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهم — وقد تقدم ذكره — وكان من أحسن الناس وجهاً وأطيبهم أرجاً ، فطاف بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر تنحى له الناس حتّى استلم ، فقال رجل من أهل الشام : مَنْ هذا الذي قد هابه الناس هذه الهيبة ؟ فقال هشام : لا أعرفه ، مخافة أن يرغب فيه أهل الشام ، وكان الفرزدقُ حاضراً فقال : أنا أعرفه ، فقال الشامي : من هذا يا أبا فراس ؟ فقال[1] :

هذا الذي تَعرفُ البطحاء وطأته ... والبيتُ يعرفهُ والحلُّ والحرَمُ
هذا ابنُ خيرِ عبادِ الله كلهِمُ ... هذا التقيُّ النقيُّ الطاهرُ العلم
إذا رأتهُ قريش قال قائلها : ... إلى مكارم هذا ينتهي الكرم
ينمى إلى ذِروةِ العز التي قصُرت ... عن نيلها عربُ الإسلام والعَجم
يكادُ يمسكهُ عِرْفانَ راحتهِ ... ركنُ الحطيم إذا ما جاء يستلم
في كفّه خيزُرانٌ ريحهُ عَبَقٌ ... من كف أروع في عِرنينه شمم
يغضي حياء ويُغْضَى من مَهابته ... فما يكلَّمُ إلا حين يبتسم

---

[1] نسب الآمدي أبياتاً منها في المؤتلف : ١٢٢ للحزين الكناني ؛ وقال ابن قتيبة — وأورد منها بيتين — إنهما في مدح بعض بني أمية (الشعر والشعراء : ١٢) وذكر أبو الفرج (الأغاني ١٥ : ٢٥٧) أنهما للحزين بن سليمان الديلي وقال : والناس يروون هذين البيتين للفرزدق في أبياته التي يمدح بها علي بن الحسين عليه السلام وأولها « هذا الذي تعرف البطحاء وطأته » فالقصيدة صحيحة النسبة إلى الفرزدق في رأي أبي الفرج إلا أن البيتين السادس والسابع ليسا منها ؛ وإيراد القصة على أن القصيدة جاءت عفو الخاطر ، أو كأن الفرزدق كان متوقعاً ذلك السؤال ، فيه قدر من السذاجة .

ينشقُّ نور الهدى عن نور غرته كالشمس ينجاب عن إشراقها الظلمُ
مشتقّةٌ من رسول الله نبعته طابتْ عناصرُهُ والخيمُ والشيم
هذا ابنُ فاطمةٍ إن كنت جاهله بجده أنبياء الله قد خُتموا
الله شرفه قدماً وعظّمه جرى بذاك له في لوحه القلم
فليس قولكَ مَنْ هذا بضائره العرْبُ تعرفُ من أنكرت والعجم
كلتا يديه غياثٌ عمّ نفعُهما تستوكفان ولا يعروهما عدم
سهلُ الخليقة لا تخشى بوادرُهُ يزينه اثنان حسنُ الخلق والشيم
حمّال أثقال أقوام إذا فدحوا[1] حلو الشمائل تحلو عندهُ نعَم
ما قالَ لا قط إلا في تشهده لولا التشهد كانت لاءه نعَم[2]
لا يخلف الوعد مأمون نقيبته رحْبُ الفناء أريب حين يعتزم
عمّ البرية بالإحسان فانقشعت عنها الغياية والإملاقُ والعدم
من معشر حبهم دين وبغضهمُ كفر وقربهمُ منجى ومعتصم
إن عد أهلُ التقى كانوا أئمتهم أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم
لا يستطيعُ جوادٌ بعدَ غايتهمْ ولا يُدانيهمُ قومٌ وإن كرُموا
همُ الغيوثُ إذا ما أزمة أزمَتْ والأسد أسد الشرى والبأس محتدم
لا ينقص العسر بسطا من أكفهمُ سيان ذلك إن أثروْا وإن عدِموا
مقدّمٌ بعد ذكر الله ذكرهمُ في كل بدء ومختومٌ به الكلم
يأبى لهم أن يحلّ الذّم ساحتهم خيمٌ كريم وأيدٍ بالندى هُضُم
أيُّ الخلائق[3] ليست في رقابهمُ لأوليةِ هذا أوْ لهُ نعم
مَنْ يعرفِ الله يعرفْ أوَّلية ذا والدينُ من بيت هذا ناله الأمم

---

١ في جميع النسخ : قدحوا .
٢ سقط البيت من ق ع ر بر من والمختار ، ووقع بخط مختلف في هامش ن ، وفيها : لولا التشهد لم ينطق بتلك فم .
٣ ر والمختار : الخليقة .

فلما سمع هشام هذه القصيدة غضب وحبس الفرزدق ، وأنفذ[1] له زينُ العابدين اثني عشر ألف درهم ، فردها وقال : مدحته لله تعالى لا للعطاء ، فقال : إنا أهل بيت إذا وهبنا شيئاً لا نستعيده[2] ، فقبلها .

وقال محمد بن حبيب المقدم ذكره : صعد الوليد بن عبد الملك المنبر ، فسمع صوت ناقوس فقال : ما هذا ؟ قيل البيعة ، فأمر بهدمها ، وتولى بعض ذلك بيده ، فتتابع الناس يهدمون[3] ، فكتب إليه الأخرم[4] ملك الروم : إن هذه البيعة قد أقرها من كان قبلك ، فإن يكونوا أصابوا فقد أخطأت وإن تكن أصبت فقد أخطأوا ، فقال : من يجيبه ؟ فقال الفرزدق : تكتب إليه : ﴿ وداود وسليمان إذ يحكمان في الحرْثِ إذ نَفَشت فيه غَنَمُ القوْم ، وَكنّا لحُكمهِم شاهدين ، فَفَهمناها سُليمان ، وكلاً آتينا حُكماً وعلماً ـ الآية﴾ (الأنبياء : ٧٨) .

وأخبار الفرزدق كثيرة والاختصار أولى .

وتوفي بالبصرة سنة عشر ومائة قبل جرير بأربعين يوماً ، وقيل بثمانين يوماً ، وقال أبو الفرج ابن الجوزي في كتاب « شذور العقود » : إنّهما توفيا سنة إحدى عشرة ومائة . وقال السكري : إن الفرزدق لقي عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وتوفي سنة عشر ، وقيل اثنتي عشرة ، وقيل أربع عشرة ومائة .

وقال ابن قتيبة في « طبقات الشعراء »[5] : إن الفرزدق أصابته الدبيلة ، فقدم به البصرة ، وأتي الطبيب فسقاه قاراً أبيض ، فجعل يقول : أتعجلون لي القار وأنا في الدنيا ، ومات وقد قارب المائة ، والله أعلم . وقد سبق في ترجمة جرير ما قاله جرير لما بلغه وفاة الفرزدق ، فأغنى عن الإعادة ، رحمهما الله تعالى .

وذكر المبرد في كتاب « الكامل »[6] قال : التقى الحسن البصري والفرزدق

---

١ ص : فأنفذ .

٢ بر : لا نسترده .

٣ ر : يهدمونها .

٤ الأخرم : هو جستنيان الثاني ، الذي ملك حتى سنة ٧١١ ، وكان معاصراً للوليد .

٥ الشعر والشعراء : ٣٨٥ .

٦ الكامل ١ : ١١٩ .

في جنازة ، فقال الفرزدق للحسن : أتدري ما يقول الناس يا أبا سعيد ؟ يقولون : اجتمع في هذه الجنازة خير الناس وشر الناس ، قال الحسن : كلا ، لستُ بخيرهم ، ولستَ بشرهم ، ولكن ما أعددت لهذا اليوم ؟ قال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله مذ ستون سنة . فيزعم بعض التميمية أن الفرزدق رؤي في المنام فقيل له : ما صنع بك ربّك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل : بأي شيء ؟ فقال بالكلمة التي نازعتها الحسن .

وهمّام : بفتح الهاء وتشديد الميم الأولى .

وناجية : بالنون والجيم المكسورة وبعدها ياء مثناة من تحتها .

وعِقَال : بكسر العين المهملة وفتح القاف .

ومحمد بن سفيان : هو أحد الثلاثة الذين سموا بمحمد في الجاهلية ، وذكرهم ابن قتيبة في كتاب « المعارف »[1] . وقال السهيلي في كتاب « الروض الأنُفُ »[2] : لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلّم ، إلا ثلاثة طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد صلى الله عليه وسلّم ، وبقرب زمانه وأنّه يبعث في الحجاز ، أن يكون ولداً لهم ، ذكرهم ابن فورك في كتاب « الفصول » وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جدٌ جدّ الفرزدق الشاعر ، والآخر محمد بن أُحيحة بن الجلاح ، وهو أخو عبد المطلب جد رسول الله صلى الله عليه وسلّم لأمّه ، والآخر محمد بن حمران من ربيعة ، وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ، وكان عنده علم الكتاب الأول ، فأخبرهم بمبعث رسول الله صلى الله عليه وسلّم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل واحد منهم إن وُلد له ذكر أن يسميه محمداً ، ففعلوا ذلك .

وأما مجاشع : فهو بضم الميم وفتح الجيم وبعد الألف شين معجمة مكسورة ثم عين مهملة .

---

١ المعارف : ٥٥٦ ؛ وانظر ابن رسته : ٢٠١ .

٢ الروض الأنف ٢ : ١٥٠ (تحقيق عبد الرحمن الوكيل) .

ودارم : بفتح الدال المهملة وبعد الألف راء مكسورة وبعدها ميم . وبقية النسب معروف .

والفرزدق : بفتح الفاء والراء وسكون الزاي وفتح الدال المهملة وبعدها قاف ، وهو لقب عليه . واختلف كلام ابن قتيبة في تلقيبه به ، فقال في « أدب الكاتب »[1] : الفرزدق : قطع العجين ، واحدتها فرزدقة ، وإنّما لقب به لأنّه كان جَهْم الوجه ، وقال في كتاب « طبقات الشعراء »[2] : إنّما لقب بالفرزدق لغلظه وقصره ، شبه بالفتيتة التي تشربها النساء ، وهي الفرزدقة . والقول الأول أصح ، لأنّه كان أصابه جدري في وجهه ثم برأ منه ، فبقي وجهه جهماً متغضناً ؛ ويروى أن رجلاً قال له : يا أبا فراس ، كأن وجهك أحْرَاحٌ مجموعة ، فقال له : تأمل ، هل ترى فيها حِرَ أمك . والأحراح - بحاءين مهملتين - جمع حرح ، وهو الفرج ، فحذفت في المفرد حاؤه الثانية ، فبقي حِراً ، ومتى جمع عادت الحاء الثانية ، فقالوا : أحراح لأن الجموع ترد[3] الأشياء إلى أصولها .

وكانت زوجة الفرزدق ابنة عمّه ، وهي النوار - بفتح النون - ابنة أعين ابن ضبيعة بن عِقال المجاشعي ، وجدها ضبيعة هو الذي عقر الجمل الذي كانت عليه عائشة أم المؤمنين يوم وقعة الجمل ، رضي الله عنها ؛ وكان قد خطبها - يعني النوار - رجل من قريش ، فبعثت إلى الفرزدق تسأله أن يكون وليها إذ كان ابن عمها ، فقال : إن بالشام من هو أقرب مني إليك ، وما أنا آمن أن يقدم قادم منهم فينكر ذلك عليّ ، فأشهدي أنك قد جعلت أمرك إليّ ، ففعلت ، فخرج بالشهود ، وقال لهم : قد أشهدتكم أنها جعلت أمرها لي ، وأنا أشهدكم أني قد تزوجتها على مائة ناقة حمراء سود الحدق ، فغضبت من ذلك واستعدت عليه ، وخرجت إلى عبد الله بن الزبير ، وأمرُ الحجاز والعراق يومئذ إليه ، وخرج الفرزدق أيضاً ؛ فأمّا النوار فنزلت على خَوْلة بنت منظور بن زبان[4]

---

[1] أدب الكاتب : ٨٠ .

[2] الشعر والشعراء : ٣٨٢ .

[3] ص : لأن الجمع يردّ .

[4] زيان : بالياء المثناة من تحتها في النسخ ؛ والصواب بالباء الموحدة ، وكذلك هو في الموضع التالي في النسخة ص .

الفزاري ، امرأة عبد الله بن الزبير فرققتها وسألتها الشفاعة لها . وأما الفرزدق فنزل على حمزة بن عبد الله بن الزبير ، وهو ابن خولة المذكورة، ومدحه فوعده الشفاعة ، فتكلمت خولة في النوار وتكلم حمزة في الفرزدق ، فأنجحت خولة ، وأمر عبد الله بن الزبير أن لا يقربها ، حتى يصيرا إلى البصرة ، فيحتكما [1] إلى عامله عليها ، فخرجا ، وقال الفرزدق في ذلك :

أمـا بنوه فلمْ تنجحْ شفاعتهُم وشُفِّعَتْ بِنْتُ منظور بن زبانا
ليس الشفيعُ الذي يأتيكَ متزراً [2] مِثلَ الشفيعِ الذي يأتيكَ عُرْيانا

ثم إن الفرزدق اتفق معها ، وبقي زماناً لا يولد له ولد ، ثم ولد له بعد ذلك عدة أولاد وهم : لبطة وسبطة وحبطة وركضة وزمعة وكلهم من النوار ، وليس لواحد من ولده عقب إلا من النساء . وقال ابنُ خالويهِ : ومن أولاد الفرزدق : كلطة وجلطةَ ، والله أعلم .

ثم إن الفرزدق طلّق النوار لأمر يطول شرحه ، فندم على ذلك . وله فيها أشعار ، فمنها قوله :

ندِمْتُ نَدامَةَ الكُسَعيّ لمّـا غَدَتْ مـني مُطلقَةَ نَـوارُ
وكانَتْ جنتي فخرجتُ مِنها كآدَمَ حينَ أخرَجهُ الضرار

وله في ذلك أخبار ونوادر يطول شرحها ، وليس هذا موضع استيفائه [3] .

ومات للفرزدق ابن صغير ، فصلى عليه ، ثم التفت إلى الناس فقال :

وما نحنُ إلا مثلهم غيرِ أنّنا أقمنا قليلاً بعدهم وترَحلوا

فمات بعد ذلك بأيام قلائل [4] .

---

١ ن : فيحتكمان .

٢ ع : مؤتزراً ؛ ر : مكتسياً .

٣ ص ن ر من بر : وليس هذا موضعه .

٤ ن : قليلة ، وسقطت اللفظة من : بر من.

٧٨٥
هلال ابن المحسن الصابىء

أبو الحسن[1] هلال بن المحسن بن أبي إسحاق إبراهيم بن هلال بن إبراهيم ابن زهرون بن حيّون، الصابىء الحراني الكاتب؛ هو حفيد أبي إسحاق الصابىء صاحب الرسائل المشهورة – وقد سبق ذكر جده في حرف الهمزة – ؛ سمع هلال المذكور أبا علي الفارسي النحوي – المقدم ذكره – وعلي بن عيسى الرماني – المقدم ذكره أيضاً – وأبا بكر أحمد بن محمد بن الجراح الخراز[2] وغيرهم . وذكره الخطيب في « تاريخ بغداد » وقال : كتبنا عنه وكان صدوقاً، وكان أبوه المحسن صابئياً[3] على دين جده إبراهيم ، فأسلم هلال المذكور في آخر عمره[4]، وسمع من العلماء في حال كفره ، لأنّه كان يطلب الأدب . ورأيت له تصنيفاً جمع فيه حكايات مستملحة وأخباراً نادرة ، وسماه كتاب « الأماثل والأعيان ومنتدى العواطف والإحسان » وهو مجلد واحد ، ولا أعلم هل صنف سواه أم لا .

(311) وكان ولده غرس النعمة أبو الحسن محمد بن هلال المذكور ذا فضائل جمّة وتآليف نافعة ، منها التاريخ الكبير المشهور ، ومنها الكتاب الذي سمّاه « الهفوات النادرة من المغفلين[5] الملحوظين ، والسقطات الباردة من المغفلين المحظوظين » جمع فيه كثيراً من الحكايات التي تتعلق بهذا الباب ، فمما نقلته منه[6] أن عبد الله بن علي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه – وهو عم السفاح

---

٧٨٥ – ترجمته في تاريخ بغداد ١٤ : ٧٦ والمنتظم ٨ ١٧٦ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢٩٤ .

١ ص : أبو الحسين ، وكذلك في تاريخ بغداد .

٢ تاريخ بغداد : الخزاز .

٣ في بعض النسخ : وكان أبو الحسن صابئياً ، ليتفق ذلك مع قوله « جده » ، وعند دي سلان : « أبيه » وهو لم يرد في النسخ المعتمدة .

٤ بر من : بأخرة .

٥ كذا في النسخ ، ولعل الصواب « المعقلين » كما قال محقق الكتاب (المقدمة : ٣١) .

٦ الهفوات النادرة : ٣٧١ .

وأبي جعفر المنصور – أنفذ إلى ابن أخيه السفاح في أول ولايتهم مشيخةً من أهل الشام يطرفه بعقولهم واعتقادهم ، وأنهم حلفوا أنهم ما علموا لرسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة يرثونه غير بني أُميّة حتى وليتم أنتم .

ونقلت منه أيضاً حكاية وإن كانت سخيفة لكنها ظريفة ، ولا بد في المجاميع من الإحماض ، ومزج الهزل بالجد ، والحكاية المذكورة هي[1] : أن أبا سعيد ماهك ابن بندار المجوسي الرازي كان من كبار كتاب الديلم المشهور تجلّفهم[2]، الشائعة فيه أخبارهم ، وكان يكتب لعلي بن سامان أحد قواد الديلم ، فأراد الوزير أبو محمد المهلبي أن ينفذ ماهك في بعض الخدم فقال له ، وقد أراد الخروج من عنده : يا أبا سعيد ، لا تبرح من الدار حتى أوقفك على شيء أُريده معك ، فقال : السمع والطاعة لأمر سيدنا الوزير ، ونهض من بين يديه ، فقال الوزير : هذا رجل مجنون ، وربما طال بي الشغل وضاق صدره فانصرف ، فتقدموا إلى البواب أن لا يدَعه يخرج من الباب ، فجلس ماهك طويلاً ، وأراد دخول الخلاء ، فقام يطلب ذلك فرأى الأخلية مقْفَلة ، وكان قد تقدم الوزير بذلك ، وقال : كانت دار أبي جعفر الصيمري منتنة الرائحة لأجل خلاء كان بها لعامة الناس . فوجدْ ماهك الخلاء الخاص غير مقفل ، وعليه ستر مسبل ، فرفع الستر ليدخل ، فجاء الفراش فمنعه ودفعه[3] ، فقال : يا هذا أليس هذا خلاء ؟ فقال : بلى ، فقال : أُريد أن أعمل فيه حاجتي فلم تمنعني ؟ قال : هذا خلاء خاص لا يدخله غير الوزير ، قال : فبقية الأخلية مقفلة ، فكيف أعمل وقد جئت أخرج فمنعني البواب فأخرى في ثيابي ؟ فقال الفراش : استأذن في دخول الخلاء[4] ليتقدم لك بذلك ويفتح لك أحد الأخلية فتقضي حاجتك ، فاشتد به الأمر ، فكتب إلى الوزير رقعة وقال فيها : قد احتاج عبد سيدنا الوزير ماهك إلى بعض ما يحتاج إليه الناس

---

١ المصدر السابق : ٣٢٢ .

٢ هذه القراءة غير قاطعة لأن النسخ أوردت اللفظة غير كاملة الإعجام .

٣ ر : فدفعه ومنعه .

٤ ع ن بر من : خلاء .

ولا يحسن ذكره ، والفراش يقول لا تدخل ، والبواب يقول لا تخرج[1] ، وقد تحير العبد في البين ، والأمر في الشدة ، فإن رأى سيدنا الوزير أن يفسح لعبده بأن يعمل ما يحتاج إليه في خلائه فعل إن شاء الله تعالى ، والسلام . ودفع الرقعة إلى بعض الحجاب ، فأوصلها إلى الوزير ، فلم يعلم ما أراد بالرقعة ، فاستعلم ما الصورة فعُرف[2] بها ، فضحك واستلقى على ظهره[3] ، ووقع على ظهر الرقعة : يخرى أبو سعيد أعزّه الله بحيث يختار ، إن شاء الله تعالى . فجاءه الحاجب بها فأخذه ودفعه إلى الفراش ، وقال : هذا ما طلبت ، وهو توقيع سيدنا الوزير ، فقال الفراش : التوقيعات يقرؤها أبو العلاء ابن أبرونا كاتب ديوان الدار ، وأنا لا أحسن أن أكتب ولا أقرأ ، فصاح ماهك في الدار : هات من يقرأ[4] في الدار صك الخرا ! ! فضحك فرّاش آخر وأخذ بيده ، وحمله إلى بعض الحجر حتى قضى حاجته .

ونقلت من هذا الكتاب أيضاً[5] : أن أرطأة بن سهية دخل على عبد الملك ابن مروان، وكان قد أدرك الجاهلية والإسلام ، فرآه عبد الملك شيخاً كبيراً ، فاستنشده ما قاله في طول عمره فأنشده :

رأيت المرء تأكله الليالي ... كأكل الأرض ساقطة الحديدِ
وما تبغي المنية حين تأتي ... على نفس ابن آدم من مزيد
واعلم أنّها ستكرُّ حتى ... توفّي نذرها بأبي الوليد

فارتاع عبد الملك وظن أنّه عناه لأنّه كان يكنى أبا الوليد ، وعلم أرطأة بسهوه وزلته ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنّي أُكنى بأبي الوليد ، وصدقه الحاضرون ، فسري عن عبد الملك قليلاً .

---

١ ع : لا تدخل .
٢ ع ص ن : فعرفه .
٣ واستلقى على ظهره : سقط من : بر من ر ع ن .
٤ ع ن بر من : يعمل .
٥ الهفوات النادرة : ٣٩ .

ونقلت منه أيضاً[1] أن أبا العلاء صاعد بن مخلد كاتب الموفق قرأ على الموفق كتاباً فلم يفهم معناه ، وقرأه الموفق ففهمه ، فقال فيه عيسى بن القاشي[2]:

أرى الدهرَ يمنعُ من جانبه ... ويهدي الحظوظ إلى عائبه
وكم طالبٍ سبباً مجلبا ... فأعيا عناه[3] على طالبه
ومن عجب الدهر أن الأمير ... أصبح أكتَبَ من كاتبه

والموفق المذكور هو ابن أحمد طلحة بن المتوكل ، وهو والد المعتضد الخليفة العباسي .

ونقلت منه[4] أيضاً أن أعرابياً شهد الموقف مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال الأعرابي : فصاح به صائح من خلفه : يا خليفة رسول الله ثم قال : يا أمير المؤمنين ، فقال رجل من خلفي : دَعاه باسم ميت ، مات والله أمير المؤمنين ؛ فالتفت إليه ، فإذا هو رجل من بني لِهْب — بكسر اللام — وهم من بني النضر[5] ابن الأزد ، وهم أزجر قوم ، وقد أشار كثير عزة إلى ذلك في قوله :

سألت أخا لِهْبٍ ليزجر زَجْرَهُ ... وقد صارَ زَجْرُ العالمين إلى لهب

قال الأعرابي : فلما وقفنا لرمي الجمار[6] إذا حصاةٌ قد صكّت صلعة عمر رضي الله عنه فأدمته ، فقال قائل : أشعر والله أمير المؤمنين ، والله لا يقف هذا الموقف بعدها ، فالتفت إليه فإذا هو اللهبي بعينه ، فقتل عمر رضي الله عنه قبل الحول[7] .

---

١ المصدر السابق : ٢٧٧ .
٢ المختار : القاشاني .
٣ ق ر : عياه ، ولعل الصواب « عياء » .
٤ الهفوات النادرة : ٣٦١ .
٥ ع والمختار : نصر .
٦ ر : للرمي .
٧ علق ابن المؤلف هنا بقوله : « قلت أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : زاد المبرد في كتابه المسمى بالكامل في هذه الحكاية أن اللهبي لما قال : أشعر والله ، قال له الأعرابي السامع له ولم ذلك ؟ قال : العرب تقول إذا ماتت الدابة نفق وإذا مات الكافر هلك وإذا مات المسلم مات وإذا مات الملك أشعر ، من إشعار البدن المهدية للكعبة والذبح إجلالا لهم وإعظاماً عن ذكر الموت ، والله أعلم».

وهذه الحكاية في كتاب «الكامل»[1] أيضاً .

وقوله «دعاه باسم ميت» إنّما قال ذلك لأن أبا بكر الصديق رضي الله عنه كان يقال له «خليفة رسول الله» فلما توفي وتولى عمر رضي الله عنه قيل له : «خليفة خليفة رسول الله» فقال للصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين : هذا أمر يطول شرحه ، فإن كل من يتولى يقال له خليفة مَنْ كان قبله حتّى يتصل برسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وإنّما أنتم المؤمنون ، وأنا أميركم ، فقيل له : يا أمير المؤمنين ، فهو أول من دعي بهذا الاسم ، وكان لفظ الخليفة مختصاً بأبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فلهذا قال «دعاه باسم ميت» .

وذكر عمر بن شبة – المقدم ذكره[2] – في «أخبار البصرة» عن الشعبي أن أول من دعا لعمر رضي الله عنه على المنبر أبو موسى الأشعري بالبصرة ، وهو أول من كتب «لعبد الله أمير المؤمنين» ، فقال عمر : إنّي لعبد الله ، وإنّي لعمر ، وإنّي لأمير المؤمنين .

وقال عوانة : أول من سمّاه أمير المؤمنين عدي بن حاتم الطائي ، وأول من سلم عليه بها المغيرة بن شعبة . وقال غيره : جلس عمر يوماً فقال : والله ما ندري كيف نقول : أبو بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، وأنا خليفة أبي بكر ، فأنا خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فمن جاء بعدي يقال له : خليفة خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فهل اسم ؟ قالوا : الأمير ، قال : كلكم أمير ، قال المغيرة : نحن المؤمنون ، وأنت أميرنا ، فأنت أمير المؤمنين ، قال : فأنا أمير المؤمنين ، والله أعلم ، وقد خرجنا عن المقصود .

وكانت ولادة هلال المذكور في شوال سنة تسع وخمسين وثلثمائة . وتوفي ليلة الخميس[3] سابع عشر شهر رمضان سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

---

١ الكامل : ١ : ١٤٥ .

٢ انظر ج ٣ : ٤٤٠ .

٣ ر : الجمعة .

٧٨٦
الهيثم بن عدي

أبو عبد الرحمن الهيثم بن عدي بن عبد الرحمن بن زيد بن أسيد بن جابر ابن عدي بن خالد بن خيثم بن أبي حارثة بن جدي بن تدول بن بحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثعل بن عمرو بن الغوث بن جلهمة ، وهو طيء ، الطائي الثعلي البحتري الكوفي ؛ كان راوية أخبارياً ، نقل من كلام العرب وعلومها وأشعارها ولغاتها الكثير ، وكان أبوه نازلاً بواسط ، وكان خيراً . وكان الهيثم يتعرض لمعرفة أُصول الناس ونقل أخبارهم ، فأورد معايبهم وأظهرها وكانت مستورة فكره لذلك ، ونقل عنه أنّه ذكر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه بشيء ، فحبس لذلك عدة سنين ، ويقال إنّه نقل عنه زوراً ، ولبسوا عليه ما لم يقله ، وكان قد صاهر قوماً فلم يرضوه ، فأذاعوا ذلك عنه ، وحرفوا الكلام . وكان يرى رأي الخوارج .

وله من الكتب المصنّفة كتاب « المثالب »[1] وكتاب « المعمرين » وكتاب « بيوتات العرب » وكتاب « بيوتات قريش » وكتاب « هبوط آدم عليه السلام » و « افتراق العرب ونزولها منازلها » وكتاب « نزول العرب بخراسان[2] والسواد » وكتاب « نسب طي » وكتاب « مديح[3] أهل الشام » وكتاب « تاريخ العجم وبني أُميّة » وكتاب « من تزوج منْ الموالي في العرب » وكتاب « الوفود » وكتاب

---

٧٨٦ – ترجمته في البيان ١ : ٣٤٧ ، ٣٦١ والفهرست : ٩٩ وتاريخ بغداد ١٤ : ٥٠ ونور القبس : ٢٩٣ وإنباه الرواة ٣ : ٣٦٥ ولسان الميزان ٥ : ٢٠٩ ومعجم الأدباء ١٩ : ٣٠٤ وميزان الاعتدال ٤ : ٣٢٤ وانظر بروكلمان (الترجمة العربية) ٣ : ٣٤ ويتفق نسبه المذكور هنا مع ما ذكره ابن الكلبي حتى « أسيد » وبعده : ابن ترعل بن ختيم (بتقديم الثاء) (مختصر الجمهرة ٢ : ٢٦٤) . وابتداء من هذه الترجمة ينتهي الإيجاز في النسخة ق .

١ كتاب المثالب : سقط من ص ، ووردت أسماء الكتب في ع دون واو عطف .

٢ ن ص : خراسان .   ٣ ص ر : مستفتح .

« خطط [1] الكوفة » وكتاب « ولاة الكوفة » وكتاب « تاريخ الأشراف الكبير » وكتاب « تاريخ الأشراف الصغير » وكتاب « طبقات الفقهاء والمحدثين » وكتاب « كنى الأشراف » وكتاب « خواتيم الخلفاء » وكتاب « قضاة الكوفة والبصرة » وكتاب « المواسم » وكتاب « الخوارج » وكتاب « النوادر » وكتاب « التاريخ على السنين » وكتاب « أخبار الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ووفاته » وكتاب « أخبار الفرس » وكتاب « عمال الشرط لأمراء العراق » وغير ذلك من التصانيف .

واختص بمجالسة المنصور والمهـــدي والهادي والرشيد وروى عنهم . قال الهيثم ، قال لي المهدي : ويحك يا هيثم ، إن الناس يخبرون عن الأعراب شحاً ولؤماً وكرماً وسماحاً ، وقد اختلفوا في ذلك ، فما عندك ؟ فقلت : على الخبير سقَطْتَ ، خرجتُ من عند أهلي أريد ديار فرائد [2] لي ، ومعي ناقة أركبها ، إذ ندّت فذهبت ، فجعلت أتبعها حتى أمسيت فأدركتها ، ونظرت فإذا خيمة أعرابي فأتيتها ، فقالت ربة الخباء : من أنت ؟ فقلت : ضيف ، فقالت : وما يصنع الضيف عندنا ؟ إن الصحراء لواسعة ، ثم قامت إلى بر فطحنته ، ثم عجنته وخبزته وقعدَتْ فأكلَتْ ، ولم ألبث أن أقبل زوجها ومعه لبن ، فسلم ثم قال : من الرجل ؟ فقلت : ضيف ، فقال : مرحباً حياك الله ، فدخل الخباء وملأ قَعْباً من لبن ، ثم أتاني به وقال : اشرب ، فشربت شراباً هنيئاً ، فقال : ما أراك أكلت شيئاً ، وما أراها أطعمتك ، فقلت : لا والله ، فدخل إليها مغضباً وقال : ويلك أكلت وتركت ضيفك ، فقالت : وما أصنع به ؟ أطعمه طعامي ؟ وجاراها في الكلام حتى شجها ، ثم أخذ شفرة وخرج إلى ناقتي فنحرها فقلت : ما صنعت عافاك الله ؟ فقال : لا والله ما يبيت ضيفي جائعاً ، ثم جمع حطباً وأجج ناراً ، وأقبل يكبب ويطعمني ويأكل ويلقي إليها ويقول : كلي لا أطعمك الله ، حتى إذا أصبح تركني ومضى ، فقعدت مغموماً ، فلما تعالى النهار أقبل ومعه بعير ما يسأم الناظر أن ينظر إليه ، فقال : هذا مكان ناقتك ، ثم زودني من ذلك اللحم

---

[1] ص ر ق : رهط .

[2] ر : قرائب .

وممّا حضره ، وخرجت من عنده ، فضمني الليل إلى خباء ، فسلمت ، فردت صاحبة الخباء السلام وقالت : من الرجل ؟ فقلت : ضيف ، فقالت : مرحبا بك حياك الله وعافاك ، فنزلت ، ثم عمدت إلى بر فطحنته وعجنته ، ثم خبزته خبزة روّتها بالزبد واللبن ، ثم وضعته بين يدي فقالت : كل واعذر ، فلم ألبث أن أقبل أعرابي كريه الوجه ، فسلم فرددت عليه السلام ، فقال : من الرجل ؟ قلت : ضيف ، قال : وما يصنع الضيف عندنا ، ثم دخل إلى أهله ، فقال : أين طعامي ؟ فقالت : أطعمته الضيف ، فقال : أتطعمين الضيف طعامي ، فتجاريا الكلام[1] ، فرفع عصاه وضرب بها رأسها فشجها ، فجعلت أضحك ، فخرج إليّ فقال : ما يضحكك ؟ قلت : خير ، فقال : والله لتخبرني ، فأخبرته بقضية[2] المرأة والرجل اللذين نزلت عندهما قبله ، فأقبل علي وقال : إن هذه التي عندي هي أخت ذلك الرجل ، وتلك التي عنده أختي . فبت ليلتي متعجباً وانصرفت .

ويقرب من هذه الحكاية ما روي أن رجلاً من الأولين كان يأكل وبين يديه دجاجة مشوية ، فجاءه سائل فرده خائباً ، وكان الرجل مترفاً فوقع بينه وبين امرأته فرقة ، وذهب ماله ، وتزوجت امرأته ، فبينما الزوج الثاني يأكل وبين يديه دجاجة مشوية جاءه سائل فقال لامرأته : ناوليه الدجاجة ، فناولته ، ونظرت إليه فإذا هو زوجها الأول ، فأخبرته بالقصة ، فقال الزوج الثاني : أنا والله ذلك المسكين الأول الذي خيبني ، فحوّل الله نعمته وأهله إليّ لقلة شكره[3] .

وحكى الهيثم أيضاً قال : صار سيف عمرو بن معديكرب الزبيدي الذي كان يسمى بالصمصامة إلى موسى الهادي بن المهدي ، وكان عمرو قد وهبه لسعيد ابن العاص الأموي ، فتوارثه ولده ، إلى أن مات المهديّ واشتراه موسى الهادي منهم بمال جليل ، وكان من أوسع بني العباس كفا وأكثرهم عطاء ، فجرد الصمصامة وجعلها بين يديه وأذن للشعراء فدخلوا عليه ، ودعا بِمِكتل فيه بدرة ، وقال : قولوا في هذا السيف ، فبدر ابن يامين البصري وأنشد :

---

١ ص ن : بالكلام .

٢ ص ر : بقصة .

٣ هذه القصة لم ترد في : ع بر من .

حاز صمصامةَ الزبيديّ من بيـ ن جميعِ الأنامِ موسى الأمينُ

سيف عمرو وكان فيما سمعنا خيرَ ما أغمدتْ عليه الجفون

أخضر اللون بين حدّيه بردٌ من ذُباح تبين فيه المنون

أوقدت فوقه الصواعق ناراً ثم شابت فيه الزعاف القيون

فإذا ما سللته بهرَ الشمـ سَ ضياء فلم تكد تستبين

ما يبالي من انتضاهُ لضربٍ أشمالٌ سطتْ به أم يمين

يستطير الأبصارَ كالقبس المُشْـ عَل ما تستقر فيه العيون

وكأن الفرندَ والجوهرَ الجا ريَ في صفحتيه ماء معين

نعم مخراق ذي الحفيظة في الهيـ ـجاء يعصى به ونعم القرين

فقال الهادي : أصبت والله ما في نفسي ، واستخفه السرور ، فأمر له بالمكتل والسيف ، فلما خرج من عنده قال للشعراء : إنّما حرمتم من أجلي ، فشأنكم والمكتل ، ففي السيف غنائي ، فاشتري منه السيف بمال جزيل ، وقال المسعودي في كتاب « مروج الذهب »[1] : اشتراه الهادي منه بخمسين ألفاً ، ولم يذكر من هذه الأبيات إلا بعضها .

والذباح : بضم الذال المعجمة وفتح الباء الموحدة وبعد الألف حاء مهملة ، وهو نبت قتّال لسميّته ، وقد جاء كثيراً في الشعر .

ويعصى – بفتح الصاد – يقال : عصِيَ بكسر الصاد يَعصَى إذا ضرب بالسيف ، وهو خلاف عَصَى يَعصِي إذا ارتكب الذنب .

وحكى المسعودي في « مروج الذهب »[2] في ولاية هشام بن عبد الملك أن الهيثم بن عدي المذكور روى عن عمر[3] بن هانىء الطائي قال : خرجت مع عبد الله ابن علي ، وهو عم السفّاح والمنصور ، فانتهينا إلى قبر هشام بن عبد الملك ، فاستخرجناه صحيحاً ما فقد منه إلا خرمة أنفه ، فضربه عبد الله ثمانين سوطاً ،

١ مروج الذهب ٣ : ٣٤٥ .

٢ مروج الذهب ٣ : ٢١٩ .

٣ ق : عمرو .

ثم أحرقه ، واستخرجنا [1] سليمان بن عبد الملك من أرض دابق ، فلم نجد منه شيئاً إلا صلبه وأضلاعه ورأسه ، فأحرقناه ، وفعلنا ذلك بغيرهما من بني أمية ، وكانت قبورهم بقنسرين . ثم انتهينا إلى دمشق فأخرجنا الوليد بن عبد الملك فما وجدنا في قبره لا قليلاً ولا كثيراً ، واحتفرنا عن عبد الملك فما وجدنا إلا شؤون رأسه ، ثم احتفرنا عن يزيد بن معاوية فما وجدنا منه إلا عظماً واحداً ، ووجدنا مع لحده خطاً أسود كأنما خط بالرماد بالطول في لحده ، ثم تتبعنا قبورهم في جميع البلدان ، فأحرقنا ما وجدنا فيها منهم [2] .

(312) وكان سبب فعل عبد الله ببني أميّة هذا الفعل أن زيد بن زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم — وقد سبق ذكره في ترجمة الوزير محمد بن بقية — خرج على هشام بن عبد الملك وسَمَتْ نفسه إلى طلب الخلافة ، وتبعه خلق من الأشراف والقرّاء ، فحاربه يوسف بن عمر الثقفي أمير العراقين — وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى — فانهزم أصحاب زيد وبقي في جماعة يسيرة ، فقاتلهم أشد قتال وهو يقول متمثلاً :

ذل الحياة وعزّ الممات ... وكلا أراه طعاماً وبيلا
فإن كان لا بدّ من واحد ... فسيري إلى الموت سيراً جميلا

وحال المساء بين الفريقين ، فانصرف زيد مُثْخناً بالجراح ، وقد أصابه سهم في جبهته ، فطلبوا من ينزع النصل ، فأتي بحجام من بعض القرى ، فاستكتموه أمره فاستخرج النصل ، فمات من ساعته ، فدفنوه في ساقية ماء وجعلوا على قبره [3] التراب والحشيش وأجروا الماء على ذلك ، وحضر الحجام مواراته فعرف الموضع ، فلما أصبح مضى إلى يوسف منتصحاً له ، فدلّهُ على موضع قبره ، فاستخرجه يوسف وبعث رأسه إلى هشام ، فكتب إليه هشام : أن اصلبه عرياناً ،

---

١ ق : ثم استخرجنا .

٢ عند هذا الموضع تعليق على هامش المختار بخط مخالف فيه تنديد بفعل الأمويين والعباسيين بل سب للعرب جميعاً .

٣ ر : فوق قبره .

فصلبه يوسف كذلك، ففي ذلك يقول بعض شعراء بني أميّة يخاطب آل أبي طالب وشيعتهم من جملة أبيات :

صلبنا لكم زيداً على جذع نخلة ولم أر مهدياً على الجذع يصلب

وبنى تحت خشبته عموداً ، ثم كتب هشام إلى يوسف يأمره بإحراقه وتذريته في الرياح ، وكان ذلك في سنة إحدى وعشرين ، وقيل اثنتين وعشرين ومائة .

وذكر أبو بكر ابن عياش وجماعة من الأخباريين أن زيداً أقام مصلوباً خمس سنين عرياناً فلم ير أحد له عورة ستراً من الله سبحانه وتعالى له ، وقال بعضهم : إن العنكبوت نسج على عورته[1] ، وذلك بالكناسة بالكوفة .فلما كان في أيام الوليد ابن يزيد وظهر ولده يحيى بن زيد بخراسان ، وهي واقعة مشهورة ، كتب الوليد إلى عامله بالكوفة : أن أحرق زيداً بخشبته ، ففعل ذلك ، وأذرى رماده في الرياح على شاطىء الفرات ، والله تعالى أعلم أي ذلك كان . فهذا الذي حمل عبد الله بن علي على ما فعله ببني أميّة ، انتصاراً لبني عمّه وانتقاماً لهم بنظير ما فعل بهم .

وقال الهيثم أيضاً : استعملت على صدقات بني فزارة ، فجاءني رجل منهم فقال : أريك عجباً ؟ فقلت : بلى ، فانطلق إلى جبل شاهق فإذا فيه صدع ، فقال لي : ادخل ، فقلت : إنّما يدخل الدليل ، قال : فدخل فاتبعته ، ودخل معنا أناس ، فكان ربما ضاق الجبل واتسع ، فإذا نحن بضوء ، فدنونا منه ، وإذا خرق ذاهب في الأرض ، وإذا عكاكيز في الجبل ، فجذبناها فإذا هي سهام عاد ، وإذا كتاب منقور في الجبل مقدار إصبعين أو أكثر ، وإذا هو كتاب بالعربية ، وهو :

ألا هل إلى أبيات سفح بذي اللوى لوى الرمل فاصدقن النفوس معادُ
بلاد لنا كانت وكنا نحبها إذ الناس ناس ، والبلاد بلاد

وروي أن أبا نواس الحسن بن هانىء الحكمي الشاعر ــ المقدم ذكره[2] ــ حضر

---

١ وقال بعضهم . . . عورته : سقط من أكثر النسخ .

٢ انظر ج ٢ : ٩٥ .

مجلس الهيثم بن عدي في حداثته ، والهيثم لا يعرفه ، فلم يستدنه ولا قرب مجلسه ، فقام مغضباً ، فسأل الهيثم عنه ، فخبر باسمه ، فقال : إنا لله ! هذه والله بلية لم أجنها على نفسي ، قوموا بنا إليه لنعتذر ، فصاروا إليه ، ودق الباب عليه وتسمى له ، فقال : ادخل ، فدخل فإذا هو قاعد يصفي نبيذاً له ، وقد أصلح بيته بما يصلح به مثله ، فقال : المعذرة إلى الله تعالى وإليك ، والله ما عرفتك وما الذنب إلا لك حيث لم تعرّفنا نفسك فنقضي حقك ونبلغ الواجب من برك ، فأظهر له قبول العذر ، فقال الهيثم : أستعهدك من قول يسبق منك فيّ ، فقال : ما قد مضى فلا حيلة فيه ، ولك الأمان فيما استأنف ، فقال : وما الذي مضى جعلت فداك ؟ قال : بيت مرَّ وأنا فيما ترى [يعني من الغضب] [1] قال: فتنشدنيه ، فدافعه ، فألحَّ عليه فأنشده :

يا هيثم بن عدي لست للعرَبِ ولست من طيىء إلا على شغبِ
إذا نسبت عَدياً في بني ثُعَل فقدم الدال قبل العين في النسب

فقام من عنده ؛ ثم بلغه بعد ذلك بقية الأبيات وهي :

للهيثم بن عدي في تلونــــه في كل يوم له رجل على خشب
فما يزال أخا حل ومرتحـل إلى الموالي وأحياناً إلى العرب
لـه لسان يزجّيـه بجوهـره كأنّه لم يزل يُغْدى [2] على قتب
كأنني بك فوق الجسر منتصباً على جواد قريب منك في الحسب
حتّى نراك وقد درعته قمصاً من الصديد مكان الليف والكرب
لله أنت فما قربى تهمُّ بها إلا اجتلبت لها الأنساب من كثب

فعاد الهيثم إلى أبي نواس ، وقال له : يا سبحان الله ! أليس قد أمنتني وجعلت لي عهداً أن لا تهجوني ! فقال : إنهم يقولون ما لا يفعلون .

---

١ لم يرد في النسخ الخطية .

٢ ع ن : يغدي ؛ ص ر : يعدي .

وأخبار الهيثم كثيرة وقد أطلنا الشرح .

وكانت ولادته قبل سنة ثلاثين ومائة . وتوفي غرّة المحرم سنة ست ، وقيل سبع ومائتين، وقال ابن قتيبة في كتاب «المعارف»[1] : سنة تسع ومائتين، والله تعالى أعلم بالصواب ، رحمه الله تعالى . وله عقب ببغداد . وقال السمعاني في كتاب «الأنساب»[2] في ترجمة البحتري : إنّه توفي سنة تسع[3] ومائتين بفم الصلح ، وله ثلاث وتسعون سنة ، وزاد غيره أن وفاته كانت عند الحسن بن سهل ، وقد تقدم في ترجمة بوران أن زواجها بالمأمون كان في هذا التاريخ بهذا الموضع ، والظاهر أنّه كان في جملة من حضر فتوفي هناك .

وقد تقدم الكلام على الطائي والبحتري .

والثعلي : بضم الثاء المثلثة وفتح العين المهملة وبعدها لام ، هذه النسبة إلى ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء — وقد تقدم تتمة هذه النسبة في ترجمة البحتري في حرف الواو فلتنظر هناك — وتنسب إلى ثُعَل المذكور عدة بطون : منها بحتر وسلامان وغيرهما .

(313) ومن هذه القبيلة عمرو بن المسبّح الثعلي[4] الذي قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلّم في وفود العرب ، فأسلم بالمدينة وهو ابن مائة وخمسين سنة ، وكان أرمى العرب وفيه يقول امرؤ القيس حندج[5] بن حجر الكندي الشاعر المشهور[6] :

رب رامٍ من بني ثُعَلٍ   مخرج كفيه من ستَرِه

---

١ المعارف : ٥٣٩ .

٢ الأنساب ٢ : ١٠٣ .

٣ الأنساب : سبع .

٤ عمرو بن المسبح : ذكره أبو حاتم في المعمرين : ٨٦ وابن حجر في الإصابة ٥ : ١٦ وابن عبد البر في الاستيعاب : ١٢٠١ وابن دريد في الاشتقاق : ٣٨٨ ، وفي ق ع والمختار : المسيح .

٥ ص ع ر : جندح .

٦ ديوان امرىء القيس : ١٢٣ .

وهذا من جملة ما استشهد به ابن قتيبة في كتاب «طبقات الشعراء»[1] على قرب زمن امرىء القيس من زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنّه كان قبله بمقدار أربعين سنة . هذا خلاصة ما قاله ، والله أعلم[2] .

---

١ طبقات الشعراء : ٦٦ – ٦٧ .

٢ جاء في نسخة ق : تم حرف الهاء وبتمامه تم الجزء الثالث من كتاب وفيات الأعيان .

حرف الياء



٧٨٧

ياروق التركماني

ياروق بن أرسلان التركماني ؛ كان مقدّماً جليل القدر في قومه ، وإليه تنسب الطائفة الياروقية من التركمان ، وكان عظيم الخلقة هائل المنظر ، سكن بظاهر حلب في جهتها القبلية ، وبنى على شاطىء قُوَيق فوق تلّ مرتفع هو وأهله وأتباعه أبنيةً كثيرة مرتفعة وعمائر متسعة وتعرف الآن بالياروقية ، وهي شبه القرية ، وسكنها هو ومن معه ، وهي إلى اليوم معمورة مسكونة آهله يتردد[١] إليها أهل حلب في أيام الربيع ويتنزهون هناك في الخضرة وعلى قُوَيق وهو موضع كثير الانشراح والأنس .

وتوفي ياروق المذكور في المحرم سنة أربع وستين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى — هكذا ذكره بهاء الدين المعروف بابن شداد في « سيرة السلطان[٢] صلاح الدين » رحمهما الله تعالى .

وياروق : بفتح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف راء مضمومة ثم واو ساكنة وفي الآخر قاف .

وقُويق : بضم القاف وفتح الواو وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها قافٌ ، وهو نهر صغير بظاهر حلب يجري في الشتاء والربيع وينقطع في الصيف ، وقد ذكرته الشعراء في أشعارهم كثيراً ، خصوصاً أبا عبادة البحتري[٣] فإنّه كرر

---

٧٨٧ – سقطت «بن» في نسبه من المختار ونسخة ق .

١ ر : يترددون .

٢ ن : السلطان الملك الناصر ؛ وانظر السيرة : ٣٩ .

٣ أكثر الصنوبري أيضاً من ذكر قويق في شعره ، انظر ديوانه (دار الثقافة ١٩٧٠) .

ذكره في عدة قصائد ، فمن ذلك قوله في جملة قصيدة[1] :

يا برق أسفر عن قويق فطُرَّتَيْ حلبٍ فأعلى القصر من بطْياسِ
عن منبتِ الوردِ المعصفر صبغهُ في كلّ ناحيةٍ ومجرى[2] الآسِ
أرضٌ إذا استوحشتُ ثم أتيتُها حشدت عليَّ فأكثرتْ إيناسي[3]

وبَطْياس : بفتح الباء الموحدة وسكون الطاء المهملة وفح الياء المثناة من تحتها وبعد الألف سين مهملة ، وهي قرية كانت بظاهر حلب ودثرت ، ولم يبق لها اليوم أثر . وكان صالح بن علي بن عبد الله بن عباس[4] بن عبد المطلب ، رضي الله عنهم ، قد بنى بها قصراً وسكنه هو وبنوه ، وهو بين النّيْرب والصالحية ، وهما قريتان في شرقي حلب ، وكان القصر على الرابية المشرفة على النّيْرب ، ولم يبق منه في هذا الزمان سوى آثار دارسة ، هكذا وجدته مضبوطاً بخط بعض الفضلاء من أهل حلب ، والله أعلم[5] .

---

١ ديوان البحتري : ١١٣٤ من قصيدة في مدح عبد الملك بن صالح الهاشمي .
٢ الديوان : ومجنى .
٣ ص ق ر : حشدت على ما كثرت .
٤ ق ر : العباس .
٥ انفردت النسخة (بر) بإيراد الترجمة التالية ، وأخلت بها سائر النسخ ، ومن الواضح أنها إضافة متأخرة لأنها منقولة عن تاريخ الإسلام للذهبي ووفاة المترجم بعد وفاة المؤلف ابن خلكان ، ولهذا لم نضعها في المتن ولم نفردها برقم ، وهذه هي :

« ياقوت المستعصمي الخطاط المشهور : يكاد يوجد خطه الآن بأيدي الناس مع العزة ، وهو ممن يضرب به المثل في حسن الخط ، ويقال كان إذا وقف عليه الفقير وسأله ، كتب له حرفاً واحداً ودفعه إليه فيبيعه بما يريد ، وهو غير ياقوت الملكي المذكور هنا ، وغير ياقوت الحموي ، ترجمه في تاريخ الإسلام وقال : كان رومي الجنس نشأ بدار الخلافة وأحب الكتابة والأدب ، فلما أخذت بغداد سلم وحصل خطوطاً لابن البواب وغيره ، وكان يعرفها بخزانة الخلفاء ، فجود عليها وقويت يده ، وكتب أسلوباً غريباً في غاية القوة ، وصار إماماً يقتدى به ، وكان رئيساً وافر الحرمة كثير التجمل والحشمة ، كتب عليه أولاد الأكابر ، وله شعر جيد فمنه :

صدقتم في الوشاة وقد مضى في حبكم عمري وفي تكذيبها =

٧٨٨
ياقوت الموصلي

أبو الدر ياقوت بن عبد الله الموصلي الكاتب ، الملقب أمين الدين ، المعروف بالملكي ، نسبة إلى السلطان أبي الفتح ملكشاه بن سلجوق بن محمد بن ملكشاه الأكبر ؛ نزل الموصل ، وأخذ النحو عن أبي محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان النحوي ، وقرأ عليه من تصانيفه جملة ، وكان ملازمه ، وقرأ عليه ديوان المتنبي والمقامات الحريرية وغير ذلك .

وكتب الكثير وانتشر خطه في الآفاق وكان في نهاية الحسن ، ولم يكن في آخر زمانه من يقاربه في حسن الخط ولا يؤدي طريقة ابن البواب في النسخ مثله ، مع فضل غزير ونباهة تامة ، وكان مُغْرًى بنقل « الصحاح » للجوهري ، فكتب منها نسخاً كثيرة ، كل نسخة في مجلد واحد ، رأيت[1] منها عدة نسخ ، وكل نسخة تباع بمائة دينار ، وكتب عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وكانت له سمعة كبيرة

= وزعمتم أني مللت حديثكم ... من ذا يمل من الحياة وطيبها

وله أيضاً :

تجدد الشمس شوقي كلما طلعت ... إلى محياك يا سمعي ويا بصري
وأسهر الليل ذا أنس بوحشته ... إذ طيب ذكرك في ظلمائه سمري
وكل يوم مضى لي لا أراك به ... فلست محتسباً باقيه من عمري
ليلي نهار إذا ما درت في خلدي ... لأن ذكرك نور القلب والبصر

ذكره الذهبي في حوادث سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وترجمه في الوفيات من تلك السنة ، وقال : توفي الشيخ أبو الدر جمال الدين ياقوت المذكور ببغداد ، هذه السنة (انظر الحوادث الجامعة : ٥٠٠ والنجوم الزاهرة ٨ : ١٨٧ والشذرات ٥ : ٤٤٣ وابن كثير ١٤ : ٦ والسلامي : ٢٣٣) .

٧٨٨ – ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ٣١٣ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٣ .

١ ع : ورأيت .

في زمانه ، وقصده الناس من البلاد ، وسير إليه من بغداد النجيب أبو عبد الله الحسين بن علي بن أبي بكر الواسطي قصيدة مدحه بها ولم يكن رآه ، بل على السماع به ، وهي قصيدة جيدة في بابها ، ووصف حسن خطه فأبلغ [1] ، وهي :

أين غزلانُ عالج والمصلّى ... من ظباء سكنَّ نهرَ المعلّى
أبتلك الكثبان أغصانُ بانٍ ... وبدورٌ من أفقها [2] تتجلى
أم لتلك الغزلانِ حسنُ وجوهٍ ... لو تراءت للحزْنِ أصبح سهلا
أين حوْذانُها من النرجسِ الغضّ ... إذا ناجزُ [3] النسيم استقلا
أين ذاك العرَار من صبغة الورد ... إذا جاده الغمام وطَلّا [4]
أبجرعائها كواكبُ نارنج ... دنا في غصونه فتدلى
أنقيبٌ [5] لماء دجلةَ كفؤٌ ... كذب القاسطون حاشا وكلا
ألدار السلام في الأرض شبه ... معجز أن ترى لبغداد مثلا
كلّ يومٍ تبدي وجوهاً خلافَ الأمسِ ... حسناً كأنما هي حبلى
وصبايا يصبو الحليم إليهن ... إذا ما خطرن [6] شكلاً ودلا
يعتصبن العصائبَ الناصريات ... فيحللن منك عقداً وحلا
ليس يرقبن فيك إلّاً ولا يعرفن ... شيئاً غير «الصحاح» وإلا
مَرْبَعٌ للقلوبِ فيه [7] ربيع ... متوالٍ إذا الربيعُ تولى
بلدة تستفادُ فيها المعالي ... والمعاني علماً وجداً وهزلا
لم يفتها من الكمال سوى ياقوتَ ... لو أنها به تتحلى

---

١ ن : فأبدع ؛ ر : فقال .

٢ ن : أهلها .

٣ ع ص ق : ناحر ؛ ن : فاخر .

٤ ق ن ص : وهلا .

٥ النقيب : اسم ماء .

٦ ق ن : خطون .

٧ ر : فيه للقلوب .

من لها أن يضوع نشرُ أمين الد ين فيها وحسبها ذاك فضلا
لو رجت أن يزورها لانبرى الصّا متُ فيها يقول : أهلا وسهلا
ولئن وافت الرواة بريّـا ه إليها فإن رؤياه[1] أحلى
بحرُ جودٍ له الأكارمُ تتلـو وجوادٌ عنه المكارم تتلى
جامعٌ شاردَ العلوم ولولا ه لكانت أمُّ الفضائل ثكلى
ذو يراعٍ تخافُ صولتَه[2] الأسـ ـدُ وتعنو له الكتائب ذلا
وإذا افترَّ ثغـرُهُ عن سوادٍ في بياضٍ فالبيض والسمر خجلى[3]
يقظٌ في حراسةِ الملكِ لا يعـ ـملُ سهماً ولا يجرّدُ نصلا
إنّمـا يبعث البلاغةَ أرسا لاً إذا كانت الصحائف رسلا
فيعيد الجبّار ممتلئـا خـو فاً لما قد أملَّ فيها وأملى
وتراه طوراً يجيلُ يديـه بقداحِ العلوم فصلاً ففصلا
مثل وشي الرياض أو كنظيم الـ ـدرّ[4] يزهى خطاً ولفظاً ونقلا
فاتئد يا مريدَ مثلِ أمين الدين مهلاً أتعبتَ نفسك مهلا
سيدي يا أخا السماح وظئر الـ ـمجد وابن العلى ورب المعلَّى
أنت بدر والكاتب ابن هلال كأبيه لا خيرَ فيمن تولى
إن يكن أولاً فإنّك بالتفـ ـضيلِ أولى ، لقد سبقت وصلى
يا أمـين الدين الذي جمع الـلـ ـه به للسماح والفضل شملا
أنا من قاده الثناءُ إلى حبـ ـك حتّى يظل لا يتسلّى
وإذا أُسجلَ الثناءُ بقاضٍ صار فيه أخو الشهادة عدلا
فارضَ بكراً ما راض قط أبوها فكره بابنة ليخطبَ بعـلا

---

١ ص : رياه .

٢ ص : يخاف ريقته .

٣ ص ق : تجلى .

٤ بر من ن : أو مثل نظم الدر .

لا جزاء يزيد عنها ولا أجـ　　رًا ولكن رآك للمدح أهلا
ودعاه إليك داعي وداد　　جاء يبغي من حسن رأيك وصلا
وإذا ما تعذر القرب فالقلـ　　ـب كفيل به ورأيك أعلى
فابق واسلم ما جرد الأفق جيشاً[1]　　من ظلام وجرد الصبح نصلا

وتوفي أمين الدين المذكور بالموصل سنة ثماني عشرة وستمائة ، وقد أسن وتغير خطه من الكبر ، رحمه الله تعالى .

٧٨٩

ياقوت الرومي أبو الدر

أبو الدر ياقوت بن عبد الله الرومي ، الملقب مهذب الدين ، الشاعر المشهور ، مولى أبي منصور الجيلي[2] التاجر ؛ اشتغل بالعلم وأكثر من الأدب ، واستعمل قريحته في النظم فأجاد فيه ، ولما تميز ومهر سمّى نفسه عبد الرحمن ، وكان مقيماً بالمدرسة النظامية ببغداد ، وعده ابن الدبيثي في كتاب « الذيل »[3] في جملة من اسمه عبد الرحمن ، وذكر أنّه نشأ ببغداد ، وحفظ القرآن العزيز وقرأ شيئاً من الأدب وكتب خطاً حسناً وقال الشعر وأكثر النظم منه في الغزل والتصابي وذكر المحبة ، وراق شعره وتحفظه الناس ، وأورد له مقطوعاً من الشعر وذكر أنّه أنشده إياه ، وهو :

---

١ ن ر : جر في الأفق جيش .

٧٨٩ – ترجمته في معجم الأدباء ١٩ : ٣١١ والنجوم الزاهرة ٥ : ٢٨٣ ومرآة الجنان ٤ : ٤٩ وعقود الجمان ج ٩ ، الورقة : ٣٤٧ والبدر السافر ٢ ، الورقة ٢٢١ .

٢ ص : الجيلي ؛ ع : الحلبي ، وفي الهامش : الجبلي .

٣ تاريخ ابن الدبيثي ج ٢ ، الورقة : ٣٦ (مخطوطة جامعة كيمبردج) .

خليليّ لا والله ما جنّ غاسقٌ وأظلم إلا حنّ أو جُن ّ عاشقُ

[وبقيته في المجموع الصغير][1] وأشعاره سائرة يتغنى بها ، وهي رقيقة لطيفة فمن ذلك قوله :

إن غاض دمعك والأحبابُ قد بانوا فكل ما تدّعي زورٌ وبهتانُ
وكيف تأنسُ أو تنسى خيالهمُ وقد خلا منهمُ ربعٌ وأوطان
لا أوحش الله من قومٍ نأوا فنأى عَنِ النواظر أقمارٌ وأغصان
سارُوا فسار فؤادي إثر ظعنهمُ وبان جيشُ اصطباري ساعةً بانوا
لا افترّ ثغرُ الثرى من بعد بعدهمُ ولا ترنحَ أيكٌ لا ولا بان
أجرى دموعي وأذكى النارَ في كبدي غداةَ بينهمُ همٌّ وأحزان
طوفانُ[2] نوحٍ ثوى في مقلتيّ وفي طيّ الحشا لخليل الله نيران
لو كابد الصخر ما كابدتُ من كمدٍ فيكم لجاد له أُحُدٌ ولُبنان
وذاب يذبلُ من وجدي ورضّ على رَضْوَى ولان لما ألقاه ثهْلان
يا من تملك رقي حسنُ بهجته سلطان حسنك مالي منه إحسان
كن كيف شئتَ فما لي عنك من بدلٍ أنت الزلالُ لقلبي وهو ظمآن

ومن شعره أيضاً :

ألا مبلغٌ وجدي بها وغرامي ومهدٍ إلى دار السلام سلامي
نسيمَ الصبا بلغ تحيةَ مُشْئم إلى مُعْرِق لم يرعَ عهدَ ذمامي
وَصِفْ بعضَ أشواقي إليه لعلّه يرقّ لذلي في الهوى وهيامي
أيا رحبةَ الزوراء لي فيك شادنٌ نفى بُعدُه من مقلتيّ منامي
بديعُ جمالٍ بانَ صبري لبينه وعرّضني إعراضُه لحمامي

---

[1] سقط من : ق ص ن ع بر من ؛ ولعله من بعض التحويلات في المسودة .
[2] ن ص ر بر من : فماء .

يصدُّ إذا ما صد عن عينيَ الكرى ويمزجُ دمعي هجرُهُ بمدامي
حياتي وموتي في يديه وجنّتي وناري وريي في الهوى وأوامي
ففي بعده عني وفاتي ، وقربه حياتي وإسعادي ونيلُ مرامي
ومن وجنتيه نار وجدي، وخصرِه نحولي، ومن سقم الجفونِ سَقامي
فكن عاذري يا عاذلي فدلالُه دليلٌ على وجدي به وغرامي [1]

ورأيت كثيراً من الفقهاء بالشام وبلاد الشرق يحفظون له قصيدة أولها :

جسدي لبعدك يا مثيرَ بلا بلي دنف بحبك ما أبل ، بلى بلي
يا من إذا ما لام فيه لوائمي أوضحت عذري بالعذار السائل
أأجيزَ قتلي في « الوجيز » لقاتلي أم حل في «التهذيب » أم في «الشامل»
أم في « المهذب » أن يعذب عاشق ذو مقلة عبرى وَدمع هاطل
أم طرفكَ الفتاك قد أفتاك في تلف النفوس بسحر طرف بابلي

وهي أكثر من هذا ، لكن هذا القدر هو الذي أستحضرهُ في هذا الوقت منها .

وأنشدني له بعض الأدباء بمدينة حلب أبياتاً ، منها قوله :

ألست من الولدان أحلى شمائلا فكيف سكنت القلب وهو جهنم

ثم قال : وقد انتقدوا عليه في [2] بغداد في هذا البيت ، فأفكرت فيه ثم قلت له : لعل الانتقاد من جهة أنّه ما يلزم من كونه أحلى شمائل من الولدان أنّه لا يكون في جهنم ، فإنّه قد يكون أحلى شمائل منهم ، وليس الممتنع إلا أن يكون الولدان في جهنم ، فقال : نعم هذا هو الذي أخذ عليه .

وأخبرني بعض الأفاضل بمدينة إربل في سنة خمس وعشرين وستمائة ، قال : كنت ببغداد في سنة عشرين وستمائة بالمدرسة النظامية ، فقعدت يوماً

---

١ ر : وهيامي .
٢ ص : أهل .

على بابها إلى جانب أبي الدر المذكور ونحن نتذاكر الأدب ، إذ جاء شيخ ضعيف القوى والحال يتوكأ على عصا ، فجلس قريباً منا ، فقال لي أبو الدر : أتعرف هذا ؟ فقلت : لا ، فقال : هذا مملوك الحيص بيص ، الذي يقول[1] فيه :

تشَرْبشْ أو تقمّصْ أو تقبّـى ... فلن تزدادَ عندي قطُّ حبا
تملك بعضُ حبّك كلَّ قَلْبي ... فإن تردِ الزيادةُ هاتِ قَلْبا

قال : فجعلت أنظر إليه ، وأفكر فيما كان عليه ، وما آل حاله إليه ، ولقد طلبت أنا هذين البيتين في ديوان الحيص بيص فلم أجدهما فيه، والله أعلم .

ولأبي الدر المذكور ديوان شعر سمعت أنّه صغير ولم أقف عليه ، بل على مقاطيع كثيرة منه ، وشعره متداول بالعراق وبلاد الشرق والشام ، ويكفي منه هذا القدر – وقد تقدم في حرف الخاء في ترجمة الشيخ الخضر بن عقيل الإربلي له ثلاثة أبيات دالية[2] – ثم إنّي ملكت من ديوانه[3] نسختين في سنة سبع وستين وستمائة بدمشق المحروسة ، وهو صغير الحجم يدخل في عشر كراريس[4] .

ورأيت في بعض التواريخ المتأخرة أن أبا الدر المذكور وجد ميتاً بمنزله ببغداد في الثاني عشر من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وقال الناس : إنّه كان قد توفي قبل ذلك بأيام ، رحمه الله تعالى .

وقال ابن النجار في « تاريخ بغداد » وجد أبو الدر في داره ميتاً ، يوم الأربعاء خامس عشر جمادى الأولى من السنة ، وكان قد أخرج من النظامية فسكن في دار بدرب دينار الصغير ، ولم يعلم متى مات ، وأظنه ناطح[5] الستين ، والله أعلم .

---

١ ر : قال .
٢ انظر جـ ٢ : ٢٣٨ .
٣ ق ع : بديوانه .
٤ ر : عشرين كراساً .
٥ ن : قارب .

والرومي : بضم الراء وسكون الواو وبعدها ميم ، هذه النسبة إلى بلاد الروم ، وهو إقليم مشهور متسع كثير البلاد .

وهاهنا نكتة غريبة يحتاج إليها ويكثر السؤال عنها ، وهي : أن أهل الروم يقال لهم « بنو الأصفر » ، واستعملته الشعراء في أشعارهم ، فمن ذلك قول عديّ بن زيدٍ العبادي من جملة قصيدته المشهورة :

وبنو الأصفر الكرام ملوك الرو م لم يبق منهُم مذكور

ولقد تتبعت ذلك كثيراً فلم أجد ما يشفي الغليل[1] ، حتّى ظفرت بكتاب قديم اسمه « اللفيف » ولم يكتب عليه اسم مؤلفه ، فنقلت منه ما صورته : عن العباس عن أبيه قال : انخرم مُلْك الروم في الزمان الأوّل[2] ، فبقيت منه امرأة ، فتنافسوا في الملك حتّى وقع بينهم شر ، فاصطلحوا على أن يملكوا أول مَنْ يُشرف عليهم ، فجلسوا مجلساً لذلك ، وأقبل رجل من اليمن معه عبد له حبشيّ يريد الروم ، فأبَقَ العبد منه ، فأشرف عليهم فقالوا : انظروا في أيّ شيء وقعتم ؟ فزوجوه تلك المرأة ، فولدت غلاماً فسموه « الأصفر » ، فخاصمهم المولى ، فقال الغلام : صدق أنا عبده فأرضوه ، فأعطوه حتّى رضي ، فبسبب ذلك قيل للروم بنو الأصفر ، لصفرة لون الولد ، لكونه مولداً بين الحبشي والمرأة البيضاء ، والله أعلم .

---

١ ن بر من والمختار : أحداً شفى فيه الغليل ؛ ص ر ع ق : من أشفى فيه الغليل .

٢ المختار : الزمن الأول ؛ ر : الزمان المتقدم .

٧٩٠
ياقوت الحموي

أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله ، الرومي الجنس والمولد الحموي المولى البغدادي الدار ، الملقب شهاب الدين ؛ أُسِرَ من بلاده صغيراً ، وابتاعه ببغداد رجل تاجر يعرف بعسكر ابن أبي نصر إبراهيم[1] الحموي ، وجعله في الكُتّاب لينتفع به في ضبط تجائره ، وكان مولاه عسكر لا يحسن الخط ولا يعلم شيئاً سوى التجارة ، وكان ساكناً ببغداد ، وتزوج بها وأولد[2] عدة أولاد ، ولمّا كبر ياقوت المذكور قرأ شيئاً من النحو واللغة[3] ، وشغله مولاه بالأسفار في متاجره فكان يتردد إلى كيش[4] وعُمان وتلك النواحي ويعود إلى الشام . ثم جرت بينه وبين مولاه نَبْوَة أوجبت عتقه فأبعده عنه ، وذلك في سنة ست وتسعين وخمسمائة، فاشتغل بالنسخ بالأجرة، وحصلت له بالمطالعة فوائد. ثم إن مولاه بعد مديدة[5] ألوى عليه وأعطاهُ شيئاً وسفره إلى كيشَ ، ولما عاد كان مولاه قد مات ، فحصل شيئاً ممّا كان في يده وأعطى أولاد مولاه وزوجته ما أرضاهم به ، وبقيت بيده بقية جعلها رأس ماله ، وسافر بها وجعل بعض تجارته كتباً .

وكان متعصباً على علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ؛ وكان قد طالع

---

٧٩٠ – ترجمته في مرآة الجنان ٤ : ٥٩ وعبر الذهبي ٥ : ١٠٦ وتاريخ إربل ، الورقة : ٣١٢ وقد ترجم له الذهبي أيضاً في تاريخ الإسلام والمنذري في وفيات النقلة والصفدي في الوافي ؛ وللمستشرقين بحوث كثيرة عنه ، انظر مقدمة الجزء الخامس من معجم البلدان (طبعة وستنفيلد) وتاريخ الأدب الجغرافي لكراتشكوفسكي ١ : ٣٣٥ وقد تحدث عنه الدكتور صلاح المنجد في أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب ١ : ٦١ وما بعدها ، وانظر تكملة بروكلمان ١ : ٨٨٠ .

١ ق : ابن إبراهيم ؛ وسقطت « إبراهيم » من المختار ؛ بر من : يعرف بعسكر الحموي .

٢ ر : وولد له .

٣ ر : ومن اللغة .

٤ كيش : جزيرة في الخليج العربي .

٥ ق ع بر من : مدة مديدة .

شيئاً من كتب الخوارج ، فاشتبك [1] في ذهنه منه طرف قوي ، وتوجه إلى دمشق في سنة ثلاث عشرة وستمائة وقعد في بعض أسواقها ، وناظر بعض من يتعصب لعلي رضي الله عنه ، وجرى بينهما كلام أدى إلى ذكره علياً ، رضي الله عنه ، بما لا يسوغ ، فثار الناس عليه ثورة كادوا يقتلونه ، فسلم منهم ، وخرج من دمشق منهزماً بعد أن بلغت القضية إلى والي البلد ، فطلبه فلم يقدر عليه ، ووصل إلى حلب خائفاً يترقب ، وخرج عنها في العشر الأول أو الثاني من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وتوصل إلى الموصل . ثم انتقل إلى إربل وسلك منها إلى خراسان وتحامى دخول بغداد ، لأن المناظر له بدمشق كان بغدادياً ، وخشي أن ينقل قوله فيقتل . فلما انتهى إلى خراسان أقام بها يتجر في بلادها ، واستوطن مدينة مَرْوَ مدة ، وخرج عنها إلى نَسا ومضى إلى خوارزم ، وصادفه وهو بخوارزم خروج التتر ، وذلك في سنة ست عشرة وستمائة ، فانهزم بنفسه كبعثه يوم الحشر من رَمْسه ، وقاسى في طريقه من المضايقة [2] والتعب ما كان يكل عن شرحه إذا ذكره ، ووصل إلى الموصل وقد تقطعت به الأسباب ، وأعوزه دنيء المآكل وخشنُ الثياب ، وأقام بالموصل مدة مديدة [3] ، ثم انتقل إلى سنجار وارتحل منها إلى حلب ، وأقام بظاهرها في الخان ، إلى أن مات في التاريخ الآتي ذكره إن شاء الله تعالى .

ونقلت من « تاريخ إربل » الذي عني بجمعه أبو البركات ابن المستوفي – المقدم ذكره – أن ياقوتاً المذكور قدم إربل في رجب سنة سبع عشرة وستمائة ، وكان مقيماً بخوارزم ، وفارقها للواقعة التي جرت فيها بين التتر والسلطان محمد بن تكش خوارزم شاه .

وكان قد تتبع التواريخ ، وصنف كتاباً سمّاه « إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء » يدخل في أربعة جلود [4] كبار ، ذكر في أوله قال [5] : « وجمعت في هذا

---

١ ق : فتشكل ؛ ع : فاستبد .

٢ ع بر من : الضائقة .

٣ بر : بالموصل مديدة .

٤ ق ن ر بر من : أربع مجلدات .

٥ انظر معجم الأدباء ١ : ٤٨ .

الكتاب ما وقع إلي من أخبار النحويين واللغويين والنسابين والقراء المشهورين ، والأخباريين والمؤرخين والوراقين المعروفين والكتاب المشهورين وأصحاب الرسائل المدونة ، وأرباب الخطوط المنسوبة المعينة ، وكل من صنف في الأدب تصنيفا أو جمع فيه تأليفا ، مع إيثار الاختصار والإعجاز في نهاية الإيجاز ، ولم آل جهداً في إثبات الوفيات ، وتبيين المواليد والأوقات ، وذكر تصانيفهم ومستحسن أخبارهم ، والإخبار بأنسابهم وشيء من أشعارهم[1] ، في ترددادي إلى البلاد ومخالطتي للعباد ، وحذفت الأسانيد إلا ما قل رجاله وقرب مناله ، مع الاستطاعة لإثباتها سماعاً وإجازة ، إلا أنني قصدت صغر الحجم وكبر النفع ، وأثبت مواضع نقلي ومواطن أخذي من كتب العلماء المعول في هذا الشأن عليهم ، والمرجوع في صحة النقل إليهم » .

ثم ذكر أنه جمع كتاباً في أخبار الشعراء المتأخرين والقدماء . ومن تصانيفه أيضاً كتاب « معجم البلدان » وكتاب « معجم الشعراء » وكتاب « معجم الأدباء »[2] وكتاب « المشترك وضعاً المختلف صقعاً » وهو من الكتب النافعة ، وكتاب « المبدأ والمآل » في التاريخ ، وكتاب « الدول » و « مجموع كلام أبي علي الفارسي » و « عنوان كتاب الأغاني » ، و « المقتضب في النسب » يذكر فيه أنساب العرب ، وكتاب « أخبار المتنبي » .

وكانت له همة عالية في تحصيل المعارف .

وذكر القاضي الأكرم جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم ابن عبد الواحد الشيباني القفطي ، وزير صاحب حلب كان رحمه الله تعالى ، في كتابه[3] الذي سماه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » أن ياقوتاً المذكور كتب إليه رسالة من الموصل عند وصوله إليها هارباً من التتر ، يصف فيها حاله وما جرى له معهم ، وهي بعد البسملة والحمدلة : « كان المملوك ياقوت بن عبد الله الحموي قد كتب هذه الرسالة من الموصل في سنة سبع عشرة وستمائة ، حين

---

١ أسقط المؤلف هنا بعض العبارات .

٢ هذا يوهم أنه كتاب آخر غير « ارشاد الألباء » الذي نقل المؤلف جانباً من مقدمته ، أعلاه .

٣ ر : الكتاب .

وصوله من خوارزم طريد التتر ، أبادهم الله تعالى ؛ إلى حضرة مالك رقه الوزير جمال الدين القاضي الأكرم أبي الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الواحد الشيباني ، ثم التيمي تيم بني شيبان بن ثعلبة بن عكابة ، أسبغ الله عليه ظله ، وأعلى في درج السيادة محله ، وهو يومئذ وزير صاحب[1] حلب والعواصم ، شرحاً لأحوال خراسان وأحواله ، وإيماء إلى بدء أمره بعد ما فارقه ومآله ، وأحجم عن عرضها على رأيه الشريف إعظاماً وتهيباً ، وفراراً من قصورها عن طوله وتجنباً، إلى أن وقف عليها جماعة من منتحلي النظم[2] والنثر ، فوجدهم مسارعين إلى كتبها ، متهافتين على نقلها ؛ وما يشك أن محاسن مالك الرق حلتها ، وفي أعلى درج الإحسان أحلتها ، فشجعه ذلك على عرضها على مولاه ، وللآراء علوها في تصفحها ، والصفح عن زللها ، فليس كل من لمس درهماً صيرفياً ، ولا كل من اقتنى دراً جوهرياً . وها هي ذه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أدام الله على العلم وأهليه ، والإسلام وبنيه ، ما سوغهم وحباهم، ومنحهم وأعطاهم ، من سبوغ ظل المولى الوزير ، أعز الله أنصاره ، وضاعف مجده واقتداره ، ونصر ألويته وأعلامه ، وأجرى بإجراء الأرزاق في الآفاق أقلامه ، وأطال بقاه ، ورفع إلى عليين علاه ، في نعمة لا يبلى جديدها ، ولا يحصى عددها ولا عديدُها ، ولا ينتهي إلى غاية مديدها ، ولا يُفَلّ حدها ولا حديدُها ، ولا يقل وادها ولا وديدها ، وأدام دولته للدنيا والدين يلم[3] شعَثه، ويهزم كرثه، ويرفع مناره، ويحسن بحسن أثره آثاره ، ويفتق نوره وأزهاره ، وينير نواره ، ويضاعف أنواره ، وأسبغ[4] ظلّه للعلوم وأهليها ، والآداب ومنتحليها ، والفضائل وحامليها ، يشيد بمشيد فضله بنيانها ، ويرصع بناصع مجده تيجانها ، ويروض بيانع علائه زمانها ، ويعظم بعلو همته الشريفة بين البرية[5] شأنها ، ويمكن في أعلى درج الاستحقاق إمكانها ومكانها ،

---

١ صاحب : سقطت من ص ؛ بر : لصاحب .

٢ بر من : صناعة النظم .

٣ ع ق بر من : يرم .

٤ ر : ويسبغ .

٥ بين البرية : سقطت من ر .

ويرفع[1] بنفاذ الأمر قدره للدول الإسلامية والقواعد الدينية ، يسوس قواعدها ، ويعزّ مساعدها ، ويهين معاندها ، ويعضد بحسن الإيالة معاضدها ، وينهج[2] بجميل المقاصد مقاصدها ، حتّى تعود بحسن تدبيره غرّةً في جبهة الزمان ، وسنة يقتدي بها من طبع على العدل والإحسان ، يكون له أجرها ما دام الملوان وكر الجديدان ، وما أشرقت من الشرق شمس ، وارتاحت إلى مناجاة حضرته الباهرة نفس » .

« وبعد ، فالمملوك ينهي إلى المقر العالي المولوي ، والمحل الأكرم العلي — أدام الله سعادته مشرقة النور مبلغة السول ، واضحة الغرر بادية الحجول — ما هو مكتف بالأريحية المولوية عن تبيانه ، مستغن بما منحتها من صفاء الآراء عن إمضاء[3] قلمه لإيضاحه وبيانه ، قد أحسبه ما وصف به عليه الصلاة والسلام المؤمنين ، وإن من أمتي لمكلمين ، وهو شرح ما يعتقده من الولاء ، ويفتخر به من التعبد للحضرة الشريفة والاعتزاء ، قد كفته تلك الألمعية ، عن إظهارِ المشتبه بالملق ممّا تجنه الطوية ، لأن دلائل غلوّ المملوك في دين ولائه في الآفاق واضحة ، وطبعة سكةِ[4] إخلاص الوداد باسمه الكريم على صفحات الدهر لائحة ، وإيمانه بشرائع الفضل الذي طبق الآفاق حتّى أصبح بها بناء المكارم متين ، وتلاوته لأحاديث المجد القريبة الأسانيد بالمشاهدة لديه مبين ، ودعاء أهل الآفاق إلى المغالاة في الإيمان بإمامة فضله الذي تلقاه باليمين ، وتصديقه بملة سؤدده الذي تفرد بالتوخي لنظم شارده وضم متبدّده بعرق الجبين ، حتّى لقد أصبح للفضل كعبة لم يفترض حجها على من استطاع إليها السبيل ، ويقتصر بقصدها على ذوي القدرة دون المعتّر وابن السبيل ، فإن لكل منهم حظاً يستمده ، ونصيباً يستعد به ويعتده ، فللعظماء الشرف الضخم من معينه ، وللعلماء اقتناء الفضائل من قطينه ، وللفقراء توقيع الأمان من نوائب الدهر وغض جفونه ،

---

١ ع ق ن بر من : ورفع .

٢ ن بر من : ويبهج .

٣ ع ق : إنضاء .

٤ ص ن ر ع ق : وطبعه في سكة .

وفرضوا من مناسكه للجبهة [1] الشريفة السلام والتبجيل ، وللكف البسيطة الاستلام والتقبيل ، وقد شهد الله تعالى للمملوك أنّه في سفره وحضره ، وسره وعلنه [2] وخبره ومخبره ، شعارُهُ تعطيرُ مجالس الفضلاء ، ومحافل العلماء بفوائد حضرته ، والفضائل المستفادة من فضلته ، افتخاراً بذلك بين الأنام ، وتطريزاً لما يأتي به في أثناء الكلام :

إذا أنا شَرَّفْتُ الوَرَى بقصائِدي ... على طَمَعٍ شَرَّفْتُ شِعري بذكره

﴿ يَمُنُّون عَلَيْكَ أنْ أسْلموا ، قُل لا تَمُنّوا عليَّ إسْلامَكُم ، بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيْكُم أنْ هداكُم للإيمانِ إنْ كُنْتُم صادِقين ﴾ (الحجرات : ١٧) لا حرمنا الله معاشرَ أوليائه مواد فضائله المتتالية ، ولا أخلانا كافةَ عبيده من أياديه المتوالية ، اللّهم ربّ الأرض المدْحِيّة ، والسموات العلية ، والبحار المسجرة ، والرياح المسخرة [3] ، اسمع ندائي ، واستجب دعائي ، وبلغنا في معاليه ، ما نؤمله ونرتجيه ، بمحمد النبيّ وصحبه وذويه .

وقد كان المملوك لما فارق الجناب الشريف ، وانفصل عن مقر العز اللّباب والفضل المنيف ، أراد استعتاب الدهر الكالح ، واستدرار خِلْفِ الزمن الغشوم الجامح ، اغتراراً بأن في الحركة بركة ، والاغتراب داعية الاكتساب ، والمقام على الإقتار ذل واسقام [4] ، وحلس البيت ، في المحافل سُكَيْت :

وقفتُ وقوفَ الشك ثم استَمرّ بي ... يقيني بأن الموتَ خيرٌ من الفقرِ
فوَدَّعتُ من أهلي وبالقلب [5] ما به ... وسِرتُ عن الأوطان في طلب اليسر
وباكية للبينِ قلتُ لها اصبري ... فللموتُ خير من حياة على عسر [6]

---

١ للجبهة : سقطت من ص .
٢ ص ر : وعلنه وسره .
٣ بر : والبحار المسخرة والرياح المبشرة .
٤ في أكثر النسخ : وانتقام .
٥ ق ن : وفي القلب .
٦ ر : العسر .

سأكسبُ مالاً أو أموتَ ببلدةٍ   يقل بها فيضُ الدموع على قبري

فامتطى غارب الأمل إلى الغربة ، وركب مركب التطواف مع كل صحبة ، قاطعاً الأغوار والأنجاد ، حتى بلغ السد أو كاد ، فلم يُصْحِب له دهره الحرون ، ولا رق له زمانه المفتون :

إن الليـاليَ والأيام لو سئلت   عن عيب أنفسها لم تكتم الخبرا

فكأنّه في جفن الدهر قذى، أو في حلقه شجا، يدافعه نيلَ الأمنية، حتى أسلمه إلى ربقة المنية :

لا يستقر بأرضٍ أو يسيرَ إلى   أخرى بشخصٍ[1] قريب عزمه نائي
يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق ويو   ماً بالعذيب ويوماً بالخليصاء
وتارة ينتحي نجـداً وآونـة   شعب الحزون وحيناً قصر تيماء

وهيهات مع حرفة الأدب ، بلوغ وطر أو إدراك أرب ، ومع عبوس الحظ ، ابتسام الدهر الفظ . ولم أزل مع الزمان في تفنيد وعتاب ، حتى رضيت من الغنيمة بالإياب ، والمملوك مع ذلك يدافع الأيام ويزجيها ، ويعلل المعيشة ويرجيها ، متقنعاً[2] بالقناعة والعفاف ، مشتملاً بالنزاهة والكفاف ، غير راض بذلك السـمَل ، ولكن مكره أخاك[3] لا بطل ، متسلياً بإخوان قد ارتضى خلائقهم ، وأمن بوائقهم ، عاشرهم بالألطاف ، ورضي منهم بالكفاف ، لا خيرهم يرتجى ، ولا شرهم يتقى :

إن كان لا بد من أهل ومن وطن   فحيث آمن من ألقى ويأمنني

قد زمَّ نفسه أن يستعمل طَرْفاً طماحاً ، وأن يركب طِرْفاً جماحاً[4] ، وأن

---

١ ر ص : لشخص .
٢ ع : متلفعاً ؛ ق : متلففاً .
٣ ن : أخوك .
٤ ق ع ص : سحاحا .

يلحفَ بيض طمع جناحا ، وأن يستقدح زنداً وارياً أو شحاحا :

وأدبـني الزمان فـلا أبالي　　هجرت فلا أزار ولا أزورُ
ولست بقائل ما عشتُ يوماً　　أسار الجند أم رحل الأمير

وكان المقام بمرو الشاهجان ، المفسر عندهم بنفس السلطان ، فوجد بها من كتب العلوم والآداب ، وصحائف أولى الأفهام والألباب ، ما شغله عن الأهل والوطن ، وأذهله عن كل خل صفي وسكن ، فظفر منها بضالته المنشودة ، وبغية نفسه المفقودة ، فأقبل عليها إقبال النهم الحريص ، وقابلها بمقام لا مَزْمَعَ عنها ولا محيص[1] ، فجعل يرتع في حدائقها ، ويستمتع بحسن خلقها وخلائقها ، ويسرح طرفه في طُرَفها ، ويتلذذ بمبسوطها ونتفها ، واعتقد المقام بذاك الجناب ، إلى أن يجاور التراب :

إذا ما الدهرُ بيّتني بجيشٍ　　طليعته اغتمامٌ واغـترابُ
شننتُ عليه من جهـتي كميناً　　أميراه الذُّبـالـة والكتاب
وبت أنصّ من شيم الليالي　　عجائب من حقائقها ارتياب
بهـا أجلو همومي مستريحاً　　كما جلّى همومهم الشراب

إلى أن حدث بخراسان ما حدث من الخراب ، والويل المبير والتباب ، وكانت لعمر الله بلاداً مونقة الأرجاء ، رائقة الأنحاء ، ذات رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مريضة ، قد تغنت أطيارها ، فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أنهارها ، فتضاحكت أزهارها ، وطاب رَوْح نسيمها ، فصح مزاج إقليمها ، ولعهدي بتلك الرياض الأنيقة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب ، زِقاقَ خمر السحائب ، فسقت مروجها مدامَ الطل ، فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحلّ ، فلما رويت من تلك[2] الصهباء أشجاره ، رنحها من النسيم خماره ، فتدانت ولا تداني المحبين ، وتعانقت ولا عناق

---

١ ن ق ع ص بر من : لا يزمع عنها معه محيص .
٢ تلك : سقطت من ص ن .

العاشقين ، يلوح من خلالها شقائق قد شابه اشتقاق الهوى بالعليل [1] ، فشابه شفتي غادتين دنتا للتقبيل ، وربما اشتبه على النحرير بائتلاف الخمر [2] ، وقد انتابه رشاش القطر ، ويريه [3] بهاراً يبهر ناضره ، فيرتاح إليه ناظره ، كأنّه صنوج من العسجد ، أو دنانير من الإبريز تنقد [4] ، ويتخلل ذلك أقحوان تخاله ثغر المعشوق إذا عض خد عاشق ، فللّه درها من نزهة رامق ولون وامق ، وجملة أمرها أنها كانت أنموذج الجنّة بلا مين، فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ العين ، قد اشتملت عليها المكارم ، وارجحنت في أرجائها الخيرات الفائضة للعالم ، فكم فيها من حبرٍ راقت حبره ، ومن إمام توّجت حياة الإسلام سيره ، آثار علومهم على صفحات الدهر مكتوبة ، وفضائلهم في محاسن الدنيا والدين محسوبة ، وإلى كل قطر مجلوبة ، فما من متين [5] علم وقويم رأي إلا ومن شرقهم مطلعه ، ولا من مغربة فضل إلا وعندهم مغربه وإليهم منزعه ، وما نشأ من كرم أخلاق بلا اختلاق إلا وجدته فيهم ، ولا إعراق [6] في طيب أعراق إلا اجتليته من معانيهم ، أطفالهم رجال ، وشبابهم أبطال ، ومشايخهم أبدال ، شواهد مناقبهم باهرة ، ودلائل مجدهم ظاهرة ، ومن العجب العجاب [7] أن سلطانهم المالك ، هان عليه ترك تلك الممالك ، وقال لنفسه الهوى لك ، وإلاّ فأنت في الهوالك ، وأجفل إجفال الرال ، وطفق إذا رأى غير شيء ظنه رجلاً بل رجال ﴿ كَمْ تَرَكُوا مِن جنّاتٍ وَعُيون وَزُروعٍ وَمَقامٍ كريم ونعمَة كانوا فيها فاكِهين ﴾ (الدخان : ٢٦) لكنه عزّ وجل لم يورثها قوماً آخرين ، تنزيهاً لأولئك الأبرار عن مقام المجرمين ، بل ابتلاهم فوجدهم شاكرين ، وبلاهم فألفاهم صابرين ، فألحقهم بالشهداء الأبرار ، ورفعهم إلى درجات

---

١ ر : العليل .

٢ ع ق : بائتلاق الجمر .

٣ ق ع ن : ويريك .

٤ ع ن ق ص : تبرق .

٥ ن بر من : مبين .

٦ ن ر : إغراق .

٧ ن : ومن العجائب .

المصطفين الأخيار ﴿ وَعَسَى أنْ تَكْرَهوا شَيْئاً وَهوَ خَيرٌ لَكُم ، وَعَسَى أنْ تُحبّوا شَيئاً وَهوَ شرٌّ لَكُم ، واللهُ يَعْلَمُ وأنتُم لا تَعْلَمون ﴾ (البقرة : ٢١٦) فجاس خلال تلك الديار أهل الكفر والإلحاد ، وتحكم في تلك الأبشار أولو الزيغ والعناد [١] ، فأصبحت تلك القصور ، كالممحوّ من السطور ، وأمست [٢] تلك الأوطان ، مأوى الأصداء والغربان ، تتجاوب في نواحيها البوم ، وتتناوح في أراجيها [٣] الريح السموم ، ويستوحش فيها الأنيس ، ويرثي لمصابها إبليس :

كأن لم يكن فيها أوانسُ كالدُّمى ... وأقيالُ ملك في بسالتهم أسدُ
فمَنْ حاتمٌ في جوده وابن مامة ... ومَن أحنف إن عد حلمٌ ومن سعد
تداعى بهم صرف الزمان فأصبحوا ... لنا عبرة تدمي الحشا ولمن بعد

فإنّا للهِ وإنّا إليه راجعُون من حادثة تقصم الظهر ، وتهدم العمر ، وتفت في العضد ، وتوهي الجلد ، وتضاعف الكمد ، وتشيب الوليد ، وتنخب لب الجليد ، وتسوّد القلب ، وتذهل اللّب ، فحينئذ تقهقر المملوك على عقبه [٤] ناكساً ، ومن الأوبة إلى حيث تستقر فيه النفس بالأمن آيساً ، بقلب واجب ، ودمع ساكب ، ولب عازب ، وحلم غائب ، وتوصل وما كاد حتى استقر بالموصل بعد مقاساة أخطار ، وابتلاء واصطبار ، وتمحيص الأوزار ، وإشراف غير مرّة على البوار والتبار ، لأنّه مرّ بين سيوف مسلولة ، وعساكر مفلولة ، ونظام عقود محلولة ، ودماء مسكوبة مطلولة ، وكان شعاره كلما علا قتبا ، أو قطع سبسبا ﴿ لَقَد لَقينا مِن سَفَرِنا هذا نصَبا ﴾ (الكهف : ٦٢) فالحمد لله الذي أقدرنا على الحمد ، وأولانا نعماً تفوت الحصر والعد . وجملة الأمر أنّه لولا فسحة في الأجل ، لعز أن يقال سلم البائس أو وصل ، ولصفق عليه أهل الوداد صفقة المغبون ، وألحق بألف ألف ألف ألف هالك بأيدي الكفار

---

١ ن : والأفك والعناد .

٢ ق ع ن بر من : وآضت .

٣ ع بر من : أرجائها .

٤ ن ق : عقبيه .

أو يزيدون ، وخلف خلفه جل ذخيرته ، ومستمد معيشته :

تنكر لي دهري ولم يدر أنني أعِزٌّ وأحداثُ الزمان تهونُ
وبات يريني الخطبَ كيفَ اعتداؤه وبت أريه الصبرَ كيف يكون

وبعد ، فليس للملوك ما يسلي به خاطره ، ويعزي به قلبه وناظره ، إلا التعلل بإزاحة العلل ، إذا هو بالحضرة الشريفة مَثَل[1] :

فاسلم ودم وتملَّ العيش في دعة ففي بقائك ما يسلي عن السلف
فأنت للمجد روحٌ والورى جسد وأنت درٌّ فلا تأسى على الصدف

والمملوك الآن بالموصل مقيم ، يعالج لما حَزَبه من هذا الأمر المقعدَ المقيم ، يزجي وقته ، ويمارس حرفته ، وبخته يكاد يقول له باللسان القويم ﴿ تاللهِ إنَّكَ لَفي ضَلالِكَ القَديم ﴾ (يوسف : ٩٥) يذيب نفسه في تحصيل أغراض ، هي لعمر الله أعراض ، من صحف يكتبها ، وأوراق يستصحبها ، نَصَبُه فيها طويل ، واستمتاعه بها قليل ، ثم الرحيل ، وقد عزم بعد قضاء نهمته ، وبلوغ بعض وطر قَرونته ، أن يستمد التوفيق ، ويركب سنَن الطريق ، عساه أن يبلغ أمنتيه ، من المثول بالحضرة ، وإتحاف بصره من خلالها ولو بنظرة ، ويلقى عصا الترحال بفنائها الفسيح ، ويقيم تحت ظل كنفها إلى أن يصادفه[2] الأجل المريح ، وينظم نفسه في سلك مماليكها بحضرتها ، كما ينتمي إليها في غيبتها ، إن مدت السعادة بضبعه ، وسمح له[3] الدهر بعد الخفض برفعه ، فقد ضعفت قواه عن درك الآمال ، وعجز عن معاركة الزمان والنزال ، إذ ضمت البسيطة إخوانه ، وحجب الجديدان أقرانه ، ونزل المشيب بعذاره ، وضعفت مُنَّة أوطاره ، وانقض باز الشيب على غراب شبابه فقنصه ، وأكب نهار الحلم على ليل الجهل فوقصه ، وتبدلت محاسنه عند أحبابه مساوي وخصصه ، واستعاض

---

١ ر : مثل وقال .

٢ ر : يصادف .

٣ ع : لين .

من حلة الشباب القشيب ، خلق الكبر والمشيب :

وشبابٍ بان مني وانقضى قبل أن أقضيَ منه أربي
ما أرجّي بعده إلا الفنا ضيّق الشيب عليّ مطلبي

ولقد ندب المملوك أيام الشباب بهذه الأبيات ، وما أقل غناء الباكي على من عد في الرفات :

تنكر لي مذ شبت دهري وأصبحت معارفه عندي من النكراتِ
إذا ذكرتها النفس حنت صبابةً وجادت شؤونُ العين بالعَبَرات
إلى أن أتى دهرٌ يحسّن ما مضى ويوسعني تذكارُه حسرات
فكيف ولما يبق من كأس مشربي سوى جُرَع في قعره كدرات
وكلُّ إناء صفوه في ابتدائه وفي القعر مزجا حمأةٍ وقذاة

والمملوك يتيقن أنّه لا ينفّق هذا الهذر الذي مضى ، إلا النظر إليه بعين الرضا ، ولرأي المولى الوزير الصاحب ، كهف الورى في المشارق[1] والمغارب ، فيما يلاحظه منه بعادة مجده ، مزيد مناقب ومراتب ، والسلام .

ولقد طالت هذه الترجمة بسبب طول الرسالة ، ولم يمكن قطعها .

وقال صاحبنا الكمال ابن الشعار الموصلي في كتاب « عقود الجمان »[2] : أنشدني أبو عبد الله محمد بن محمود المعروف بابن النجار البغدادي صاحب « تاريخ بغداد » قال : أنشدني ياقوت المذكور لنفسه في غلامٍ تركي قد رَمدَت عينه وعليها وقاية سوداء :

ومولّدٍ للترك تحسب وجهه بدراً يضيء سناه بالإشراقِ
أرخى على عينيه فضلَ وقاية ليردّ فتنتها عن العشاق

---

١ ع ق بر من : بالمشارق .

٢ ترجمة ياقوت في الجزء التاسع من عقود الجمان ، الورقة : ٣٣٧ ؛ وقد سقط النقل عن ابن الشعار من : بر من .

تالله لو أن السوابغ دونها نفذت فهل لوقايةٍ من واق

وكانت ولادة ياقوت المذكور في سنة أربع أو خمس وسبعين وخمسمائة ، ببلاد الروم ، هكذا قاله . وتوفي يوم الأحد العشرين من شهر رمضان سنة ست وعشرين وستمائة ، في الخان بظاهر مدينة حلب ، حسبما قدمنا ذكره في أول الترجمة ، رحمه الله تعالى .

وكان قد وقف كتبه على مسجد الزيدي الذي بدرب دينار ببغداد ، وسلمها إلى الشيخ عزالدين أبي الحسن علي بن الأثير صاحب التاريخ الكبير ، فحملها إلى هناك . ولما تميز ياقوت المذكور واشتهر سمى نفسه « يعقوب » .

وقدمت حلب للاشتغال بها في مستهل ذي القعدة سنة وفاته ، وذلك عقيبَ موته، والناس يثنون عليه ويذكرون فضله وأدبه ، ولم يقدر لي الاجتماع به .

٧٩١

الحافظ ابن معين

أبو زكريا يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام بن عبد الرحمن المري البغدادي ، الحافظ المشهور ؛ كان إماماً عالماً حافظاً متقناً ، قيل إنّه من قرية نحو الأنبار تسمى نَقَيَاي [1] . وكان أبوه كاتباً لعبد الله بن مالك ، وقيل إنّه كان على خراج الري فمات ، فخلف لابنه يحيى المذكور ألف ألف درهم وخمسين ألف درهم ، فأنفق جميع المال على الحديث حتى لم يبق له نعلٌ يلبسه .

وسئل يحيى المذكور : كم كتبت من الحديث ؟ فقال : كتبت بيدي

---

٧٩١ – ترجمته في تاريخ بغداد ١٤ : ١٧٧ وتذكرة الحفاظ : ٤٢٩ وتهذيب التهذيب ١١ : ٢٨٠ وطبقات الحنابلة : ٢٦٨ وعبر الذهبي ١ : ٤١٥ وميزان الاعتدال ٤ : ٤١٠ ومرآة الجنان ٢ : ١٠٨ والشذرات ٢ : ٧٩ وقد وردت هذه الترجمة في ع متأخرة عن موضعها .

[1] في الأصول : نقيا ، ولكن الضبط يثبت فيها الياء في آخر الترجمة .

هذه ستمائة ألف حديث ، وقال راوي هذا الخبر ، وهو أحمد بن عقبة : وإنّي أظن أن المحدثين قد كتبوا له بأيديهم ستمائة ألف وستمائة ألف . وخلف من الكتب مائة قمطر وثلاثين قمطراً وأربعة حباب شرابية مملوءة كتباً ، وهو صاحب الجرح والتعديل . وروى عنه الحديث كبار الأئمة منهم : أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري وأبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري وأبو داود السجستاني وغيرهم من الحفاظ ؛ وكان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل ، رضي الله عنه ، من الصحبة والألفة والاشتراك في الاشتغال بعلوم الحديث ما هو مشهور[1] ، ولا حاجة إلى الإطالة فيه ، وروى عنه هو وأبو خيثمة وكانا من أقرانه .

وقال علي بن المديني : انتهى العلم بالبصرة إلى يحيى بن أبي كثير وقتادة ، وعلم الكوفة إلى أبي إسحاق والأعمش ، وانتهى علم الحجاز إلى ابن شهاب وعمرو بن دينار ، وصار علم هؤلاء الستة بالبصرة إلى سعيد بن أبي عَروبة وشعبة ومعمر وحماد بن سلمة وأبي عوانة ، ومن أهل الكوفة إلى سفيان الثوري وسفيان بن عيينة ، ومن أهل الحجاز إلى مالك بن أنس ، ومن أهل الشام إلى الأوزاعي ، وانتهى علم هؤلاء إلى محمد بن إسحاق وهشيم ويحيى بن سعيد وابن أبي زائدة ووكيع وابن المبارك وهو أوسع هؤلاء علماً ، وابن مهدي ويحيى بن آدم ، وصار علم هؤلاء جميعاً إلى يحيى بن معين[2] .

وقال أحمد بن حنبل : كل حديث لا يعرفه يحيى بن معين فليس هو بحديث . وكان يقول : صاحبنا رجل[3] خلقه الله لهذا الشأن ، يظهر كذب الكذابين ، يعني يحيى بن معين .

وقال ابن الرومي : ما سمعت أحداً قط يقول الحق في المشايخ ، غير يحيى ابن معين ، وغيره كان يتحامل بالقول .

---

١ علق بهامش المختار عند هذا الموضع : « ثم هجره لما ظهر له أنه أرضى القائلين بخلق القرآن ، ثم اعتذر إليه . . . الخ » وهو بخط غير خط المؤلف .

٢ ترجم المؤلف لأكثر هؤلاء ، وهم من مشاهير أهل الحديث ، فتطلب تراجمهم في مظانها .

٣ رجل : سقطت من ص ن .

وقال يحيى : ما رأيت على رجل قط خطأ إلا سترته عليه وأحببت أن أبين أمره ، وما استقبلت رجلاً في وجهه بأمر يكرهه ، ولكن أبين له خطأه[1] فيما بيني وبينه ، فإن قبل ذلك وإلا تركته .

وكان يقول : كتبنا عن الكذابين ، وسَجّرنا به التنور ، وأخرجنا به خبزاً نضيجاً ؛ وكان ينشد :

المالُ يذهب حِلُّهُ وحرامه ... طراً وتبقى في غد آثامهُ
ليس التقيُّ بمتق لإلهه ... حتى يطيبَ شرابه وطعامه
ويطيبَ ما يحوي وتكسب كفه ... ويكون في حسن الحديث كلامه
نطق النبي لنا به عن ربّه ... فعلى النبي صلاته وسلامه

وقد ذكره الدارقطني فيمن روى عن الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، وقد سبق في ترجمة الشافعي خبره معه ، وما جرى بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل في ذلك ، وسمع أيضاً من عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة .

وكان يحج فيذهب إلى مكة على المدينة ويرجع إلى المدينة ، فلما كان آخر حجّة حجها خرج على المدينة ، ورجع على المدينة فأقام بها ثلاثة أيام ، ثم خرج حتى نزل المنزل مع رفقائه ، فباتوا فرأى في النوم هاتفاً يهتف به : يا أبا زكريا ، أترغب عن جواري ؟ فلما أصبح قال لرفقائه : امضوا فإنّي راجع إلى المدينة ، فمضوا ورجع ، فأقام بها ثلاثاً ، ثم مات فحمل على أعواد النبي صلى الله عليه وسلم .

وكانت وفاته لسبع ليال بقين من ذي القعدة سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، هكذا قاله الخطيب في « تاريخ بغداد » وهو غلط قطعاً ، لما تقدم ذكره ، وهو أنّه خرج إلى مكة للحج[2] ، ثم رجع إلى المدينة ومات بها ، ومن يكون قد حج كيف يتصور أن يموت بذي القعدة من تلك السنة ؟ فلو ذكر أنّه توفي في ذي الحجة لأمكن . وكان يحتمل أن يكون هذا غلطاً من الناسخ ، لكني وجدته في

---

[1] وما استقبلت . . . خطأه : سقط من المختار وع ق .
[2] للحج : سقطت من ق ع .

نسختين على هذه الصورة ، فيبعد أن يكون من الناسخ ، والله أعلم . ثم ذكر بعد ذلك أن الصحيح أنّه مات قبل أن يحج ، وعلى هذا يستقيم ما قاله من تاريخ الوفاة .

ثم نظرت في كتاب «الإرشاد[1] في معرفة علماء الحديث» – تأليف أبي يعلى الخليل بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم بن الخليل الخليلي الحافظ – أن يحيى ابن معين المذكور توفي لسبع ليال بقين من ذي الحجة من السنة المذكورة ، فعلى هذا يكون قد حج ؛ وذكر الخطيب أيضاً أن مولده كان آخر سنة ثمان وخمسين ومائة ، ثم قال بعد ذكر وفاته : إنّه بلغ سبعاً وسبعين سنة إلا عشرة أيام، وهذا أيضاً لا يصح من جهة الحساب فتأمله . ورأيت في بعض التواريخ أنّه عاش خمساً وسبعين سنة ، والله أعلم بالصواب، وصلى عليه والي المدينة، ثم صلّي عليه مراراً ودفن بالبقيع ، وكان بين يدي جنازته رجل ينادي : هذا الذي كان ينفي الكذب عن حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم .

ورثاه بعض المحدثين فقال :

ذهب العليم بعيبِ كلّ محدثٍ وبكلّ مختلفٍ من الإسنادِ
وبكلّ وهمٍ في الحديث ومشكلٍ يعيا به علماء كلّ بلادِ

رضي الله عنه .

ومَعين : بفتح الميم وكسر العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها نون .

وبِسْطام : بكسر الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم ؛ والباقي معروف فلا حاجة إلى ضبطه .

ورأيت في بعض التواريخ أنّه يحيى بن معين بن غياث بن زياد بن عون بن بسطام مولى الجنيد بن عبد الرحمن الغطفاني المري أمير خراسان من قبل هشام ابن عبد الملك الأموي ، والأول أشهر وأصح ، أعني النسب .

والمري : بضم الميم وتشديد الراء ، هذه النسبة إلى مرة غطفان ، وهو مرّة

---

١ ص ر ن ق ع : الإشارة .

ابن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض بن ريث بن غطفان ، وهي قبيلة كبيرة مشهورة ، وفي العرب عدة قبائل تنسب إليها يقال لكل واحدة منها مرة

وأمّا نَقياي[1] فقال ابن السمعاني في كتاب « الأنساب » إنها بفتح النون وكسر القاف أو فتحها وبعدها ياء مفتوحة تحتها نقطتان وبعد الألف ياء ثانية ، وهي من قرى الأنبار منها يحيى بن معين النقيابي ، قال الخطيب : ويقال إن فرعون كان من أهل هذه القرية ، والله أعلم .

٧٩٢

يحيى بن يحيى الليثي

أبو محمد يحيى بن يحيى بن كثير بن وِسْلاس – وقيل وسلاسن – ابن شَمّال بن مَنْغايا الليثي ؛ أصله من البربر من قبيلة يقال لها مَصْمودة ، تولّى بني ليث فنسب إليهم ، وجده كثير يكنى أبا عيسى ، وهو الداخل إلى الأندلس ، وسكن قرطبة ، وسمع بها من زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف بشبطون[2] القرطبي « موطأ » مالك بن أنس رضي الله عنه ، وسمع من يحيى ابن مضر القيسي الأندلسي . ثم رحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين سنة ، فسمع من مالك بن أنس « الموطأ » غير أبواب في كتاب الاعتكاف ، شك في

---

١ ع ق : نقيا .

٧٩٢ – ترجمته في تاريخ ابن الفرضي : ٤٤ والجذوة : ٣٥٩ والمغرب ١ : ١٦٣ والديباج المذهب : ٣٥٠ ونفح الطيب ٢ : ٩ (وانظر ١ : ٣٣٩ والحاشية) وعبر الذهبي ١ : ٤١٩ وتهذيب التهذيب ١١ : ٣٠٠ ومرآة الجنان ٢ : ١١٣ والانتقاء : ٥٨ وترتيب المدارك ١ : ٥٣٤ وطبقات الشيرازي : ١٥٢ .

٢ هو بالشين في أكثر المصادر مثل النفح ٢ : ٤٥ وقضاة الخشني : ١٤ والمرقبة العليا : ١٢ وابن الفرضي ١ : ١٨٢ والجذوة : ٢٠٣ ، لكنه ورد بالسين في معظم الأصول الخطية من كتاب ابن خلكان .

سماعه فيها فأثبت روايته فيها عن زياد ؛ وسمع بمكة من سفيان بن عيينة ، وبمصر من الليث بن سعد وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم ، وتفقه بالمدنيين والمصريين من أكابر أصحاب مالك بعد انتفاعه بمالك وملازمته له ، وكان مالك يسميه عاقل الأندلس ، وسبب ذلك فيما يروى[1] أنّه كان في مجلس مالك مع جماعة من أصحابه ، فقال قائل قد حضر الفيل، فخرج أصحاب مالك كلهم لينظروا إليه ، ولم يخرج يحيى ، فقال له مالك : ما لك لا تخرج فتراه لأنّه لا يكون بالأندلس ؟ فقال : إنّما جئت من بلدي لأنظر إليك وأتعلم من هديك وعلمك ، ولم أجيء لأنظر إلى الفيل ، فأعجب به مالك وسمّاه عاقل أهل[2] الأندلس .

ثم إن يحيى عاد إلى الأندلس وانتهت إليه الرياسة بها ، وبه انتشر مذهب مالك في تلك البلاد ، وتفقه به جماعة لا يحصون عدداً وروى عنه خلق كثير ، وأشهر روايات «الموطأ» وأحسنها رواية يحيى المذكور . وكان مع إمامته ودينه معظماً عند الأمراء مكيناً ، عفيفاً عن الولايات متنزهاً، جلت رتبته عن القضاء ، فكان أعلى قدراً من القضاة عند ولاة الأمر هناك لزهده في القضاء وامتناعه منه .

قال أبو محمد علي بن أحمد المعروف بابن حزم الأندلسي — المقدم ذكره[3] — : مذهبان انتشرا في مبدأ أمرهما بالرياسة والسلطان : مذهب أبي حنيفة ، فإنّه لما ولي قضاء القضاة أبو يوسف يعقوب صاحب أبي حنيفة — وسيأتي ذكره إن شاء الله تعالى — كانت القضاة من قِبَله ، فكان لا يولي قضاء البلدان من أقصى المشرق إلى أقصى إفريقية إلا أصحابه والمنتمين إليه وإلى مذهبه ، ومذهب مالك ابن أنس عندنا في بلاد الأندلس ، فإن يحيى بن يحيى كان مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاة ، فكان لا يلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره ، ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه ، والناس سراع إلى

---

١ ع ق بر من : روي .

٢ أهل : سقطت من ر .

٣ انظر ج ٣ : ٣٢٥ وقد نقل صاحب النفح هذا النص ، كما نقل كثيراً من هذه الترجمة عن ابن خلكان .

الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به ، على أن يحيى بن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه ، وكان ذلك زائداً في جلالته عندهم وداعياً إلى قبول رأيه لديهم .

وحكى أحمد بن أبي الفياض في كتابه قال: كتب الأمير عبد الرحمن بن الحكم الأموي المعروف بالربضي صاحب الأندلس إلى الفقهاء يستدعيهم إليه ، فأتوا [1] إلى القصر ، وكان عبد الرحمن المذكور قد نظر في شهر رمضان إلى جارية له كان يحبها حباً شديداً ، فعبث بها ، ولم يملك نفسه أن وقع عليها ، ثم ندم ندماً شديداً ، فسأل الفقهاء عن توبته من ذلك وكفارته ، فقال يحيى بن يحيى : يكفر [2] ذلك بصوم شهرين متتابعين ، فلما بدر يحيى بهذه الفتيا سكت بقية الفقهاء حتى خرجوا من عنده ، فقال بعضهم لبعض وقالوا ليحيى : ما لك لم تفته بمذهب مالك ، فعنده أنه مخير بين العتق والطعام والصيام ؟ فقال: لو فتحنا له [3] هذا الباب سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة ، ولكن حملته على أصعب الأمور [4] لئلا يعود .

ولما انفصل يحيى عن مالك ليعود إلى بلاده ووصل إلى مصر ، رأى عبد الرحمن بن القاسم يدون سماعه عن مالك ، فنشط للرجوع [5] إلى مالك ليسمع منه المسائل التي كان ابن القاسم دونها عنه ، فرحل رحلة ثانية ، فألفى مالكاً عليلاً ، فأقام عنده إلى أن مات وحضر جنازته ، فعاد إلى ابن القاسم ، وسمع منه سماعه من مالك ، ذكر ذلك أبو الوليد ابن الفرضي في تاريخه ؛ وذكر أيضاً فيه ما مثاله : وانصرف يحيى بن يحيى إلى الأندلس ، فكان إمام وقته ، وواحد بلاده ، وكان رجلاً عاقلاً . قال محمد بن عمر بن لبابة [6] : فقيه الأندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وعاقلها يحيى بن يحيى ؛

---

١ ن بر من : فأتوه .
٢ ن : تكفر .
٣ ر : فتحت .
٤ ن : على الأصعب .
٥ ن : على الرجوع .
٦ بر من ر والمختار : لبانة .

وكان يحيى ممن اتهم ببعض الأمر في الهيج[1] ، فخرج إلى طليطلة ، ثم استأمن ، فكتب له الأمير الحكم أماناً ، وانصرف إلى قرطبة . وكان أحمد بن خالد يقول : لم يعط أحد من أهل العلم بالأندلس ، منذ دخلها الإسلام ، من الحُظْوَةِ وعظم القَدر وجلالة الذكر ما أعطيه يحيى بن يحيى .

وقال ابن بشكوال في تاريخه : كان يحيى بن يحيى مُجابَ الدعوة ، وكان قد أخذ في نفسه وهيئته ومقعده هيئة مالك .

وحكي عنه أنّه قال : أخذت ركاب الليث بن سعد ، فأراد غلامه أن يمنعني فقال : دعه ، ثم قال لي الليث : خدمَكَ أهلُ العلم ، فلم تزل بي الأيام حتى رأيت ذلك . ثم قال : وتوفي يحيى بن يحيى في رجب سنة أربع وثلاثين ومائتين ، وقبره بمقبرة ابن عياش[2] يستسقى به ، وهذه المقبرة بظاهر قرطبة . وزاد أبو عبد الله الحميدي في كتاب « جذوة المقتبس » أن وفاته كانت لثمان بقين من الشهر المذكور ، وقال أبو الوليد ابن الفرضي في تاريخه : إنّه توفي سنة ثلاث وثلاثين ، وقيل سنة أربع وثلاثين في رجب ، والله أعلم بالصواب .

وأما وِسْلاس : فهو بكسر الواو وسينين مهملتين الأولى منهما ساكنة وبينهما لام ألف ، ويزاد فيه نون فيقال وسلاسن ، ومعناه بالبربرية : يسمعهم .

وشمّال : بفتح الشين المعجمة وتشديد الميم وبعد الألف لام .

ومَنْغايا : بفتح الميم وسكون النون وفتح الغين المعجمة وبعد الألف ياء معجمة باثنتين من تحتها وبعدها ألف مقصورة ومعناه عندهم : قاتل[3] هذا ، والله أعلم .

وقد تقدم الكلام على الليثي والبربري ومصمودة ، والله أعلم .

---

[1] يعني حادثة الربض التي ثار فيها أهل قرطبة على الحكم بن هشام سنة ١٩٨ .

[2] كذا في ع ق ن ، ولم تعجم في المختار ، وفي بر : ابن عباس .

[3] ن : قابل ؛ بر : قابل .

٧٩٣
يحيى بن أكثم

أبو محمد يحيى بن أكثم بن محمد بن قَطَن بن سَمْعان بن مُشنج ، التميمي الأسَيّدي المروزي ، من ولد أكثم بن صيفي التميمي حكيم العرب ؛ كان عالماً بالفقه بصيراً بالأحكام ، ذكره الدارقطني في أصحاب الشافعي ، رضي الله عنه .

وقال الخطيب في « تاريخ بغداد »[1] : كان يحيى بن أكثم سليماً من البدعة ، ينتحل مذهب أهل السنّة ، سمع عبد الله بن المبارك وسفيان بن عيينة وغيرهما — وقد مر ذكره في ترجمة سفيان وما دار بينهما[2] — وروى عنه أبو عيسى الترمذي وغيره .

وقال طلحة بن محمد بن جعفر في حقه[3] : يحيى بن أكثم أحد أعلام الدنيا ومن قد اشتهر أمره وعرف خبره ، ولم يستتر عن الكبير والصغير[4] من الناس فضله وعلمه ورياسته وسياسته لأمره وأمر أهل زمانه من الخلفاء والملوك ، واسع العلم بالفقه كثير الأدب حسن العارضة قائم بكل معضلة ، وغلب على المأمون حتى لم يتقدمه أحد عنده من الناس جميعاً . وكان المأمون ممن بَرَعَ في العلوم ، فعرفَ من حال يحيى بن أكثم وما هو عليه من العلم والعقل ما أخذ بمجامع قلبه ،

---

٧٩٣ – ترجمته في أخبار القضاة لوكيع ٢ : ١٦١ وطبقات الحنابلة ١ : ١٤٠ والجواهر المضية ٢ : ٢١٠ والنجوم الزاهرة ٢ : ٢١٧ ، ٣٠٨ وعبر الذهبي ١ : ٤٣٩ ومرآة الجنان ٢ : ١٣٥ وميزان الاعتدال ٤ : ٣٦١ وصفحات متفرقة من تاريخ الطبري وابن الأثير (ج ٦ ، ٧) والعيون والحدائق وثمار القلوب ، والشذرات ٢ : ١٠١ .

١ تاريخ بغداد ١٤ : ١٩١ .

٢ انظر ج ٢ : ٣٩٢ .

٣ تاريخ بغداد ١٤ : ١٩٧ .

٤ ق ع ن : الصغير والكبير .

حتّى قلده قضاء القضاة وتدبير أهل مملكته فكانت الوزراء لا تعمل في تدبير الملك شيئاً إلا بعد مطالعة يحيى بن أكثم ؛ ولا نعلم أحداً[1] غلب على سلطانه في زمانه ، إلا يحيى بن أكثم ، وأحمد بن أبي دواد .

وسئل رجل من البلغاء عن يحيى بن أكثم وابن أبي دواد[2] : أيهما أنبل ؟ فقال : كان أحمد يَجِد مع جاريته وابنته ، ويحيى يهزِل مع خصمه وعدوه .

[وكان يحيى سليماً من البدعة ينتحل مذهب أهل السنة ، بخلاف أحمد بن أبي دواد ، وقد تقدم في ترجمته طرف من اعتقاده وتعصبه للمعتزلة، وكان يحيى يقول : القرآن كلام الله ، فمن قال إنّه مخلوق يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه][3] .

وذكر الفقيه أبو الفضل عبد العزيز بن علي بن عبد الرحمن الأشْنُهي[4]، الملقب زين الدين ، في كتاب « الفرائض » في آخر المسائل الملقبات وهي الرابعة عشرة المعروفة بالمأمونية، وهي : أبوان وابنتان لم تقسم التركة حتّى ماتت إحدى البنتين وخلفَت مَن في المسألة ، سميت[5] مأمونية لأن المأمون أراد أن يولي رجلاً على القضاء فوصف له يحيى بن أكثم فاستحضره ، فلما حضر دخل عليه ، وكان دَميم الخلق ، فاستحقره المأمون لذلك ، فعلم ذلك يحيى فقال : يا أمير المؤمنين ، سَلْني إن كان القصد علمي لا خَلْقي ، فسأله عن هذه المسألة فقال : يا أمير المومنين الميّتُ الأول رجل أم امرأة ، فعرف المأمون أنّه قد عرف المسألة ، فقلّده القضاء .

وهذه المسألة إن كان الميت الأول رجلاً تصح المسألتان من أربعة وخمسين، وإن كانت امرأة لم يرث الجد في المسألة الثانية شيئاً لأنّه أبو أم ، فتصح المسألتان من ثمانية عشر سهماً .

---

١ المختار : ولم يعلم أحد .

٢ يتابع النقل عن تاريخ بغداد : ١٩٨ .

٣ انفردت به ر بر ، وهو متابع لما في تاريخ الخطيب ، وقد تكرر بعضه .

٤ ترجمة الأشنهي في طبقات الشافعية ٤ : ٢٥٥ .

٥ المختار : وقال سميت .

وذكر الخطيب في « تاريخ بغداد »[1] أن يحيى بن أكثم ولي قضاء البصرة وسنّه عشرون سنة ونحوها ، فاستصغره أهل البصرة ، فقالوا : كم سن القاضي ؟ فعلم أنّه قد استُصغر ، فقال : أنا أكبر من عتاب بن أسيد الذي وجّه به النبي صلّى الله عليه وسلّم قاضياً على مكّة يوم الفتح ، وأنا أكبر من مُعاذ بن جبل الذي وجّه به النبي صلى الله عليه وسلّم قاضياً على أهل اليمن ، وأنا أكبر من كعب بن سور الذي وجّه به عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاضياً على أهل البصرة ، فجعل جوابه احتجاجاً .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلّم قد ولّى عتاب بن أسيد مكّة بعد فتحها وله إحدى وعشرون سنة ، وقيل ثلاث وعشرون ، وكان إسلامه يوم فتح مكّة ، وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلّم : أصحبك وأكون معك ، فقال : أوَ ما ترضى أن أستعملك على آل الله تعالى ؟ فلم يزل عليهم حتى قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال[2] : وبقي يحيى سنة لا يقبل بها شاهداً ، فتقدم إليه أحد الأمناء فقال : أيها القاضي ، قد وقفت الأمور وتريثت الأحوال ، فقال : وما السبب ؟ قال : في ترك القاضي قبول الشهود ، فأجاز في ذلك اليوم منها سبعين شاهداً .

وقال غير الخطيب : كانت ولاية القاضي يحيى بن أكثم القضاء بالبصرة سنة اثنتين ومائتين . وقد سبق في ترجمة حماد بن أبي حنيفة أن يحيى المذكور ولي البصرة بعد إسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة[3] ؛ وذكر عمر بن شبة في كتاب «أخبار البصرة» أن يحيى عزل عن قضاء البصرة في سنة عشرين ومائتين ، وتولى إسماعيل بن حماد بن أبي حنيفة . وحدث محمد بن منصور قال[4] : كنا مع المأمون في طريق الشام فأمر فنودي بتحليل المتعة ، فقال يحيى بن أكثم لي ولأبي العيناء : بكرا غداً إليه ، فإن رأيتما للقول وجهاً فقولا ، وإلا فاسكتا

---

١ انظر ص : ١٩٩ .

٢ يريد الخطيب ، انظر المصدر السابق .

٣ انظر ج ٢ : ٢٠٥ .

٤ تاريخ بغداد : ١٩٩ .

إلى أن أدخل ، قال : فدخلنا عليه[1] وهو يَسْتاك ويقول وهو مغتاظ : مُتْعَتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم وعلى عهد أبي بكر رضي الله عنه وأنا أنهى عنهما ؛ ومن أنت يا جُعَل[2] حتى تنهى عما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلّم وأبو بكر رضي الله عنه ؟! فأومأ أبو العيناء إلى محمد بن منصور وقال : رجل يقول في عمر بن الخطاب[3] ما يقول نكلمه نحن ؟ فأمسكنا ، فجاء يحيى بن أكثم فجلس وجلسنا ، فقال المأمون ليحيى : مالي أراك متغيراً ؟ فقال : هو غم يا أمير المؤمنين لما حدث في الإسلام ، قال : وما حدث فيه ؟ قال : النداء بتحليل الزنا ، قال : الزنا ؟ قال : نعم ، المتعة زنا ، قال : ومن أين قلت هذا ؟ قال : من كتاب الله عز وجل ، وحديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، قال الله تعالى ﴿ قَدْ أفْلَحَ المُؤمنون ﴾ إلى قوله ﴿ والذينَ هُمْ لفرُوجهِم حافِظون ، إلاّ على أزْواجهِم أوْ ما ملكت أيْمانهُم فإنّهم غيرُ مَلُومين ، فمَنِ ابْتَغى وَرَاء ذلكَ فأولئِكَ هُم العادون ﴾ (المؤمنون : ١ – ٧) يا أمير المؤمنين زوجة المتعة ملك يمين ؟ قال : لا ، قال : فهي الزوجة التي عند الله ترث[4] وتورث وتلحق الولد ولها شرائطها ؟ قال : لا ، قال فقد صار متجاوز هذين من العادين ؛ وهذا الزهري يا أمير المؤمنين روى عن عبد الله والحسن ابني محمد بن الحنفية عن أبيهما عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أنادي بالنهي عن المتعة وتحريمها بعد أن كان أمر بها ، فالتفت إلينا المأمون فقال : أمحفوظ هذا من حديث الزهري ، فقلنا : نعم يا أمير المؤمنين ، رواه جماعة منهم مالك رضي الله عنه ، فقال : أستغفر الله ، نادوا بتحريم المتعة ، فنادوا بها[5] . قال أبو إسحاق إسماعيل ابن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد بن درهم الأزدي القاضي الفقيه المالكي

---

١ المختار ، ن : إليه ، وكذلك عند الخطيب .

٢ تاريخ بغداد : أحول .

٣ زاد في المختار : رضي الله عنه ، ولم ترد عند الخطيب .

٤ تاريخ بغداد : على الله ، وسقط من ر .

٥ ن : بادروا . . . فبادروا ؛ ق ع : فبادروا . . . فبادروا .

البصري ، وقد ذكر يحيى بن أكثم ، فعظّم أمره وقال : كان له يوم في الإسلام لم يكن لأحد مثله ، وذكر هذا اليوم .

وكانت كتب يحيى في الفقه أجل كتب ، فتركها الناس لطولها ، وله كتب في الأصول ، وله كتاب أورده على العراقيين سماه كتاب «التنبيه» وبينه ؛ وبين داود بن علي مناظرات كثيرة .

ولقيه رجل وهو يومئذ على القضاء فقال [1] : أصلح الله القاضي كم آكل ؟ قال : فوق الجوع ودون الشبع ، فقال : فكمْ أضحك ؟ قال : حتى يسفر وجهك ولا يعلو صوتك ، قال : فكم أبكي ؟ قال : لا تملّ من البكاء من خشية الله تعالى ، قال : فكم أخفي عملي ؟ قال : ما استطعت ، قال : فكم أظهر منه ؟ قال : مقدار ما يقتدي بك البر الخير ويؤمن عليك قول الناس ، قال الرجل : سبحان الله قول قاطن وعمل ظاعن .

وكان يحيى من أدهى الناس وأخبرهم بالأمور ؛ رأيت في بعض المجاميع أن أحمد بن أبي خالد الأحول وزير المأمون وقف بين يدي المأمون وخرج يحيى بن أكثم من بعض المستراحات ، فوقف ، فقال له المأمون : اصعد ، فصعد وجلس على طرف السرير معه ، فقال أحمد : يا أمير المؤمنين إن القاضي يحيى صديقي ، وممن أثق به في جميع أموري ، وقد تغير عمّا عهدته منه ، فقال المأمون : يا يحيى إن فساد أمر الملوك بفساد خاصتهم ، وما يعدلكما عندي أحد ، فما هذه الوحشة بينكما ؟ فقال له يحيى : يا أمير المؤمنين والله إنّه ليعلم أني له على أكثر ممّا وصف [2] ، ولكنّه لمّا رأى منزلتي منك هذه المنزلة خشي أن أتغير له [3] يوماً فأقدح فيه عندك ، فأحب أن يقول لك هذا ليأمن مني ، وإنّه والله لو بلغ نهاية مساءتي ما ذكرته بسوء عندك أبداً ، فقال المأمون : أكذلك هو يا أحمد ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : أستعين بالله عليكما ، فما رأيت أتم دهاء ولا أعظم فطنة منكما .

---

١ تاريخ بغداد : ٢٠٠ .
٢ ع ص ق : يصف .
٣ ر : أعتزله .

ولم يكن فيه ما يعاب به سوى ما كان يتهم به من الهنات المنسوبة إليه الشائعة عنه ، والله أعلم بحاله فيها ؛ وذكر الخطيب في تاريخه [1] أنّه ذكر لأحمد بن حنبل رضي الله عنه ما يرميه الناس به ، فقال : سبحان الله ، سبحان الله ، مَن يقول هذا ؟ وأنكر ذلك إنكاراً شديداً . وذكر عنه [2] أيضاً أنّه كان يحسد حسداً شديداً ، وكان مفنناً [3] ، فكان إذا نظر إلى رجل يحفظ الفقه سأله عن الحديث ، وإذا رآه يحفظ الحديث سأله عن النحو ، وإذا رآه يعلم النحو سأله عن الكلام ، ليقطعه ويخجله ، فدخل إليه رجل من أهل خراسان ذكي حافظ ، فناظره ، فرآه مفنناً [4] ، فقال له : نظرت في الحديث ؟ قال : نعم ، قال : ما تحفظ من الأصول ؟ قال : أحفظ عن شريك عن أبي إسحاق عن الحارث أن علياً رضي الله عنه رَجم لوطيّاً ، فأمسك ولم يكلمه .

ثم قال الخطيب أيضاً [1] : ودخل على يحيى بن أكثم ابنا مَسْعدة ، وكانا على نهاية الجمال ، فلما رآهما يمشيان في الصحن أنشأ يقول :

يا زائرينا من الخيام | حيّاكما الله بالسلامِ
لم تأتياني وبي نهوضٌ | إلى حلالٍ ولا حرام
يحزنني أن وقفتما بي | وليس عندي سوى الكلام

ثم أجلسهما بين يديه وجعل يمازحهما حتى انصرفا . ويقال إنّه عزل عن الحكم بسبب هذه الأبيات .

ورأيت في بعض المجاميع أن يحيى بن أكثم مازح الحسن بن وهب المذكور في ترجمة أخيه سليمان بن وهب ، وهو يومئذ صبي ، فلاعبه ثم جمشه ، فغضب الحسن ، فأنشد يحيى :

أيا قمراً جمَّشته فتغضبا | وأصبح لي مِن تيهه متجنِّبا

---

١ تاريخ بغداد : ١٩٨ .
٢ تاريخ بغداد : ١٩٥ .
٣ تاريخ بغداد : مفتناً .
٤ المصدر نفسه .

إذا كنتَ للتجميش والعضّ كارهاً فكُنْ أبداً يا سيدي متنقبا
ولا تُظْهر[1] الأصداغَ للناسِ فتنةً وتجعلَ منها فوقَ خديك عقربا
فتقتلَ مسكيناً وتفتن ناسكا وتَتْرُكَ قاضي المسلمين معذبا

وقال أحمد بن يونس الضبي : كان زيدان الكاتب يكتب بين يدي يحيى ابن أكثم القاضي ، وكان غلاماً جميلاً متناهي الجمال ، فقرص القاضي خدّه ، فخجل الغلام واستحيا وطرح القلم من يده ، فقال له يحيى : خذ القلم واكتب ما أملي عليك ، ثم أملى الأبيات المذكورة ، والله أعلم .

وقال إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الصفار[2] : سمعت أبا العيناء في مجلس أبي العباس المبرد يقول : كنت في مجلس أبي عاصم النبيل ، وكان أبو بكر ابن يحيى بن أكثم حاضراً ، فنازع غلاماً فارتفع الصوت ، فقال أبو عاصم : مهيم ؟ فقالوا : هذا أبو بكر بن يحيى بن أكثم ينازع غلاماً ، فقال إن يسرق فقد سرق أب له من قبل ، هكذا ذكره الخطيب في تاريخه .

وذكر الخطيب أيضاً[3] في تاريخه أن المأمون قال ليحيى المذكور من الذي يقول ؟ :

قاضٍ يرَى الحدَّ في الزناء ولا يرى على مَن يلوطُ من باسِ

قال : أو ما يعرف أمير المؤمنين من القائل ؟ قال : لا ، قال : يقوله الفاجرُ أحمد بن أبي نعيم الذي يقول :

لا أحسبُ الجور ينقضي وعلى الـ أمّة والٍ من آل عبّاس

قال : فأفحم المأمون خجلاً ، وقال : ينبغي أن ينفى أحمد بن أبي نعيم إلى السند ؛ وهذان البيتان من جملة أبيات أولها :

---

١ ر : ولا ترسل .
٢ تاريخ بغداد : ١٩٧ .
٣ المصدر السابق : ١٩٦ .

أنطقني الدهرُ بعد إخراس	لنائبات أطلن وسواسي
يا بُؤسَ للدهر لا يزال كما	يرفع ناساً يحطُّ من ناس
لا أفلحتْ أمةٌ وحقّ لها	بطولِ نكسٍ وطول إتعاس
تَرْضى بيحيى يكونُ سائسَها	وليس يحيى لها بسوّاس
قاضٍ يرى الحد في الزناء ولا	يرى على من يلوطُ من باس
يحكم للأمردِ الغرير على	مثل جرير[1] ومثل عباس
فالحمد لله كيف قد ذهب الـ	عدلُ وقل الوفاء في الناس
أميرنا يرتشي وحاكمنا	يلوط والرأسُ شرّ ما راس
لو صلح الدين فاستقام لقد	قام على الناس كل مقياس
لا أحسبُ الجورَ ينقضي وعلى الـ	أمّة والٍ من آل عباس

وظنّي أنها أكثر من هذا ، ولكن الخطيب لم يذكر إلا هذا القدر .

ونقلت من أمالي أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري – المقدم ذكره – أن القاضي يحيى بن أكثم قال لرجل يأنس به ويمازحه : ما تسمع الناس يقولون في ؟ قال : ما أسمع إلا خيراً ، قال : ما أسألك[2] لتزكيني ، قال : أسمعهم يرمون القاضي بالأبنة ، قال : فضحك وقال : اللّهم غفْراً ! المشهور عنا[3] غير هذا[4] .

وحكى أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني»[5] ليحيى المذكور وقائع في هذا الباب ، وأن المأمون لما تواتر النقل عن يحيى بهذا أراد امتحانه، فأخلى له مجلساً واستدعاه ، وأوصى مملوكاً خزرياً يقف عندهما وحده ، فإذا خرج المأمون يقف المملوك ولا ينصرف ، وكان المملوك في غاية الحسن ، فلما اجتمعا بالمجلس وتحادثا قام المأمون كأنّه يقضي حاجة فوقف المملوك ، فتجسس المأمون عليهما ،

---

١ بهامش المختار بخط مختلف : صوابه مثل علي .
٢ ن والمختار : لم أسألك .
٣ ص ع ق : هنا .
٤ هذه الحكاية المنقولة عن ابن الأنباري لم ترد في : بر من .
٥ الأغاني ٢٠ : ٢٢٤ .

وكان قد قرر معه أن يعبث بيحيى علماً منه أن يحيى لا يتجاسر عليه خوفاً من المأمون ، فلما عبث به المملوك سمعه المأمون وهو يقول : لولا أنتم لكنا مؤمنين ، فدخل المأمون وهو ينشد :

وكنا نرجي أن نرى العدل ظاهراً فأعقبنا بعد الرجاء قنوطُ
متى تصلح الدنيا ويصلح أهلها وقاضي قضاة المسلمين يلوط

وهذان البيتان لأبي حكيمة راشد بن إسحاق الكاتب[1] ، وراشد له فيه مقاطيع كثيرة .

وذكر المسعودي في « مروج الذهب »[2] في ترجمة المأمون جملة من أخبار يحيى في هذا الباب أضربنا عن ذكرها .

ومما يناسب حكاية المأمون مع يحيى بسؤاله عن البيت لمن هو وإجابة يحيى ببيت آخر من القصيدة ما يروى أن معاوية بن أبي سفيان الأموي[3] لما مرض مرض موته واشتدت علته وحصل اليأس منه ، دخل عليه بعض أولاد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه يعوده ، ولا أستحضر الآن من هو ، فوجده قد استند جالساً يتجلد له لئلا يشتفي به ، فضعف عن القعود فاضطجع وأنشد :

وتجلدي للشامتين أريهمُ أنّي لريب الدهرِ لا أتضعضعُ

فقام العلوي من عنده وهو ينشد :

وإذا المنية أنشبَتْ أظفارها ألفيتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفعُ

فعجب الحاضرون من جوابه .

وهذان البيتان من جملة قصيدة طويلة لأبي ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي يرثي بها بنيه[4] ، وكان قد هلك له خمس بنين في عام واحد ، أصابهم الطاعون .

---

١ نسبهما في الأغاني لإبراهيم بن أبي محمد اليزيدي ، وهما عند المسعودي لراشد بن إسحاق .
٢ مروج الذهب ٤ : ٢١ وما بعدها.
٣ زاد في المختار : رضي الله عنه ، وهذا لم يجر من المؤلف عند ذكر معاوية .
٤ ديوان الهذليين ١ : ٤ .

وكانوا هاجروا معه إلى مصر ، وهلك أبو ذؤيب المذكور في طريق مصر ، وقيل في طريق إفريقية مع عبد الله بن الزبير .

ثم وجدت في كتاب « فلك المعاني » لابن الهبّارية في الباب التاسع من الكتاب المذكور أن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما دخل على معاوية في علته فقال : أسندوني ، ثم تمثل ببيت أبي ذؤيب ، وأنشد البيت المذكور ، فسلم الحسين ثم أنشد البيت الثاني ، والله أعلم . وذكرها أبو بكر ابن داود الظاهري في كتاب « الزهرة » منسوبة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، والله أعلم .

قلت : ولم يذكر ابن الهبّارية ولا الظاهري أنّه كان في علة الموت ، ولا يمكن ذلك ، لأن الحسن توفي قبل معاوية ، والحسين لم يحضر وفاة معاوية ، لأنّه كان بالحجاز ومعاوية توفي بدمشق .

ثم وجدت في أول كتاب « التعازي »[1] تأليف أبي العباس المبرد هذه القصة . جرت للحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ومعاوية بن أبي سفيان ، والظاهر أن ابن الهبارية منه نقلها .

ومثل ذلك أيضاً ما يحكى أن عقيل بن أبي طالب هاجر أخاه علياً رضي الله عنه والتحق بمعاوية ، فبالغ معاوية في بره ، وزاد في إكرامه[2] إرغاماً لعلي رضي الله عنه ، فلما قتل عليّ واستقل[3] معاوية بالأمر ثقل عليه أمر عقيل ، فكان يسمعه ما يكره لينصرف عنه ، فبينما هو يوماً في مجلس حفل بأهل الشام إذ قال معاوية : أتعرفون أبا لهب الذي نزل في حقه قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (المسد : ١) من هو ؟ فقال أهل الشام : لا ، فقال معاوية : هو عم هذا ، وأشار إلى عقيل ، فقال عقيل في الحال : أتعرفون امرأته التي قال الله في حقها ﴿ وامْرَأَتُهُ حمّالة الحَطَبِ في جيدِها حَبْلٌ من مَسَدٍ ﴾ (المسد : ٤) من هي ؟ فقالوا : لا ،

---

١ التعازي ، الورقة : ٢

٢ ر والمختار : في إكرامه وزاد في بره .

٣ ع ق والمختار : واستقر ، وعلق أحدهم بخط مخالف على هامش المختار : « إنما هي استقل باللام والمؤلف تغلب عليه عاميته رحمه الله وعفا عنه » .

قال : هي عمة هذا ، وأشار إلى معاوية ، وكانت عمته أم جميل بنت حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف زوجة أبي لهب بن عبد العزى ، وهي المشار إليها في هذه السورة ، فكان ذلك من الأجوبة المسكتة[1] .

ويقرب من هذا أيضاً أن بعض الملوك حاصر بعض البلاد ، وكان معه عساكر عظيمة بكثرة الرجال والخيل والعدد ، فكتب الملك المحاصر إلى صاحب البلد كتاباً يشير إليه بأنّه يسلم البلد إليه ولا يقاتله ، وذكر ما جاء به من الرجال والأموال والآلات ، ومن جملة الكتاب قوله تعالى ﴿ حتى إذا أتوا على وادي النّمل قالَتْ نملَةٌ يا أيّها النّملُ ادخلُوا مَساكِنَكُم لا يحطمنكُم سليمانُ وجُنودهُ وهُم لا يَشْعُرون ﴾ (النمل : ١٨) فلما وصل الكتاب إلى صاحب البلد وتأمله وقرأه على خواصه قال : مَنْ يجاوب عن هذا ؟ فقال بعض الكتاب : تكتب إليه : ﴿ فتَبَسّم ضاحِكاً مِن قولْها ﴾ (النمل : ١٩) فاستحسن الحاضرون جوابه .

ومثل هذا أيضاً ما حكاه ابن رشيق القيرواني في كتاب « الأنموذج »[2] وهو أن عبد الله بن إبراهيم بن المثنى الطوسي المعروف بابن المؤدب المهدوي الأصل القيرواني البلد الشاعر المشهور ، كان مغرى بالسياحة وطلب الكيمياء والأحجار ، وكان محروماً مقتراً عليه متلافاً إذا أفاد شيئاً ، فخرج مرة يريد جزيرة صقلية ، فأسره الروم في البحر ، وأقام مدة طويلة إلى أن هادن ثقة الدولة يوسف بن عبد الله بن محمد بن أبي الحسين القضاعي صاحب صقلية الروم وبعث إليه بالأسرى ، فكان عبد الله المذكور فيمن بعث ، فامتدح عبد الله المذكور ثقة

---

[1] علق صاحب المختار في هذا الموضع بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : ومثل هذا ما روي أن الوليد بن عبد الملك استعمل أخاه مسلمة بن عبد الملك على مصر فتوجه إليها ثم عزله عنها بعد حول ، فلما رجع إلى دمشق خرج الوليد في موكبه لتلقيه فرأى رحل مسلمة وقد تقدمه على ألف بعير ، ولم يكن كذلك عند توجهه إلى مصر ، فقال الوليد لبعض خواصه وأشار إلى الجمال (أيتها العير إنكم لسارقون) فلما التقى بمسلمة بلغ مسلمة ما قاله الوليد فالتفت إليه وقال (إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل) والله أعلم » .

[2] ق ع : النموذج ؛ وانظر مسالك الأبصار ١١ الورقة ٣٤٧ وما بعدها .

الدولة بقصيدة شكره فيها على صنعه ، ورجا صلته، فلم يصله بشيء أرضاه ، وكانت فيه رغبة ، فتكلم وطلب طلباً شديداً ، وهو مستخف عند بعض من يعرف من أهل صناعته، وطالت المدة ، فخرج سكران يشتّري نقلاً[1]، فما شعر إلا وقد أخذ[2] ، وحمله صاحب الشرطة حتّى أدخله على ثقة الدولة ، فقال له : ما الذي بلغني يا بائس ؟ قال : المحال أيد الله سيدنا الأمير ، قال : ومن هو الذي يقول في شعره :

فالحر ممتحن بأولاد الزنا

قال : هو الذي يقول :

وعداوة الشعراء بئس المقتنى

فتنمر ساعة ثم أمر له بمائة رباعي[3] وأخرجه من المدينة كراهية أن تقوم عليه نفسه فيعاقبه بعد أن عفا عنه ، فخرج منها .

وهذا المستشهد به عجزا بيتين من شعر المتنبي في قصيدته النونية الّتي يمدح بها بَدْرَ بن عمار ، وأولها[4] :

الحب ما منع الكلامَ الألسُنا   وألذُّ شكوى عاشقٍ ما أعلَنا

وهي من مشاهير قصائده ، وأول العجز الأول :

وأنهَ المشيرَ عليك فيّ بضلةٍ   فالحرُّ ممتحن بأولاد الزنا

وأول العجز الثاني : •

ومكايدُ السفهاء واقعةٌ بهم   وَعداوةُ الشعراء بئس المُقْتَنَى

---

١ ع ن بر من : بقلا .

٢ ن ر ص : كتف .

٣ الرباعي : وحدة تساوي ربع دينار ، وأحياناً كانت تزيد على ذلك ، وفي بر : بمائة دينار .

٤ ديوان المتنبي : ١٣٨ .

وإذ قد ذكرنا ثقة الدولة [1] المذكور فنذكر قصيدة أبي محمد عبد الله بن محمد [2] التنوخي المعروف بابن قاضي مِيلَةَ [3] التي مدحه بها في عيد النحر، وهي قصيدة بديعة لا توجد بكمالها في أيدي الناس، ولقد ظفرت بها في ظهر كتاب، ولم يكن عندي منها سوى البعض، ولا سمعت أحداً يروي منها إلاّ ذلك القدر، فأحببت إثباتها لحسنها وغرابتها وهي هذه:

يذيل الهوى دَمْعي وقلبي المعنّفُ ... وتَجني جفوني الوجدَ وهو المكلّفُ
وإنّي ليدعوني إلى ما شنفته ... وفارقت مغناه الأغنُّ المشنّفُ
وأحور ساجي الطرف أما وشاحه ... فصفرٌ وأما وَقْفه فموقّفُ
يطيب أجاج الماء من نحو أرضه ... يحيي ويندى ريحه وهو حرجف
وأيأسني من وصله أن دونه ... متالفَ تسري الريحُ فيها فتتلف
وغيرانَ يجفو النومَ كي لا يرى لنا ... إذا نام شملاً في الكرى يتألف
يظل على ما كان من قرب دارنا ... وغفلته عما مضى يتأسف
وجون بمزن الرعد يستنُّ وَدْقهُ ... يرى برقه كالحية الصل تطرف
كأنّي إذا ما لاح والرعدُ معولٌ ... وجفنُ السحاب الجون بالماء يذرف
سليمٌ وصوتُ الرعدِ راقٍ وودقه ... كنفثِ الرُّقى من سوء ما أتكلف
ذكرتُ به ريا وما كنت ناسياً ... فأذكر لكن لوعةٌ تتضعف
ولما التقينا محرمين وسيرنا ... بلبّيْكَ ربّاً والركائبُ تعسف
نظرتُ إليها والمطيُّ كأنّما ... غواربها منها معاطسُ رُعّفُ [4]
فقالتْ أما منكنّ من يعرفُ الفتى ... فقد رابني من طول ما يتشوف
أراه إذا سرنا يسيرُ حذاءنا ... ونوقفُ أخفافَ المطيّ فيوقف

---

١ انظر نبذة عنه في كتابنا « العرب في صقلية » : ٤٦ وفيه تحويل إلى المصادر .

٢ بر : أبي عبد الله محمد بن محمد .

٣ ميلة : مدينة بالجزائر إلى الشمال الغربي من قسنطينية (البكري : ٦٤ والاستبصار : ١٦٦) .

٤ ر : ترعف .

فقلتُ لتربيهـا آبلغاها بأنّـني | بهـا مستهام قالتـا نتلطف
وقولا لهـا يا أمَّ عمروٍ أليس ذا | منّى والمُنى في خيْفه ليس يخلف
تفاءلتُ في أن تبذلي طارفَ الوفا | بأن عنّ لي منك البنانُ المطرَّف
وفي عرفاتٍ مـا يخبر أنّـني | بعارفةٍ من عطفِ قلبك أسعف
وأمّا دماء الهدي فهي هُدًى لنا | يدوم ورأيٌ في الهوى يتألف
وتقبيل ركن البيت إقبال دولة | لنـا وزمان بالمودة يعطف
فأوصَلَتـا مـا قلتُهُ فتبسمتْ | وقالت أحاديثُ العيافة زخرف
بعيشي ألم أخـبركما أنّه فتًى | على لفظه بُرْدُ الكلام المُفَوَّفُ
فـلا تأمنا ما اسطعتما كيدَ نطقه | وقولا ستدري أينا اليوم أعيف
إذا كنت ترجو في منى الفوزَ بالمنى | ففي الخيف من إعراضنا تتخوف
وقـد أنذر الإحرامُ أن وصالنـا | حرامٌ وأنا عن مزارك نصدف
وهـذا وقذفي بالحصى لك مخـبرٌ | بـأن النوى بي عـن ديارك تقذف
وحاذر نفـارى ليـلة النَّفْر إنّـه | سريعٌ فقل مَنْ بالعيافة أعرف
فلم أرَ مثلينـا خليـليْ مـودةٍ | لكلٍّ لسانٌ ذو غرارين مُرْهفُ
أمـا إنّـه لولا أغـن مهفهف[1] | وأشنف براق وأحور أوطف
لراجعَ مشتاقٌ ونـام مسهّدُ | وأيقن مرتـابٌ وأقصر مُدْنَف
وعاذلةٍ في بذل ما ملكت يدي | لراجٍ رجاني دون صحبي تعنف
تقـول إذا أفنيتَ مـالك كلّـه | وأحوجت[2] من يعطيكه؟ قلت: يوسف
أغـر قضاعيٌّ يـكادُ نـوالـه | لكثرة ما يدعو إلى الشكر يجحف
إذا نحن أخلفنـا مخايلَ ديمـة | وجدنا حيا معروفه ليس يخلف
سعى وسعى الأملاك في طلب العـلا | ففاز وأكْدَوا إذ أخفَّ وأقطفوا

---

١ ق ع : الأغن المهفهف .
٢ ق ن ع : وحوجت .

ويقظان شاب البطشَ باللين والتقى بكفيه ما يرجى وما يُتخوّف
حسامٌ على من ناصب الدين مُصْلَت وستر على من راقب الله مغدف
يسايره جيشان : رأيٌ وفيلقٌ ويصحبه سيفان : عزم ومرهف
مطلٌّ على من شاءه فكأنّما على حكمه صرفُ الردى يتصرف
يرى رأيه ما لا ترى عين غيره ويفري به ما ليس يفري المثقف
رعى اللهُ من ترعى حمى الدين عينُه ويحمي حمى الإسلام والليلُ أغضف
ومَن وعده في مسرح الحمد مطلقٌ وإيعاده في ذمة الحلم موقف
ومن يضرب الأعداء هبراً فينثني صناديدهم والبيضُ بالهام تقذف
رماهم بمجرٍ ضعضع الأرضَ رزّهُ كأن الروابي منه بالنبل تدلف
كأن الردينياتِ في رونقِ الضحى أراقمُ في طامٍ من الآل تزحف[1]
يعودُ الدجى من بيضه وهو أبيضٌ ويبدو الضحى من نَقْعه وهو أكلف
ويحجبُ نورَ الشمس بالنقع عنهم ففعلُ الظُّبا في هامهم لا يكيف
لهم كلَّ عام منك جاءوك فيلق يُسائل عنهم بالعوالي فيلحف
إذا ما طَوَوْا كشحاً على قَرْح عامهم وبلّوا من الآلام أنشأت تقرف
فكم من أغمّ الوجه غاوٍ تركته وهاديه من عثنون لحييه أكثف
هوى المقضب الماضي بمهواه فانثنى صريعاً تراه حبتراً وهو أسقف
لعمري لقد عاديت في الله طالباً رضاه وقد أبليت ما الله يعرف
أطالبتهم في الآهل حتى تركتهم فُرادى وفي الأديانِ حتى تحنفوا
فيا ثقةَ الملك الذي المُلك سهمه يراش لأكبادِ الأعادي ويرصف
هنيئاً لك العيدُ الذي منك حسنه يروق ومن أوصافك الغر يوصف
بدا معلم الأرجاء يزهى كأنّما على عطفه وشي العراق المشفّف
أتى بعد حول زائراً عن تشوق[2] وقد كان ذا طرف للقياك يطرف

---

١ ع ص والمختار : ترجف .
٢ ع ق : تشوف .

فطوّقته عــزاً وشنفته بــه فلاح لنـا وهو المحلّى المشنّف
وقابلــه بالسعد نجلك جعفـرٌ فيا لك من عيد بملكين تتحف
فلا زلت تُسْتَجْدى فتولي، وترتجى فتــكفي ، وتستدعى لخطب فتكشف
نجزت القصيدة .

(314) وكان لثقةالدولة المذكور ولد يدعى تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة [1] ، وكان أديباً شاعراً ، وله الأبيات السائرة في غلامين ، على أحدهما ثوب ديباج أحمر ، وعلى الآخر ثوب ديباج أسود ، وهي :

أرى بدرين قد طلعا على غصنين في نسقِ
وفي ثوبين قد صبغا صباغ َ الخد والحدق
فهذا الشمسُ فيشفق وهذا البدر في غسق

وكان عمله لهذه الأبيات في سنة سبع وعشرين وخمسمائة .

ولما توجه المأمون إلى مصر ، وذلك في سنة سبع عشرة ومائتين ، دخلها لعشر خلون من المحرم ، وخرج منها سلخ صفر من السنة [2] ، كان معه القاضي يحيى بن أكثم ، فولاه قضاء مصر ، وحكم بها ثلاثة أيام ، ثم خرج مع المأمون ، وعَدَّه ابن زولاق في جملة قضاة مصر لذلك .

وروي عن يحيى بن أكثم أنّه قال : اختصم إليّ في الرصافة الجد الخامس يطلب ميراث ابن ابن ابن ابنه .

وكان عبد الصمد بن أبي مروة [3] بن المعذل بن غيلان بن المحارب [4] بن البحتري

---

١ انظر العرب في صقلية: ٤٧ ، وهو من شعراء الدرة الخطيرة، وقد تعرض لذكره العماد في الخريدة وصاحب المغرب وصاحب المنتخل ، وكلهم يعتمد على الدرة الخطيرة .

٢ علق صاحب المختار : «قلت أعني كاتبها موسى بن أحمد : وفي هذا التاريخ فتح باباً في الهرم الواحد من الثلاثة الذين بأرض الجيزية من مصر » .

٣ بر : ابن أبي عمرو .

٤ ع ق : النجار ؛ الأغاني والفوات : المختار .

العبدي البصري الشاعر المشهور[1]، يلازم التّرداد إلى القاضي يحيى المذكور ويغشى مجلسه،وكان بعض الأحيان لا يقدر على الوصول إليه إلا بعد مشقة ومذلة يقاسيها، فانقطع عنه ، فلامته زوجته في ذلك مِراراً ، فأنشدها :

تُكلفني إذْلالَ نفسي لعِزّهـا وهانَ عليها أنْ أُهانَ لِتكرَما
تقولُ سَلِ المعروفَ يَحْيى بن أكثم فقلتُ سليه ربَّ يحيى بن أكثما

ولم تزل الأحوال تختلف عليه وتتقلب به إلى أيام المتوكل على الله [2]، فلما عزل القاضي محمد بن القاضي أحمد بن أبي دُواد عن القضاء ، فوض الولاية إلى القاضي يحيى وخلع عليه خمس خلع ، ثم عزله في سنة أربعين ومائتين وأخذ أمواله ، وولى في رتبته جعفر بن عبد الواحد بن جعفر بن سليمان بن علي ابن عبد الله بن العباس الهاشمي . فجاء كاتبه إلى القاضي يحيى فقال له : سلّم الديوان ، فأبى ، فقال : شاهدان عدلان على أمير المؤمنين أنّه أمرني بذلك ، فأخذ منه الديوان قهراً ، وغضب عليه المتوكل فأمر بقبض أملاكه وألزم منزله ، ثم حج وحمل أخته معه وعزم على أن يجاور ، فلما اتصل به رجوع المتوكل له بدا له في المجاورة ، ورجع يريد العراق، فلما وصل إلى الربذة توفي بها يوم الجمعة منتصف ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين ، وقيل غرة سنة ثلاث وأربعين ، ودفن هناك ، رحمه الله تعالى ، وعمره ثلاث وثمانون سنة .

وأكثم : بفتح الهمزة وسكون الكاف وفتح الثاء المثلثة وبعدها ميم، وهو العظيم البطن ، والشبعان أيضاً ، يقال بالثاء المثلثة ، والتاء المثناة من فوقها ، ومعناهما واحد ، ذكره في كتاب « المحكم »[3] .

وحكى أبو عبد الله الحسين بن عبد الله بن سعيد قال : كان يحيى بن أكثم القاضي صديقاً لي ، وكان يودني وأوده ، فمات يحيى ، فكنت أشتهي أن أراه في المنام فأقول : ما فعل الله بك ؛ فرأيته ليلة في المنام فقلت : ما فعل الله بك ؟

---

١ ترجمة عبد الصمد في الأغاني ١٣ : ٢٢٨ والفوات ١ : ٥٧٥ وفي نسبه اختلاف عما ورد هنا .
٢ انظر تاريخ بغداد : ٢٠٠ – ٢٠١ ، ٢٠٢ .
٣ ق ص ع : المحتكم .

قال : غفر لي إلاّ أنّه وبخني ثم قال لي : يا يحيى خلطت عليّ في الدنيا ، فقلت : يا رب اتكلت على حديث حدثني به أبو معاوية الضرير عن الأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلّم إنّك قلت « إنّي لأستحيي أن أعذب ذا شيبة بالنار » فقال : قد عفوت عنك يا يحيى ، وصدق نبيي ، إلاّ أنّك خلطت عليّ في دار الدنيا ، هكذا ذكره أبو القاسم القشيري في « الرسالة »[1] .

وقَطَن : بفتح القاف والطاء المهملة وبعدها نون .

وسَمعان : بفتح السين المهملة .

ومُشَنّج : كشفت عنه كثيراً من الكتب وأرباب[2] هذه الصناعة فلم أقف منه على حقيقة ، ثم وجدت في نسخة من « تاريخ بغداد » للخطيب وهي صحيحة مسموعة ، وقد قيد هذا الاسم بضم الميم وفتح الشين المعجمة[3] وفتح النون المشددة وفي آخره جيم ، هذا أقصى ما قدرت عليه ، والله أعلم بالصواب . ثم وجدته في « المختلف والمؤتلف » لعبد الغني بن سعيد كما قيل هاهنا .

الأُسَيِّدي : بضم الهمزة وفتح السين المهملة وكسر الياء المثناة من تحتها وتشديدها وبعدها دال مهملة ، هذه النسبة إلى أُسيد ، وهو بطن من تميم يقال له أسيد بن عمرو بن تميم .

وقد تقدم الكلام على التميمي والمروزي .

والرَّبَذَة : بفتح الراء والباء الموحدة والذال المعجمة وبعدها هاء ساكنة ، وهي قرية من قرى المدينة على طريق الحاج ينزلونها عند عبورهم عليها ، وهي التي نفى عثمان بن عفان أبا ذر الغفاري رضي الله عنهما إليها ، وأقام بها حتى

---

١ الرسالة القشيرية : ٣٢٧ ؛ وفي المختار في هذا الموضع : « قلت : ولوالدي قدس الله روحه بيتان نظمهما في معنى الحديث المذكور في هذا المنام وأوصى أن يكتبا على قبره ، وهما :

يا رب إن العبد يخفي ذنبه ... فاستر بحلمك ما بدا من عيبه

ولقد أتاك وما له من شافع ... لذنوبه فاقبل شفاعة شيبه »

٢ ر : كتب أرباب .

٣ وفتح الشين المعجمة : لم يرد في : ق ن ع .

مات ، وقبره ظاهر هناك يزار .

وميِلْة : بكسر الميم وسكون الياء المثناة من تحتها وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة ، وهي بليدة من أعمال إفريقية .

(315) وتوفي جعفر بن عبد الواحد القاضي المذكور ، ويكنى أبا عبد الله ، سنة ثمان وخمسين ومائتين ، وقيل سنة ثمان وستين ، وقيل سنة تسع وستين ، بطرسوس رحمه الله تعالى .

٧٩٤

يحي بن معاذ الواعظ

أبو زكريا يحيى بن معاذ الرازي الواعظ ، أحد رجال الطريقة ، ذكره أبو القاسم القشيري في « الرسالة »[١] وعدّه من جملة المشايخ وقال في حقه : « نسيجُ وَحْدِهِ في وقته ، له لسان في الرجاء خصوصاً وكلام في المعرفة ؛ خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ، ورجع إلى نيسابور ومات بها » .

ومن كلامه : كيف يكون زاهداً من لا ورع له ؟ تورع عمّا ليس لك ثم ازهد فيما لك .

وكان يقول : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزهاد سياسة ، وللعارفين مكرمة ، والوحدة جليس الصدّيقين ، والفوت أشد من الموت ، لأن الفوت انقطاع عن الحق ، والموت انقطاع عن الخلق . والزهد ثلاثة أشياء : القلة ، والخلوة ، والجوع . ومن خان الله في السر هتك ستره[٢] في العلانية .

---

٧٩٤ – ترجمته في طبقات السلمي : ١٠٧ وطبقات الشعراني ١ : ٩٤ وحلية الأولياء ١ : ٥١ وصفة الصفوة ٤ : ٧١ وعبر الذهبي ٢ : ١٧ وشذرات الذهب ٢ : ١٣٨ .

١ الرسالة القشيرية : ٩١ حيث ترجم له ، وله ذكر كثير في صفحات متفرقة من الرسالة .

٢ ع ن ق : سره .

وسمع إسحاق بن سليمان الرازي ومكي بن إبراهيم البلخي وعلي بن محمد الطنافسي ، وروى عنه الغرباء من أهل الري وهمذان وخراسان أحاديث مسندة قليلة .

وذكره الخطيب في « تاريخ بغداد »[1] فقال : « قدم بغداد واجتمع إليه بها مشايخ الصوفية والنساك ، ونصبوا له منصة وأقعدوه عليها وقعدوا بين يديه يتحاورون ، فتكلم الجنيد فقال له يحيى : اسكت يا خروف، ما لك والكلام إذا تكلم الناس » .

وكان له إشارات وعبارات حسنة ، فمن كلامه[2] : الكلام الحسن حسن ، وأحسن من الكلام معناه ، وأحسن من معناه استعماله ، وأحسن من استعماله ثوابه ، وأحسن من ثوابه رضا من يُعمل له .

ومن كلامه : حقيقة المحبة أن لا تزيد بالبرّ ولا تنقص بالجفاء . وكان يقول : من لم يكن ظاهره مع العوام فضة ، ومع المريدين ذهباً ، ومع العارفين المقربين دراً وياقوتاً ، فليس من حكماء الله المريدين[3] . وكان يقول : أحسن شيء كلام صحيح ، من لسان فصيح ، في وجه صبيح ، كلام دقيق ، يستخرج من بحر عميق ، على لسان رجل رفيق . وكان يقول : إلهي كيف أنساك وليس لي رب سواك ؟ إلهي لا أقول لا أعود ، لأنّي أعرف من نفسي نقض العهود ، ولكني أقول لا أعود لا أعود[4] ، لعلي أموت قبل أن أعود .

ومن دعائه : اللهم إن كان ذنبي قد أخافني ، فإن حسن ظني بك قد أجارني ، اللّهم سترت علي في الدنيا ذنوباً أنا إلى سترها في القيامة[5] أحوج ، وقد أحسنت بي إذ لم تظهرها لعصابة من المسلمين ، فلا تفضحني في ذلك اليوم على رؤوس العالمين ، يا أرحم الراحمين .

---

١ تاريخ بغداد ١٤ : ٢٠٨ – ٢٠٩ .

٢ تاريخ بغداد : ٢٠٩ .

٣ ص والمختار : المؤيدين .

٤ لا أعود : مكررة في ق فقط ، وكذلك هي في تاريخ الخطيب .

٥ ر : الآخرة .

ودخل على علوي ببلخ زائراً له ومسلماً عليه فقال له العلوي [1] : أيد الله الأستاذ ، ما تقول فينا أهل البيت ؟ قال : ما أقول في طين عجن بماء الوحي ، وغرس [2] بماء الرسالة ، فهل يفوح منهما إلا مسك الهدى وعنبر التقى ؟ فحشا العلوي فاه بالدر ، ثم زاره من الغد ، فقال يحيى بن معاذ : إن زرتنا فبفضلك وإن زرناك فلفضلك ، فلك الفضل زائراً ومزورا [3] .

ومن كلامه : ما بعد طريق إلى صديق ، ولا استوحش في طريق من سلك فيه إلى حبيب . ومن كلامه : مسكين ابن آدم ، لو خاف النار كما يخاف الفقر دخل الجنة .

وقال : ما صحت إرادة أحد قط فمات حتى حن إلى الموت واشتهاه اشتهاء الجائع إلى الطعام لارتداف الآفات واستيحاشه من الأهل والإخوان ، ووقوعه فيما يتحير فيه صريح عقله . وقال : من لم ينظر في الدقيق من الورع لم يتصل إلى الجليل من العطاء . وقال : ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال : إن لم تنفعه فلا تضره ، وإن لم تسره فلا تغمه ، وإن لم تمدحه فلا تذمه . وقال : عمل كالسراب ، وقلب من التقوى خراب ، وذنوب بعدد الرمل والتراب ، ثم تطمع في الكواعب الأتراب ، هيهات ! أنت سكران بغير شراب ما أكملك لو بادرت أملك ، ما أجلك لو بادرت أجلك ، ما أقواك لو خالفت هواك [4] .

وله في هذا الباب كل كلام مليح .

وتوفي سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور ، رحمه الله تعالى ؛ وقال

---

١ تاريخ بغداد : ٢١١ .

٢ ق ص والمختار : وغرس غرس .

٣ علق في المختار هنا : قلت أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : وقد نظم هذا المعنى :

إن زارني فبفضله أو زرتـــه فلفضله ، فالفضل في الحالين له »

وبخط مخالف قبل البيت : وقيل إنهما للشافعي في أحمد :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت : الفضائل ما تعدت منزله

٤ زاد هنا في ر ق ن ع : وسئل عن حقيقة المحبة . . . الخ ، وقد تقدم .

محمد بن عبد الله : قرأت على اللوح في قبر يحيى بن معاذ الرازي : مات حكيم الزمان يحيى[1] بن معاذ الرازي ، رحمه الله تعالى وبيض وجهه وألحقه بنبيه محمد صلّى الله عليه وسلّم ، يوم الاثنين لست عشرة ليلة[2] خلت من جمادى الأولى سنة ثمان وخمسين ومائتين .

٧٩٥

يحيي بن منده

أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن الإمام أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه بن الوليد بن مَنْدَه بن بطه بن استندار بن جهار بخت ابن فيرزان[3] — واسم منده إبراهيم ، ومنده لقب ، وقيل إن اسم الفيرزان استندار[4] ، والله أعلم ، العبدي[5] ؛ كان من الحفاظ المشهورين وأحد أصحاب الحديث المبرزين — وقد سبق ذكر جده أبي عبد الله محمد في حرف الميم[6] .

وهو أبوزكريا بن أبي عمرو بن أبي عبد الله بن أبي محمد بن أبي يعقوب من أهل أصبهان ، وهو محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث ابن محدث . وكان جليل القدر وافر الفضل واسع الرواية ، ثقة حافظاً فاضلاً مكثراً صدوقاً ،

---

١ ن : يعني يحيى .

٢ ليلة : سقطت من ق ع ، وهي كذلك ساقطة في تاريخ الخطيب .

٧٩٥ — ترجمته في تذكرة الحفاظ : ١٢٥٠ وذيل ابن رجب ١ : ١٢٧ ومرآة الجنان ٣ : ٢٠٢ وعبر الذهبي ٤ : ٢٥ والشذرات ٤ : ٣٢ و Histories (المختصر الثاني) : ١٤٣ والبدر السافر ، الورقة : ٢٢٩ .

٣ اضطربت أسماء الأعلام الأعجمية في النسخ ؛ ن : استيدار ؛ ص ق ع : استبدار .

٤ ع ص : اسفندار ؛ ن ق : اسنيدار .

٥ ق ص ع : العبيدي ؛ ن : العبدوي .

٦ انظر ج ٤ : ٢٨٩ .

كثير التصانيف ، حسن السيرة بعيد التكلف ، أوحد بيته في عصره . خرج التخاريج لنفسه ولجماعة من الشيوخ الأصبهانيين .

وسمع أبا بكر محمد بن عبد الله بن زيد[1] الضبي وأبا طاهر محمد بن أحمد ابن محمد بن عبد الرحيم[2] الكاتب وأبا منصور محمد بن عبد الله بن فضلويه الأصبهاني وأباه أبا عمرو وعمّيه أبا الحسن عبيد الله وأبا القاسم عبد الرحمن وأبا العباس أحمد بن محمد بن أحمد بن النعمان القضاعي[3] وأبا عبد الله محمد ابن علي بن محمد الجصاص وأبا بكر محمد بن علي بن الحسين الجوزداني[4] وأبا طاهر أحمد بن محمود الثقفي، ورحل إلى نيسابور وسمع بها أبا بكر أحمد بن منصور بن خلف المقرىء وأبا بكر أحمد بن الحسين البيهقي ، وبهمذان أبا بكر محمد بن عبد الرحمن بن محمد النهاوندي ، وبالبصرة أبا القاسم إبراهيم بن محمد بن أحمد الشاهد وعبد الله بن الحسين السعداني وجماعة كثيرة سواهم ، وصنف « تاريخ أصبهان » وغيره من الجموع . ودخل بغداد حاجاً وحدث بها، وأملى بجامع المنصور ، وكتب عنه الشيوخ منهم أبو الفضل محمد بن ناصر وعبد القادر بن أبي صالح الجيلي وأبو محمد عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن الخشاب النحوي ، في خلق كثير لشهرته وبيته ، وروى عنه أبو البركات عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي الحافظ وأبو الحسن علي بن أبي تراب الزيكوني[5] الخياط البغدادي وأبو طاهر يحيى بن عبد الغفار بن الصباغ وأبو الفضل محمد بن هبة الله بن العلاء الحافظ وجماعة كثيرة .

وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب « الذيل » وقال : كتب لي الإجازة بجميع مسموعاته ، ثم قال : سألت عنه أبا القاسم إسماعيل بن محمد الحافظ ، فأثنى عليه ووصفه بالحفظ والمعرفة والدراية ، ثم قال : سمعت أبا بكر محمد

---

١ ص ن ق : ريده .
٢ ق ع : عبد الرحمن .
٣ ق ن ص ع : القصاص ؛ بر : القصاصي .
٤ لا تتفق النسخ على صورة لهذه اللفظة ، وقد أثبتنا ما في اللباب .
٥ ر : الزنكوي ؛ ق ص ن ع : الزنكوني : وأثبت أقرب الصور إليها في اللباب .

ابن أبي نصر بن محمد اللفتواني[1] الحافظ يقول : بيت ابن مَنْدَه بدىء بيحيى وختم بيحيى ، يريد في معرفة الحديث والعلم[2] والفضل .

وذكره الحافظ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر الفارسي — المقدم ذكره — في « مساق[3] تاريخ نيسابور » فقال : أبو زكريا يحيى بن عبد الوهاب ابن منده رجل فاضل من بيت العلم والحديث المشهور في الدنيا ، سافر وأدرك المشايخ وسمع منهم ، وصنف على الصحيحين ، وكان يروي بإسناده المتصل إلى بعض العلماء أنّه قال : كثرة الضحك أمارة الحمق ، والعجلة من ضعف العقل ، وضعف العقل من قلة الرأي ، وقلة الرأي من سوء الأدب ، وسوء الأدب يورث المهانة ، والمجون طرف من الجنون ، والحسد داء لا دواء له ، والنمائم تورث الضغائن . وكان يروي بالإسناد المتصل إلى الأصمعي أنّه قال : دخلت في البادية إلى مسجد، فقام الإمام يصلي فقرأ : ﴿ إنّا أرْسلنا نُوحاً إلى قومه ﴾ (نوح : ١) وأرتج عليه ، فجعل يرددها ويقول ﴿ إنّا أرْسَلنا نُوحاً إلى قومه ﴾ فقال أعرابي من ورائه ، وهو قائم يصلي : يا هذا ، إن لم يذهب نوح فأرسل غيره.

وكان يحيى المذكور كثيراً ما ينشد لبعضهم :

عجبتُ لمبتاعِ الضلالةِ بالهدى ... وللمشتري دنياه بالدينِ أعجَبُ
وأعجب من هذين من باع دينه ... بدنيا سواه فهو من ذَين أخيب[4]

وكانت ولادته في غداة يوم الثلاثاء تاسع عشر شوال سنة أربع وثلاثين وأربعمائة وتوفي يوم عيد النحر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة بأصبهان ، ومولده بها أيضا ، رحمه الله تعالى ؛ ولم يخلف في بيت ابن منده بعده مثله .

وقال ابن نقطة في كتابه « إكمال الإكمال » توفي يوم السبت ثاني عشر ذي الحجّة من سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وذكر أن مولد أبيه عبد الوهاب

---

١ في أكثر النسخ : الكفتواني ، وأثبت ما في ن .

٢ ن : والحفظ والعلم .

٣ ن : سياق ، وكذلك ورد من قبل في عدة مواضع .

٤ في النسخ جميعاً : أعجب ، وهو تكرار دون فرق في المعنى ، فأبقينا ما في المطبوعة المصرية .

سنة ست وثمانين وثلثمائة ، وتوفي في جمادى الآخرة من سنة خمس وسبعين وأربعمائة رحمه الله تعالى .

وقد سبق الكلام على ضبط أسماء أجداده في ترجمة جده أبي عبد الله محمد [1] ، رحمه الله تعالى .

٧٩٦

ابن سعدون القرطبي

أبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام بن محمد الأزدي القرطبي ، الملقب سابق الدين [2] ؛ أحد الأئمة المتأخرين في القراءات وعلوم القرآن الكريم والحديث والنحو واللغة وغير ذلك .

خرج من الأندلس في عنفوان شبابه وقدم ديار مصر ، فسمع بالإسكندرية أبا عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم الرازي ، وبمصر أبا صادق مرشد بن يحيى ابن القاسم المدني المصري وأبا طاهر أحمد بن محمد الأصبهاني المعروف بالسِّلَفي وغيرهم . ودخل بغداد سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وقرأ بها القرآن الكريم على الشيخ أبي محمد عبد الله بن علي المقرىء المعروف بابن بنت الشيخ أبي منصور الخياط . وسمع عليه كتباً كثيرة منها كتاب سيبويه ، وقرأ الحديث على أبي بكر [3] محمد بن عبد الباقي البزار المعروف بقاضي المارستان وأبي القاسم ابن الحصين وأبي العز ابن كادش وغيرهم .

وكان ديناً ورعاً عليه وقار وهيبة وسكينة ، وكان ثقة صدوقاً ثبتاً نبيلاً

---

١ قلت : لم يرد شيء من ذلك ، ولهذا لم نستطع أن نضبطها لاضطراب النسخ في إيرادها .

٧٩٦ – ترجمته في معجم الأدباء ٢٠ : ١٤ وغاية النهاية ٢ : ٣٧٢ والمغرب ١ : ١٣٥ وعبر الذهبي ٤ : ٢٠٠ ومرآة الجنان ٣ : ٣٨٠ ، ٣٨٣ وبغية الوعاة : ٤١٢ ونفح الطيب ٢ : ١١٦ وهو ينقل عن ابن خلكان .

٢ النفح : بضياء الدين ؛ ن : ضياء الدين؛ بر من : صائن الدين .   ٣ ق ع : ابن أبي بكر .

قليل الكلام كثير الخير مفيداً ، أقام بدمشق مدة ، واستوطن الموصل ورحل عنها إلى أصبهان ، ثم عاد إلى الموصل ، وأخذ عنه شيوخ ذلك العصر ؛ وذكره الحافظ ابن السمعاني في كتاب « الذيل » وقال : إنّه اجتمع به بدمشق[1] ، وسمع منه مشيخة أبي عبد الله الرازي ، وانتخب عليه أجزاء ، وسأله عن مولده ، فقال : ولدت في سنة ست وثمانين وأربعمائة بمدينة قرطبة من ديار الأندلس ؛ ورأيت في بعض الكتب أن مولده سنة سبع وثمانين ، والأول أصح .

وكان شيخنا القاضي بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم المعروف بابن شداد قاضي حلب رحمه الله تعالى يفتخر برؤيته[2] وقراءته عليه — وسيأتي ذلك في ترجمته إن شاء الله تعالى — وقال : كنا نقرأ عليه بالموصل ونأخذ عنه . وكنا نرى رجلاً يأتي إليه كل يوم فيسلم عليه وهو قائم ، ثم يمد يده إلى الشيخ بشيء ملفوف ، فيأخذه الشيخ من يده ، ولا نعلم ما هو ، ويتركه ذلك الرجل ويذهب ، ثم تقفينا ذلك فعلمنا أنها دجاجة مسموطة ، كانت برسم الشيخ في كل يوم يبتاعها له ذلك الرجل ويسمطها ويحضرها ، وإذا دخل الشيخ إلى منزله تولى طبخها بيده . وذكر في كتابه الذي سماه « دلائل الأحكام » أنّه لازم القراءة عليه إحدى عشرة سنة آخرها سنة سبع وستين وخمسمائة . وكان الشيخ أبو بكر القرطبي المذكور كثيراً ما ينشد مسنداً الى أبي الخير الكاتب الواسطي رواهما بالإسناد المتصل إليه أنهما له[3] :

جرى قلمُ القضاء بما يكونُ ... فسيانِ التحركُ والسكونُ
جنونٌ منك أن تسعى لرزقٍ ... ويُرزق في غشاوته الجنين

وقال : أنشدنا أبو الوفاء عبد الباقي بن وهب بن حسان قال : أنشدنا أبو عبد الله محمد بن منيع بمصر لنفسه :

لي حيلةٌ فيمن ينمُّ ... وليس في الكذاب حيله

---

١ ص ر بر من : في دمشق .
٢ ر : بروايته .
٣ أنهما له : سقط من : ن ر بر من .

مـن كـان يخلق مـا يقـو ل فحيلتي فيـه قليـله

وتوفي الشيخ أبو بكر المذكور بالموصل[1] في يوم عيد الفطر من سنة سبع وستين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

٧٩٧
يحي بن يعمر النحوي

أبو سليمان ، وقيل أبو سعيد ، يحيى بن يَعمر العَدْواني الوَشقي النحوي البصري ؛ كان تابعياً ، لقي عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ، رضي الله عنهم ، ولقي غيرهما ، وروى عنه قتادة بن دعامة السدوسي وإسحاق بن سويد العدوي . وهو أحد قراء البصرة، وعنه أخذ عبد الله بن أبي إسحاق القراءة ، وانتقل إلى خراسان ، وتولى القضاء بمرو ، وكان عالماً بالقرآن الكريم والنحو ولغات العرب وأخـذ النحو عن أبي الأسود الدؤلي – المقدم ذكره[2] – يقال إن أبا الأسود لمّا وضع باب الفاعل والمفعول به زاد فيه رجل من بني ليث أبواباً ثم نظر فإذا في كلام العرب ما لا يدخل فيه فأقصر عنه ، فيمكن أن يكون هو يحيى بن يعمر المذكور إذ كان عداده في بني ليث لأنّه حليف لهم . وكان شيعياً من الشيعة الأولى القائلين بتفضيل أهل البيت من غير تنقيص[3] لذي فضل من غيرهم .

---

١ بالموصل : سقطت من ر .

٧٩٧ – ترجمته في معجم الأدباء ٢٠ : ٤٢ وغاية النهاية ٢ : ٣١٨ ومرآة الجنان ١ : ٢٧١ وتهذيب التهذيب ١١ : ٣٠٥ وأخبار النحويين البصريين : ٢٢ وطبقات الزبيدي : ٢٢ ونور القبس : ٢١ وبغية الوعاة : ٤١٧ والنجوم الزاهرة ١ : ٢١٧ والجهشياري : ٤١ – ٤٢ .

٢ ج ٢ : ٥٣٥ .

٣ ن ص ق : تنقص .

حكى عاصم بن أبي النجود المقرىء – المقدم ذكره [1] – أن الحجاج بن يوسف الثقفي بلغه أن يحيى بن يعمر يقول : إن الحسن والحسين رضي الله عنهما من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يحيى يومئذ بخراسان ، فكتب الحجاج إلى قتيبة بن مسلم والي خراسان – وقد تقدم ذكره أيضاً [2] – أن ابعث إليّ بيحيى بن يعمر ، فبعث به إليه ، فقام بين يديه ، فقال : أنت الذي تزعم أن الحسن والحسين من ذرية رسول الله صلى الله عليه وسلّم ؟ والله لألقين الأكثر منك شعراً أو لتخرجن من ذلك ، قال : فهو أماني إن خرجت ؟ قال : نعم ، قال : فإن الله جل ثناؤه يقول : ﴿ وَوَهَبْنا لَهُ إسحاقَ وَيَعْقوبَ كلاً هَدينا ونُوحاً هَدينا مِن قَبل ، ومِن ذُرِيّتِه داوُد وَسُلَيمانَ وَأيّوبَ وَيوسُفَ وموسى وهارون ، وكذلِكَ نَجزي المُحسِنين ، وزكريّا ويحيى وعيسى ﴾ الآية (الأنعام : ٨٥) قال : وما بين عيسى وإبراهيم أكثر ممّا بين الحسن والحسين ومحمد صلوات الله عليه وسلامه ، فقال له الحجاج : ما أراك إلا قد خرجت ، والله لقد قرأتها وما علمت بها قط ؛ وهذا من الاستنباطات البديعة الغريبة العجيبة ، فللّه دره ، ما أحسن ما استخرج وأدق ما استنبط ! قال عاصم : ثم إن الحجاج قال له : أين ولدت ؟ فقال : بالبصرة ، قال : أين نشأت ؟ قال : بخراسان ، قال : فهذه العربية أنى هي لك ؟ قال : رزق ، قال : خبرني عني هل ألحن ؟ فسكت ، فقال : أقسمت عليك ، فقال : أما إذ سألتني أيها الأمير فإنّك ترفع ما يوضع وتضع ما يرفع ، فقال : ذلك والله اللحن السيّء ؛ قال : ثم كتب إلى قتيبة : إذا جاءك كتابي هذا فاجعل يحيى بن يعمر على قضائك والسلام .

وروى ابن سلام عن يونس بن حبيب قال : قال الحجاج ليحيى بن يعمر أتسمعني ألحن ؟ قال : في حرف واحد ، قال : في أيّ ؟ قال : في القرآن ، قال : ذلك أشنع ، ثم قال له : ما هو ؟ قال تقول ﴿ قُلْ إنْ كانَ آباؤكُم وأبْناؤكُم – إلى قوله : أحَبّ إليكُم ﴾ (التوبة : ٢٤) فتقرؤها بالرفع ،

---

[1] ج ٣ : ٩ .

[2] ج ٤ : ٨٦ .

قال ابن سلام : كأنّه لما طال الكلام نسي ما ابتدأ به ، فقال الحجاج : لا جرم لا تسمع لي لحناً ، قال يونس : فألحقه بخراسان وعليها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة ، والله أعلم أي ذلك كان .

قال ابن الجوزي في كتاب « شذور العقود » : في سنة أربع وثمانين للهجرة نفى الحجاج يحيى بن يعمر لأنّه قال له : هل ألحن ؟ فقال : تلحن لحناً خفياً ، فقال : أجلتك ثلاثاً ، فإن وجدتك بعد بأرض العراق قتلتك ، فخرج .

وحكى أبو عمرو نصر بن علي عن نوح بن قيس قال : حدثنا عثمان بن محصن قال : خطب أمير بالبصرة [1] فقال : اتقوا الله فإنّه من يتق الله فلا هورات عليه ، فلم يدروا ما قال الأمير ، فسألوا يحيى بن يعمر فقال : الهورات الضياع ، يقول : من اتقى الله فليس عليه ضياع ، قال القزاز في كتاب « الجامع » الهورات المهالك ، واحدها هورة ، قال الراوي : فحدثت بهذا الحديث الأصمعي فقال : هذا شيء لم أسمع به قط حتى كان الساعة منك ، ثم قال : إن كلام العرب [2] لواسع ، لم أسمع بذا قط .

وحكى الأصمعي قال : حدثنا أبي قال : كتب يزيد بن المهلب بن أبي صفرة وهو بخراسان إلى الحجاج بن يوسف كتاباً يقول فيه : إنّا لقينا العدو فاضطررناهم إلى عَرْعرة الجبل ، ونحن بالحضيض ، فقال الحجاج : ما لابن المهلب ولهذا الكلام ؟ فقيل له : إن ابن يعمر عنده ، فقال : فذاك إذاً .

وكان يحيى بن يعمر يعمل الشعر وهو القائل :

أبى الأقوامُ إلا بُغْض قومي قديماً أبغض الناسُ السمينا

وقال خالد الحذاء : كان لابن سيرين مصحف منقوط نقطه يحيى بن يعمر ، وكان ينطق بالعربية المحضة واللغة الفصحى طبيعة فيه غير متكلف ؛ وأخباره ونوادره كثيرة ؛ وتوفي سنة تسع وعشرين ومائة ، رحمه الله تعالى .

ويَعْمر : بفتح الياء المثناة من تحتها والميم وبينهما عين مهملة وفي الأخير

---

١ ص ع : أمير البصرة .

٢ ق ن ص ع بر من : إن الغريب .

راء ، وقيل بضم الميم ، والأول أصح وأشهر ، ويعمر – بفتح الميم – مضارع قولهم عَمِرَ الرجل ، بفتح العين وكسر الميم ، إذا عاش زمناً طويلاً ، وإنّما سمّي بذلك تفاؤلاً بطول العمر ، كما سمّي يحيى بذلك أيضاً .

والعَدْواني : بفتح العين المهملة والواو وبينهما دال مهملة ساكنة وبعد الألف نون ، هذه النسبة إلى عَدْوان ، واسمه الحارث بن عمرو بن قيس عيلان وإنّما قيل له « عَدْوان » لأنّه عَدَا على أخيه فهم فقتله .

والوَشْقي : بفتح الواو وسكون الشين المعجمة وبعدها قاف ، هذه النسبة إلى وَشْقَة بن عوف بن بكر بن يشكر بن عَدْوانَ المذكور .

٧٩٨

أبو زكريا الفراء

أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الأسلمي ، المعروف بالفراء ، الديلمي الكوفي مولى بني أسد ، وقيل مولى بني منقر ؛ كان أبرع الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ؛ حكي عن أبي العباس ثعلب أنّه قال : لولا الفراء لما كانت عربية ، لأنّه خلصها وضبطها ، ولولا الفراء لسقطت العربية لأنها كانت تتنازع ويدعيها كل من أراد ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم فتذهب .

وأخذ النحو عن أبي الحسن الكسائي ، وهو والأحمر – المقدم ذكره – من

....

٧٩٨ – ترجمته في نور القبس : ٣٠١ ومراتب النحويين : ٨٦ وطبقات الزبيدي : ١٤٣ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٤٩ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٩ ونزهة الألباء : ٦٥ وعبر الذهبي ١ : ٣٥٤ والشذرات ٢ : ١٩ وبغية الوعاة : ٤١١ ومرآة الجنان ٢ : ٣٨ وغاية النهاية ٢ : ٣٧١ وتهذيب التهذيب ١١ : ٢١٢ وللدكتور أحمد مكي الأنصاري كتاب بعنوان « أبو زكريا الفراء ومذهبه في النحو واللغة » (القاهرة : ١٩٦٤) ، ومن هذه الترجمة تعود النسخة « س » إلى الاشتراك مع النسخ الأخرى .

أشهر أصحابه وأخصهم به .

ولما عزم الفراء على الاتصال بالمأمون ، كان يتردد إلى الباب[1] ، فبينما هو ذات يوم على الباب إذ جاء أبو بشر ثمامة بن الأشرس النميري المعتزلي ، وكان خصيصاً بالمأمون ، قال ثمامـة : فرأيت أبهة أديب ، فجلست إليه ، ففاتشته عن اللغة فوجدته بحراً وفاتشته عن[2] النحو فشاهدته[3] نسيج وَحْدِهِ وعن الفقه فوجدته رجلاً فقيهاً عارفاً باختلاف القوم ، وبالنجوم ماهراً ، وبالطب[4] خبيراً ، وبأيام العرب وأشعارها حاذقاً ، فقلت له : من تكون ؟ وما أظنك إلا الفراء ، فقال : أنا هو ، فدخلت فأعلمت أمير المؤمنين المأمون ، فأمر بإحضاره لوقته ، وكان سبب اتصاله به .

وقال قُطْرُب : دخل الفراء على الرشيد فتكلم بكلام لحن فيه مرات ، فقال جعفر بن يحيى البرمكي : إنّه قد لحن يا أمير المؤمنين ، فقال الرشيد للفراء : أتلحن ؟ فقال الفراء : يا أمير المؤمنين إن طباع أهل البدو الإعراب[5] ، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا تحفظت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت ، فاستحسن الرشيد قوله .

وقال الخطيب في « تاريخ بغداد » : إن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أُصول النحو[6] وما سمع من العربية ، وأمر أن يفرد في حجرة من حجر الدار ، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه ، حتّى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء ، حتّى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلوات ، وصير له الوراقين ، وألزمه الأمناء والمنفقين ، فكان يملي والوراقون يكتبون ، حتّى صنف « الحدود » في سنتين[7] وأمر المأمون بكتبه[8] في الخزائن ، فبعد أن

---

١ بر من : وكان قد ورد بغداد في أيام المأمون فبقي يتردد على بابه مدة لا يصل إليه فبينما هو . . . الخ

٢ ر : فناقشته في . . . وناقشته في ١.

٣ س بر : فشاهدت .　　　　٤ س : وبالنحو . . . وبالطلب .

٥ إن . . . الأعراب : سقطت من ق ص ع .

٦ ر : أمور النحو وأصوله .

٧ ق ن ص س : في سنين ، وكذلك هو في تاريخ بغداد .

٨ ر : أن يكتبه .

فرغ من ذلك خرج إلى الناس ، وابتدأ بكتاب « المعاني » قال الراوي : وأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء كتاب « المعاني » ؛ فلم نضبطهم ، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين قاضياً ، فلم يزل يمليه حتى أتمه . ولمّا فرغ من كتاب « المعاني » خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به وقالوا : لا نخرجه إلاّ لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم ، فشكا الناس إلى الفراء ، فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك ، فقالوا : إنّما صحبناك لننتفع بك ، وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما بهم إلى هذا الكتاب ، فدعنا نعيش به فقال : قاربوهم تنتفعوا وتنفعوا[1] ، فأبوا عليه فقال : سأريكم ، وقال للناس : إنّي ممل كتابَ معانٍ أتم شرحاً وأبسط قولاً من الذي أمليت ، فجلس يملي ، فأملى[2] الحمد في مائة ورقة ، فجاء الوراقون إليه وقالوا : نحن نبلغ الناس ما يحبون ، فنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم .

وكان سبب إملائه كتاب « المعاني » أن أحد أصحابه ، وهو عمر[3] بن بكير ، كان يصحب الحسن بن سهل — المقدم ذكره — فكتب إلى الفراء إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن لا يحضرني عنها جواب ، فإن رأيت أن تجمع لي أصولاً وتجعل ذلك كتاباً يرجع إليه فعلت ، فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه : اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن ، وجعل لهم يوماً ، فلما حضروا خرج إليهم ، وكان في المسجد رجل يؤذن فيه وكان من القراء ، فقال له : اقرأ ، فقرأ فاتحة الكتاب ، ففسرها ، حتى مرّ في القرآن كلّه على ذلك ، يقرأ الرجل والفراء يفسره . وكتابه هذا نحو ألف ورقة ، وهو كتاب لم يعمل مثله ، ولا يمكن أحداً[4] أن يزيد عليه .

وكان المأمون قد وكل الفراء يُلَقّن[5] ابنيه النحو ، فلما كان يوماً أراد الفراء

---

١ ن ر س : وينتفعوا ، وكذلك في تاريخ بغداد .

٢ ق ن ع س : يمل فأمل ، وهي رواية الخطيب .

٣ ع بر من : عمرو .

٤ ن ع : أحد .

٥ بر : بتلقين .

أن ينهض إلى بعض حوائجه ، فابتدرا إلى نَعْل الفراء يقدمانه له ، فتنازعا أيهما يقدمه ، فاصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فرداً فقدماها ، وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر ، فرفع ذلك الخبر إليه ، فوجه إلى الفراء فاستدعاه ، فلما دخل عليه قال : من أعز الناس ؟ قال : ما أعرف أعزّ من أمير المؤمنين ، قال : بلى مَنْ إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وليا عهد المسلمين حتى رضي كل واحد أن يقدم له فرداً ، قال : يا أمير المؤمنين ، لقد أردت منعهما عن ذلك ، ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها أو أكسر نفوسهما عن شريعةٍ حرصاً عليها ، وقد روي عن ابن عباس أنّه أمسك للحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين ركابيهما ، حين خرجا من عنده ، فقال له بعض من حضر : أتمسك لهذين الحدثين ركابيهما وأنت أسن منهما ؟ فقال له : اسكت يا جاهل ، لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل ، فقال له المأمون : لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً وعتباً وألزمتك ذنباً ، وما وضع ما فعلاه من شرفهما ، بل رفع من قدرهما وبيّن عن جوهرهما ، ولقد ظهرت لي مخيلة الفراسة بفعلهما ، فليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه ووالده ومعلمه العلم ، وقد عوضتهما بما[1] فعلاه عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما .

وقال الخطيب أيضاً[2] : كان محمد بن الحسن الفقيه ابن خالة الفراء ، وكان الفراء يوماً جالساً عنده ، فقال الفراء : قلَّ رجل أنعم النظر في باب من العلم فأراد غيره إلا سهل عليه ، فقال له محمد : يا أبا زكريا قد أنعمتَ النظر في العربية ، فنسألك عن باب من الفقه ؟ فقال : هات على بركة الله تعالى ، قال : ما تقول في رجل صلى فسها فسجد سجدتين للسهو فسها فيهما . ففكّر الفراء ساعة ثم قال : لا شيء عليه ، فقال له محمد : ولم ؟ قال : لأن التصغير عندنا لا تصغير له ، وإنّما السجدتان تمام الصلاة ، فليس للتمام تمام ، فقال محمد : ما ظننت آدمياً يلد مثلك .

---

١ ع ق س بر من : مما .

٢ تاريخ بغداد ١٤ : ١٥٢ .

وقد سبقت هذه الحكاية في ترجمة الكسائي ونبهت عليها ثمَّ بما ذكرته هاهنا .

وكان الفراء لا[1] يميل إلى الاعتزال ؛ وحكى سلمة بن عاصم عن الفراء قال : كنت أنا وبشر المَرِيسي — المقدم ذكره — في بيت واحد عشرين سنة ، ما تعلم مني شيئاً ولا تعلمت منه شيئاً ؛ وقال الجاحظ : دخلت بغداد حين قدمها المأمون في سنة أربع ومائتين ، وكان الفراء يحبّني ، وأشتهي أن يتعلم شيئاً من علم الكلام ، فلم يكن له فيه طبع .

وقال أبو العباس ثعلب : كان الفراء يجلس للناس في مسجده إلى جانب منزله ، وكان يتفلسف في تصانيفه حتّى يسلك في ألفاظه كلام الفلاسفة .

وقال سلمة بن عاصم : إنّي لأعجب من الفراء كيف كان يعظم الكسائي وهو أعلم بالنحو منه .

وقال الفراء : أموت وفي نفسي شيء[2] من «حتّى» ، لأنها تخفض وترفع وتنصب .

ولم ينقل من شعره غير هذه الأبيات ، وقد رواها أبو حنيفة الدينوَري عن أبي بكر الطوال وهي :

يا أميراً على جَريبٍ من الأر ... ضِ له تسعةٌ من الحجّاب
جالساً في الخراب يحجب فيه ... ما سمعنا بحاجب في خراب
لن تراني لك العيون بباب ... ليس مثلي يُطيقُ ردّ الحجاب[3]

ثم وجدت هذه الأبيات لابن[4] موسى المكفوف ، والله أعلم بالصواب .

ومولد الفراء بالكوفة ، وانتقل إلى بغداد وجعل أكثر مقامه بها ، وكان شديد طلب المعاش لا يستريح في بيته ، وكان يجمع طول السنة ، فإذا كان في

---

١ سقطت « لا » من بعض النسخ .

٢ شيء : سقطت من أكثر النسخ .

٣ ص ق ر : الجواب .

٤ ن : لأبي ، وسقط التعليق كله من س .

آخرها خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً في أهله يفرق[1] عليهم ما جمعه ويبرهم .

وله من التصانيف الكتابان المقدم ذكرهما ، وهما « الحدود » و« المعاني » وكتابان في المشكل أحدهما أكبر من الآخر ، وكتاب « البهيّ » وهو صغير الحجم ووقفت عليه بعد أن كتبت هذه الترجمة ، ورأيت فيه أكثر الألفاظ التي استعملها أبو العباس ثعلب في كتاب « الفصيح » وهو في حجم « الفصيح » غير أنّه غيّره ورتبه على صورة أُخرى ، وعلى الحقيقة ليس لثعلب في « الفصيح » سوى الترتيب وزيادة يسيرة ، وفي كتاب « البهي » أيضاً ألفاظ ليست في الفصيح قليلة ، وليس في الكتابين اختلاف إلا في شيء قليل لا غير[2] . وله كتاب « اللغات » وكتاب « المصادر في القرآن » وكتاب « الجمع والتثنية في القرآن » وكتاب « الوقف والابتداء » وكتاب « المفاخر »[3] وكتاب « آلة الكاتب » وكتاب « النوادر » وكتاب « الواو » وغير ذلك من الكتب .

وقال سلمة بن عاصم : أملى الفراء كتبه كلها حفظاً ، لم يأخذ بيده نسخة إلا في كتابين : كتاب « ملازم » وكتاب « يافع ويَفَعَة » ، قال أبو بكر الأنباري : ومقدار الكتابين خمسون ورقة ، ومقدار كتب الفراء ثلاثة آلاف ورقة .

وقد مدحه محمد بن الجهم بقصيدة على روي الواو الموصولة بالهاء المكسورة أضربت عن ذكرها خوف الإطالة .

وتوفي الفراء سنة سبع ومائتين في طريق مكة ، وعمره ثلاث وستون سنة ، رحمه الله تعالى .

والفراء : بفتح الفاء وتشديد الراء وبعدها ألف ممدودة ، وإنّما قيل له فرّاء ولم يكن يعمل الفِراء ولا يبيعها ، لأنّه كان يَفْرِي الكلام ، ذكر ذلك الحافظ السمعاني في كتاب « الأنساب »[4] ، وعزاه إلى كتاب « الألقاب »[5] .

---

١ ع : وفرق ؛ ص : ففرق .

٢ وهو صغير . . . لا غير : سقط من : س بر من .

٣ س ق ع : الفاخر .

٤ س : الذيل .

٥ ق ع : الألباب .

وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتابه أن زياداً والد الفراء كان أقطع ، لأنّه حضر وقعة الحسين بن علي رضي الله عنهما فقطعت يده في تلك الحرب ، وهذا عندي فيه نظر لأن الفراء عاش ثلاثاً وستين سنة فتكون ولادته سنة أربع وأربعين ومائة ، وحرب الحسين كانت سنة إحدى وستين للهجرة ، فبين حرب الحسين وولادة الفراء أربع وثمانون سنة ، فكم قد عاش أبوه ؟ فإن كان الأقطع جدّه فيمكن ، والله أعلم .

ومنظور : بفتح الميم وسكون النون وضم الظاء المعجمة وسكون الواو وبعدها راء .

وقد تقدم الكلام على الديلمي وبني أسد .

وأما بنو مِنْقَر : فهو بكسر الميم وسكون النون وفتح القاف وبعدها راء ، وهو منقر بن عبيد بن مقاعس ، واسمه الحارث بن عمرو بن كعب بن سعد ابن زيد مَناة بن تميم بن مُرّ ، وهي قبيلة كبيرة ينسب إليها خلقٌ كثير من الصحابة رضوان الله عليهم وغيرهم ، ومنها خالد بن صَفْوان وشبيب بن شيبة ، وصفوان وشيبة ابنا عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقَري ، وهما — أعني خالداً وشبيباً — المشهوران بالفصاحة والبلاغة والخطابة ، ولخالد مجالس مشهورة مع أمير المؤمنين السفاح ، ولشبيب مع المنصور والمهدي وغيرهما — وقد تقدم ذكر خالد وشبيب[1] في ترجمة البحتري في حرف الواو .

---

[1] لم يشر المؤلف هنا إلى أنه ترجم لشبيب ، وهذا يرجح أن ترجمة شبيب (ج ٣ : ٤٥٨) التي انفردت بها النسخة ص ليست من عمل المؤلف .

٧٩٩
أبو محمد اليزيدي

أبو محمد يحيى بن المبارك بن المغيرة العَدَوي ، المعروف باليزيدي ، المقرىء النحوي اللغوي صاحب أبي عمرو بن العَلاء المقرىء البصري ، وهو الذي خلفه في القيام بالقراءة بعده ؛ سكن بغداد وحدث بها عن أبي عمرو بن العلاء وابن جريج وغيرهما . وروى عنه محمد ابنه وأبو عبيد القاسم بن سلام وإسحاق بن إبراهيم الموصلي وجماعة من أولاده وحفَدَته وأبو عمرو الدوري وأبو حمدون الطيب بن إسماعيل[1] وأبو شعيب السوسي[2] وعامر بن عمر الموصلي وأبو خلاد سليمان بن خلاد وغيرهم ، وخالف أبا عمرو في حروف يسيرة[3] من القراءة اختارها لنفسه .

وكان يؤدب أولاد يزيد بن منصور بن عبد الله بن يزيد الحميري خال المهدي ، وإليه كان ينتسب ، ثم اتصل بهارون الرشيد فجعل ولده المأمون في حجره فكان يؤدبه .

وكان ثقة ، وهو أحد القراء الفصحاء العالمين بلغات العرب والنحو ، وكان صدوقاً ، وله التصانيف الحسنة والنظم الجيد ، وشعره مدون ، وصنف كتاب « نوادر » في اللغة على مثال كتاب « نوادر » الأصمعي الذي صنفه لجعفر البرمكي ، وفي مثل عدد ورقه ، وأخذ علم العربية وأخبار الناس عن أبي عمرو

---

٧٩٩ – ترجمته في نور القبس : ٨٠ – ٨٧ والورقة ٢٧ وطبقات ابن المعتز : ٢٧٣ والأغاني ٢١ : ٩٢ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٤٦ ومعجم المرزباني : ٤٨٧ وشرح المرزوقي للحماسة : ١٥٤٩ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٣ ونزهة الألباء : ٥٣ وعبر الذهبي ١ : ٣٣٨ والشذرات ٢ : ٤ وغاية النهاية ٢ : ٣٧٥ ومرآة الجنان ٢ : ٣ وبغية الوعاة : ٤١٤ والخزانة ٤ : ٤٢٦ .

١ ترجمة الطيب في غاية النهاية ١ : ٣٤٣ .

٢ اسمه صالح بن زياد (غاية النهاية ١ : ٣٣٣) .

٣ ص ن ع ق : كثيرة .

والخليل بن أحمد ، ومن كان معاصرهما .

وحكي عن أبي حمدون الطيب بن إسماعيل قال : شهدت ابن أبي العتاهية وقد كتب عن أبي محمد اليزيدي قريباً من ألف جلد ، عن أبي عمرو بن العلاء خاصة ، ويكون ذلك عشرة آلاف ورقة ، لأن تقدير الجلد عشر ورقات ، وأخذ عن الخليل من اللغة أمراً[1] عظيماً ، وكتب عنه العروض في ابتداء وضعه له ، إلا أن اعتماده على أبي عمرو لسعة علم أبي عمرو باللغة[2] .

وكان أبو محمد المذكور يعلم الصبيان بحذاء دار أبي عمرو بن العلاء ، وكان أبو عمرو يدنيه ويميل إليه لذكائه ، وكان أبو محمد المذكور صحيح الرواية ، وله من التصانيف كتاب « النوادر » — المقدم ذكره — وكتاب « المقصور والممدود » ومختصر في النحو ، وكتاب « النقط والشكل » .

وقال ابن المنادي[3] : أكثرت من[4] السؤال عن أبي محمد اليزيدي ومحله من الصدق ومنزلته من الثقة ، لعدة من شيوخنا بعضهم أهل عربية وبعضهم أهل قرآن وحديث ، فقالوا : هو ثقة صدوق لا يدفع عن سماع ولا يرغب عنه في شيء ، غير ما يتوهم عليه من الميل إلى المعتزلة[5] ، وقد روى عنه الغريب أبو عبيد القاسم بن سلام وكفى به ، وما ذاك إلا عن معرفة منه به ، وكان يجلس في أيام الرشيد مع الكسائي في مجلس واحد ويقرئان الناس ، وكان الكسائي يؤدب الأمين وهو يؤدب المأمون ، فأمّا الأمين فإن أباه أمر الكسائي أن يأخذ عليه بحرف حمزة ، وأمّا المأمون فإن أباه أمر أبا محمد أن يأخذ عليه بحرف أبي عمرو .

وقال الأثرم : دخل اليزيدي يوماً على الخليل بن أحمد وهو جالس على وسادة ، فأوسع له وأجلسه معه ، فقال له اليزيدي : أحسبني ضيقت عليك ، فقال الخليل : ما ضاق موضع على اثنين متحابين ، والدنيا لا تسع متباغضين .

---

١ ع ق : شيئاً .

٢ ق ع : لسعة علمه باللغة .

٣ بر : ابن المبارك ؛ وابن المنادي هو أحمد بن جعفر (غاية النهاية ١ : ٤٤) .

٤ من : سقطت من : ق ر ع .

٥ ن : الاعتزال .

وسأل المأمون اليزيدي عن شيء فقال : لا وجعلني الله فداك يا أمير المؤمنين ، فقال : لله درك ! ما وضعت الواو قط في موضع أحسن من موضعها في لفظك هذا ، ووصله وحمله .

وقال اليزيدي : دخلت على المأمون يوماً والدنيا غضة ، وعنده نُعْمٌ تغنيه ، وكانت من أجمل أهل دهرها [1] ، فأنشدت :

وزعمتِ أنّي ظالم فهجرتني ... ورَمَيْتِ في قلبي بسهمٍ نافذِ
فنعم هجرتُكِ فاغفري وتجاوزي ... هذا مَقامُ المستجير العائذ
هذا مقام فتًى أضَرَّ به الهوى ... قرحِ الجفون بحسن وجهكِ لائذ [2]
ولقد أخذتم من فؤادي أنسه ... لا شَلَّ ربي كَفَّ ذاك الآخذ [3]

فاستعادها المأمون الصوت ثلاث مرات ، ثم قال : يا يزيدي ، أيكون شيء أحْسَنَ مما نحن فيه ؟ قلت : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وما هو ؟ قلت : الشكر لمن خولك هذا الإنعام العظيم الجليل ، فقال : أحسنت وصدقت ، ووصلني وأمر بمائة ألف درهم يتصدق بها ، فكأني أنظر إلى البِدَر وقد أخرجت والمال يفرق .

وشكا اليزيدي إلى المأمون حاجة أصابته وديناً لحقه ، فقال : ما عندنا في هذه الأيام ما إن أعطيناكه [4] بلغت به ما تريد ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الأمر قد ضاق علي ، وإن غرمائي [5] قد أرهقوني ، فاحتل لي ، فأفكر المأمون ، واستقر الأمر على أن يحضر اليزيدي إلى الباب إذا جلس المأمون في مجلس الأنس وعنده ندماؤه ، ويكتب رقعة يطلب فيها الدخول أو إخراج بعض الندماء إليه ، فلما جلس المأمون حضر اليزيدي إلى الباب ودفع للخادم رقعة مختومة فأدخلها إلى

---

١ المختار : وكانت من أجمل النساء .
٢ سقط الشطر الثاني من س .
٣ جاء أول الأبيات في ر .
٤ ق ن ع س بر من : أعطيناك .
٥ ق ع : الغرماء .

المأمون ففضها فإذا فيها مكتوب [1] :

يا خيرَ إخوانٍ وأصحابِ هذا الطُّفيليُّ على البابِ
فصيروني واحداً منكمُ أو أخرجوا لي بعض أصحابي

فقرأها المأمون على من حضر وقال : ما ينبغي أن يدخل مثل هذا الطفيلي على مثل هذا الحال ، فأرسل إليه المأمون يقول له : دخولك في مثل هذا الوقت متعذر ، فاختر لنفسك مَن أحببت أن تنادمه ، فلما وقف على الرسالة قال : ما أرى لنفسي اختياراً سوى عبد الله بن طاهر ، فقال له المأمون : قد وقع الاختيار عليك فصر إليه ، فقال : يا أمير المؤمنين ، فأكون شريك الطفيلي ؟ فقال : ما يمكنني [2] رد أبي محمد عن أمره ، فإن أحببت أن تخرج إليه وإلا فافتَدِ [3] نفسك منه ، فقال : على عشرة آلاف درهم ، فقال : لا أحسب ذلك يقنعه منك ومن مجالستك ، فلم يزل يزيده عشرة آلاف على عشرة آلاف والمأمون يقول : لا أرضى له بذلك ، حتى بلغ مائة ألف درهم فقال له المأمون : فعجِّلها له ، فكتب له بها إلى وكيله ووجه رسولاً ، وأرسل إليه المأمون وهو يقول : قبضُ هذا المبلغ في مثل هذه الحال أصلح لك من منادمته على مثل حاله ، فقبل ذلك منه ؛ وكان ظريفاً في جميع أحواله .

وحكى أبو أحمد ابن جعفر البلخي في كتابه [4] أن اليزيدي المذكور سأل الكسائي عن قول الشاعر :

ما رأينا خَرَباً نقّـ ر عنه البيضَ صَقْرُ
لا يكون العَيْرُ مهراً لا يكون ، المهر مهرُ

ــ الخرب : بفتح الخاء المعجمة والراء وفي آخرها الباء الموحدة ، الذكر من

---

١ زاد في ن : بما تحرر الأمر عليه .
٢ ر : ما يمكن ، وكذلك في نور القبس .
٣ ر : فافكك ، ن ص بر من : فافتك .
٤ انظر القصة في مجالس لأدباء : ٢٥٥ والتصحيف والتحريف : ١٢٤ وغيرهما من المصادر التي مر ذكرها .

الحبارى ، والعير : بفتح العين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها وبعدها راء ، وهو الذكر من حمر الوحش[1] — فقال الكسائي : يجب أن يكون « مهر » منصوباً على أنّه خبر كان ، ففي البيت على هذا التقدير إقواء ، فقال اليزيدي : الشعر صواب لأن الكلام قد تمّ عند قوله « لا يكون » الثانية وهي مؤكدة للأولى ، ثم استأنف الكلام ، فقال « المهر مهر » ، وضرب بقلنسوته الأرض ، وقال : أنا أبو محمد ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : أتكتني بحضرة أمير المؤمنين ؟ والله إن خطأ الكسائي مع حسن أدبه لأحسن من صوابك مع سوء أدبك ، فقال اليزيدي : إن حلاوة الظفر أذهبت عني التحفظ .

قلت أنا : قول الكسائي في البيت إقواء ليس بجيد ، فإن اصطلاح أرباب علم القوافي أن الإقواء يختصّ باختلاف الإعراب في حرف الرويّ بالرفع والجر لا غير بأن يكون أحد البيتين مرفوعاً والآخر مجروراً ، فأمّا إذا كان الاختلاف بالنصب مع الرفع والجر فإن ذلك يسمى إصرافاً لا إقواء ، وإلى هذا أشار أبو العلاء المعري في قوله من جملة قصيدة طويلة يرثي بها الشريف الطاهر والد الرضي والمرتضى — المقدم ذكرهما — وهو في صفة نعيب الغراب :

بُنيتْ على الإيطاء سالمةً من الـ ـإقواء والإكفاء والإصراف

وهذا البيت متعلق بما قبله ولا يظهر معناه إلا بذكر ما تقدم ، ولا حاجة بنا إلى ذكره هاهنا بل ذكرنا موضع الاستشهاد لا غير[2] . وقد قيل إن الإصراف من جملة أنواع الإقواء ، فعلى هذا يستقيم ما قاله الكسائي . وهذا الفصل وإن كان دخيلاً لكنه ما خلا من فائدة .

وغالب شعر اليزيدي جيد ، وقد ذكره هارون بن المنجم — المقدم ذكره —

---

١ سقط شرح اللفظتين من س .

٢ يذكر أبو العلاء أن الغراب رثى الشريف العلوي بقصيدة مبنية على الإيطاء لأنها « غاق غاق » مكررة ولكنها سالمة من عيوب الإقواء والإكفاء والإصراف ، وقبل البيت :

عقرت ركائبك ابن دأية غادياً أي امرىء نطق وأي قواف

بنيت على الإيطاء . . . .(البيت)

في كتاب « البارع » وأورد له عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله يهجو الأصمعي الباهلي المقدم ذكره :

أبِنْ لي دعيَّ بني أصمعٍ متى كنتَ في الأسرَةِ الفاضلهْ ؟
ومنْ أنت ؟ هل أنت إلا امرُؤٌ إذا صحَّ أصلُكَ من باهِلَهْ

ثم قال ابن المنجم : وهذا البيت من نادر أبيات المحدثين في الهجاء .
قلت أنا : وهذا مأخوذ من قول حماد عجرد في بشار بن برد يهجوه :

نسبت إلى بُرْد وأنت لغيره وهَبْ أن بُرْداً ناك أمّك، من بُرْدُ؟

وله في الهجاء أيضاً :

استَبْقِ ود أبي المقا تل حين تدنو من طعامِهْ
سيّان كسر رغيفه أو كسر عظمٍ من عظامه
ويصوم كرهاً ضَيْفُه لم ينو أجراً في صيامه

وقد سبق في ترجمة أبي العباس المبرد مقطوع من شعره في شيبة بن الوليد .
وكان له أخبار ونوادر ، فمن ذلك ما رواه أنّه أُخِذَ رجلٌ ادعى النبوة فأتي به إلى المهدي فقال له : أنت نبي ؟ فقال : نعم ، فقال : وإلى من بعثت ؟ فقال : وهل تركتموني أذهب إلى أحد ؟ ساعة بعثت وضعتموني في الحبس ؛ فضحك المهدي واستتابه .

وكان لليزيدي خمسة بنين وكلّهم علماء أدباء شعراء رواة لأخبار الناس ، وهم : أبو عبد الله محمد وإبراهيم وأبو القاسم إسماعيل وأبو عبد الرحمن عبد الله[1] وأبو يعقوب إسحاق ، وكلهم ألّف في اللغة والعربية .

(316) وكان محمد[2] أسنهم وأشعرهم، وهو القائل فيما رواه دِعبل بن علي الخزاعي — المقدم ذكره — من جملة أبيات :

أتظعن والذي تهوى مُقيمُ لعمرك إن ذا خطر عظيمُ

---

١ س ر ص : عبيد الله .
٢ تاريخ بغداد ٣ : ٤١٢ ، والأغاني ٢٠ : ٢٠٥ .

إذا ما كنت للحدثان عوناً علَيَّ مع الزمان فمن ألومُ
شقيتُ به فما أنا عنه سالٍ ولا هو إذ شَقيت به رحيم

وهو القائل :

يا بعيدَ الدارِ موصو لاً بقلبي ولساني
ربما باعدك الدهـ ـرُ فأدنتك الأماني

وله أشعار كثيرة جيدة ، وكان يؤدب المأمون مع أبيه ، وثقل سمعه في آخر عمره [فانقطع ، فاستحضره المأمون فقال : لم أرك منذ أيام فقال : وجدت في سمعي ثقلاً وأنا أكره أن أتعبك استفهاماً إذا سمعت عن غير فهم ، فقال : أنت الآن أطيب ما تكون ، فما شئت أن نسمعك أسمعناك ، وما احتشمناك فيه أسررناه عنك ، فأنت غائب شاهد] [1] وكان قد خرج مع المأمون إلى خراسان وأقام بخدمته في مدينة مرو ، ثم بقي إلى أيام المعتصم وخرج معه إلى مصر فتوفي بها ، رحمه الله تعالى .

وأما والده أبو محمد المذكور فإنّه توفي سنة اثنتين ومائتين ، رحمه الله تعالى ، بخراسان ، والظاهر أنّه كان بمرو فإنّه كان قد خرج في صحبة المأمون من بغداد ، وكانت إقامة المأمون بمرو ، ثم وجدت في « طبقات القراء » لأبي عمرو الداني أنّه توفي في التاريخ المذكور بمرو ، ثم قال بعد ذلك ، وقال ابن المنادي : وقيل إنّه بلغ من السن دون المائة بأعوام يسيرة ، ومات بالبصرة ودفن بها ، والأول أصح ، والله أعلم .

وقد تقدم في حرف الميم ذكر حفيده أبي عبد الله محمد بن العباس بن أبي محمد اليزيدي المذكور ، وشرح طرف من أخباره وفضله وتاريخ وفاته [2] .

والعدوي : بفتح العين والدال المهملتين والواو ، هذه النسبة إلى عدي بن عبد مَناة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وهي قبيلة كبيرة مشهورة ، ولم يكن أبو محمد المذكور منهم ، وإنّما كان من

---

١ انفردت به ر .
٢ ج ٤ : ٣٣٧ .

مواليهم ، كان جده المغيرة مولى لامرأة من بني عدي فنسب إليهم . وقد سبق في أول هذه الترجمة ذكر سبب نسبته إلى يزيد ومن هو يزيد فأغنى عن الإعادة . وفي ذريته جماعة كثيرة أفاضل مشاهير أصحاب تصانيف . وأشعاره رائقة مشهورة ، ولولا خوف الإطالة لذكرت شيئاً منها .

(317) واليزيديون يفتخرون بالكتاب الذي وضعه إبراهيم بن أبي محمد المذكور في اللغة وسمّاه كتاب « ما اتفق لفظه وافترق معناه » جمع فيه كل الألفاظ المشتركة في الاسم المختلفة في المسمى ، ورأيته في أربع مجلدات ، وهو من الكتب النفيسة ، يدل على غزارة علم مؤلفه وسعة اطلاعه ، وله غير ذلك تواليف حسنة نافعة ، وكذلك بقية اليزيديين صنفوا كتباً مشهورة مشكورة[١] .

(318) وكان يزيد الحميري خال المهدي مقدماً في دولة بني العباس ، ولي للمنصور البصرة واليمن ، ومات في سنة خمس وستين ومائة بالبصرة ، وفيه قال بشار بن برد الشاعر — المقدم ذكره[٢] — :

أبا خالدٍ قد كنت سبّاحَ غمرةٍ ... صغيراً فلما شبتَ خيمتَ بالشاطي

وكنت جواداً سابقاً ثم لم تزل ... تأخّرُ حتى جئت تخطو مع الخاطي

فأنت بما تزدادُ من طولِ رفعةٍ ... وتنقصُ من مجدٍ كذاك بإفراط

كسنّورِ عبدِ الله بيعَ بدرهمٍ ... صغيراً ، فلما شب بيع بقيراط

قلت : لقد كشفت عن سنور عبد الله المظان ، وسألت أهل المعرفة بهذا الشأن ، فما عرفت الخبر عن ذلك ، ولا عثرت له على أثر ، والله أعلم ، ثم ظفرت بقول الفرزدق ، وهو :

رأيت الناس يزدادون يوماً ... ويوماً في الجميل وأنتَ تنقصْ

---

١ إلى هنا تنتهي الترجمة في س .

٢ انظر شعر بشار ، جمع العلوي : ١٤٩ ؛ وقال الجاحظ وروى البيت الأخير مع بيت قبله مختلف في روايته (الحيوان ٧ : ٣١٥ — ٣١٦) ، وقد يضاف هذا الشعر إلى بشار وهو باطل ؛ وقد حمل الجاحظ بشدة على هذه الأبيات وزعم أن صاحبها لو غبر مع الشعراء المشهورين ألف سنة لما قال بيتاً مرضياً ، والشعر عنده منسوب لمن اسمه « العمي » . وانظر ثمار القلوب : ٤١١ .

كمثلِ الهِرِّ في صغرٍ يغالى   به حتّى إذا ما شب يرخص

ومن هاهنا أخذ بشار قوله ، وليس المراد هراً بعينه ، بل كل هرّ تكون قيمته في صغره ، وينقص منها في كبره ، والله أعلم .

٨٠٠
الخطيب التبريزي اللغوي

أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد بن الحسن بن بسطام الشيباني التبريزي المعروف بالخطيب ، أحد أئمة اللغة ، كانت له معرفة تامة بالأدب من النحو واللغة وغيرهما ، قرأ على الشيخ أبي العلاء المعري وأبي القاسم عبيد الله بن علي الرقي وأبي محمد الدهان اللغوي وغيرهم من أهل الأدب . وسمع الحديث بمدينة صُور من الفقيه أبي الفتح سليم بن أيوب الرازي ومن أبي القاسم عبد الكريم ابن محمد بن عبد الله بن يوسف الدلال السيّاري[١] البغدادي وأبي القاسم عبيد الله بن علي[٢] ، وغيرهم . وروى عنه الخطيب الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت صاحب « تاريخ بغداد » ، والحافظ أبو الفضل محمد بن ناصر وأبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي وأبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل الأندلسي ، وغيرهم من الأعيان ، وتخرج عليه خلق كثير وتتلمذوا له .

وذكره الحافظ أبو سعد السمعاني في كتاب « الذيل » وكتاب « الأنساب »[٣] ،

---

٨٠٠ – ترجمته في المنتظم ٩ : ١٦١ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٢٥ ودمية القصر : ٦٨ ومرآة الجنان ٣ : ١٧٢ ونزهة الألباء : ٢٥٤ وعبر الذهبي ٤ : ٥ والشذرات ٤ : ٥ وبغية الوعاة : ٤١٣ والبدر السافر ، الورقة : ٢٣٠ .

١ بر ر : السادي ؛ س : السباري . ص ن ق : الساري .

٢ زاد في ص ن ر : بن عبيد الرقي ؛ س ق : بن عبيد الله الرقي .

٣ الأنساب ٣ : ١٦ .

وعَدَّد فضائله ، ثم قال : سمعت أبا منصور محمد بن عبد الملك بن الحسن بن خَيْرون المقرىء يقول : أبو زكريا يحيى بن علي التبريزي ما كان بمرضيّ الطريقة ، وذكر عنه أشياء ثم قال : وذاكرت أنا مع أبي الفضل محمد بن ناصر الحافظ بما ذكره ابن خيرون ، فسكت وكأنّه ما أنكر ما قال ، ثم قال : ولكن كان ثقة في اللغة وما كان ينقله .

وصنف في الأدب كتباً مفيدة ، منها « شرح الحماسة » وكتاب « شرح ديوان المتنبي » وكتاب « شرح سقط الزند » وهو ديوان أبي العلاء المعري[1] ، و « شرح المعلقات السبع » و « شرح المفضليات » وله « تهذيب غريب الحديث » و « تهذيب إصلاح المنطق » ، وله في النحو مقدمة حسنة ، والمقصود منها أسرار الصنعة وهي عزيزة الوجود ، وله كتاب « الكافي في علم العروض والقوافي » وكتاب في إعراب القرآن سمّاه « الملخص » رأيته في أربع مجلدات ، وشروحه لكتاب الحماسة ثلاثة : أكبر وأوسط وأصغر ، وله غير ذلك من التواليف ، وقد سبق في ترجمة الخطيب أبي بكر أحمد بن علي بن ثابت الحافظ ذكره وما دار بينهما عند قراءته عليه بدمشق ، فلينظر هناك[2] ودرس الأدب بالمدرسة النظامية ببغداد[3] .

وكان سبب توجهه إلى أبي العلاء المعري أنّه حصلت له نسخة من كتاب « التهذيب » في اللغة ، تأليف أبي منصور الأزهري في عدة مجلدات لطاف ، وأراد تحقيق ما فيها وأخذَها عن رجل عالم باللغة ، فدُلّ على المعري ، فجعل الكتاب في مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى المعرة ، ولم يكن له ما يستأجر به مركوباً ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل ، وهي ببعض الوقوف ببغداد ، وإذا رآها مَنْ لا يعرف صورة الحال فيها ظن أنها غريقة ، وليس بها سوى عرَق الخطيب المذكور ، هكذا وجدت هذه الحكاية مسطورة في كتاب

---

١ زاد في ر : وشرح اللمع لابن جني وشرح المقصورة لابن دريد .

٢ انظر ج ١ : ٩٢ – ٩٣ ولم يرد في تلك الترجمة شيء مما يشير إليه المؤلف ، وقد عدت إلى المسودة فلم أجد للتبريزي فيها ذكراً في ترجمة الخطيب .

٣ ودرس . . . ببغداد : سقط من : ص ن ق ع .

« أخبار النحاة » الذي ألفه القاضي الأكرم ابن القِفْطي الوزير بمدينة حلب ، كان ، رحمه الله تعالى ، والله أعلم بصحة ذلك .

وكان الخطيب المذكور قد دخل مصر في عنفوان شبابه ، فقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن طاهر بن بابشاذ النحوي — المقدم ذكره[1] — شيئاً من اللغة، ثم عاد إلى بغداد واستوطنها إلى الممات ، وكان يروي عن أبي الحسن محمد بن المظفر ابن نحرير[2] البغدادي جملة من شعره ، فمن ذلك قوله على ما حكاه السمعاني في كتاب « الذيل » في ترجمة الخطيب ، وهي من أشهر أشعاره :

خليليّ ما أحلى صبوحي بدجلةٍ … وأطيبُ منه بالصّراة[3] غبوقي
شربتُ على الماءين من ماء كرمةٍ … فكانا كدُرٍّ ذائب وعقيق
على قمَري أفقٍ وأرض تقابلا … فمن شائق حلو الهوى ومَشوق
فما زلت أسقيه وأشرب ريقه … وما زال يسقيني ويشرب ريقي
وقلت لبدر التِّمّ : تعرف ذا الفتى؟ … فقال : نعم ، هذا أخي وشقيقي

وهذه الأبيات من أملح الشعر وأطرفه، والبيت الأخير منها يستمد[4] من معنى قول أبي بكر محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبانة الأندلسي في مدح المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية — المقدم ذكره[5] — من جملة قصيدة طويلة :

سألت أخاه البحرَ عنه فقال لي : … شقيقيَ إلا أنّه الساكنُ العذبُ

ما كفاه أنّه جعله شقيق البحر حتى رجحه عليه ، فقال « الساكن العذب » والبحر مضطرب ملح[6] ، وهذا من خالص المدح وأبدعه ، وأول هذه القصيدة :

---

١ انظر ج ٢ : ٥١٥ .

٢ بر : محيريز .

٣ بر : في الصباح .

٤ بر من : مستمد .

٥ انظر ج ٥ : ٣٩

٦ كذا في ن والمختار ، وفي سائر النسخ : مالح .

بكتْ عند توديعي فما علم الركبُ أذاك سقيطُ الطلِّ أم لؤلؤ رطبُ
وتابعهـا سرْبٌ ، وإنّي لمخطىء نجومُ الدياجي لا يقال لها سرْبُ

وهي قصيدة طويلة ولولا خوف الإطالة والخروج عما نحن بصدده لذكرتها كلها ، ولكن يكفي منها هذا الأنموذج .

وكان الخطيب أيضاً يروي عن ابن نحرير المذكور من شعره قوله :

يـا نساء الحيِّ من مضرِ إن سلمى ضَرَّةُ القمرِ
إن سلمى لا فُجِعْتُ بها أسلمت طرفي إلى السهر
فهي إن صدتْ وإن وصلتْ مهجـتي منهـا على خطر
وبياضُ الشعر أسكنهـــا من سواد القلبِ والبصر

وللخطيب المذكور شعر فمن ذلك قوله[1] :

فمن يسأمْ من الأسفارِ يوماً فإنّي قد سئمتُ من المقامِ
أقمنا بالعراقِ على رجالٍ لئامٍ ينتمون إلى لئامِ

وقال الخطيب المذكور : كتب إليَّ العميدُ الفياض :

قل ليحيى بن عليٍّ والأقاويلُ فنـــونُ
غيرَ أنّي لستُ مَنْ يكـ ـذب فيها ويخون
أنت عين الفضل إن مُـ ـدّ إلى الفضل عيون
أنت من عزَّ به الفضـ ـلُ وقد كاد يهون
فُقْتَ من كان وأتعبـ ـتَ لعمري من يكون
قد مضى فيك قرانٌ ومضت فيه[2] قرون
وإذا قيس بك الكـ ـلُّ فصَحْوٌ ودُجون

---

١ ص : ومن شعر الخطيب المذكور قوله .
٢ ق ع : ومضت فيك .

وإذا فُتِّشَ عنهم فالأحاديثُ شجون
قد سمعنا ورأينا فسهولٌ وحزون
ووزنّا بك من كا ن فقيل وقيون
أين شيبان وأزد كل ما زال[1] ظنون
إنّك الأصل ومَنْ دو نك في العلم غصون
إنك البحر وأعيا نُ ذوي الفضل عيون
ليس كالسيف وإن حلّ يَ في الحكم الجفون
ليس كالفذّ[2] المعلى ليس كالبيت الحجون
ليس كالجد وإن آ نس هزلٌ ومجون
ليس في الحسن سواءً أبداً بيضٌ وجون
ليس كالأبكار في اللط ف وإن راقتك عُون
قلت للحسّاد كونوا كيف شئتم أن تكونوا
سبق الزائد بالفض ل[3] فعزوا أو فهونوا
دمت ما خالف في الحد دِّ حراكُ وسكون
وتلقّاك المُنى ما قرَّ بالطير الوُكون
إن ودّي لك عمّا يَصِمُ الود مَصُون
ليس لي فيه ظهورٌ تتنافى أو بطون[4]
بل لقلبي فيك صبٌّ بالمصافاة يكون
غَلِقَ الرهنُ وقد تغل قُ في الحبّ رُهون
ومن الناس أمين في هواه وخؤون

---

١ في النسخ : ذاك .
٢ في بعض النسخ : كالقدح .
٣ ق ع س بر من : بالحصل .
٤ ق ع س : وبطون .

وقال ابن الجواليقي : قال لنا شيخنا الخطيب أبو زكريا : فكتبت أنا إلى العميد الفياض المذكور هذه الأبيات[1] :

قل للعميدِ أخي العلا الفياضِ ... أنا قطرةٌ من بحرك الفياضِ
شرّفتني ورفعتَ ذكرى بالذي ... ألبستنيه من الثنا الفضفاض
ألبستني حلل القريض تفضُّلاً ... فرفلْتُ منها في علا ورياض
إنّي أتيتك بالحصى عن لؤلؤ ... أبرزته من خاطر مرتاض
وبخاطري عن مثل ذاك توقفٌ ... ما إن يكادُ يجودُ بالأبعاض
أيعارضُ البحرَ الغطامطَ جدول ... أم درة تنقاس[2] بالرِضراض
يا فارسَ النظم المرصع جوهراً ... والنثر يكشف غمة الأمراض
يرمي به الغرضَ البعيدَ وقد غدا ... فكري يقصرُ عن مدى الأغراض
لا تلزمنّي من ثنائك موجباً ... حقاً فلستُ لحقه بالقاضي
فلقد عجزتُ عن القريضِ وربما ... أعرضتُ عنه أيما إعراض
أنعمْ عليَّ ببسطِ عذري إنني ... أقررتُ عند نداك بالإنفاض[3]

وكانت ولادته سنة إحدى وعشرين وأربعمائة ؛ وتوفي فجأة يوم الثلاثاء لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة اثنتين وخمسمائة ببغداد ، ودفن في مقبرة باب أبرز ، رحمه الله تعالى .

وبسطام : بكسر الباء الموحدة وسكون السين المهملة وفتح الطاء المهملة وبعد الألف ميم .

وقد تقدم الكلام على الشيباني[4] والتبريزي فأغنى عن الإعادة .

---

١ هذه الأبيات : سقطت من ق ن ص ع ر ؛ ووقع موضعها في ر : أقول ، وفي ن : في رد جواب له.

٢ ن : دره ينقاس .

٣ الإنفاض : الإعدام والإفلاس .

٤ الشيباني : سقطت من ق ع .

٨٠١

الزواوي

أبو الحسين يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الزواوي ، الملقب زين الدين ، النحوي الحنفي ؛ كان أحد أئمة عصره في النحو واللغة ، وسكن دمشق زماناً طويلاً ، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وصنّف تصانيف مفيدة [منها الألفية في النحو ومنها « الفصول » في النحو أيضاً] [١] ثم إن الملك الكامل أرغبه في الانتقال إلى مصر فسافر إليها ، وتصدّر بالجامع العتيق بمصر لإقراء الأدب ، وقُرر له على ذلك جارٍ . ولم يزل إلى أن توفي سلخ ذي القعدة سنة ثمان وعشرين وستمائة [٢]، بالقاهرة ، ودفن من الغد على شفير الخندق بقرب تربة الإمام الشافعي رضي الله عنه ، وقبره هناك ظاهر ، ومولده سنة أربع وستين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .

والزواوي : بفتح الزاي وبين الواوين ألف ، هذه النسبة إلى زواوة ، وهي قبيلة كبيرة بظاهر بجاية من أعمال إفريقية ذات بطون وأفخاذ ، والله أعلم .

---

٨٠١ – ترجمته في معجم الأدباء ٢٠ : ٣٥ والجواهر المضية ٢ : ٢١٤ ومرآة الجنان ٤ : ٦٦ والبداية والنهاية ٣ : ١٢٩ وذيل الروضتين : ١٦٠ وعقود الجمان لابن الشعار ١٠ ، الورقة ٨٦ وعبر الذهبي ٥ : ١١٢ والشذرات ٥ : ١٢٩ وبغية الوعاة : ٤١٦ .

١ زيادة من المختار .   ٢ ابن الشعار : سنة ٦٢٩ .

٨٠٢

يحيى بن المنجم النديم

أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى بن أبي منصور ، المعروف بالمنجم واسمه أبان حسيس بن وريد[١] بن كاد[٢] بن مهابنداد[٣] حسيس بن فروخ داد بن أساد[٤] ابن مهرحسيس بن يزدجرد ؛ كان في أول أمره نديم الموفق أبي أحمد طلحة ابن المتوكل على الله ، والموفق المذكور هو والد المعتضد بالله ، ولم يل الموفق الخلافة بل كان نائباً عن أخيه المعتمد على الله ، ولم يزل في محاربة القرامطة ، وأمره في ذلك مشهور وقصته طويلة وليس هذا موضع ذكرها .

ثم إن يحيى المذكور نادم الخلفاء بعد الموفق واختص بمنادمة المكتفي بالله ابن المعتضد ، وعلت رتبته عنده وتقدم على خواصه وجلسائه ، وكان متكلماً معتزلي الاعتقاد وله في ذلك كتب كثيرة ، وكان له مجلس يحضره جماعة من المتكلمين بحضرة المكتفي ، وصنف كتباً كثيرة ، فمن ذلك كتاب « الباهر » في أخبار شعراء مخضرمي الدولتين ، ابتدأ فيه ببشار بن برد ، وآخر من أثبت فيه مروان بن أبي حفصة ، ولم يتمه ، وتممه ولده أبو الحسن أحمد بن يحيى ، وعزم على أن يضيف إلى كتاب أبيه سائر الشعراء المحدثين فذكر منهم أبا دلامة ووالبة بن الحباب ويحيى بن زياد ومطيع بن إياس وأبا علي البصير .

(318) وكان أبو الحسن أحمد المذكور متكلماً فقيهاً على مذهب أبي جعفر

---

٨٠٢ – ترجمته في معجم المرزباني : ٤٩٣ (وانظر أيضاً ٤٢٣ ، ٤٢٤ . ٥٠٠) والفهرست : ١٤٣ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٢٨ وتاريخ بغداد ١٤ : ٢٣٠ ونزهة الالباء : ١٦٢ ومرآة الجنان ٢ : ٢٣٧ .

١ ص: دريد ؛ بر : رويد .

٢ ن : مكاد .

٣ ر : مهاجنده ؛ بر : مها بندار خسيس .

٤ س ق ن : استاد ؛ ع : استداد .

الطبري ، وله كتب صنفها منها كتاب أخبار أهله ونسبهم في الفرس ، وكتاب « الإجماع في الفقه » على مذهب أبي جعفر الطبري ، وكتاب « المدخل إلى مذهب الطبري ونصرة مذهبه » وكتاب « الأوقات » وغير ذلك .

وليحيى المذكور مع المعتضد وقائع ونوادر ، فمن ذلك ما حكاه أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي في كتاب « مروج الذهب » [1] عن يحيى المذكور أنّه قال : كنت يوماً بين يدي المعتضد وهو مغضب ، فأقبل بدر مولاه ، وكان شديد الغرام به ، فلما رآه من بعيد ضحك وقال : يا يحيى ، مَن الذي يقول من الشعراء :

في وَجْهه شافع يمحو إساءته من القلوب وَجيهٌ حيثما شفعا

فقلت : يقوله الحكم بن عمرو الشاري ، فقال : لله دره ! أنشدني هذا الشعر ، فأنشدته :

وَيْلي على مَن أطار النومَ فامتنعا وزاد قَلْبي على أوجاعه وجعا
كأنّما الشمس من أعطافه لمعت حسناً أو البدرُ من أزراره طلعا
مستقبل بالذي يهوى وإن كثُرت منه الذنوبُ ومعذورٌ بما صنعا [2]
في وَجْهه شافعٌ يمحو إساءته منَ القلوبِ وجيهٌ حيثما شفعا

وذكر أبو الفتح كشاجم الشاعر المشهور في كتابه الذي سماه « المصايد والمطارد » [3] في الفصل الذي ذكر فيه صيد الأسد بالنشاب ، ما مثاله : حدث أبو أحمد يحيى بن علي بن يحيى المنجم النديم نديم المكتفي بالله قال : وجد عليَّ أمير المؤمنين المكتفي بالله منصرفه [4] من الرقة لركوبي الماء منها إلى المرحلة الأولى قبل أن يركبه هو ، وذلك أن أبا العباس أحمد بن عبد الصمد حملني على ذلك ،

---

١ انظر المروج ٤ : ٢٧٩ .
٢ ق ع : متى طمعا ؛ س بر من : متى صنعا .
٣ المصايد : ١٧٤ .
٤ ر : منصرفنا ؛ ع : عند منصرفه .

وسألني أن أكون معه في سفينة ، ففعلت ، ولم أظن أن المكتفي ينكر ذلك ، ولا يحتمل تأخيري عنه وإخلالي به ، فلما صرنا إلى الدالية أمر بأن أرد منها إلى قرقيسيا وأقيم بها حتى أصيد سبعاً وأُحدره إليه ، فردني وردّ معي عدة من المغنين [1] كانوا قد ركبوا الماء ، فكتبت إليه بأبيات فلم تعطفه ، فرجعت إلى الرحبة ، وأقمت عند أبي محمد عبد الله بن الحسين بن سعد القطربلي في قَصْف وشرب وصَبوح وغبوق ، وهو على [2] غاية السرور بمقامي عنده ، وكان معنا أبو جعفر محمد بن سليمان بن محمد بن عبد الملك الزيات ، فكتبت من الرحبة كتاباً إلى الوزير أبي الحسين القاسم بن عبيد الله ، وأنفذت فيه شعراً أسأله أن يقرأه على المكتفي ، وهو :

نَفِسَ الدهر أن نسر وأن يسـ	عدنا ، بالأحبّة الاجتماعُ
فرماني وإخـوةً لي بِسَهْم	نفر [3] النفس فهي منه شَعاع
فرددنا إلى وراءٍ ومرّ الـ	ناس قُدْماً فاشتدتِ الأوجاع
لو سمعنا بمثل ما نالنا أفـ	زعنا منه في سوانا السماع
كلّفونا صيدَ السباع وإنّا	لبخيرٍ إن لم تصدنا السباع
إن عَصَيْنا فواجبٌ ، أيّ قومٍ	كلفوا فوق طوقهم [4] فأطاعوا ؟
كل شيء يجوزُ تكليفه الإنـ	سان إلا ما كان لا يُسْتطاع
لم تزلْ تمزح الملوكُ ولكنْ	مع ذاك المزاح جُودٌ وساع
وتوانى الوزيرُ عنا فضِعْنا	في سبيل الإله حقٌّ مُضاع
قد مددنا الأيدي إليه وأضْحَتْ	عائذاتٍ بفضله الأطماع
شافعٌ لا يخاف رداً إذا ما	رُدَّ عمّا تريده الشُّفّاع
عَبَثاتُ الملوكِ يتبعها الأنـ	سُ وأثمارها عطايا تباع

---

١ ص : المعنيين ، س : المغنيين .

٢ ر ص : في .

٣ س : نقز .

٤ ر : جهدهم .

أولِنا يا وليَّ دولته خيـ ـراً لديه فالخيرُ النفاع

وأنفذ الكتاب مع محمد بن سليمان الحرائطي في الحرائط ، فلم يضعه[1] القاسم من يده حتى دخل على المكتفي ، فقرأه عليه وأنشده الأبيات ، فاستحسنها وقال : يكتب الساعة بتخلية سبيله وحمله إلينا ، فلم يكن أسرع من أن وافاني الرسول ، فوافيت وأنشدت المكتفي ببغداد :

عاد لَيْلي القصيرُ في كرخِ بغدا دَ بقرقيسيا علَيَّ طويلا
أجميلاً أن تَتْركوني وتمضو ن رهيناً بها غريباً ذليلا ؟
مفرداً بالعقاب مشترك الذنـ ـب فصبراً حسبي بربي وكيلا[2]
إن قضى الله لي رجوعاً إلى بغـ ـدادَ لا هالكاً بغمي قتيلا
وأراني الخليفةَ المكتفي بالله وابنَ الخلائفِ المأمولا
كالذي قد عهدتُ لا معْرِضاً عنـ ـي ولا واجداً ولا مستحيلا
كل شيء أسامُهُ هيّن عنـ ـدي إذا الرأي منه كان جميلا

فاستحسنها ورق لشكواي بها حتى تبيّنت ذلك في وجهه وكلامه .

وأخبار يحيى ومحاسنه كثيرة . وكانت ولادته سنة إحدى وأربعين ومائتين ؛ وتوفي ليلة الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول سنة ثلثمائة رحمه الله تعالى .

وقد تقدم ذكر والده علي وأخيه هارون وابن أخيه علي ، ولم أرفع في نسبهم إلا في هذه الترجمة لأنّي لم أظفر بالنسب على هذه الصورة إلا لمّا وصلت إلى هذا الموضع فنقلته كما وجدته من كتاب « الفهرست » لأبي الفرج محمد بن إسحاق النديم ، ولم أضبط شيئاً من أسماء أجداده ، لأنّي لم أتحقق فيها شيئاً فنقلتها كما وجدتها .

---

١ ص : يدعه .
٢ ر : كفيلا .

٨٠٣
أبو بكر ابن بقي الشاعر

أبو بكر يحيى بن محمد بن عبد الرحمن بن بقي الأندلسي القرطبي الشاعر المشهور صاحب الموشحات البديعة ؛ قال الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي في كتاب « مطمح الأنفس »[١] في حق أبي بكر المذكور : إنّه كان نبيل النثر والنظام ، كثير الارتباط في سلكه والانتظام ، أحرز خصالا ، وطرز محاسنه بكَراً وآصالا ، وجرى في ميدان الإحسان إلى أبعد أمد ، وبنى من المعارف على أثبت عَمَد ، إلا أن الأيام حرمته ، وقطعت حبل رعايته وصرمته ، ولم تتم له وطراً ، ولم تسجم عليه من الحظوة مطراً ، ولا نولته[٢] من الحرمة[٣] نصيباً ، ولا أنزلته مرعى خصيباً ، فصار راكب صهوات ، وقاطع فلوات ، لا يستقر يوماً ، ولا يستحسن قوماً[٤] ، مع توهم لا يظفره بأمان ، وتقلب ذهن كواهي الجمان ، إلا أن يحيى بن علي بن القاسم[٥] نزعه عن ذلك الطيش ، وأقطعه جانباً من العيش ، وأرقاه إلى سمائه ، وسقاه صوب نعمائه ، وفيأهُ ظلاله ، وبوأه أثر النعمة يَجوسُ خلاله ، فصرف فيه أقواله ، وشرف بقوافيه نواله ، وأفرده منها بأنفس در ، وقلد لبته منها بقصائد غر .

وذكر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي المذكور في حقه أيضاً في كتاب

---

٨٠٣ – ترجمته في الذخيرة (القسم الثاني) ٢٤٤ والقلائد : ٢٧٩ ومعجم الأدباء ١٩ : ٢١ والتكملة، رقم : ٢٠٤٢ ومسالك الأبصار ١١ ، الورقة : ٢٨٠ والمغرب ٢ : ١٩ وأزهار الرياض ٢ : ٢٠٨ وصفحات متفرقة من نفح الطيب ، وله موشحات في دار الطراز وجيش التوشيح .

١ لم ترد ترجمته في المطمح المطبوع ؛ والمعروف أن المطمح منه كبير وأوسط وصغير .

٢ ق ن س ص ع بر من : سولته .

٣ ص ر : الحرفة .

٤ ر : نوما .

٥ هو من بني عشرة زعماء مدينة سلا في عصر المرابطين .

« قلائد العقيان » : هو رافع رايةِ القريض ، وصاحب آية التصريح فيه والتعريض ، أقام شرائعه ، وأظهر روائعه ، وصار عصيه طائعه ، إذا نظم أزرى بنظم العقود ، وأتى بأحسن من رَقْمِ البرود ، ضفا عليه حرمانه ، وما صفا له زمانه ، انتهى كلام الفتح .

وقد أثبت لأبي بكر المذكور هذا المقطوع من الشعر ، ولم أر الفتح ذكره في واحد من كتابيه المذكورين مع أنّه من أحسن شعره وأشهره ، وهو :

بأبي غزالٌ غازلته مقلتي ... بين العذيب وبين شطّيْ بارقِ
وسألت منه زيارة تشفي الجوى ... فأجابني منها بوعد صادق
بتنا ونحن من الدجى في خيمةٍ [1] ... ومن النجوم الزهر تحت سُرادق
عاطيته والليلُ يسحبُ ذيلَه ... صهباءَ كالمسك الفتيق لناشق
وضممته ضمَّ الكميِّ لسيفه ... وذؤابتاه حمائل في عاتقي
حتّى إذا مالت به سنةُ الكرى ... زحزحته عنّي وكان معانقي
أبعدته عَن أضلع تشتاقه ... كي لا ينامَ على وساد خافق
لما رأيتُ الليلَ آخرَ عمره ... قد شاب في لمم له ومَفارق
ودعت من أهوى وقلت تأسفاً : ... أعززْ علي بأن أراك مفارقي

وقد ذكر بعض هذه الأبيات الحافظ أبو الخطاب ابن دِحية في كتابه الذي سماه « المطرب من أشعار أهل المغرب » [2] .

ومن شعره قصيدة يمدح بها يحيى بن علي بن القاسم المذكور في هذه الترجمة ، وهي طويلة ، ومن مديحها قوله :

نوران ليسا يحجبان عن الورى ... كرمُ الطباعِ ولا جمالُ المنظرِ
وكلاهما جمعا ليحيى فليدعْ ... كتمانَ نورِ علائه المتشهر

---

١ س بر : لجة .
٢ المطرب : ١٩٨ .

في كلّ أفق من جميلِ ثنائِـهِ عَـرْفٌ يزيد على دخان المجمر
رُدْ في شمائله وردْ في جوده بـين الحديقة والغمام الممطر
نَدْبٌ عليه من الوقار سكينةٌ فيهـا حفيظةُ كلِّ ليثٍ مخدر
مثل الحسام إذا انطوى في غمده ألقى المهابة في نفوس الحضَّر
أربى على الغيث الملثِّ لأنّـه أعطى كما أعطى ولم يستعبر
أزرى على البحر الخضمِّ لأنه في كل كف منه خمسة أبحر
أقبلت مرتاداً لجودك إنّـه صوبُ الغمامة بل زلال الكوثر
ورأيت وجه النجح عندك أبيضاً فركبت نحوك كل لج أخضر
يجري إليك بنا سفينٌ أتـلع مثل البعير مخزم في المنخر
وبنات أعوَج قد برمن بصحبتي مما قطعن من اليباب المقفر[1]

وأورد له صاحب « قلائد العقيان » مقطوعاً وهو[2] :

يـا أقتلَ الناس ألحاظاً وأطيبهم ريقاً متى كان فيك الصَّاب والعسلُ
في صحنْ خدك وهـو الشمس طالعة ورد يزيدُك فيه الراحُ والخجل
إيمـانُ حبّك في قلـبي يجدّده من خدّك الكُتبُ أو من لحظك الرسل[3]
إن كنتَ تجهلُ أنّي عبدُ مملـكةٍ مرني بمـا شئت آتيـه وأمتَثِل
لو اطلعْتَ على قلـبي وجدتَ بـه من فعل عينيك جرحاً ليس يندمل

وذكره العماد الكاتب في « الخريدة » وأورد له عدة مقاطيع ، ثم أعاد ذكره في آخر الكتاب وأورد له :

ومشمولةٍ في الكأس تحسبُ أنها سماء عقيقٍ رصِّعت بالكواكبِ

---

١ المختار : الأقفر .
٢ القلائد : ٢٨١ .
٣ المختار : الأسل .

بنتْ كعبة اللذات في حَرَمِ الصبا فحجّ إليها اللهو[1] من كل جانب[2]

ومحاسنه في الشعر كثيرة . وتوفي سنة أربعين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى .
وبَقِيّ : بفتح الباء الموحدة وكسر القاف وتشديد الياء .

٨٠٤
الخطيب الحصكفي

أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد ، الملقب معين الدين ، المعروف بالخطيب الحصكفي ؛ صاحب الديوان الشعر والخطب والرسائل ، ولد بطَنْزة ونشأ بحصن كيفا ، وقدم بغداد فاشتغل بالأدب على الخطيب أبي زكريا التبريزي — المقدم ذكره — وأتقنه حتى مهر فيه ، وقرأ الفقه على مذهب الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، وأجاد فيه ، ثم رحل عن بغداد راجعاً إلى بلاده ونزل مَيّافارقين واستوطنها[3] ، وتولى بها الخطابة ، وكان إليه أمر الفتوى بها ، واشتغل عليه الناس وانتفعوا بصحبته .

وذكره العماد الأصبهاني في كتاب « الخريدة » فقال في حقه[4] : « كان علامة الزمان في علمه ، ومعريّ العصر في نثره ونظمه ، له الترصيع البديع والتجنيس النفيس ، والتطبيق والتحقيق ، واللفظ الجزل الرقيق ، والمعنى السهل

---

١ ق : الناس .
٢ ثم أعاد . . . جانب : سقط من : س بر من .
٨٠٤ — ترجمته في المنتظم ١٠ : ١٨٣ واللباب (الحصكفي ، الطنزي) والبدر السافر ، الورقة : ٢٢٢ ومعجم الأدباء ٢٠ : ١٨ والخريدة (قسم الشام) ٢ : ٤٧١ وطبقات السبكي ٤ : ٣٢٢ والشذرات ٤ : ١٦٩ والنجوم الزاهرة ٥ : ٣٢٨ .
٣ المختار : واستوطن ميافارقين .
٤ الخريدة ٢ : ٤٧٢ .

العميق ، والتقسيم المستقيم ، والفضل السائر المقيم » . ثم قال العماد بعد كثرة الثناء عليه وتعداد محاسنه : « وكنت أحب لقاءه ، وأحدث نفسي عند وصولي إلى الموصل به ، وأنا شغف بالاستفادة ، كلف بمجالسة الفضلاء للاستزادة ، فعاق دون لقائه بعد الشقة ، وضعفي عن تحمل المشقة » ثم ذكر له عدة مقاطيع ، فمن ذلك قوله :

وخليعٍ بتُّ أعذله ... ويرى عذلي من العبثِ
قلتُ : إن الخمرَ مَخْبَثةٌ ... قال : حاشاها من الخبث
قلت : فالأرفاثُ تتبعها ... قال : طيبُ العيش في الرفث
قلت : منها القيء ، قال : أجلْ ... شرفت عن مخرج الحدث
وسأجفوها ، فقلت : متى ؟ ... قال : عند الكونِ في الجدث

قلت أنا : ولقد أخذ الخطيب المذكور قوله :

شرفت عن مخرج الحدث

من قول بعضهم ولا أعرفه ، لكنها أبيات سائرة ، وهي :

ولائم لامني في الخمر ، قلت له : ... إنّي سأشربها حيّاً وفي جدثي
فأسقني[1] قهوةً حمراءَ صافيةً ... صرفاً حراماً فإنّي غير مكترث
فإن يكنْ حللوها بالطبيخ ففي ... حشايَ نارٌ تبقّيها على الثلث
قالوا : فلم تتقاياها ؟ فقلت لهم : ... إنّي أنزهها عن مخرج الحدث

ثم قال العماد الأصبهاني : وأنشدني له بعض الفضلاء ببغداد خمسة أبيات كالخمسة السيارات[2] مستحسنات مطبوعات مصنوعات ، وهي :

أشكو إلى الله من نارين : واحدة ... في وجنتيه وأخرى منه في كبدي

---

١ س بر من : قم فاسقني .

٢ ق ص ع : السائرات ؛ ر : السيارة .

ومن سقامين : سقم قد أحل دمي   من الجفون وسقم حل في جسدي
ومن نمومين : دمعي حين أذكره   يذيع سري ، وواشٍ منه بالرَّصَد
ومن ضعيفين : صبري حين أذكره[1]   ووده[2] ويراه الناسُ طوع يدي
مهفهف رقَّ حتى قلتُ من عَجَبٍ   أخصره خنصري أم جِلْده جَلَدي

ومن مليح شعره أبيات في هجو مغنٍّ وهي :

ومسمعٍ غناؤه   يبدلُ بالفقر الغنى
شهدتُهُ في عصبةٍ   رضيتهم لي قُرَنا
أبصرتُه فلم تخِبْ   فراستي لما دنا
وقلتُ مَن ذا وجهه   كيف يكونُ محسنا
ورمتُ أن أروحَ لا   ظنٍّ به ممتحنا
فقلتُ من بينهمُ   هاتِ أخي غن لنا
ويومَ سَلْعٍ لم يكن   يومي بسلعٍ هيِّنا
فانشال منه حاجبٌ   وحاجبٌ منه انحنى
وامتلأ المجلسُ من   فيه نسيماً منتنا
أوقع إذ وَقَّع في الأنـ   ـفس أسبابَ العنا
وقال لما قال من   يسمع في ظل الفنا
وما اكتفى باللحن والتـ   ـخليطِ حتى لحنا
هذا وكم تكشخنَ الـ   ـغدُ وكم تقرننا[3]
يوهمُ زمراً[4] أنه   قطعه ودندنا

---

١ المختار : أبصره .
٢ بر : ووصله .
٣ المختار : تقودنا .
٤ ن المختار : رمزاً .

وصاح صوتاً نافراً يخرجُ عن حد البنا
وما درى محضره ماذا على القوم جنى
فـذا يسدّ أنفـه وذا يسدّ الأذنا
ومنهمُ جماعـةٌ تسترُ عنه الأعينـا
فاغتظتُ حتى كدتُ من غيظٍ أبث الشجنا
وقلتُ يا قومُ اسمعوا إما المغنّي أو أنا
أقسمتُ لا أجلسُ أو يخرجَ هذا من هنا
جروا برجل الكلبِ إن السقم هذا والضنـا
قالوا لقـد رحمتنا وذدتَ عنا المحنا
فحزت في إخراجه راحة نفسي والثنا[1]
وحين ولّى شخصه قرأتُ فيهم معلنا
الحمـد لله الذي أذهبَ عنا الحزنا

ولم أسمع ، مع كثرة ما قيل في هذا الباب مثل هذا المقطوع في هذا المعنى .
وللخطيب المذكور أيضاً في هذا المعنى[2] :

ومُسْمِـعٍ قوله بالكرْه مسموعُ مُحَجبٌ عن بيوت الناس ممنوعُ
غـنى فبرَّقَ عينيه وحرَّكَ لحـ ييه فقلنا الفتى لا شكَّ مصروع
وقطع الشعر حـتى ودَّ أكـثرنـا أن اللسان الذي في فيه مقطوع
لم يأتِ دعوةَ أقوامٍ بأمرهمُ ولا مضى قطُّ إلا وهو مصفوع

وقد سبق له في ترجمة الشيخ الشاطبي في حرف القاف مقطوع لغز في نعش وهو معنى مليح ، وأكثر شعره على هذا الأسلوب في اللطافة وجودة المقاصد ،

---

١ بر : راحة قلبي والمنى .
٢ زاد في ن : أربعة أبيات ملاح .

وكان يتشيع [1] . وهو في شعره ظاهر .

وكان [2] بمدينة آمد شابان بينهما مودة أكيدة ومعاشرة كثيرة ، فركب أحدهما ظاهر البلد وطرد فرسه فتقنطر فمات ، وقعد الآخر يستعمل الشراب ، فشرق فمات في ذلك النهار ، فعمل فيهما بعض الأدباء :

تقاسما العيشَ صفواً والردى كدراً ... وما عهدنا المنايا قط تُقْتَسمُ
وحافظا الودّ حتى في حمامِهما ... وقلما في المنايا تُحفظُ الذِّمم

فلما وقف الخطيب المذكور على البيتين قال : هذا الشاعر قصر إذ لم يذكر سبب موتهما ، وقد قلت فيهما :

بنفسي أُخيّانِ من آمدٍ ... أصيبا بيوم مَشوم عبوسِ
دهى ذا كميتٌ من الصافناتِ ... وهذا كميتٌ من الخندريس

قلت : ولو قال :

دهى ذا كميت من الصافنات ... وهذا كميت من الصافيات

لكان أحسن لأجل المجانسة ، وكان يجعلُ البيت الأول :

بنفسي أُخيّانِ من آمدٍ ... أصيبا بيوم شديد الأذاةِ

أو ما يناسب هذا ، ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب « الجنان » تأليف القاضي الرشيد ابن الزبير – المقدم ذكره في حرف الهمزة [3] – وقد نسبهما إلى الفقيه أبي علي الحسن بن أحمد المعلم المعري ، ، لكن هكذا وجدت الحكاية بخط

---

١ زاد في المطبوعة المصرية هنا : قلت : وهذا من الزيادات التي أدخلها الكتاب الداخلون في عموم الحديث من مجوس هذه الأمة والله أعلم ؛ ولم يرد في النسخ الخطية ، وواضح أنه رد من أحد المعلقين على ما جاء في النص .

٢ هذه القصة لم ترد في س بر من .

٣ انظر ج ١ : ١٦٠ .

بعض المتأدبين[1] ، والله أعلم .

وللخطيب المذكور الخطب المليحة والرسائل المنتقاة . ولم يزل على رياسته وجلالته وإفادته إلى أن توفي سنة إحدى ، وقيل ثلاث ، وخمسين وخمسمائة . وكانت ولادته في حدود سنة ستين وأربعمائة ، رحمه الله تعالى .

والحَصْكَفي : بفتح الحاء وسكون الصاد المهملة وفتح الكاف وفي آخرها فاء ، هذه النسبة إلى حصن كيفا ، وهي قلعة حصينة شاهقة بين جزيرة ابني عمر وميافارقين ، وكان القياس أن ينسبوا إليه الحِصْني ، وقد نسبوا إليه أيضاً كذلك ، لكن إذا نسبوا إلى اسمين أضيف أحدهما إلى الآخر ركبوا من مجموع الاسمين اسماً واحداً ونسبوا إليه كما فعلوا هاهنا ، وكذلك نسبوا إلى رأس عين « رَسْعَني » وإلى عبد الله وعبد شمس وعبد الدار : عبدلي وعبشمي وعبدري ، وكذلك كل ما هو نظيره .

وأما طَنْزة : بفتح الطاء المهملة وسكون النون وفتح الزاي في آخرها هاء ساكنة ، فهي بليدة صغيرة بديار بكر فوق الجزيرة العُمرية ، خرج منها جماعة من المحدثين وغيرهم ، ونسبوا إليها[2] .

(319) قال عماد الدين الأصبهاني الكاتب في كتاب « الخريدة »[3] : منها إبراهيم بن عبد الله بن إبراهيم الطنزي ، وهو القائل :

وإنّي لمشتاق إلى أرض طَنْزة ... وإن خانني بعد التفرق إخواني

سقى الله أرضاً لو ظفرت بتربها ... كحلْتُ به من شدة الشوق أجفاني

ثم قال عماد الدين المذكور بعد هذا : كان الشاعر حياً في شهر رمضان[4] سنة ثمان وستين وخمسمائة .

---

١ ن ص : المقارنين ؛ ع : المقاربين .

٢ هنا تنتهي الترجمة في س .

٣ الخريدة (قسم الشام) ٢ : ٤٦٩ وياقوت (طنزة) .

٤ زاد في ن : المعظم قدره .

٨٠٥
يحيى بن تميم الصنهاجي

أبو طاهر[١] يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الحميري الصنهاجي صاحب إفريقية وما والاها – قد تقدم ذكر والده ورفعت نسبه هناك ، وتقدم ذكر جماعة من أجداده في هذا الكتاب – .

وكانت ولاية الأمير يحيى المذكور بالمهدية خلافةً عن أبيه تميم يوم الجمعة لأربع بقين من شهر ذي الحجة سنة سبع وتسعين وأربعمائة والطالع الدرجة السابعة من الجَدْي ، ثم استقل بالأمر يوم وفاة والده ، وقد سبق ذلك في ترجمته . وكان عمر الأمير يحيى يوم الاستقلال ثلاثاً وأربعين سنة وستة أشهر وعشرين يوماً ، وركب على العادة ، وأهل دولته محتفون به ، ورجع إلى قصره فغيّر لباس جميع أهل الدولة من الخواص والجند بخلع سنية ، وكانوا قد غيروا لباسهم لموت أبيه ، ووهب للأجناد والعبيد أموالاً كثيرة ، ووعدهم مواعد سارة .

ورأيت في كتاب « الجمع والبيان في أخبار القيروان » الذي ألفه ولد أخيه عز الدين أبو محمد عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس ، أن الأمير تميماً قبل وفاته بمدة يسيرة دعا ولده يحيى المذكور ، وكان في دار الإمارة مع خاصته وجلسائه ، فمضى يحيى ومن معه إليه ، فوجدوا تميماً في بيت المال ، فأمرهم بالجلوس ثم قال لأحدهم : قم فادخل ذلك البيت وخذ منه الكتاب الذي صفته كذا في مكان كذا[٢] ، فقام وأتى به ، فإذا هو كتاب مُلْحَمة ، فقال له :

---

٨٠٥ – أخباره في الكتب التاريخية مثل ابن الأثير وأعمال الأعلام (ج : ٣) وابن أبي دينار وابن خلدون ٦ : ١٦٠ والبيان المغرب ١ : ٣٠٤ ومرآة الجنان ٣ : ١٩٨ وفي المكتبة الصقلية نقول من هذه الكتب وغيرها تتصل بأخباره .

١ ع ر بر من : أبو زكريا ؛ وفي أعمال الأعلام أن كنيته أبو علي .

٢ زاد في ر : فأت به .

عدّ من أوله كذا وكذا ورقة ، واقرأ الصفحة التي تنتهي إليها ، فقرأها[1] وإذا فيها « الملك المغدور ، وهو الطويل القامة الذي على وركه الأيمن خال وفي جنبه الأيسر شامة » فقال الأمير تميم : أطبق الكتاب واردده إلى موضعه ، ففعل ، ثم قال تميم : أما العلامتان فقد رأيتهما ، وبقيت عليّ الثالثة ، قم أنت يا شريف وأنت يا فلان حتى تحققا عندي خبر العلامة الثالثة ، فقاموا وقام يحيى معهم إلى موضع مستور عن تميم ، فكشف لهم عن جسمه ، فرأوا شامة على جنبه الأيسر هلالية الشكل ، فأتوا تميماً فعرفوه ، فقال : لم أُعطه أنا شيئاً ، الله تعالى الذي أعطاه ، ثم قال : إنّي أخبركم بحديث عجيب ، وذلك أنّه عرض عليّ النخاسُ والدته ، فاستحسنتها ومالت نفسي إليها فاشتريتها ، وسلمتها إلى خدام القصر ، وأمرت النخاس أن يرجع إلى قبض الثمن ، ثم دبرت في مال طيب حلال أخرج ثمنها منه ، فبينما أنا مفكر في ذلك إذ سمعت السائل[2] يصيح ويرفع صوته في الإذن على مطالعتي ، فأخرجت رأسي من الطاق وقلت له : ما شأنك ؟ فقال : كنت الساعة أحفر في قصر المهدي إذ وجدت صندوقاً عليه قفل ، فتركته على حاله وجئت مطالعاً بأمره ، فأنفذت معه من أثق به ، فإذا فيه أثواب مذهبات الأعلام قد أفناها الدهر ، فأمرت بسبك أعلامها ، فلم تزد ولم تنقص عن ثمن الجارية ، فتعجب الحاضرون من ذلك ودعوا له ، ثم أمر لهم بدنانير وكساء وانصرفوا . قال عبد العزيز المذكور : وقد أدركت هذا الكتاب المشار إليه عند السلطان الحسن ، رحمه الله تعالى ، يعني الحسن بن علي بن يحيى المذكور ، وحكى عن الكتاب أموراً وقضايا ذكر أنها ستكون ، وكانت كما ذكر .

رجعنا إلى حديث يحيى :

ولمّا جلس في الملك قام بالأمر وعدل في الرعية وفتح قلاعاً لم يتمكن أبوه من فتحها ، قال عبد العزيز المذكور في تاريخه : وفي أيامه — يعني يحيى[3] —

١ فقرأها : سقطت من ن ق ع س .
٢ ق ع س بر : البنامكي .
٣ ق ع س بر من : يعني أيام يحيى .

وصل إلى المهدية من طرابلس المهدي محمد بن تومرت — المقدم ذكره[1] — قادماً من الحج ، فنزل بمسجد قبليّ مسجد السبت ، فاجتمع إليه جماعة من أهل المهدية وقرأوا عليه كتباً في علم أُصول الدين ، وشرع في تغيير المنكر ، فرفع أمره إلى يحيى فأحضره وجماعة من الفقهاء، فرأى ما هو عليه من الخشوع والتقشف والعلم ، فسأله الدعاء فقال له : أصلحك الله لرعيتك ، ونفع بها ذريتك ، وأقام مدة يسيرة بالمهدية ثم انتقل إلى المنستير فأقام بها مدة ، ثم انتقل إلى بجايةَ — وقد تقدم في ترجمة والده الأمير تميم أن محمد بن تومرت المذكور اجتاز بتلك البلاد في أيامه ، والله تعالى أعلم أي ذلك كان .

ثم قال عبد العزيز : وفي سنة سبع وخمسمائة أتى إلى المهدية قوم غرباء ، فقصدوا يحيى بمطالعة زعموا فيها أنهم من أهل الصناعة الكبيرة من الواصلين إلى نهايتها ، فأذن لهم بالدخول عليه ، فلما مثَلوا بين يديه طالبهم بأن يظهروا له من الصناعة ما يقف عليه فقالوا : نحن نزيل من القصدير التدخين والصرير حتى يرجع لا فرق بينه وبين الفضة ، لمولانا من السروج والقصب والبنود والأواني قناطير من الفضة يجعل عوضاً منها ما يريده ويستعمل جميع ذلك في مهماته ، وسألوه أن يكون ذلك في خلوة ، فأجابهم وأحضرهم للعمل ، ولم يكن عند الأمير يحيى سوى الشريف أبي الحسن علي والقائد إبراهيم قائد الأعنة . وكانوا هم ثلاثة ، وكانت بينهم أمارة ، فأمكنتهم الفرصة ، فقال أحدهم : دارت البوتقة ، فتواثبوا وقصد كل واحد منهم واحداً بسكاكينهم ، فأمّا الذي قصد الأمير يحيى فقال : أنا سراج ، وكان يحيى جالساً على مصطبة ، فضربه فجاءت على أم رأسه ، فقطعت طاقات في العمامة ، ولم تؤثر في رأسه ، واسترخت يده بالسكين على صدره فخدشته ، وضربه يحيى برجله ، فألقاه على ظهره ، فسمع الخدمُ الجلبة ففتحوا باب القصر من عندهم ، فدخل يحيى وأغلق الباب دونهم ، وأمّا الشريف فلم يزل به الذي قصده حتى قتله ، وأمّا القائد إبراهيم فإنّه شهر سيفه ، ولم يزل يقاتل الثلاثة ، وكسر الجند الباب الذي كان بينهم ودخلوا فقتلوهم ، وكان زيهم زي أهل الأندلس ، فقتل في البلد جماعة ممن

---

١ انظر ج ٥ : ٤٥ .

يلبس ذلك الزي ، وخرج[1] الأمير يحيى في الحال ومشى في البلد وسكن الفتنة .

وكان يحيى عادلاً في دولته ضابطاً لأمور رعيته عارفاً بمخرجه ودخله ، مدبراً في جميع ذلك على ما يوجبه النظر العقلي ويقتضيه الرأي الحكمي ؛ ونعته في الملاحم « الملك المغدور » وتحقق له هذا النعت بهذه الواقعة التي ذكرناها . وكان كثير المطالعة لكتب الأخبار والسير عارفاً بها ، رحيماً للضعفاء شفيقاً على الفقراء ، يطعمهم في الشدائد فيرفق بهم ، ويقرب أهل العلم والفضل من نفسه ، وساس العرب في بلاده فهابوه وانكفت أطماعهم، وكان له نظر حسن في صناعة النجوم والأحكام ، وكان حسن الوجه على حاجبه شامة ، أشهل العينين مائلاً في قده إلى الطول دقيق الساقين ، وكان عنده جماعة من الشعراء قصدوه ومدحوه ، وخلدوا مديحه في دواوينهم ، ومن جملة شعرائه أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الشاعر – المقدم ذكره – أقام تحت كنفه بعد أن جاب الأرض ، وتقاذفت به البلدان ، وله صنّفَ الرسالة المشهورة التي وصف فيها مصر وعجائبها وشعراءها وغير ذلك[2] ، وله فيه مدائح كثيرة أجاد فيها وأحسن ، وله أيضاً مدائح في ولده أبي الحسن علي وولد ولده الحسن بن علي ، ومن جملة قوله من مديحه قصيدة :

وارغبْ بنفسك إلا عن ندىً وغنًى	فالمجدُ أجمع بين البأس والجودِ
كدأب يحيى الذي أحيتْ مواهبه	مَيْتَ الرجاء بإنجازِ المواعيد
معطي الصوارمِ والهيفِ النواعمِ والـ	جُرْدِ الصّلادِمِ والبزلِ الجلاعيد[3]
أشمُّ أشوسُ مضروبٌ سرادقه	على أشمَّ بفرع النجمِ معقود
إذا بدا بسرير الملك محتبياً	رأيت يوسفَ في محراب داوود
من أسرةٍ تخذوا الماذيَّ لبسهمُ	واستوطنوا صهواتِ الضُّمَّرِ القود
محسدون على أن لا نظيرَ لهم	وهل رأيتَ عظيماً غيرَ محسود

---

١ ع : فخرج .

٢ هي المسماة بالرسالة المصرية وقد نشرت بتحقيق الأستاذ عبد السلام هارون في نوادر المخطوطات رقم : ١ .

٣ الجلاعد – بضم الجيم – الجمل الشديد .

وإن تكنْ جمعتكم أسرةٌ كرمتْ فليس في كلّ عود نفحة العُود
أقول للراكب المزجي مطيتـه يطوي بها الأرضَ من بيد إلى بيد
لا تترك الماءَ عِدّاً[1] في مشارعه وتطلب الريَّ من صمٍّ الجلاميد
هذي مواردُ يحيى غيرُ ناضبة وذا الطريقُ إليهـا غير مسدود
حكّمْ سيوفَكَ فيما أنت طالبُهُ فللسيوفِ قضاءٌ غـير مردود

وله فيه غير ذلك .

ولما كان يوم الأربعاء[2] ، وهو عيد النحر سنة تسع وخمسمائة ، توفي يحيى فجأة ، وذلك أن منجمه قال يوماً له : إن في تسيير مولدك في هذا النهار عليك عكساً فلا تركب ، فامتنع من الركوب ، وخرج أولاده ورجال دولته إلى المصلى ، فلما انقضت الصلاة حضر رجال الدولة على ما جرت به العادة للسلام ، وقرأ القراء القرآن وأنشد الشعراء ، وانصرفوا إلى الإيوان فأكل الناس ، وقام يحيى إلى مجلس الطعام ، فلما وصل إلى باب المجلس أشار إلى جارية من حظاياه فاتكأ عليها ، فما خطا من باب البيت سوى ثلاث خطوات حتى وقع ميتاً .

وكان ولده علي نائبه على سفاقس ، وهي بلدة من أعمال إفريقية ، [وللشعراء فيها شعر فمن ذلك قول بعضهم وهو علي بن حبيب يصف بحرها في مده وجزره :

سقياً لأرض سفاقس ذات المصانع والمصلى
بلد يكاد يقول حيـ ـن وروده أهلاً وسهلا
وكأن مـاء البئر حيـ ـن تراه ينضب ثم يملا
صبٌّ يريد زيـارة فإذا رأى الرقباء ولى][3]

فأحضر وعقدت له الولاية ، ودفن يحيى في القصر على ما جرت به العادة ، ثم نقل بعد سنة إلى قصر السيدة بالمنستير — وهي بلدة بأفريقية أيضاً — وخلف ثلاثين ولداً ذكوراً .

---

١ ق بر : عذباً .
٢ ر : الاثنين . ٣ زيادة من ر .

(320) وأما علي المذكور القائم مقام أبيه يحيى فإن مولده بمدينة المهدية صبيحة يوم الأحد لخمس عشرة ليلة خلت من صفر سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وكان أبوه قد ولاه سفاقس ، فلما مات أبوه اجتمع أعيان دولته على كتاب كتبوه عن أبيه إليه يأمره بالوصول إليه مسرعاً ، فوصله الكتاب ليلاً ، فخرج لوقته ومعه طائفة من أمراء العرب ، وجدّ في السير فوصل الظهر من يوم الخميس الثاني من يوم العيد ، ودخل القصر ، ولم يقدم شيئاً على تجهيز أبيه والصلاة عليه ودفنه ، وفي صبيحة يوم الجمعة ثالث عشر ذي الحجة جلس للناس ، فدخلوا عليه وسلموا بالإمارة ، ثم ركب في جيوشه وجموعه ثم عاد إلى قصره .

وفي أيامه توجه أخوه أبو الفتوح ابن يحيى إلى الديار المصرية ومعه زوجته بلاّرة[1] بنت القاسم وولده العباس صغير على الثدي ، فوصل إلى الإسكندرية فأنزل وأكرم بأمر الآمر صاحب مصر يومئذ ، فأقام بها مدة يسيرة وتوفي ، فتزوجت بعده زوجته بلاّرة بالعادل بن السلار واسمه علي – المقدم ذكره في هذا الكتاب في حرف العين[2] – وشبّ العباس وقدمه الحافظ صاحب مصر ، وولي الوزارة بعد العادل المذكور .

وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه في حوادث سنة اثنتين وخمسمائة حديث الثلاثة الذين جاءوا إلى يحيى في معنى الكيمياء ، فقال[3] : كان مجيئهم في هذه السنة ، وأنهم لما وثبوا على يحيى وجرى ما ذكرته قبل هذا صادف ذلك مجيء أبي الفتوح المذكور وأصحابه إلى القصر وعليهم السلاح ، فمنعوا من الدخول ، وثبت عند يحيى أن ذلك كان باتفاق بينهم ، فأخرج أبو الفتوح وزوجته وهي ابنة عمه إلى قصر زياد ، ووكل بهما إلى أن مات يحيى وملك ابنه علي فسيرهما في البحر إلى الديار المصرية ، فوصلا إلى الإسكندرية . انتهى كلامه .

ولم تزل أمور علي بن يحيى جارية على السداد ، إلى أن توفي يوم الثلاثاء لسبع بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وخمسمائة ، ودفن في القصر

---

١ س : بلادة .

٢ انظر ج ٣ : ٤١٦ .

٣ تاريخ ابن الأثير ١٠ : ٤٧٢ ، ولم ترد هذه الفقرة في س بر من.

بعد أن فوض الأمر من بعده إلى ولده أبي يحيى الحسن بن علي بن يحيى .

(321) ومولد الحسن المذكور بمدينة سوسة في رجب سنة اثنتين وخمسمائة ، فكان عمره يوم ولايته اثنتي عشرة سنة وتسعة أشهر ، ولمّا كان ثاني يوم وفاة أبيه خرج للناس فسلموا عليه وهنئوه بما صار إليه ، ثم ركب والجيوش محتفة به . وجرت في أيامه وقائع وأمور يطول شرحها ، فمن ذلك أن رجار [1] الفرنجي صاحب صقلية أخذ طرابلس الغرب عنوة بالسيف في يوم الثلاثاء سادس المحرم سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقتل أهلها وسبى الحريم والأطفال وأخذ الأموال ، ثم شرع في عمارتها وتحصينها بالرجال والعدد ، ثم أخذ المهدية يوم الاثنين ثاني عشر صفر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وذلك أن الحسن بن علي لما علم عجزه عن مقاومته خرج من المهدية هارباً ، وقد استصحب ما خف عليه حمله من النفائس ، وخرج أهل البلد أيضاً هاربين ، إلا من أقعده العجز عن الهرب ، فدخل إليه الفرنج وملكوه ، وصادفوا فيه من الأموال والذخائر ما لا يعد ولا يحصى .

وكان عدة من ملك من أهل بيتهم،وأولهم زيري – المقدم ذكره في حرف الزاي [2] – إلى هذا الحسن بن علي تسعة ملوك ، ومدة ولايتهم مائتا سنة وثمان سنين ، وانقرضت دولة بني باديس .

ثم إن الحسن بن علي توجه نحو المعلقة – وهي قلعة حصينة بإفريقية تجاور تونس ، وكان صاحبها أبا محفوظ [3] محرز بن زياد أحد أمراء العرب ، فأقام عنده قليلاً ثم ظهر له منه الضجر والسآمة ، فعزم على قصد الديار المصرية ليكون عند الحافظ العبيدي صاحبها يومئذ ، فنمي خبره إلى نائب رجار بالمهدية ، فجعل عليه العيون وعمل عشرين شينياً ليمسكه في البحر ، فبلغ الحسن ذلك ، فرجع عن هذا الرأي ، ثم قصد أن يتوجه إلى جهة عبد المؤمن بن علي بمراكش ، وأنفذ ثلاثة من أولاده إلى صاحب بِجايَة ، وهي آخر أعمال إفريقية ، ليستأذنه في الوصول إليه ، وبعد ذلك يتوجه إلى عبد المؤمن ، فأضمر له الغدر وخاف من اجتماعه

---

١ ورد هذا الاسم في أكثر النسخ : رجاز ، حتى في المختار ، وهو : Roger .

٢ انظر ج ٢ : ٣٤٣ . ٣ أبا محفوظ : سقط من : ص ن ق ع .

بعبد المؤمن أن يتفقا على ما فيه ضرره ، فكتب إليه كتاباً على يد أولاده يقول له : لا حاجة لك في الرواح إلى عبد المؤمن ، ونحن نفعل معك ونصنع ، وأجزل له من المواعيد الحسنة ، فتوجه إليه ، فلما قرب من بِجايَة لم يخرج للقائه وعدل به إلى الجزائر ، وهي بلدة فوق بجاية من جهة الغرب ، وأنزلوه بها في مكان لا يليق بمثله، ورتبوا له من الإقامة ما لا يصلح لبعض أتباعه، ومنعوه من التصرف، وكان وصوله إلى الجزائر في المحرم سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ثم إن عبد المؤمن فتح بجاية في سنة سبع وأربعين وهرب صاحبها إلى القسطنطينية [1] .

(322) ثم إن رجار صاحب صقلية هلك في العشر الأخير من ذي الحجة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة .

(323) ولمّا هلك رجار ملك بعده ابنه غنيم [2] بن رجار ، وعليه قدم أبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الشاعر — المقدم ذكره — ومدحه وأجازه ، وذلك في سنة ثلاث وستين وخمسمائة [3] .

(324) ولمّا هلك غنيم ملكت ابنته ، وهي أم الأنبرور ملك ألمانية في زماننا، ثم هلكت أم الأنبرور وخلفته صغيراً فملك واستمر ملكه ، وكان عاقلاً فاضلاً ، وبينه وبين الملك الكامل صاحب مصر مراسلات وغيرها [4] .

---

١ كذا في أكثر النسخ ؛ ع بر من : القسطنطينة .

٢ ن : عليم ؛ وصواب الاسم « غليلم » تعريب « Gulielmo » وقد يكتب غليالم .

٣ انظر فصلا في كتابنا « العرب في صقلية » عن ابن قلاقس والفترة التي أقامها هنالك .

٤ علق هنا صاحب المختار بقوله : « قلتُ ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : وهو الذي استعاد البيت المقدس من الملك الكامل المذكور في (   ) وستمائة والقصة مشهورة ، ولما وصل الخبر بذلك إلى دمشق أنشد الشيخ شمس الدين المظفر سبط ابن الجوزي الواعظ المقدم ذكره على منبر وعظه بالجامع بدمشق :

إن يكن بالشآم قل نصيري   ثم هدمت واستمر هلوكي
فلقد أصبح الغداة خرابي   سبة العار في جباه الملوك

وقوله : ولما هلك رجار . . . وغيرها : سقط من النسخ س بر من .

ثم إن عبد المؤمن وصل إلى المهدية وملكها بعد جهد جهيد ، وكان دخوله إليها بكرة يوم عاشوراء سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، فولى بها نائباً ، وكان الحسن بن علي قد وصل صحبته ، فرتبه مع النائب لتدبير أمورها لكونه عارفاً بأحوالها وأقطعه بها ضيعتين وأعطاه دوراً سكنها هو وأولاده وأتباعه .
ولم أقف على تاريخ وفاة الحسن بن علي المذكور .

(325) ثم قتل محرز بن زياد المذكور في وقعة سطيف يوم الخميس في العشر الأوسط من ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة .

وهذا الحسن بن علي هو الذي صنف له أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت كتاب « الحديقة » .

٨٠٦

يحيى بن خالد البرمكي

أبو الفضل[1] يحيى بن خالد بن بَرْمَكٍ وزير هارون الرشيد — وقد تقدم ذكر ولديه جعفر والفضل كل واحد منهما في بابه — ؛ وكان جدهم بَرْمَك من مجوس بلخ ، وكان يخدم النوبهار وهو معبد كان للمجوس بمدينة بلخ توقد فيه النيران ، واشتهر برمك المذكور وبنوه بسدانته ، وكان برمك عظيم المقدار عندهم ، ولم أعلم هل أسلم أم لا .

(326) وساد ابنه خالد وتقدم في الدولة العباسية ، وتولى الوزارة لأبي

---

٨٠٦ - أخباره في كتب التاريخ التي تتحدث عن نكبة البرامكة كالطبري وابن الأثير ومروج الذهب والأغاني ، وكتب الأدب العامة كالعقد ، وانظر معجم الأدباء ٢٠ : ٥ والبداية والنهاية ١٠ : ٢٠٤ وتاريخ بغداد ١٤ : ١٢٨ ومعجم المرزباني : ٤٨٨ ومرآة الجنان ١ : ٤٢٤ وعبر الذهبي ١ : ٣٠٦ وصفحات متفرقة من الوزراء والكتاب للجهشياري وشرح البسامة : ٢٢٢ .

١ ق ن ص س : أبو علي ، وموضعه بياض في ر .

العباس السفاح بعد أبي سَلَمة حفص الخلاّل – المقدم ذكره – وقد ذكرته في ترجمة جعفر وذكرت هناك تاريخ وفاته ، وقال أبو الحسن المسعودي في كتاب « مروج الذهب »[1] : لم يبلغ مبلغ خالد بن برمك أحد من ولده في جوده ورأيه وبأسه وعلمه وجميع خلاله ، لا يحيى في رأيه ووفور عقله ، ولا الفضل ابن يحيى في جوده ونزاهته ، ولا جعفر بن يحيى في كتابته وفصاحة لسانه ، ولا محمد بن يحيى في سَرْوه وبعد همته ، ولا موسى بن يحيى في شجاعته وبأسه .
ولمّا بعث أبو مسلم الخراساني قحطبة بن شبيب الطائي لمحاربة يزيد بن عمر ابن هبيرة الفزاري عامل مروان بن محمد[2] على العراقين ، وكان خالد بن برمك في جملة من كان معه ، فنزلوا في طريقهم بقرية ، فبينما هم على سطح بعض دورها يتغدون إذ نظروا إلى الصحراء وقد أقبلت منها أقاطيع الوحش من الظباء وغيرها ، حتّى كادت تخالط العسكر ، فقال خالد لقحطبة : أيها الأمير ، ناد في الناس ومرهم أن يسرجوا ويلجموا قبل أن تهجم عليهم الخيل ، فقام قحطبة مذعوراً ، فلم ير شيئاً يروعه ، فقال : يا خالد ما هذا الرأي ؟ فقال : قد نهد[3] إليك العدو ، أما ترى أقاطيع الوحش قد أقبلت ؟ إن وراءها لجمعاً كثيفاً ، فما ركبوا حتّى رأوا الغبار ، ولولا خالد لهلكوا[4] .

---

١ مروج الذهب ٣ : ٣٧٧ .
٢ زاد في المختار : آخر ملوك بني أمية .
٣ ق ع والمختار : نهز ؛ س : نهد عليك .
٤ علق صاحب المختار بقوله : « قلت أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : ومثل هذه الحكاية ما يحكى عن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه الأصغر صاحب حمص أنه كان نائماً في الصيف بسطح دار بقلعة حمص ليلا ، فأمر بضرب بوق الفزع نصف الليل وركب للوقت وهو شاكي السلاح ، واجتمع إليه العسكر وجميع أصحابه ، وسار بهم إلى طريق حصن الأكراد ، فوافى سرية كبيرة من الفرنج وقد عدوا المخاضة التي بين حمص وحصن الأكراد وهم عازمون على الغارة على بلاد حمص ، فأوقع بهم واستأصل شأفتهم قتلا وأسراً واستولى على ما معهم وعاد من ليلته ، فسئل كيف علم بذلك فقال : كنت قد استيقظت من منامي واستلقيت على ظهري مفكراً ، فسقط على وجهي قطرات عديدة من الماء ، فقلت في نفسي : هذا زمن الصيف ولا مطر فيه والسماء صاحية ، ولا شك في أن سرية من الفرنج من حصن الأكراد قد قصدوا الغارة علينا ، ولما عبروا المخاضة نفر ما بها من الطيور وطاروا في ضوء القمر ، وإن هذه النقط من رشاش أجنحتها ، فكان حديثاً صحيحاً ، والله أعلم » .

وأمّا يحيى فإنّه كان من النبل والعقل وجميع الخلال على أكمل حال ، وكان المهدي بن أبي جعفر المنصور قد ضم إليه ولده هارون الرشيد ، وجعله في حجره ، فلما استخلف هارون عرف له حقه ، وقال له : يا أبت ، أنت أجلستني في هذا المجلس ببركتك ويمنك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك الأمر ، ودفع له خاتمه ، وفي ذلك يقول الموصلي ، وأظنه إبراهيم النديم أو ابنه إسحاق :

ألم تر أن الشمسَ كانت سقيمةً فلما ولي هارون أشرق نورها
بيمنِ أمين الله هارون ذي الندى فهارون واليها ويحيى وزيرها

وكان يعظمه ، وإذا ذكره قال « أبي » وجعل إصدار الأمور وإيرادها إليه ، إلى أن نكب البرامكة فغضب عليه ، وخلده في الحبس إلى أن مات فيه ، وقتل ابنه جعفراً — حسبما تقدم شرحه في ترجمته .

وكان من العقلاء الكرماء البلغاء ؛ ومن كلامه : ثلاثه أشياء تدل على عقول أربابها : الهدية والكتاب والرسول . وكان يقول لولده : اكتبوا أحسن ما تسمعون ، و احفظوا أحسن ما تكتبون ، وتحدثوا بأحسن ما تحفظون . وكان يقول : الدنيا دول والمال عارية ، ولنا بمن قبلنا أسوة ، وبمن بعدنا عبرة .

وقال الفضل بن مروان — المقدم ذكره — : سمعت يحيى بن خالد يقول : من لم أحسن إليه فأنا مخير فيه ، ومن أحسنت إليه فأنا مرتّهن به .

وقال القاضي يحيى بن أكثم ، سمعت المأمون يقول : لم يكن كيحيى بن خالد وكولده أحد في الكفاية والبلاغة والجود[1] والشجاعة ، ولقد صدق القائل حيث يقول :

أولادُ يحيى أربعٌ كأربعِ الطبائعِ
فهمْ إذا اختبَرْتَهُم طبائعُ الصنائعِ

قال القاضي : فقلت له يا أمير المؤمنين ، أمّا الكفاية والبلاغة والسماحة

---

[1] ن : والجودة .

فنعرفها فيهم ، ففي من الشجاعة ؟ فقال : في موسى بن يحيى ، وقد رأيت أن أوليه ثغر السند .

وقال إسحاق بن إبراهيم النديم الموصلي – المقدم ذكره[1] – : حدثني أبي قال : أتيت يحيى بن خالد بن برمك فشكوت إليه ضيقة فقال : ويحك ، ما أصنع بك ؟ ليس عندنا في هذا الوقت شيء ، ولكن هاهنا أمر أدلك عليه فكن فيه رجلاً ، قد جاءني خليفة صاحب مصر يسألني أن أستهدي صاحبه شيئاً ، وقد أبيت ذلك عليه ، فألح علي ، وقد بلغني أنك قد أعطيت بجاريتك فلانة ثلاثة آلاف دينار ، فهو ذا أستهديه إياها وأخبره أنها قد أعجبتني فإياك أن تنقصها من ثلاثين ألف دينار وانظر كيف تكون ، قال : فوالله ما شعرت إلا بالرجل وافاني فساومني بالجارية ، فقلت له : لا أنقصها من ثلاثين ألف دينار ، فلم يزل يساومني حتى بذل لي عشرين ألف دينار ، فلما سمعتها ضعف قلبي عن ردها ، فبعتها وقبضت العشرين ألفاً ، ثم صرت إلى يحيى بن خالد فقال لي : كيف صنعت في بيعك الجارية ؟ فأخبرته وقلت : والله ما ملكت نفسي أن أجبت إلى العشرين ألفاً حين سمعتها ، فقال : إنك لخسيس فخذ جاريتك بارك الله لك فيها ، وهذا خليفة صاحب فارس قد جاءني في مثل هذا ، فإذا ساومك بها فلا تنقصها من خمسين ألف دينار ، فإنه لا بد أن يشتريها منك بذلك ، فجاءني الرجل فاستمت عليه خمسين ألف دينار ، فلم يزل يساومني حتى أعطاني ثلاثين ألف دينار ، فضعف قلبي عن ردها ولم أصدق بها ، فأوجبتها ثم صرت إلى يحيى بن خالد فقال لي : بكم بعت الجارية ؟ فأخبرته ، فقال : ويحك ! ألم تؤدبك الأولى عن الثانية ، قال : فقلت : والله ضعفت عن رد شيء لم أطمع فيه ، قال فقال : هذه جاريتك فخذها إليك ، قال : فقلت : جارية أفدت بها خمسين ألف دينار ، ثم أملكها ، أشهدك أنها حرة ، وأني قد تزوجتها . هكذا رأيت هذه الحكاية ، ثم نظرت في كتاب « أخبار الوزراء » تأليف الجهشياري فقال : إن يحيى قال لإبراهيم الموصلي : لا تقبل أقل من مائة ألف دينار ، وأنه باعها بخمسين ألف دينار ، وقال له في المرة الثانية

---

1 انظر ج ۱ : ۲۰۲ .

لا تقبل أقلّ من خمسين ألف دينار فباعها بثلاثين ألف دينار[1] .

وقال الأصمعي[2] : دخلت على يحيى يوماً فقال : يا أصمعي ، هل لك زوجة ؟ فقلت : لا ، فقال : فجارية ؟ فقلت : لكم منّة ، فأمر بإخراج جارية غاية في الحسن والجمال والظرف ، فقال لها قد وهبتك لهذا ، وقال : يا أصمعي ، خذها فشكرته ودعوت له ، فلما رأت الجارية ذلك بكت وقالت : يا سيدي ، تدفعني إلى هذا ، فما ترى من سماجته وقبحه ؟ فقال لي : هل لك أن أعوضك عنها ألفي دينار ؟ قلت : ما أكره ذلك ، ودخلت الجارية إلى داره فقال لي : أنكرت على هذه الجارية أمراً فأردت أن أعاقبها بك ثم رحمتها ، فقلت له : هلا أعلمتني حتى كنت لحقت بالباب على صورتي الأصلية من غير أن أسرح لحيتي وأصلح عمتي وأتطيب وأتجمل ، فضحك ، وأمر لي بألف دينار أخرى .

وحكى إسحاق النديم أيضاً قال : كانت صلات يحيى بن خالد إذا ركب لمن تعرض له مائتي درهم ، فركب ذات يوم فتعرض له أديب شاعر وأنشده :

يا سميّ الحصُور[3] يحيى أتيحتْ   لك من فضل ربّنا جنتان
كل من مَرَّ في الطريق عليكم   فله من نوالكم مائتان
مائتا درهم لمثلي قليل   هي منكم للقابس العجلان

قال له يحيى : صدقت ، وأمر بحمله إلى داره ، فلما رجع من دار الخلافة سأله عن حاله ، فذكر أنّه تزوج وقد أخذ بواحدة من ثلاث : إما أن يؤدي المهر وهو أربعة آلاف ، وإمّا أن يطلق ، وإمّا أن يقيم جارياً للمرأة يكفيها إلى أن يتهيأ له نقلها ، فأمر له يحيى بأربعة آلاف للمهر ، وبأربعة آلاف لثمن منزل ، وبأربعة آلاف لما يحتاج إليه المنزل ، وبأربعة آلاف للبنية ، وبأربعة آلاف يستظهر بها ، فأخذ عشرين ألفاً وانصرف .

---

١ هكذا رأيت . . . بثلاثين ألف دينار : لم يرد في س بر من .

٢ لم ترد هذه القصة في س .

٣ ق ص ع : المحصور ؛ ويحيى المشار إليه هو يحيى بن زكريا ، والحصور : الذي لم يتزوج .

وقال محمد بن مناذر الشاعر : حج هارون الرشيد ومعه ابناه الأمين محمد والمأمون عبد الله، وحج معه يحيى بن خالد وابناه الفضل وجعفر ، فلما صاروا بالمدينة جلس الرشيد ومعه يحيى بن خالد ، فأعطى الناس عطاءهم ، ثم جلس الأمين ومعه الفضل فأعطاهم العطاء، ثم جلس المأمون ومعه جعفر بن يحيى فأعطاهم عطاياهم ، وكان أهل المدينة يسمون ذاك العام عام الأعطية الثلاثة ، ولم يروا مثل ذلك قط ، فقلت في ذلك :

أتانا بنو الأملاك من آلِ بَرْمَكٍ فيا طيبَ أخبارٍ ويا حُسْنَ منظرِ
لهم رحلةٌ في كلّ عام إلى العِدى وأُخرى إلى البيت العتيق المطهّر
إذا نزلوا بطحاء مكّة أشرقت بيحيى وبالفضل بن يحيى وجعفر
فتظلم بغدادٌ وتجلو لنا الدجى بمكّة ما حجوا ثلاثة أقمر
فما خلقت إلا لجود أكفُّهم وأقدامهم إلا لأعواد منبر
إذا راض يحيى الأمر ذلّت صعابه فناهيك من راعٍ له ومدبّر
ترى الناس إجلالاً له وكأنّهم غرانيق ماء تحت باز مصرصر [1]

وذكر الخطيب في « تاريخ بغداد » [2] ،في ترجمة أبي عبد الله محمد بن عمر الواقدي أنّه قال : كنت حنّاطاً [3] بالمدينة في يدي مائة ألف درهم للناس أُضارب بها ، فتلفت الدراهم ، فشخصت إلى العراق فقصدت يحيى بن خالد ، فجلست في دهليزه وأنست بالخدم والحجاب وسألتهم أن يوصلوني إليه ، فقالوا : إذا قدم الطعام إليه لم يحجب عنه أحد ، ونحن ندخلك عليه ذلك الوقت ، فلما حضر طعامه أدخلوني فأجلسوني معه على المائدة ، فسألني : من أنت ؛ وما قصتك ؟ فأخبرته ، فلما رفع الطعام وغسلنا أيدينا دنوت منه لأقبل رأسه ، فاشمأز من ذلك ، فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار ، فقال : الوزير يقرأ عليك السلام ويقول لك : استعن بهذا على أمرك

١ هذا البيت والذي قبله زيادة من : ر ن ، وسقطت القصة كلها من س بر من .
٢ تاريخ بغداد ٣ : ٤ .
٣ في بعض النسخ : خياطاً ؛ والحناط : هو بائع الحنطة ، وهذا مناسب للمضاربة .

وعد إلينا في اليوم الثاني ، فأخذته وانصرفت ، وعدت في اليوم الثاني فجلست معه على المائدة ، فأنشأ يسألني كما سألني في اليوم الأول ، فلما رفع الطعام دنوت منه لأقبل رأسه فاشمأز مني ، فلما صرت إلى الموضع الذي يركب منه لحقني خادم معه كيس فيه ألف دينار ، فقال لي : الوزير يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : استعن بهذا على أمرك وعُدْ إلينا في غد ، فأخذته وانصرفت وعدت في اليوم الثالث كما أمر ، فأعطيت مثل الذي أعطيت في اليوم الأول والثاني ، فلما كان في اليوم الرابع أعطيت الكيس كما أعطيت قبل ذلك ، وتركني بعد ذلك أقبل رأسه ، وقال : إنّما منعتك ذلك لأنّه لم يكن وصل إليك من معروفي ما يوجب هذا ، فالآن قد لحقك بعض النفع مني ، يا غلام أعطه الدار الفلانية ، يا غلام افرش له الفرش الفلاني ، يا غلام أعطه مائتي ألف درهم يقضي دينه بمائة ألف ويصلح شأنه بمائة ألف ، ثم قال لي : الزمني وكن في داري ، فقلت : أعز الله الوزير ، لو أذنت لي بالشخوص [1] إلى المدينة لأقضي الناس أموالهم ثم أعود إلى حضرتك كان ذلك أرفق بي ، قال : قد فعلت ، وأمر بتجهيزي ، فشخصت إلى المدينة ، فقضيت ديني ثم رجعت إليه فلم أزل في ناحيته [2] .

ودخل عليه يوماً أبو قابوس الحميري فأنشده :

رأيت يحيى أتم [3] الله نعمتَهُ ... عليه يأتي الذي لم يأته أحدُ
ينسى الذي كان من معروفه أبداً ... إلى الرجال ولا ينسى الذي يَعِدُ

فقضى حوائجه ووصله بجملة من المال .

قلت : قد حلّ هذا البيت الثاني شرف الدولة مسلم بن قريش ، وقد قال له رجل : لا تنس أيها الأمير حاجتي ، فقال : إذا قضيتها أنسيتها [4] .

---

١ ر : بالنهوض والشخوص .
٢ قال صاحب المختار عند هذا الموضع : وذكر والدي أحمد قدس الله روحه من مكارم يحيى وكرمه حكايات عديدة أضربت عن ذكرها طلباً للايجاز .
٣ ر ن : أدام .
٤ زاد في ر : وهذا من الأجوبة الدالة على شرف القدر .

ولمسلم بن الوليد الأنصاري في يحيى بن خالد[1] :

أجدّكِ هل تدرين إن رُبَّ ليلة كأن دجاها من قرونك يُنْشَرُ
صَبَرْتُ لها حتى تجلت بغرّةٍ كغرة يحيى حين يذكر جعفرُ

وكان يحيى يقول : إذا أقبلت الدنيا فأنفق فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت فأنفق فإنها لا تبقى ؛ وقال : ذكر النعمة من المنعم تكدير ، ونسيان المنعم عليه كفر وتقصير ؛ وقال : النية الحسنة مع العذر الصادق يقومان مقام النجح ؛ وقال : إذا أدبر الأمر كان العطب في الحيلة .

وقال الحسن بن سهل — المقدم ذكره — : من غيرته الولاية لإخوانه علمنا أن الولاية أكبر منه ، أخذنا ذلك عن صاحب ديوان المكارم أبي علي يحيى بن خالد بن برمك .

[ولما عزم جعفر على بناء قصره شاور أباه يحيى بن خالد فيه فقال : هو قميصك إن شئت فوسعه وإن شئت فضيقه ؛ وأتاه وهو يبني داره فإذا الصناع يبيضون حيطانها فقال : إنك تعطي الذهب بالفضة ، فقال جعفر : ليس كل أوان يكون ظهور الذهب أصلح ، ولكن هل ترى عيباً ؟ قال : نعم ، مخالطتها لدور السفل والسوقة][2] .

وكان ليحيى كاتب يختص بخدمته ويقرب من حضرته ، فعزم على ختان ولده ، فاحتفل له الناس على طبقاتهم ، وهاداه أعيان الدولة ووجوه الكتاب والرؤساء على اختلاف منازلهم ، وكان له صديق قد اختلت أحواله وضاقت يده عما يريده لذلك مما دخل فيه غيره ، فعمد إلى كيسين كبيرين نظيفين ، فجعل في أحدهما ملحاً وفي الآخر أشناناً مكفراً ، وكتب معهما رقعة نسختها : لو تمت الإرادة لأسعفت بالعادة ، ولو ساعدت المكنة على بلوغ الهمّة لاتبعت السابقين إلى برك وتقدمت المجتهدين في كرامتك ، لكن قعدت القدرة عن البغية وقصرت الجدة عن مباراة أهل النعمة ، وخفت أن تطوى صحائف البر

---

١ ديوان مسلم : ٣١٦ .

٢ زيادة من ر .

وليس لي فيها ذكر ، فأنفذت المبتدأ بيمنه وبركته والمختتم بطيبه ونظافته ، صابراً على ألم التقصير ، ومتجرعاً غصص الاقتصار على اليسير ، فأمّا ما لم أجد إليه السبيل في قضاء حقّك فالقائم فيه بعذري قول الله عزّ وجل ﴿ لَيْسَ على الضّعَفاء وَلا على المَرْضى وَلا على الذينَ لا يَجِدونَ ما يُنْفقون حرَج ﴾ (التوبة : ٩١) والسلام . فلما حضر يحيى بن خالد الوليمة عرض عليه كاتبه الهدايا جميعها ، حتى الكيسين والرقعة فاستظرفها ، وأمر أن يملأ الكيسان مالاً ويردا عليه ، فكان ذلك أربعة آلاف دينار .

وقال رجل ليحيى : والله لأنت أحلم من الأحنف بن قيس ، فقال له : لا تقرّبَ[1] إليَّ من أعطاني فوق حقي .

ونادى إسحاق بن إبراهيم الموصلي أحد غلمانه فلم يجبه ، فقال : سمعت يحيى بن خالد يقول : يدل على حلم الرجل سوء أدب غلمانه .

وكان يحيى يساير الرشيد يوماً فوقف له رجل فقال : يا أمير المؤمنين عطبت دابّتي ، فقال الرشيد : يعطى خمسمائة درهم ، فغمزه يحيى ، فلما نزلوا قال له الرشيد : يا أبت أومأت إليَّ بشيء ولم أعرفه ، فقال : مثلك لا يجري هذا القدر على لسانه ، إنّما يذكر مثلك خمسة آلاف ألف ، عشرة آلاف ألف ، فقال : إذا سئلت مثل هذا كيف أقول ؟ ، فقال : تقول : يشترى له دابة .

وبالجملة فإن أخبارهم كثيرة ، ولا يحتمل هذا المختصر الإطالة أكثر من هذا .

ولما قتل هارون الرشيد جعفر بن يحيى البرمكي – كما ذكرناه في حرف الجيم من هذا الكتاب – نكب البرامكة وحبس يحيى وابنه الفضل – كما ذكرناه في حرف الفاء من هذا الكتاب – وكان حبسهما في الرافقة ، وهي الرقة القديمة تجاور الرقة الجديدة ، وهي البلد المشهور الآن على شاطىء الفرات ، ويقال لهما الرقتان ، تغليباً لأحد الاسمين على الآخر ، كما قيل العمران والقمران وغير ذلك .

---

١ س ص : ما تقرب .

وحكى الجهشياري في كتاب «أخبار الوزراء»[1] أن يحيى بن خالد اشتهى في وقت من الأوقات في محبسه وهو مضيق عليه سكباجة ، فلم يطلق له اتخاذها إلا بمشقة ، فلما فرغ منها سقطت القدر من يد المتخذ لها فانكسرت ، فأنشد يحيى أبياتاً يخاطب بها الدنيا ، ومضمونها اليأس وقطع الأطماع[2] .

ولم يزل يحيى في حبس الرافقة[3] إلى أن مات في الثالث من المحرم سنة تسعين ومائة فجأة من غير علة ، وهو ابن سبعين سنة ، وقيل أربع وسبعين[4] ، وصلى عليه ابنه الفضل ، ودفن في شاطىء الفرات في ربض هرثمة ، ووجد في جيبه رقعة فيها مكتوب بخطّه: قد تقدم الخصم ، والمدعي عليه في الأثر ، والقاضي هو الحكم العدل الذي لا يجور ولا يحتاج إلى بينة . فحملت الرقعة إلى الرشيد ، فلم يزل يبكي يومه كلّه وبقي أياماً يتبين الأسى في وجهه ، رحمهما الله تعالى[5] .

وكان يحيى يجري على سفيان الثوري ، رضي الله عنه ، في كل شهر ألف درهم ، وكان سفيان يقول في سجوده : اللّهم إن يحيى كفاني أمر دنياي ، فاكفه أمر آخرته ، فلما مات يحيى رآه بعض إخوانه في النوم فقال له : ما صنع الله بك ؟ قال : غفر لي بدعاء سفيان ، وقيل إن صاحب هذه القضية هو سفيان ابن عيينة لا سفيان الثوري ، والله تعالى أعلم .

قال الجهشياري[6] : ندم الرشيد على ما كان منه في أمر البرامكة وتحسر على ما فرط منه في أمرهم ، وخاطب جماعة من إخوانه بأنّه لو وثق منهم بصفاء النية منهم لأعادهم إلى حالهم . وكان الرشيد كثيراً ما يقول : حملونا على نُصحائنا وكفاتنا ، وأوهمونا أنهم يقومون مقامهم ، فلما صرنا إلى ما أرادوا لم يغنوا عنا ، وأنشد :

---

١ أخبار الوزراء : ٢٤٥ ، ولم يرد هذا النص في س بر من .

٢ مطلعها :

قطعت منك حبائل الآمال ... وأرحت من حل ومن ترحال

٣ المختار : في الحبس بالرافقة .

٤ ن : وستين .

٥ هنا تنتهي الترجمة في س بر من .

٦ الوزراء والكتاب : ٢٥٨ .

أقلّوا علينا لا أبا لأبيكمُ من اللوم أو سدوا المكان الذي سدوا

قلت : هذا البيت للحطيئة الشاعر ، وبعده :

أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنا وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا[1]

قلت : وذكر الزمخشري في كتاب « ربيع الأبرار » ما مثاله : إنّه وجد تحت فراش يحيى بن خالد البرمكي رقعة فيها مكتوب :

وحقّ الله إن الظلم لوم وإن الظلم مرتعهُ وخيمُ
إلى ديّانِ يومِ الدين نمضي وعند الله تجتمعُ الخصومُ[2]

---

١ جاء في المختار عند هذا الموضع : هذا آخر ما نقلته من الجزء الرابع من كتاب « وفيات الأعيان » ويتلوه ما أنقله من الجزء الخامس ، إن شاء الله ، وأوله ترجمة عون الدين بن هبيرة .

٢ هنا تنتهي النسختان : ص ن : وفي آخرهما الخاتمة التي تمثل آخر ما خطه المؤلف قبل أن يعين قاضياً في الشام ويتوقف عن التأليف ، وهذه الخاتمة قد ثبتت في ر ، رغم استمرار التراجم فيها إلى نهاية الكتاب ، وقد طبعها وستنفيلد ، في نهاية الترجمة ، ونصها : « قلت : وقد أتيت في هذا المختصر بالقدر الممكن مع ضيق الأوقات ، وتركت في هذا الباب الذي هو حرف الياء تراجم كثيرة كان عزمي أن أذكرها فما اتسع الوقت لإثباتها ، فأخرتها مع مسودات أخر كثيرة أعددتها لكتاب آخر مطول ، أجمعه على هذا الأسلوب – إن فسح الله في الأجل ووفق للعمل – يكون محتوياً على فوائد جمة يحتاج إليها من يعتني بهذا الفن ويستغني من يطالعه عن مراجعة كتب كثيرة ، فإني انتقيت هذه المسودات من أمهات التواريخ وأخبار الناس المتقدمين والمتأخرين ، وفيما يغلب على ظني لم أترك شيئاً من الكتب التي في أيدي الناس ، المشهورة والخاملة ، المبسوطة والوجيزة ، إلا اخترت منه ما يدخل في هذا الكتاب ، وفي عزمي بعونه عز وجل ومشيئته أن يكون أكثر من عشرة أسفار ، والله عز وجل المسؤول في الإعانة عليه والإرشاد إليه ، بحوله وقوته ، إن شاء الله تعالى ، والله عز وجل أعلم بالصواب وإليه المرجع المآب ، وكان آخر تحرير هذا المجلد في سنة تسع وخمسين وستمائة » .

٨٠٧
الوزير ابن هبيرة

أبو المظفر الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد[١] بن الحسين بن أحمد بن الحسن بن جهم بن عمرو[٢] بن هبيرة بن علوان بن الحَوْفزان – وهو الحارث – بن شريك بن عمرو بن قيس بن شرحبيل بن مرة بن همام ابن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط ابن هنب بن أفصى بن دعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، الشيباني ، الملقب عون الدين ؛ هكذا ساق نسبه جماعة منهم ابن الدبيثي في تاريخه وابن القادسي في كتاب « الوزراء » وغيرهما ، وإنّما أخرج له هذا النسب بعد سنين من وزارته ، وذكره الشعراء في مدائحهم .

وهو من قرية من بلاد العراق تعرف بقرية بني أوقر ، بالقاف ، من أعمال دجيل ، وهي دور عرمانيا[٣] ، بالعين المهملة والياء المثناة من تحت ، وتعرف الآن بدور[٤] الوزير نسبة إليه ، وكان والده من أجنادها[٥] .

---

٨٠٧ – ترجمته في الخريدة (قسم العراق) ١ : ٩٦ وتاريخ ابن الأثير ١١ : ٣٢١ والمنتظم ١٠ : ٢١٤ وذيل ابن رجب ١ : ٢٥١ وتاريخ ابن خلدون ٣ : ٥٢٤ والروضتين ١ : ١٤١ ومطالع البدور ٢ : ١١٤ ومفرج الكروب ١ : ١٤٧ ومرآة الزمان : ٢٥٥ ومرآة الجنان ٣ : ٣٤٤ والفخري : ٢٧٦ والبداية والنهاية ١٢ : ٢٥١ وعبر الذهبي ٤ : ١٧٢ والشذرات ٤ : ١٩١ ووقعت هذه الترجمة في ع بعد ترجمة ياقوت الحموي ؛ وابتداء من هذه الترجمة تعود مسودة المؤلف إلا أن ورقات من أولها قد فقدت وأعاد بعض النساخ كتابتها . وسوف يكون اعتمادنا كبيراً عليها حيث يبدأ خط المؤلف نفسه .

١ ع ق ر س : سعيد .

٢ ق ر : عمر .

٣ المختار : دوز عرمايا .

٤ ر : بدار .

٥ ق ع س : آحادها .

ودخل بغداد في صباه ، واشتغل بالعلم ، وجالس الفقهاء والأدباء ، وكان على مذهب الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه ، وسمع الحديث ، وحصل من كل فن طرفاً ، وقرأ الكتاب العزيز وختمه بالقراءات والروايات ، وقرأ النحو ، واطلع على أيام العرب وأحوال الناس ، ولازم الكتابة ، وحفظ ألفاظ البلغاء وتعلم صناعة الإنشاء ، وكانت قراءته الأدب على أبي منصور ابن الجواليقي ، وتفقه على أبي الحسين محمد بن محمد الفراء ، وصحب الشيخ أبا عبد الله محمد ابن يحيى بن علي بن مسلم بن موسى بن عمران الزبيدي الواعظ ، وسمع الحديث النبوي من أبي عثمان إسماعيل بن محمد بن قيلة الأصبهاني ومن أبي القاسم هبة الله بن محمد بن الحسين الكاتب ومن بعدهما ، وحدث عن الإمام المقتفي لأمر الله أمير المؤمنين [1] وعن غيره ، وسمع منه خلق كثير منهم الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي .

وأول ولايته الإشراف بالأقرحة الغربية ، ثم نقل إلى الإشراف على الإقامات المخزنية ، ثم قلد الإشراف بالمخزن ، ولم يطل في ذلك مكثه حتى قلد في سنة اثنتين وأربعين كتابة ديوان الزمام ، ثم ترقى إلى الوزارة ، وكان سبب توليته الوزارة ما حكاه الذي جمع سيرته أنه قال : من جملة ما رفع قدر الوزير ونقله إلى الوزارة ما جرى من مسعود البلالي شحنة بغداد نيابة عن السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي – وكان مسعود أحد الخدم الخصيان الحبشيين الكبار من أمراء دولته – من سوء أدبه في الحضرة وخروجه عن معتاد الواجب وانتشار مفسدي أصحابه ، وكان وزير الخليفة إذ ذاك قوام الدين أبو القاسم علي بن صدقة ابن علي بن صدقة قد كتب عن الخليفة إلى السلطان مسعود عدة كتب يعتمد الإنكار على مسعود البلالي على ما صدر منه ، فلم يرجع بجواب ، فلما قلد عون الدين ابن هبيرة كتابة ديوان الزمام خاطب الخليفة في مكاتبة السلطان مسعود بالقضية فوقع إليه : قد كان الوزير كتب في ذلك عدة كتب فلم يجيبوه ، فراجع عون الدين في ذلك سؤاله إلى أن أجيب ، فكتب من إنشائه رسالة ، وهي طويلة فأضربت عن ذكرها ، وحاصل الأمر فيها أنه دعا له ، وأذكره ما كان أسلافه

---

[1] زاد في المختار : العباسي .

يعاملون الخلفاء به من حسن الطاعة والتأدب معهم والذب عنهم ممّن يفتاتُ عليهم ، وشكا من مسعود البلالي ، وأنّه كاتب في ذلك عدة دفعات وما جاءه جواب ، وأطال القول في ذلك ، وكان هذا في سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في شهر ربيع الآخر ، فما مضى على هذا إلا قليل حتّى عاد الجواب بالاعتذار والذم لمسعود البلالي والإنكار لما اعتمده ، فاستبشر المقتفي بإشارة عون الدين وعظم سروره بذلك وحسن موقع عون الدين من قلبه ، ولم يزل عنده مـَكيناً حتّى استوزره .

قال مصنف السيرة : وكان أيضاً من جملة أسباب وزارته أنّه في سنة ثلاث وأربعين وصل إلى بغداد الأمير ابن ألقش[1] المسعودي صاحب اللحف ، وهو صقع بالعراق ، ويلدكز السلطاني ، وقصداها في جموع كثيرة ، وصدر منهم فتن عظيمة تضمنتها التواريخ ، فشرع الوزير قوام الدين بن صدقة في تدبير الحال ، فأخفق مسعاه ، فحينئذ استأذن عون الدين الخليفة في أمرهم فأذن له في ذلك ، فخاطب هؤلاء الخارجين على الخليفة ، وأحسن التدبير في ذلك حتّى كف شرهم ، ثم قوي عليهم حتى نهبت العامة أموالهم ، وجرت المقادير بهذه الأحوال لرفع ابن هبيرة ووضع الوزير ابن صدقة ، فإنّه عند انقضاء هذا المهم استدعى الخليفة المقتفي عون الدين بمطالعة على يد أميرين من أمراء الدولة فتبين بقراءته لها التباشير في أسرّته ، فركب إلى دار الخليفة في جماعته ، وتسامع الناس بوزارته ، ولما وصل إلى باب الحجرة استدعي فدخل وقد جلس له المقتفي بيمنة التاج ، فقبل الأرض وسلم ، وتحدثا ساعة بما لم يحط به غيرهما علماً ، ثم خرج وقد جهزوا له التشريف على عادة الوزراء ، فلبسه ، ثم استدعي ثانياً فقبل الأرض ، ودعا بدعاء أعجب الخليفة ، ثم أنشده :

سأشكر عمراً ما تراختْ منيّتي ... أياديَ لم تُمننْ وإن هي جلَّتِ
رأى خلّتي من حيثُ يخفى مكانُها ... فكانت بمرأىً منه حتى تجلتِ

قلت : وهذان البيتان لإبراهيم بن العباس الصولي — المقدم ذكره — وهي

---

[1] كذا في س ؛ وفي ق ع : ابن البقسق ؛ بر : أبو البقش .

ثلاثة أبيات ، والثاني منهما بعد الأول :

فتى غيرُ محجوبِ الغنى عن صديقه ولا مظهرُ الشكوى إذا النعلُ زلّتِ

ولمّا أنشد عون الدين هذين البيتين غير نصف البيت الثاني منهما فإن الشاعر قال :

فكانت قذى عينيه حتّى تجلت

فما رأى أنّه يخاطب الخليفة بهذه العبارة فغيّره تأدباً .

ثم إن عون الدين خرج فقدم له حصان أدهم سائل الغرة محجل ، وعليه من الحلى ما جرت به عادتهم مع الوزراء ، والشرح في ذلك يطول فاختصرته ، وخرج بين يديه أرباب المناصب وأعيان الدولة وأمراء الحضرة وجميع خدام الخلافة وسائر حجاب الديوان ، والطبول تضرب أمامه ، والمسند وراءه محمول على عادتهم في ذلك ، حتّى دخل الديوان ونزل على طرف الديوان وجلس في الدست ، وقام لقراءة عهده الشيخ سديد الدولة أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم ابن الأنباري ، ولولا خوف الإطالة لذكرت العهد فإنّه بديع في بابه ، لكن قصدي الاقتصار فأعرضت عن ذكره ، وهو مشهور في أيدي الناس ؛ فلما فرغ من قراءته قرأ القراء وأنشد الشعراء ، وتولى الوزارة يوم الأربعاء ثالث عشر ربيع الآخر من سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، وكان لقبه جلال الدين ، فلما ولي الوزارة لقبوه عون الدين .

وكان عالماً فاضلاً ذا رأي صائب وسريرة صالحة ، وظهر منه في أيام ولايته ما شهد له بكفايته وحسن مناصحته ، فشكر له ذلك ولحظه بعين الرعاية وتوفرت له أسباب السعادة ، وكان مكرماً لأهل العلم يحضر مجلسه الفضلاء على اختلاف فنونهم ، ويقرأ عنده الحديث عليه وعلى الشيوخ بحضوره ، ويجري من البحث والفوائد ما يكثر ذكره .

وصنف كتباً ، فمن ذلك كتاب « الإفصاح عن شرح معاني الصحاح » وهو يشتمل على تسعة عشر كتاباً ، شرح الجمع بين الصحيحين وكشف عما فيه من الحكم النبوية ، وكتاب « المقتصد » بكسر الصاد المهملة ، وشرحه أبو

محمد ابن الخشاب النحوي المشهور في أربع [1] مجلدات شرحاً مستوفًى ، واختصر كتاب « إصلاح المنطق » لابن السكيت ، وله كتاب « العبادات في الفقه على مذهب الإمام أحمد » وأرجوزة في المقصور والممدود ، وأرجوزة في علم الخط ، وغير ذلك .

وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير الجزري في تاريخه الصغير الأتابكي [2] في فصل حصار الملك محمد وزين الدين بغداد ، وذلك في ذي القعدة من سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، أن المقتفي لأمر الله جد في حفظ بغداد ، وقام وزيره عون الدين بن هبيرة في هذا الأمر المقام الذي يعجز عنه غيره قال : وأمر المقتفي فنودي ببغداد : من جرح وقت القتال [3] فله خمسة دنانير ، فكان كل من جرح يوصل ذلك إليه ، فحضر بعض العامة عند الوزير مجروحاً فقال الوزير : هذا جرح صغير لا تستحق عليه شيئاً ، فعاد إلى القتال فضرب في جوفه فخرجت أمعاؤه ، فعاد إلى الوزير فقال : يا مولانا الوزير يرضيك هذا ؟! فضحك منه وأمر له بصلة ، وأحضر له من يعالجه ؛ انتهى كلام ابن الأثير .

قلت : وهذا محمد هو ابن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، وزين الدين هو أبو الحسن علي بن بكتكين المعروف بكجك والد مظفر الدين صاحب إربل .

وقال غير ابن الأثير : إن الملك اسمه محمد شاه وإن هذه القضية كانت في سنة اثنتين وخمسين ، والله أعلم ؛ ذكر ذلك ابن الجوزي في كتاب « شذور العقود » وهو أخبر ، لأنها بلده وهو بها ، وقد ذكرت محمد شاه في ترجمة أبيه .

وتوفي الإمام المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر ليلة الأحد ثاني [4] ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وبويع ولده المستنجد بالله أبو

---

١ س : أربعة .

٢ انظر الباهر : ١١٣ .

٣ وقت القتال : سقطت من ق ر والباهر .

٤ المختار : ثاني عشر ؛ ر س بر من : ثاني شهر .

المظفر يوسف ، فدخل عليه وبايعه وأقره على وزارته وأكرمه ، وكان خائفاً منه أن يعزله فلم يعزله[1] ولم يتعرض له ، ولم يزل مستمراً في وزارته إلى حين وفاته .

ومدحه جماعة من أماثل شعراء عصره : منهم أبو الفوارس سعد بن محمد المعروف بابن صيفي الملقب حيص بيص – المقدم ذكره[2] – وله فيه مدائح منتخبة ، فمن ذلك قوله :

يهز حديثُ الجود ساكنَ عطفه	كما هز شَرْبَ الحيّ صهباءُ قَرْقَفُ
ويرسو إذا طاشت حُبا القوم واغتدت	صعاب الذرا من زعزع الخطب ترجف
صَروم الدنايا هاجرٌ كلّ سُبّة	ولكنه بالمجد صَبٌّ مكلَّف
يضيق بأدنى العار ذرعاً وصدرُهُ	بأهوالِ ما يدني من الحمد نَفْنَف
إذا قيل عونُ الدين يحيى تألّق الـ	غمامُ وماس السمهريُّ المثقف

وكانت عوائدهم في بغداد في شهر رمضان أن الأعيان يحضرون سماط الخليفة عند الوزير ، وهم يسمون السماط « الطبق » وكان حيص بيص في جملة من يحضر الطبق ، وكانت نفسه أبية وهمته عربية ، وإذا أحضروا الطبق تخطّاه وقعد فوقه من أرباب المراتب جماعة ليس فيهم فضل ، فيجد في نفسه لذلك مشقة عظيمة فكتب إلى الوزير عون الدين يستعفيه من الحضور[3] :

يا باذلَ المالِ في عُدْمٍ وفي سَعَةٍ	ومطعمَ الزاد في صُبْحٍ وفي غسقِ
وحاشرَ الناس أغنتهم فواضله	إلى مزيدٍ من النعماء مندفق
في كل بيتٍ خِوانٌ من مكارمه	يميرهم وهو يدعوهمُ إلى الطبق
فاض النوالُ فلولا خوف منعمةٍ	من بأس عدلك نادى الناسُ بالغرق
وكل أرض بها صوبٌ وساكبة	حتى الوغى من نجيع الخيل والعرق

---

١ فلم يعزله : سقطت من ر ق ع س بر من : وورد بعدها : فلم يعرض له .

٢ انظر ج ٢ : ٣٦٢ .

٣ انظر الخريدة (قسم العراق) ١ : ٢٨٤ .

صُن منكبي عن زحامٍ إن غضبتُ له	تمكن الطعنُ من عرضي[1] ومن خلقي
وإن رضيتُ به فالذل مَنْقَصةٌ	فكم تكلفته حملاً فلم أطق
أنا المريض بأحداث وسورتها	وليس غير إبائي حافظ رمقي
وهبه لي كعطاياك التي كثرت	فالجودُ بالعزّ فوق الجودِ بالورق
إن اصفرار مجنّ الشمس من حزنٍ	على علاها لمرماها إلى الأفق
وإن توهم قومٌ أنّه حُمُقٌ	فربما اشتبه التوقيرُ بالحمق

وأهدي إلى الوزير عون الدين دواة بلور مرصعة بمرجان ، وفي مجلسه جماعة منهم حيص بيص ، فقال الوزير : يحسن أن يقال في هذه الدواة شيء من الشعر ، فقال بعض الحاضرين ، وكان ضريراً ، ولم أقف على اسمه :

ألين لداودَ الحديدُ كرامةً	يقدّره في السَّرْد كيف يريدُ
ولان لك البلور وهي حجارةٌ	ومعطفه صعب المرام شديدُ

فقال حيص بيص : إنّما وصفت صانع الدواة ولم تصفها ، فقال الوزير : من عَيَّر غَيَّر[2] ، فقال الحيص بيص :

صيغت دواتك من يوميك فاشتبها	على الأنام ببلور ومرجان
فيومُ سلمك مبيضّ بفيض ندًى	ويومُ حربكَ قانٍ بالدّمِ القاني

ثم وجدت البيتين الأولين في كتاب « الجنان » تأليف القاضي الرشيد أحمد ابن الزبير الغساني – المذكور في أوائل هذا الكتاب[3] – ونسبهما إلى القاضي الرشيد أحمد بن قاسم الصقلي قاضي مصر ، وذكر أنّه دخل على الأفضل شاهان شاه أمير الجيوش بمصر – وقد تقدم ذكره أيضاً[4] – فرأى بين يديه دواة من

[1] الخريدة : من عقلي ، وكذلك هو في ق ع بر من .
[2] بر من والمختار : من غير غير ؛ س : من غبر غبر .
[3] انظر ج ١ : ١٦٠ .
[4] انظر ج ٢ : ٤٤٨ .

عاج محلاة بمرجان ، فقال بديهاً :

ألين لداود الحديد كرامة يقدره في السَّرْد كيف يريدُ
ولان لك المرجان وهو حجارة على أنّه صعبُ المرام شديد[1]

ومدحه أبو عبد الله محمد بن بختيار المعروف بالأبله الشاعر — المقدم ذكره — بقصائد عديدة : منها وهي أحسنها فلهذا ذكرتها :

ولع النسيم وبانة[2] الجرعا وصفاك إلا الحليَ والوَدْعا
يا دُميةً ضاقتْ خلاخلهـــا عنها وضقتُ بحبها ذرعا
قد كنتُ ذا دمعٍ وذا جلَدٍ فبقيت لا جلداً ولا دمعا
صيرتِ جسمي للضنى سكناً وسكنتِ بعد تبالةَ الجزعا
يا من رأى أدماءَ سانحةً قلبي لها لا المنحنى مَرْعى
لاثتْ بمثل الغصن[3] مئزرها وجلَتْ بعودِ أراكة طلعا
وإذا تراجعك الكلامَ فـــلا تعددْ لأيام الصبا رُجْعى
ولقد سعت بالكأس تُصْبحني[4] سكرى اللواحظ وعثة المسعى
في مستنير الزهر ما صنعت أبرادَهُ عَدَنٌ ولا صنعا
باكرتُ مفترعاً ثراه ومـا ركب الحمامُ لبانةٍ فرعا
سَلّتْ عليه البارقاتُ ظباً لبس الغديرُ لخوفها درعا
يا عاذلي إن شئت تُسمعني عذلاً فشق لصخرة سمعا
طبعاً جبلتُ على الغرام كما جُبل الوزير على الندى طبعا

---

١ كذلك ذكر العماد في الخريدة ١ : ٣٢٦ (قسم العراق) ، وقد سقط هذا النص كله من النسخ ر س بر من .

٢ س : ببانة .

٣ س من بر ق : الدعص .

٤ س : تصحبني .

وخرج بعد هذا إلى المديح فأضربت عنه ، ولولا خوف الإطالة لذكرته .
ومدحه أبو الفتح محمد بن عبد الله سبط ابن التعاويذي – المقدم ذكره – بقصيدة واحدة وهي[1] :

سقاها الحيا من أرْبُعٍ وطلولِ ... حكت دَنَفي من بعدهم ونحولي
ضمنتُ لها أجفانَ عينٍ قريحة ... من الدمع مدرارِ الشؤونِ همول
لئن حال رسمُ الدارِ عما عهدتُه ... فعهدُ الهوى في القلب غير محيل
خليليَّ قد هاج الغرامُ وشاقني ... سنا بارقٍ بالأجرعين[2] كليل
ووَكَّل طرفي بالسهاد تنظُّري ... قضاءَ مليٍ بالديون مطولِ
إذا قلت قد أنحلتِ جسمي صبابة ... تقولُ وهل حبٌّ بغير نحول
وإن قلتُ دمعي بالأسى فيك شاهدي ... تقولُ شهودُ الدمع غيرُ عدول
فلا تعذلاني إن بكيتُ صبابةً ... على ناقضٍ عهدَ الوفاء ملول
فأبرحُ ما يُمنى به الصب في الهوى ... ملالُ حبيب أو ملام عذول
ودون الكثيب الفردِ بيضٌ عقائلٌ ... لعبن بألباب لنا وعقول
غداة التقتْ ألحاظها وقلوبنا ... فلم تجلُ إلا عن دمٍ وقتيل
ألا حبذا وادي الأراك وقد وَشَتْ ... برياكِ ريحاً شمألٍ وقبول
وفي أبرديه كلما اعتلّتِ الصّبا ... شفاءُ فؤاد بالغرام عليل
دعوتُ سُلواً فيك غيرَ مساعدي[3] ... وحاولتُ صبراً عنك غير جميل
تعرفت أسبابَ الهوى وحملته ... على كاهلٍ للنائبات حمول
فلم أحظَ في حبِّ الغواني بطائلٍ ... سوى رَعْي ليلٍ بالغرام طويل

ومنها :

إلى كم تمنيني الليالي بماجدٍ ... رَزِينٍ وقارِ الحلم غير عَجول

---

[1] ديوان ابن التعاويذي : ٣٤٤ .
[2] في بعض النسخ : بالأبرقين .
[3] ق ع والمختار : غير مساعد .

أهز اختيالاً في هواه معاطفي وأسحبُ تيهاً في ثراه ذيولي
لقد طال عهدي بالنوال وإنّني لصبٌّ إلى تقبيل كف مُنيل
وإن ندى يحيى الوزير لكافلٌ بها لي ، وعونُ الدين خير كفيل

وكان عون الدين كثيراً ما ينشد :

ما ناصحتك خبايا الودّ من أحد ما لم ينلك بمكروهٍ من العَذَلِ
مودتي لك تـأبى أن تسامحني بأن أراك على شيءٍ من الزلل

وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه « مرآة الزمان » ورأيته بدمشق في أربعين مجلداً وجميعه بخطه – وكان أبوه قزغلي مملوك عون الدين ابن هبيرة المذكور ، وزَوَّجه[1] بنت الشيخ جمال الدين أبي الفرج المذكور ، فأولدها شمس الدين فولاؤه له – أنّه سمع مشايخه ببغداد يحكون أن عون الدين قال : كان سبب ولايتي المخزن أنني ضاق ما بيدي حتى فقدت القوت أياماً ، فأشار عليّ بعض أهلي أن أمضي إلى قبر معروف الكرخي رضي الله عنه ، فأسأل الله تعالى عنده ، فإن الدعاء عنده مستجاب ، قال : فأتيت قبر معروف فصليت عنده ودعوت ، ثم خرجت لأقصد البلد ، يعني بغداد ، فاجتزت بقَطُفْتا[2] – قلت : وهي محلة من محال بغداد – قال : فرأيت مسجداً مهجوراً فدخلت لأصلي فيه ركعتين ، وإذا بمريض ملقى على بارية ، فقعدت عند رأسه وقلت : ما تشتهي ؟ فقال : سفرجلة ، قال : فخرجت إلى بقال هناك فرهنت عنده مئزري على سفرجلتين وتفاحة وأتيته بذلك ، فأكل من السفرجلة ، ثم قال : أغلق باب المسجد ، فأغلقته ، فتنحى عن البارية وقال : احفر هاهنا ، فحفرت وإذا بكوز ، فقال : خذ هذا فأنت أحق به ، فقلت : أما لك وارث ؟ فقال : لا ، وإنّما كان لي أخ وعهدي به بعيد وبلغني أنّه مات ، ونحن من الرصافة ،

---

[1] س : زوجته .
[2] انظر التعريف بها في ياقوت .

قال : وبينا هو يحدثني إذ قضى نحبه ، فغسلته وكفنته ودفنته ، ثم أخذت الكوز وفيه مقدار خمسمائة دينار وأتيت إلى دجلة لأعبرها ، وإذا بملاح في سفينة عتيقة وعليه ثياب رثة ، فقال : معي معي ، فنزلت معه ، وإذا به من أكثر الناس شبهاً بذلك الرجل ، فقلت : من أين أنت ؟ فقال : من الرصافة ، ولي بنات ، وأنا صعلوك ، قلت : فما لك أحد ؟ قال : لا ، كان لي أخ ولي عنه زمان ما أدري ما فعل الله به ، قال : فقلت : ابسط حجرك ، فبسطه فصببت المال فيه ، فبهت ، فحدثته الحديث ، فسألني أن آخذ نصفه فقلت : لا والله ولا حبة ، ثم صعدت إلى دار الخليفة وكتبت رقعة فخرج عليها إشراف المخزن ، ثم تدرجت إلى الوزارة .

وقال جدي الشيخ أبو الفرج في كتاب « المنتظم »[1] : وكان الوزير يسأل الله تعالى الشهادة ويتعرض لأسبابها ، وكان صحيحاً يوم السبت ثاني عشر جمادى الأولى من سنة ستين وخمسمائة ، فنام ليلة الأحد في عافية ، فلما كان في وقت السحر قاء ، فأحضر طبيباً[2] كان يخدمه فسقاه شيئاً ، فيقال إنّه سمه فمات ، وسقي الطبيب بعده بنحو ستة أشهرٍ سماً فكان يقول : سُقيت كما سَقيت ، ومات الطبيب .

وقال في « المنتظم » أيضاً : وكنت ليلة مات الوزير نائماً على سطح مع أصحابي ، فرأيت في المنام كأنّي في دار الوزير وهو جالس ، فدخل رجل بيده حربة قصيرة[3] فضربه بها بين أنثييه فخرج الدم كالفوارة فضرب الحائط ، فالتفت فإذا بخاتم من ذهب ملقى ، فأخذته وقلت : لمن أعطيه ؟ أنتظر خادماً يخرج فأعطيه إياه ، وانتبهت وحدثت أصحابي بالرؤيا ، فلم أستتمّ الحديث حتى جاء رجل فقال : مات الوزير ، فقال بعض الحاضرين : هذا محال ، أنا فارقته أمس العصر وهو في كل عافية ، وجاء آخر وصح الحديث ، وقال لي ولده : لا بد أن تغسله ، فأخذت في غسله ورفعت يده لأغسل مغابنه ــ قلت :

---

١ المنتظم ١٠ : ٢١٦ .

٢ ق ع س بر من : فحضر طبيب ، وكذلك في المنتظم .

٣ قصيرة : سقطت من : ع ق س بر من ، والمنتظم .

المغابن : مطاوي البدن مثل الإبط وغيره ، واحدها مغبن ، بفتح الميم وكسر الباء الموحدة وسكون الغين المعجمة – قال : فسقط الخاتم من يده ، فحين رأيت الخاتم تعجبت من المنام ، قال : ورأيت في وقت غسله آثاراً في وجهه وجسده تدل على أنّه مسموم ، فلما خرجت جنازته غلقت أسواق بغداد [1] ، ولم يتخلف عن جنازته أحد ، وصلّي عليه في جامع القصر [2] ، وحمل إلى باب البصرة ، فدفن في مدرسته التي أنشأها ، وقد دثرت الآن ، ورثاه جماعة من الشعراء ؛ انتهى كلام أبي الفرج ابن الجوزي .

وقال مؤلف سيرة الوزير المذكور : إن سبب موته كان بلغماً ثار بمزاجه وقد خرج مع المستنجد للصيد ، فسقي مسهلا فقصر عن استفراغه ، فدخل إلى بغداد يوم الجمعة سادس جمادى الأولى راكباً متحاملاً إلى المقصورة لصلاة الجمعة فصلى بها وعاد إلى داره ، فلما كان وقت صلاة الصبح عاوده البلغم ، فوقع مغشياً عليه ، فصرخ الجواري فأفاق فسكتهن ، وبلغ الخبر ولده عز الدين أبا عبد الله محمداً ، وكان ينوب عنه في الوزارة ، فبادر إليه ، فلما دخل عليه قال له : قد بث [3] أستاذ الدار عضد الدين [4] أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء المعروف بابن المسلمة جماعة ليستعلم [5] ما هذا الصياح ، فتبسم الوزير على ما هو عليه من تلك الحال وأنشد :

وكم شامتٍ بي عند موتي جهالةً ... بظلمٍ يسل السيفَ بعد وفاتي
ولو علم المسكين ما ذا يناله ... من الضرّ بعدي مات قبل مماتي

ثم تناول مشروباً فاستفرغ به ، ثم استدعى بماء فتوضأ للصلاة وصلى قاعداً فسجدَ فأبطأ عن القعود من السجود فحركوه فإذا هو ميت ، فطولع به الإمام المستنجد فأمر بدفنه .

---

١ ق ع س بر من : الأسواق ببغداد .
٢ ق ع : جامع المنصور .
٣ ر : بعث .
٤ المختار : عضد الدولة
٥ س بر من : لتستعلم .

وخلف ولدين : أحدهما عز الدين المذكور والآخر شرف الدين أبو الوليد مظفر [1] .

وأمّا مولده فقد ذكر أبو عبد الله محمد بن القادسي في « تاريخ الوزراء » [2] أنّه ولد في سنة سبع وتسعين وأربعمائة على ما ذكره من لفظه ، رحمه الله تعالى .

قال بعضهم : رأيته في المنام بعد موته ، فسألته عن حاله ، فقال :

قد سئلنا عن حالنا فأجبنـا بعد ما حال حالُنا وحُجبنا
فوجدنـا مضاعفاً ما كسبنا ووجدنا ممحصاً ما اكتسبنا

ولمّا بلغ خبر موته عضد الدين ابن المظفر أستاذ الدار المذكور كان بحضرته سبط ابن التعاويذي – المذكور قبل هذا – وهو من موالي بني المظفر فإن أباه كان مملوكاً لبعض بني المظفر ، واسمه نشتكين فسماه ابنه عبد الله ، فأراد سبط ابن التعاويذي أن يتقرب إلى عضد الدين لعلمه ما بينه وبين الوزير ، فأنشد مرتجلاً :

قال لي ، والوزير قد مات ، قومٌ قمْ لنبـكي أبا المظفر يحيى
قلتُ أهونْ عندي بذلك رزأً ومصاباً وابنُ المظفر يحيـا

وقال آخر ، ولا أذكر اسمهُ الآن ، لكنه من الشعراء المشاهير :

أيا ربِّ مثلُ الماجدِ ابن هبيرة يموتُ ويحيا مثل يحيى بن جعفرِ
يموت بيحيي كلُّ فضلٍ وسؤدد ويحيا بيحيى كلُّ جهل ومنكر

والمقصود أن محـاسنه كانت كثيرة ، وقد أطلت هذه الترجمة حتّى استوفيت مقاصدها .

ورأيت في كتاب « النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس » تأليف أبي الخطاب ابن دِحية غلطة أحببت التنبيه عليها في هذا الكتاب كي لا يقف عليها

---

١ ق ع س : أبو البدر ظفر .

٢ س بر : تاريخ الوزارة .

أحد فيظنه مصيباً فيما ذكره ، وهو أنّه قال في خلافة المقتفي لأمر الله ما مثاله :
وسعد بوزيره أبي المظفر عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة من ولد الأمير الكبير أبي حفص عمر بن هبيرة ، وقد ذكر المؤرخون فضائل جده ، التي حازها عون الدين من بعده ، ثم ذكر مكرمة جرت لعمر بن هبيرة الفزاريّ أمير العراقين في دولة بني أمية ، وظن ابنُ دحية المذكور أن الوزير المذكور من ذرية ذلك المتقدم ، وعجبت منه من ذلك ، فإن الوزير شيباني النسب — كما شرحناه في أول الترجمة — وذاك فزاري النسب — كما يأتي في ترجمة ولده يزيد بن عمر ابن هبيرة إن شاء الله تعالى — وأين شيبان من فزارة ؟ ولا شك أنّه ما أوقعه في هذا الأمر إلا ما رآه في نسب الوزير، فقد جاء فيه عمر بن هبيرة ، فتوهم أن هذا هو ذاك ، وليس الأمر كما توهمه ، ومثل ابن دحية لا يعذر فقد كان حافظاً ومطلعاً على أمور الناس ، وهذا الأمر واضح لكن الخطأ موكل بالإنسان .

(327) قلت : وأكثر من جرى ذكره في هذه الترجمة قد تقدم ذكره في هذا التاريخ ، وأفردت لكل واحد منهم بترجمة مستقلة ، سوى الشيخ الزبيدي ، فإنّه كان كبير القدر يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وما انتفع الوزير إلا بصحبته ، وما ذكرته في هذا التاريخ ، فينبغي التنبيه عليه ، إذ مثله لا يهمل ، وكان دخوله بغداد في سنة تسع وخمسمائة ، وتوفي في شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، رحمه الله تعالى . وقال أبو عبد الله ابن النجار في « تاريخ بغداد » : كان مولده بزبيد في ليلة الأربعاء الثاني والعشرين من المحرم سنة ستين وأربعمائة ، وتوفي ليلة الاثنين مستهل شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة جامع المنصور ببغداد ، رحمه الله تعالى .

وقول الآخر :

أيا رب مثل الماجد ابن هبيرة … يموت ويحيا مثل يحيى بن جعفر !

(328) فالمراد به أبو الفضل يحيى بن أبي القاسم عبد الله بن محمد بن المعمر ابن جعفر الملقب زعيم الدين ، تولى النظر بالمخزن في جمادى الآخرة سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة إلى سنة سبع وستين ، ففيها ناب في الوزارة بعد عزل

أبي الفرج ابن المظفر ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي ، وكان مشكوراً محمود الطريقة محباً لأهل العلم ، وكانت ولادته ليلة الجمعة بعد العشاء الأخير التاسع والعشرين من صفر سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وتوفي ليلة العشرين من شهر ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن من الغد في الحربية بتربة له ، رحمه الله تعالى [1] .

٨٠٨

ابن زبادة

أبو طالب يحيى بن أبي الفرج سعيد بن أبي القاسم هبة الله بن علي بن فرغلي [2] ابن زَبادة الشيباني ، الكاتب المنشيء الواسطي الأصل ، البغدادي المولد والدار والوفاة ، الملقب قوام الدين ، وقيل عميد الدين ؛ كان من الأعيان الأماثل والصدور الأفاضل ، انتهت إليه المعرفة بأمور الكتابة والإنشاء والحساب مع مشاركته في الفقه وعلم الكلام والأصول وغير ذلك ، وله النظم الجيد . جالس أبا منصور ابن الجواليقي وقرأ عليه وعلى من بعده ، وسمع الحديث من جماعة ، وخدم الديوان من صباه إلى أن توفي عدة خدمات ، وكان مليح العبارة في الإنشاء ، جيد الفكرة حلو الترصيع لطيف الإشارة ، وكان الغالب عليه في رسائله العناية بالمعاني أكثر من طلب التسجيع ، وله رسائل بليغة [3] وشعر رائق ، وفضله أشهر من أن يذكر .

---

١ كتب في ع في إثر ذلك : آخر هذه الترجمة والحمد لله وحده ؛ قلت وبعدها بحسب ترتيب ع تجيء ترجمة ابن الجراح .

٨٠٨ – ترجمته في معجم الأدباء ٢٠ : ١٦ ومرآة الجنان ٣ : ٤٧٧ وعبر الذهبي ٤ : ٢٨٤ والشذرات ٤ : ٣١٨ والبداية والنهاية ١٣ : ١٧ .

٢ ابن فرغلي : سقطت من س ق ع والمختار .

٣ علق صاحب المختار هنا بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد ، لطف الله به : ومن رسائله =

وتولى النظر بديوان البصرة وواسط والحلة ، ولم يزل على ذلك إلى أن طلب من واسط والحلة ، ولم يزل على ذلك إلى المحرم سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، ورتب حاجباً بباب النوبي ، وقلد النظر في المظالم ، ثم عزل عن ذلك في شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين ، ثم أعيد إليه في جمادى الأولى سنة اثنتين وثمانين، فلما قتل أستاذ الدار — وهو مجد الدين أبو الفضل هبة الله بن علي بن هبة الله بن محمد بن الحسن المعروف بابن الصاحب ، وكان قتله يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، ترتب ابن زبادة المذكور مكانه ، ثم عزل في سنة خمس وثمانين ، وعاد إلى واسط فأقام بها إلى أن استدعي في شهر رمضان سنة اثنتين وتسعين ، وقلد ديوان الإنشاء في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شهر رمضان ، ثم رد إليه النظر في ديوان المقاطعات ، فكان على ذلك إلى حين وفاته .

وكان حسن السيرة محمود الطريقة متديناً ، حدث بشيء يسير وكتب الناس عنه كثيراً من نظمه ونثره ، فمن ذلك قوله :

باضطرابِ الزمانِ ترتفعُ[1] الأنذالُ فيه حتّى يعمَّ البلاءُ
وكذا الماء ساكناً[2] فإذا حُرِّكَ ثارتْ من قعره الأقذاءُ

وله أيضاً :

إنّي لأعظمُ ما تلقونني جلدا إذا توسطت هولَ الحادث النكدِ
كذلك الشمسُ لا تزدادُ قوتها إلا إذا حصلت في زبرة الأسد

وكتب إلى الإمام المستنجد يهنيه بالعيد :

يا ماجداً جل قدراً أن نهنّيَهُ لنا الهناءُ بظلٍّ منكَ ممدودِ

= الفائقة ما كتبه عن الإمام الناصر إلى السلطان صلاح الدين ينكر عليه أموراً منها كونه تسمى بالملك الناصر وشارك الخليفة في هذا الاسم ، وقفت عليها وعلى جواب القاضي الفاضل عنها ، وبينهما بون كبير ، فما لحق الفاضل فيها غباره ، والله أعلم » .

١ س : يرتفع .

٢ س : ساجياً .

الدهر أنت ويوم العيد منك وما في العرف أنا نُهَنّي الدهرَ[1] بالعيد

وله أيضاً :

إن كنت تسعى للسعادة فاستقمْ تنلِ المرادَ ولو سموتَ إلى السما
ألفُ الكتابة وهو بعضُ حروفها لما استقام على الجميع تقدما

وله أيضاً :

لا تغبطنَّ وزيراً للملوك وإن أناله الدهرُ منهم فوق همّتهِ
واعلمْ بأن له يوماً تمورُ به الا أرضُ الوقورُ كما مارت لهيبته
هرون وهو أخو موسى الشقيقُ له لولا الوزارةُ لم يأخذ بلحيته

وله كل معنى مليح ، وله ديوان رسائل وقفت عليه في بلادنا ، ولم يحضرني شيء منه كي أثبته هاهنا .

وقال أبو عبد الله محمد بن سعيد الدبيثي في تاريخه : أنشدنا أبو طالب يحيى ابن سعيد بن هبة الله ، يعني ابن زبادة المذكور ، من حفظه ، قال : أنشدني أبو بكر أحمد بن محمد الأرجاني لما قدم بغداد علينا في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة لنفسه – قلت : وهو ناصح الدين أبو بكر أحمد الأرجاني المقدم ذكره[2] – قوله :

ومقسومةِ العينين من دَهَشِ النوى وقد راعها بالعيس رَجْعُ حُداء
تجيبُ بإحدى مقلتيها تحيّتي وأُخرى تراعي أعينَ الرقباء
رأت حولها الواشين طافوا فغيضت لهم دمعها واستعصمت بحياء
فلمّا بكت عيني غداةَ وداعهمْ وقد روعتني فرقةُ القرناء
بدت في محياها خيالاتُ أدمعي فغاروا وظنّوا أن بكت لبكائي

---

١ ق بر : العيد .

٢ ج ١ : ١٥١ .

وكتب إليه أبو الغنائم محمد بن علي المعروف بابن المعلم الهرثي الشاعر – المقدم ذكره[1] – وقد عزل عن نظر واسط :

ولأنتَ إن لم يبللِ الغيثُ الثرى تروي الورى بسماحك الهتانِ
لم يعزلوك عن البلاد لحالة تدعو إلى النقصان والشنآن
بل مذ رأوا آثارَ جودك زاخراً حفظوا بلادهمُ مِنَ الطوفان

قلت : وحكى لي الوجيه أبو عبد الله محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن سويد التاجر التكريتي قال : كان الشيخ محيي الدين أبو المظفر يوسف بن الحافظ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزي الواعظ المشهور قد توجه رسولاً من بغداد إلى الملك العادل بن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب سلطان[2] مصر في ذلك الوقت ، وكان أخوه الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل محبوساً في قلعة الكرك يومئذ – وقد شرحت ذلك في ترجمة الكامل في هذا التاريخ – قال الوجيه : فلما عاد محيي الدين راجعاً إلى بغداد وقدم دمشق ، كنت بها ، فدخلت عليه أنا والشيخ أصيل الدين أبو الفضل عباس بن عثمان ابن نبهان الإربلي ، وكان رئيس التجار في عصره ، وجلسنا نتحدث معه فقال : قد حلفت الملك الناصر داود صاحب الكرك أن لا يخرج الملك الصالح من الحبس إلا بأمر أخيه الملك العادل ، قال : فقال له الأصيل : يا مولانا ، هذا بأمر الديوان العزيز ؟ فقال محيي الدين : وهل هذا يحتاج[3] إلى إذن ؟ هذا اقتضته المصلحة ، ولكن أنت تاريخ يا أصيل ، فقال : يعني مولانا أنّي قد كبرت وما أدري ما أقول ، وأنا أحكي لمولانا حكاية في هذا المعنى أعرفها من غرائب الحكايات ، قال : هات ، فقال : كان ابن رئيس الرؤساء ناظر واسط يحمل في كل شهر حملَ واسط وهو ثلاثون ألف دينار لا يمكن أن يتأخر يوماً واحداً عن العادة ، فتعذر في بعض الأشهر كمال الحمل ، فضاق صدره لذلك وذكره

---

١ انظر ج ٥ : ٥ .

٢ المختار : صاحب .

٣ ع : محتاج .

لنوابه ، فقالوا له : يا مولانا هذا ابن زبادة عليه من الحقوق أضعاف ذلك ، ومتى حاسبته قام بما يتم الحمل وزيادة ، فاستدعاه وقال له : لم لا تؤدي كما يؤدي الناس ؟ فقال : أنا معي خط الإمام المستنجد بالمسامحة ، قال : هل معك خط مولانا الإمام الناصر ؟ قال : لا ، قال : قم واحمل ما يجب عليك ، قال : ما ألتفت إلى أحد ولا أحمل شيئاً . ونهض من المجلس ، فقال النواب لابن رئيس الرؤساء : أنت صاحب الوسادتين وناظر النظار ، وما على يدك يد ، ومن هو هذا حتى يقابلك بمثل هذا القول ؟ ولو كبست داره وأخذت ما فيها ما قال لك أحد شيئاً ، وحملوه عليه حتى ركب بنفسه وأجناده ، وكان ابن زبادة يسكن قبالة واسط ، وقدموا إلى ابن رئيس الرؤساء السفن حتى يعبر إليه ، وإذا بزبزب قد قدم من بغداد ، فقال : ما قدم هذا إلا في مهم ، ننظر ما هو ثم نعود إلى ما نحن بسببه ، فلما دنا من الزبزب فإذا فيه خدم من خدام الخليفة ، فصاحوا به : الأرض الأرض ، فقبل الأرض وناولوه مطالعة ، وفيها : قد بعثنا خلعة ودواة لابن زبادة ، فتحمل الخلعة على رأسك والدواة على صدرك ، وتمشي راجلاً إليه وتلبسه الخلعة وتجهزه إلينا وزيراً ، فحمل الخلعة على رأسه والدواة على صدره ومشى إليه راجلاً ، فلما رآه ابن زبادة أنشده ابن رئيس الرؤساء :

إذا المرء حيٌّ فهو يرجي ويتقي وما يعلمُ الإنسانُ ما في المغيَّبِ

وأخذ يعتذر إليه ، فقال له ابن زبادة : لا تثريب عليكم اليوم ، وركب في الزبزب إلى بغداد ، وما علموا أن أحداً أرسلت إليه الوزارة غيره ، فلما وصل إلى بغداد كان أول ما نظر فيه أن عزل ابن رئيس الرؤساء عن نظر واسط قال : هذا ما يصلح لهذا المنصب ، ثم قال الأصيل : ولا يأمن مولانا أن يخرج الملك الصالح ويملك ويعود إليه رسولاً ويقع وجهك في وجهه وتستحي منه ، فأنشده محيي الدين قوله :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما وينشرَ في الموتى كليبٌ لوائلِ

فما كان إلا مديدة حتى خرج الملك الصالح من حبس الكرك وملك مصر وكان ما كان . قلت : وكنت بمصر ومحيي الدين بهـــا رسول إلى الملك

العادل ، وقبض العادل ، وجاء الصالح فخرج محيي الدين التقاه ، وشاهدت ذلك .

هكذا ذكر لي الوجيه هذه الحكاية ، وفيها غلط إمّا من الوجيه أو من الأصيل ، فإن ابن زبادة ما ولي الوزارة ولا تولى إلاّ ما ذكرته في أوائل ترجمته ، فإن كان هذا صحيحاً فيكون ذلك لما طلب للإنشاء كما شرحته ، والله أعلم بالصواب .

قال ابن الدبيثي المذكور : سألت أبا طالب ابن زبادة عن مولده فقال : ولدت يوم الثلاثاء الخامس والعشرين من صفر سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة وتوفي ليلة الجمعة السابع والعشرين من ذي الحجة سنة أربع وتسعين وخمسمائة وصلي عليه بجامع القصر ، ودفن بالجانب الغربي بمشهد الإمام موسى بن جعفر رضي الله عنهما ، يعني ببغداد .

وزبادة : بفتح الزاي ، هو القطعة من الزباد الذي يتطيب النسوان به، والله أعلم .

٨٠٩

يحيى بن نزار المنبجي

أبو الفضل يحيى بن نزار بن سعيد المنبجي ؛ ذكره الحافظ أبو سعد عبد الكريم بن السمعاني في كتاب « الذيل على تاريخ الخطيب » المختص ببغداد ، فقال : له شعر مطبوع غير متكلف ، وكتب لي أبياتاً من شعره ، وسمعت منه ، وسألته عن مولده فقال : ولدت في المحرم من سنة ست وثمانين وأربعمائة بمنبج . وأورد له مقاطيع أنشده إياها ، فمن ذلك قوله :

---

٨٠٩ – ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٢ : ٢٣٤ ومرآة الزمان : ٢٣٣ . والمنتظم ١٠ : ١٩١ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٣٦ .

وأغيَد غضٍّ زاد خَطٌّ عذاره لعاشقه في همّه والبلابلِ
تموجُ بحارُ الحسنِ في وَجَناتـه فتقذفُ منهاً عنبراً في السواحل
وتُجري بخديه الشبيبةُ ماءَها فتنبت ريحاناً جنوبَ الجداول

قلت : وقد خطر لي على هذا مأخذ وهو أنّه جعل في البيت الثاني بحار الحسن تموج في وجناته ، فكيف يقول في البيت الثالث « وتجري بخديه الشبيبة ماءَها » وما مقدار ماء الشبيبة بالنسبة إلى بحار الحسن ؟ وما كفى هذا حتى جعلها جداول ، والجداول الأنهار ، وأين الأنهار من البحار ، ؟ ثم إنّه في البيت الثاني قد شبه العذار بالعنبر ، فكيف يجعله في البيت الثالث ريحاناً ؟ وأين العنبر من الريحان ؟ وإن كان كل واحد من العنبر والريحان قد جرت عادة الشعراء أن يشبهوا به العذار ، ولكن في مقطوع واحد من الشعر ما لهم عادة يجمعون بينهما . وكنت قد سمعت في زمن الاشتغال بالأدب بيتين استحسنتهما ولم أعرف قائلهما ، وهما :

يا عاذلي في حبِّ ذي عارضٍ ما البلد المخصبُ كالماحلِ
يموجُ بحرْ الحسن في خده فيقذفُ العنبرَ في الساحل

فلما كان في أوائل سنة اثنتين وسبعين وستمائة وقفت بالقاهرة المحروسة على مجلد من كتاب « السيل والذيل » تأليف عماد الدين الكاتب الأصبهاني ، وقد جعله ذيلاً على كتابه « خريدة القصر » ، فرأيت فيه ترجمة يحيى بن نزار المنبجي المذكور ، وقد ذكر له مقدار عشرة أبيات يمدح بها السلطان نور الدين محمود ابن زنكي رحمه الله تعالى ، وفي جملة الأبيات البيت الثاني من هذين البيتين ، فعلمت أن الذي نظم ذلك المعنى في البيت الثاني من الثلاثة هو الذي نظم هذين البيتين في هذه الأبيات التي ذكرها في كتاب « السيل » . ثم بعد ذلك بقليل جاءني صاحبنا جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن أحمد المعروف بالحافظ اليغموري [1]

---

[1] ترجمة الحافظ اليغموري في الزركشي ٣ الورقة : ٣٦٥ والبدر السافر ، الورقة ٢٣٧ ؛ سمي اليغموري لأنه صحب الأمير ابن يغمور ولازمه ، كان فاضلا أديباً جمع مجاميع كثيرة مفيدة وعمل تاريخاً ، ولد بدمشق سنة ستمائة تقريباً وتوفي بالمحلة سنة ٦٧٣ .

فتذاكرنا وجرى ذكر البيتين وقال : إنهما لعماد الدينَ أبي المناقب حسام ابن عزّى بن يونس المحلي نزيل دمشق ، وذكر أنّه سمعهما منه وادعاهما لنفسه ، فقلت له : البيت الذي فيه المعنى ليس له ، بل هو ليحيى بن نزار المنبجي ويكون العماد المحلي قد نظم البيت الأول وجعله توطئة للثاني ، واستعمله على وجه التضمين كما جرت العادة في مثله ، لكنه كان ينبغي أن ينبه على أنّه تضمين كي لا يعتقد من يقف عليهما أنهما له ، فإن البيت الأول ليس في جملة أبيات يحيى المنبجي التي مدح بها نور الدين رحمه الله تعالى . ثم من بعد ذلك خطرت لي مؤاخذة على العماد المحلي فإنّه قال في بيته الذي جعله توطئة للثاني :

ما البلد المخصب كالماحل

والخصب والمحل إنما يكون بسبب النبات وعدمه ، والبيت الثاني الذي هو التضمين شبه العذار بالعنبر ، وأين النبات من العنبر ؟ فالتوطئة بين البيتين ليست بملائمة ، وهذه المؤاخذة مثل المؤاخذة المتقدمة على الأبيات الثلاثة .

وكنت وقفت على بيتين للعماد المحلي المذكور أيضاً أنشدنيهما عنه جماعة وهما :

قيل لي من هويتَ قد عبث الشعـ ـرُ بخديه قلت ما ذاك عارُهْ
جمرةُ الخدِّ أحرقت عنبرَ الخا ل فمن ذلك الدخان عِذارُهْ

وسنح لي عليهما مؤاخذة مثل المؤاخذة المذكورة ، وهي أنّه لمّا قيل له إن الشعر عبث بخديه ما أنكر ذلك بل قال « ما ذاك عاره » ، فقد وافق على أنّه شعر ، غاية ما في الباب أنّه قال هذا الشعر ما هو عاره ، فكيف يقول بعد هذا « جمرة الخد أحرقت عنبر الخال » إلى آخره ، فجعل العذار دخان العنبر ، وأين دخان العنبر من الشعر ؟ بل كان ينبغي أن يقول لهم : هذا ما هو شعر ، بل هو دخان العنبر حتى يتم له المعنى .

وقد نظم صاحبنا ورفيقنا في الاشتغال بحلب عون الدين أبو الربيع سليمان ابن بهاء الدين عبد المجيد ابن العجمي الحلبي [1] بيتين ألم فيهما بهذا المعنى وهما :

---

[1] ترجمته في الفوات ١ : ٣٥٨ وفيه البيتان؛ ولد سنة ست وستمائة وتوفي سنة ست وخمسين =

لهيب الخد حين بدا لعيني ... هوى قلبي عليه كالفَراشِ
فأحرقه فصار عليه خالاً ... وها أثر الدخانِ على الحواشي

وقد أحسن في هذا المعنى وخلص من تلك المؤاخذة ، لكن وقع في مؤاخذة أُخرى ، وهي أنّه جعل العذار دخان احتراق قلبه ، والعماد جعله دخان عنبر الخال ، وبين الدخانين بون كبير ، فهذا طيب الرائحة وذاك كريه الرائحة .

وقد سبق في ترجمة عبد الله بن صارة الشنتريني [1] بيتان أبدع فيهما ، وهما :

ومهفهفٍ رقت حواشي حسنه ... فقلوبنا وجداً عليه رقاقُ
لم يكسُ سالفه العذارُ وإنّما ... نفضت عليه صباغَها الأحداقُ

والأصل في هذا الباب [2] كله قول أبي إسحاق إبراهيم الصابي الكاتب في غلامه الأسود واسمه يمن — وقد سبق ذكر الأبيات في ترجمته من هذا الكتاب [3] ، والمقصود منها هاهنا قوله في أولها :

لك وجه كأن يمناي خطته ... بلفظ تمله آمالي
فيه معنى من البدور ولكن ... نفضت صبغها عليه الليالي

وبيتا عون الدين فيهما إلمام بقول أبي الحسين أحمد بن منير الطرابلسي — المقدم ذكره — :

لا تخالوا الخالَ يعلو خدّهُ ... قطرةً من دم جفني نطفتْ
ذاك من نار فؤادي جذوةٌ ... فيه ساختْ وانطفت ثم طفت

قلت : وقد خرجنا عن المقصود وانتشر الكلام ، لكن ما خلا من فائدة .

= وستمائة بدمشق ، وكان متأهلا للوزارة كامل الرياسة لطيف الشمائل ؛ وانظر عقود الجمان لابن الشعار ج ٣ ، الورقة : ١١١ والزركشي : ٢ ، الورقة : ١٢٧ .

١ انظر ج ٣ : ٩٤ .

٢ المختار : المعنى .

٣ ج ١ : ٥٣ .

وقال أبو سعد السمعاني أيضاً : أنشدني يحيى بن نزار المنبجي لنفسه :

لو صَدّ عني دلالاً أو معاتبةً　　لكنتُ أرجو تلافيه وأعتذرُ
لكن ملالاً فلا أرجو تعطّفه　　جبرُ الزجاجِ عسيرٌ حين ينكسر

وله غير هذا نظم مليح ومعان لطيفة .

وقال أبو الفرج صدقة بن الحسين بن الحداد[1] في تاريخه المرتب على السنين ما مثاله : سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، في ليلة الجمعة سادس ذي الحجّة مات يحيى بن نزار المنبجي ببغداد ، ودفن بالوردية ، قيل إنّه وجد في أذنه ثقلا ، فاستدعى إنساناً من الطرقية ، فامتص أذنه فخرج شيء من مخه ، فكان سبب موته ، رحمه الله تعالى .

وقال السمعاني : هو أخو أبي الغنائم التاجر المعروف ، وذكر أبا الغنائم ووصفه وأثنى عليه في ترجمة مستقلة في كتاب « الذيل » أيضاً ، رحمه الله تعالى .

(329) وأمّا العماد المحلي[2] فإنّه كان أديباً لطيفاً على ما يحكى عنه من النوادر وله نظم مليح في المقطعات دون القصائد ، وكان يحفظ المقامات وشرحها ، وتوفي ليلة الأربعاء عاشر شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وستمائة بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية ، وعرف بابن الجمال[3] ، وولد في سنة ستين وخمسمائة تقديراً بقوص ، ونشأ بالمحلة ، فنسب إليها .

ثم وجدت في مسوداتي بخطي بيتاً منسوباً إلى الوجيه أبي الحسن علي بن يحيى بن الحسين بن أحمد المعروف بابن الذروي الأديب الشاعر وهو :

عذاره دخان ندٍّ خاله　　وريقه من ماء ورد خدّه

ثم وجدتُ منسوباً إلى ابن سناء الملك — المقدم ذكره — والصحيح أنها لأسعد

---

١ بغدادي مؤرخ أديب توفي سنة ٥٧٣ هـ ، وقد ابتدأ تاريخه بعام ٥٢٧ ؛ انظر ترجمته في المنتظم ١٠ : ٢٧٦ وشذرات الذهب ٤ : ٢٤٥ ولسان الميزان ٣ : ١٨٤ وتاريخ ابن الأثير ١١ : ٤٤٩.

٢ انظر ذيل الروضتين : ١٦٠ قال : وله ترجمة حسنة في معجم القوصي .

٣ س : بابن الحمال .

ابن مماتي – المقدم ذكره أيضاً – :

سمراء قد أزرت بكل أسمرٍ   بلونها ولينها وقدِّها [1]
أنفاسُها دخانُ نَدّ خالها   وريقُها من ماء وردِ خدها
لو كتب البدرُ إلى خدمتها   ملطفاً ترجمه بعبدها

ورأيت للمهذب أبي نصر محمد بن محمد بن إبراهيم بن الخضر الحلبي المعروف بابن البرهان الحاسب المنجم الطبري [2] :

ومهفهفٍ راقت نضارةُ وجهه   فالعينُ تنظر منه أحسنَ منظرِ
أصلى بنار الخدِّ عنبر خاله   فبدا العذار دخان ذاك العنبر

فعلمت أن العماد المحلى إنّما أخذ ذلك المعنى من أحد هؤلاء ، والله سبحانه وتعالى أعلم .

٨١٠
تاج الدين ابن الجراح

أبو الحسين يحيى بن أبي علي منصور بن الجراح بن الحسين بن محمد بن داود بن الجراح المصري ، وهذه الزيادة في نسبه وجدتّها بخط بعض الأدباء ولا أتحققها ، والأول أصح [3] ، الكاتب المنعوت [4] تاج الدين ؛ كتب في ديوان

---

١ سقط البيت من س .

٢ أبو نصر الحلبي الحاسب يعرف بالسطيل، وكان والده يعرف بالبرهان المنجم الطبري، ولد المهذب بحلب سنة ٥٨٠ وكان فاضلا أديباً له تواليف مفيدة ، وصنف زيجاً ومقدمة في الحساب ، وشعره في مجلدين ، استوطن صرخد وتوفي بها سنة ٦٥٥ (الوافي ١ : ١٧٨) .

٨١٠ – ترجم له ابن الشعار في عقود الجمان : ١٠ الورقة : ٩٨ ونسبه كما ورد هنا : ولا أدري ما الزيادة التي يعنيها المؤلف .   ٣ س بر من : صحيح .   ٤ بر من : الملقب .

الإنشاء بالديار المصرية مدة طويلة ، وكتب الكثير ، وكان خطه في غاية الجودة ، وكان فاضلاً أديباً متقناً ، له فطرة حسنة وشعر فائق ورسائل أنيقة ، سمع الحديث بثغر الإسكندرية المحروسة على الحافظ أبي طاهر السِّلفي وأبي الثناء حماد بن هبة الله الحراني ، وحدث وسمع الناسُ عليه .

وله لغز في الدملج الذي تلبسه النساء ، وهو بديع في بابه فأحببت ذكره ، وهو نثر : ما شيء قلبه حجر ، ووجهه قمر ، إن نبذته صبر ، واعتزل البشر ، وإن أجعته رضي بالنوى ، وانطوى على الحوى ، وإن أشبعته قبل قدمك ، وصحب خدمك ، وإن غلفته ضاع ، وإن أدخلته السوق أبى أن يباع ، وإن أظهرته جمّل المتاع ، وأحسن الإمتاع ، وإن شددت ثانيه ، وحذفت منه القافيه ، كدر الحياة ، وأوجب التخفيف في الصلاه ، وأحدث في[1] وقت العصر الضجر ، ووقت الفجر الحدر ، وجمع بين حسن العقبى وقبح الأثر ، هذا وإن فصلته دعا لك ، وأبقى ما إن ركبته هالك ، وربما بلغك آمالك ، وكثّر مالك ، وأحسن بعون المساكين مآلك ، والسلام .

قلت : وهذا اللغز قد يقف عليه من لا يعرف طريق حله ، فيعسر عليه تفسيره ، فيحتاج إلى الإيضاح ، فأقول :

أما قوله « ما شيء قلبه حجر » فمراده قلب حروف دملج ، فإنّا إذا قلبنا هذه الحروف يخرج منها « جلمد » وهو الحجر ، وقوله « ووجهه قمر » يريد أنّه مستدير كالقمر ، وقوله « إن نبذته صبر واعتزل البشر » فالبشر جمع بشرة ، فالإنسان إذا ألقى الدملج عنه صبر واعتزل بشرته إذ ليس فيه أهلية المنع فهو يصبر ويعتزل المكان الذي كان فيه . وقوله « وإن أجعته رضي بالنوى » فالنوى لفظ مشترك يقع على البعد وعلى نوى التمر ، وعادتهم في بلاد العراق أن يطحنوا نوى التمر والرطب والبسر ويعلفوا به البقر ، وقصد هاهنا هذهالتورية ، فإن الدملج إذ أخرج من العضد أو من الساق فقد جاع ، لأنّه يكون فارغ الجوف ، ويرضى بالنوى الذي هو البعد عن عضو صاحبه ، ويقولون : فلان يرضى بالنوى ، إذا كان فقيراً لا يجد ما يتبلغ به ، فهو يجتزىء بمص النوى ، وهذا يفعله أهل

[1] في : زيادة من س والمختار .

الحجاز والبلاد المجدبة كثيراً ، لقلة الأقوات عندهم ، فقد استعمل صاحب هذا اللغز لفظة النوى في هذين المعنيين ، وهذه هي التورية ، وقوله « وانطوى على الحوى » فالحوى هو الخلو ، وإذا كان فارغ الجوف فهو خاوٍ ، وقوله « وإن أشبعته قبل قدمك » مراده بالإشباع هنا : لبس الدملج ، فإن صاحبه إذا لبسه فقد ملأ جوفه ، ويكون فوق القدم فكأنّه يقبله . وقوله « وصحب خدمك » فيه تورية أيضاً فإن الخدم جمع خادم ، وهذا الجمع قليل الاستعمال لهذا الواحد فإنّه لا يقال فاعل وجمعه فَعَل إلا في ألفاظ مسموعة مثل خادم وخدم ، وغائب وغيب ، وحارس وحرس ، وجامد وجمد ، وغير ذلك ، فهو موقوف على السماع ، وخدم جمع خدمة أيضاً ، وهو سير يشد في رسغ البعير تشد إليه سريحة النعل وبه سمي الخلخال خَدَمة لأنه ربما كان من سيور يركب فيه الذهب والفضة ويجمع على خِدام أيضاً . وقوله « وإن غلفته ضاع » هذا فيه تورية أيضاً ، فإن التغليف أن يجعل للشيء غلافاً ، والتغليف استعمال الطيب أيضاً . وقوله « ضاع » فيه تورية أيضاً ، فإنّه يقال : ضاع الشيء من الضياع ، وضاع الطيب إذا عبقت رائحته . وقوله « وإن أدخلته السوق أبى أن يباع » فالسوق جمع ساق، وفيه التورية أيضاً لأن السوق موضع البيع والشراء، والسوق كما ذكرناه . وقوله « أبى أن يباع » لأن العادة أنّه لا يباع إلا إذا أخرج من العضو الذي هو فيه ، ولا يباع قبل إخراجه ، فكأنّه قبل الإخراج أبى البيع ، وقوله « وإن أظهرته جمل المتاع ، وأحسن الإمتاع » فهذا ظاهر لا حاجة له إلى تفسير . وقوله « وإن شددت ثانيه » وهو الميم ، و « حذفت منه القافية » وهي الجيم ، فيبقى الدمل ، وهو يكدر الحياة بألمه ، ويوجب التخفيف في الصلاة للألم أيضاً . وقوله « وأحدث في وقت العصر الضجر » فالعصر فيه التورية أيضاً ، لأنّه اسم للصلاة ، وهو مصدر لفعل عَصَر ، وكذلك الفجر ، لأنّه اسم للصبح وهو مصدر لفعل فَجَر ، فالإنسان في وقت عصر الدمل يحصل له الضجر والقلق وإذا فجره وخلص منه حصل له الخدر والراحة . وقوله « وجمع بين حسن العقبى وقبح الأثر » فقصد المقابلة بين الحسن والقبح ، ولا شك أن عقبى انفجار الدمل حسنة ، وإن كان الأثر الذي يبقى في المكان قبيحاً . وقوله

« وإن فصلته دعا لك » معناه أنك إذا فصلت أحد النصفين من لفظ الدملج من النصف الآخر ، فالنصف الأول منه « دُمْ » وهو دعاء للإنسان بالدوام . وقوله « وأبقى ما إن ركبته هالك » فالباقي منه « لج » واللج هو لج البحر ، وإن كان النصف من الدملج مخففاً ، ولج البحر مشدداً ، لكنهم يغتفرون مثل هذا في الألغاز والتصاحيف والأحاجي ، ولا يبالون به ، ولا شك أن ركوب البحر أمر هائل ، فلهذا قال « هالك وربما بلغك آمالك » لأنّه يوصل الإنسان إلى الموضع الذي يقصده . وقوله « وكثّر مالك » معناه إذا ركبه الإنسان للتجارة ، وقوله « وأحسن بعون المساكين مآلك » ، فعون المساكين هو السفينة ، كما قال الله تعالى ﴿ أمّا السَّفينَةُ فَكانَتْ لِمَساكينَ يَعْمَلون في البَحْرِ ﴾ (الكهف : ٧٩) فهي عَوْنٌ لهم على حاجتهم وسد خلتهم ، ومآل الشيء عاقبة أمره ، والله تعالى أعلم.

قلت : وفي اللغز ثماني لغات ، لُغْز بضم اللام وسكون الغين ، ولُغُز بضمهما ، ولُغَز بضم اللام وفتح الغين ، ولَغْز بفتح اللام وسكون الغين ، ولَغَز بفتحهما ، وأُلغوزة بضم الهمزة وسكون اللام وضم الغين ، ولُغّيزي بضم اللام وتشديد الغين مع القصر ، ولُغَيزاء مثل الأول إلا أن الغين مخففة ومفتوحة والألف ممدودة ، والله أعلم .

وقد طال الكلام لكن الحاجة دعت إليه كي لا يبقى فيه التباس على سامعه .

ورأيت في مجموع بخط بعض الفضلاء بيتين منسوبين إليه ، وهما هذان :

أمدُّ كفي إلى البيضاء أقلعها ... من لحيتي فتفدّيها بسوداءِ
هذي يدي وهي مني لا تطاوعني ... على مرادي فما ظني بأعدائي

وكانت ولادة المذكور في ليلة السبت خامس عشر شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة . وتوفي في خامس شعبان سنة ست عشرة وستمائة بدمياط ، والعدو المخذول محاصرها ، رحمه الله تعالى .

وجراح : بفتح الجيم وتشديد الراء وبعد الألف حاء مهملة .

ثم إن العدو ملك دمياط يوم الثلاثاء السابع والعشرين من الشهر المذكور ، والله أعلم .

ونقلت من خط الشيخ مهذب الدين أبي طالب محمد بن علي اللغوني [1] المعروف بابن الخيمي الحلي نزيل مصر أن العدو نزل قبالة دمياط يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول سنة خمس عشرة وستمائة ، ونزل البر الشرقي يوم الثلاثاء سادس عشر ذي القعدة من السنة، وأخذ الثغر يوم الثلاثاء السادس والعشرين [2] من شعبان سنة ست عشرة وستمائة ، واستعيدت منهم يوم الأربعاء تاسع عشر رجب سنة ثمان عشرة وستمائة ، ومدة نزولهم عليها إلى أن انفصلوا عنها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوماً ، ومن الاتفاق العجيب نزولهم عليها يوم الثلاثاء وإحاطتهم بها يوم الثلاثاء وملكهم لها يوم الثلاثاء ، وقد جاء في الخبر أن الله تعالى خلق المكروه يوم الثلاثاء .

ولفظة دمياط سريانية ، وأصلها بالذال المعجمة ، ويقولونه [3] ذمط ، وتفسيره القدرَة الربانية ، وكأنّه إشارة إلى مجمع البحرين العذب والملح ، والله تعالى أعلم .

٨١١

جمال الدين ابن مطروح

أبو الحسن يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح ، الملقب جمال الدين ؛ من أهل صعيد مصر ، ونشأ هناك وأقام بقوص مدة ، وتنقلت به الأحوال في الخدم والولايات ، ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبي الفتح أيوب الملقب نجم الدين ابن السلطان

---

١ اللغوي : سقطت من ق .   ٢ ابن الشعار : الخامس والعشرين .

٣ س : ويقولون .

٨١١ – ترجمته في البدر السافر ، الورقة ٢٣٢ وابن الشعار : ١٠ الورقة : ٨ وذيل الروضتين : ١٨٧ ومرآة الزمان : ٧٨٨ ومرآة الجنان ٤ : ١١٩ والنجوم الزاهرة ٧ : ٢٧ وحسن المحاضرة ١ : ١٤٣ والشذرات ٥ : ٢٤٧ .

الملك الكامل ابن السلطان الملك العادل بن أيوب وكان إذ ذاك نائباً عن أبيه الملك الكامل بالديار المصرية ، ولمّا اتسعت مملكة الكامل بالبلاد المصرية بل بالبلاد الشرقية ، فصار له آمِد وحصن كيفا وحران والرها والرقة ورأس عين وسروج وما انضم إلى ذلك ، سير إليها ولده الملك الصالح المذكور نائباً عنه ، وذلك في سنة تسع وعشرين وستمائة ، فكان ابن مطروح المذكور في خدمته . ولم يزل يتنقل في تلك البلاد إلى أن وصل الملك الصالح إلى مصر مالكا لها ، وكان دخوله القاهرة يوم الأحد السابع والعشرين من ذي القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة ، ثم وصل ابن مطروح بعد ذلك إلى الديار المصرية في أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة، فرتبه السلطان ناظراً في الخزانة ، ولم يزل يقرب منه ويحظى عنده إلى أن ملك الملك الصالح دمشق في الدفعة الثانية ، وكان ذلك في جمادى الأولى من سنة ثلاث وأربعين وستمائة .

ثم إن السلطان بعد ذلك رتب لدمشق نواباً[1] ، فكان ابن مطروح في صورة وزير لها ، ومضى إليها وحسنت حالته وارتفعت منزلته .

ثم إن الملك الصالح توجه إلى دمشق فوصلها في شعبان سنة ست وأربعين ، وجهز عسكراً إلى حمص لاستنقاذها من يدي نواب الملك الناصر أبي المظفر يوسف الملقب صلاح الدين ابن الملك العزيز ابن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب ، فإنّه كان قد انتزعها من صاحبها الملك الأشرف مظفر الدين أبي الفتح موسى ابن الملك المنصور إبراهيم ابن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه عنوة ، وكان منتمياً إلى الملك الصالح ، فخرج من مصر لاسترداد حمص له، فعزل ابن مطروح عن ولايته بدمشق[2] ، وسيره مع العسكر المتوجه إلى حمص ، وأقام الملك الصالح بدمشق إلى أن ينكشف له ما يكون من أمر حمص ، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا بجزيرة قبرص على عزم قصد الديار المصرية ، فسير إلى عسكره المحاصرين بحمص وأمرهم أن يتركوا ذلك المقصد ويعودوا لحفظ الديار المصرية ، فعاد بالعسكر وابن مطروح في الخدمة ، والملك

---

١ ق : نائباً .

٢ ر : .ولاية دمشق .

الصالح متغير عليه متنكر له لأمور نقمها عليه ؛ وطرق الفرنج البلاد في أوائل سنة سبع وأربعين ، وملكوا دمياط يوم الأحد الثاني والعشرين من صفر من السنة ، وخيم الملك الصالح بعسكره على المنصورة ، وابن مطروح مواظب على الخدمة مع الإعراض عنه ، ولما مات الملك الصالح ليلة النصف من شعبان سنة سبع وأربعين بالمنصورة وصل ابن مطروح إلى مصر وأقام بها في داره إلى أن مات . هذه جملة حاله على الإجمال .

وكانت أدواته جميلة وخلاله حميدة ، جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضية ، وكان بيني وبينه مودة أكيدة ومكاتبات في الغيبة ، ومجالس في الحضرة تجري فيها مذاكرات أدبية لطيفة ، وله ديوان شعر أنشدني أكثره ، فمن ذلك قوله في أول قصيدة طويلة[1] :

هي رامةٌ فخذوا يمينَ الوادي ... وذروا السيوف تقرُّ في الأغمادِ
وحَذارِ من لحظاتِ أعين عِينها ... فلكمْ صرعنَ بها من الآساد
من كان منكم واثقاً بفؤاده ... فهناك ما أنا واثقٌ بفؤادي
يا صاحبيَّ ولي بجرعاء الحمى ... قلبٌ أسيرٌ ما له من فادي
سلبته مني يوم بانوا مقلةٌ ... مكحولةٌ أجفانها بسواد
وبحيِّ من أنا في هواه ميت ... عَيْنٌ على العشاقِ بالمرصاد
وأغنَّ مسكيِّ اللّمى معسوله ... لولا الرقيبُ بلغتُ منه مرادي
كيف السبيلُ إلى وصالِ مُحَجَّبٍ ... ما بين بيض ظُباً وسمر صِعاد
في بيت شَعْرٍ نازل من شعره ... فالحسن منه عاكفٌ في بادي
حرسوا مهفهفَ قده بمثقف ... فتشابه المياسُ بالمياد
قالت لنا ألف العذار بخده : ... في ميم مبسمه شفاء الصادي

وهي طويلة اقتصرت منها على هذا القدر للاختصار .

---

١ ر : لطيفة طويلة ، وانظر ابن الشعار ١٠ : ٣٢ .

ومن ذلك قوله :

علقته من آلِ يعربَ لحظهُ ... أمضى وأفتك من سيوف عُرَيبهِ
أسكنته في المنحنى من أضلعي ... شوقاً لبارق ثغره وعُذَيبه
يا عائبي ذاك الفتورَ بطرفه ... خلوه لي أنا قد رضيت بعيبه
لَدْنٌ وما مرَّ النسيمُ بعطفه ... أرج وما نفح العبير بجيبه

وكان في بعض أسفاره قد نزل في طريقه بمسجد وهو مريض فقال :

يا ربِّ إن عجز الطبيب فداوني ... بلطيف صنعك واشفني يا شافي
أنا من ضيوفك قد حُسبت وإن من ... شيم الكرام البرَّ بالأضياف

ووجدت بعد موته رقعة فيها مكتوب هذان البيتان[1] .

وأخبرني أنّه جرى بينه وبين أبي الفضل جعفر بن شمس الخلافة الشاعر – المقدم ذكره[2] – منازعة في بيت هو من جملة قصيدته التي أولها :

من لي بغصنٍ باللحاظِ ممنطقِ ... حلو الشمائل واللمى والمنطقِ
مثري الروادف مملق من خصره ... أسمعتَ في الدنيا بمثر مملق

والبيت الذي قد وقع فيه النزاع قوله :

وأقول يا أختَ الغزال ملاحةً ... فتقول لا عاش الغزالُ ولا بقي

فزعم ابن شمس الخلافة أن هذا البيت له من جملة قصيدة هي في ديوانه ، وعمل كل واحد منهما محضراً شهد فيه جماعة بأن البيت له . وحلف لي ابن مطروح أن البيت له ، وكان محترزاً في أقواله ، ولم تعرف منه الدعوى بما ليس له ، والله المطلع على السرائر .

وأنشدني له بعض أصحابنا قال : أنشدني لنفسه :

---

١ ووجدت . . . البيتان : سقط من ق ع ؛ وسقط من س مع البيتين قبله .

٢ انظر ج ١ : ٣٦٢ .

يا من لبستُ عليه أثوابَ الضنى صُفراً موشعةً بحمر الأدمعِ
أدركْ بقيةَ مهجة لو لم تذبْ أسفاً عليك نفيتها عن أضلعي [1]

وكان في مدة انقطاعه في داره وضيق صدره بسبب عطلته وكثرة كلفه قد حدث في عينيه ألم انتهى به إلى مقاربة العمى ، وكنت أجتمع به في كل وقت ، فتأخرت عنه مديدة لعذر أوجب ذلك ، وكنت في ذلك الوقت أنوب في الحكم بالقاهرة المحروسة عن قاضي القضاة بدر الدين أبي المحاسن يوسف بن الحسن ابن علي الحاكم بالديار المصرية المعروف بقاضي سِنجار ، فكتب إليّ ابن مطروح يقول :

يا من إذا استوحش طرفي لـه لم يخل قلبي منه من أُنسِ
والطرف والقلب ، على ما هما عليه ، مأوى البدر والشمس

وله من جملة قصيدة طويلة [2] :

ملك الملاح ترى العيو ن عليه دائرة يَـطَـقْ
ومخيِّم بـين الضلو ع وفي الفؤاد له سَبَقْ

والبيت الأول مأخوذ من قول المتنبي :

وخصر تثبتُ الأبصارُ فيه كأن عليه من حدقٍ نطاقا

واليطق : بفتح الياء المثناة من تحتها والطاء المهملة وبعدها قاف ، وهو عبارة عن جماعة من الجند يبيتون كل ليلة حول خيمة الملك محيطين به يحرسونه إذا كان مسافراً ، وهو لفظ تركي .

والسبق : بفتح السين المهملة والباء الموحدة وبعدها قاف ، وهي خيمة الملك إذا كان مسافراً ، فإنّه تقدم له خيمة إلى المنزلة التي يتوجه إليها ، حتى إذا جاءها كانت مجهزة له ينزل فيها ، ولا يتوقف على انتظار وصول الخيمة التي

---

١ وأنشدني له . . . أضلعي : لم يرد في س .

٢ هذا وما بعده سقط من س أيضاً حتى قوله « ومجرى السوابق » ؛ وانظر ابن الشعار : ١١ .

كان بها [في تلك المنزلة التي رحل منها] [1] .

وله بيتان ضمنهما بيت المتنبي وأحسن فيهما ، وهما :

إذا ما سقاني ريقه وهو باسم «تذكرت ما بين العذيب وبارق»
ويذكرني من قده ومدامعي «مجر عوالينا ومجرى السوابق»

وهذا المعنى للمتنبي في أول قصيدة بديعة طويلة ، وهي :

تذكرت ما بين العذيب وبارق مجر عوالينا ومجرى السوابق

وكانت بينه وبين بهاء الدين زهير — المقدم ذكره في حرف الزاي — صحبة قديمة من زمن الصبا ، وإقامتهما ببلاد الصعيد ، حتى كانا كالأخوين ، وليس بينهما فرق في أمور الدنيا ، ثم اتصلا بخدمة الملك الصالح وهما على تلك المودة ، وبينهما مكاتبات بالأشعار فيما يجري لهما ، فأخبرني بهاء الدين زهير أن جمال الدين ابن مطروح كتب إليه بعض الأيام يطلب منه درج ورق ، وكان قد ضاق به الوقت ، وأظنهما كانا ببلاد الشرق معاً [2] :

أفلستُ يا سيدي من الورَق فجدْ بدرج كعرضك اليَقَقِ
وإن أتى بالمداد مقترناً فمرحباً بالخدود والحدقِ

قال بهاء الدين زهير : وقد فتح الراء من « الورق » وكسرها تنبيهاً على حاله ، فكتبت إليه :

مولاي سيرت ما رسمتَ به وهو يسيرُ المداد والورقِ
وعز عندي تسيير ذاك وقد شبهته بالخدود والحدق [3]

---

١ سقط من ر ع ق .

٢ قد مر هذا في ترجمة البهازهير ١ : ٣٣٦ — ٣٣٧ وهو مما انفردت به ر د ولم يرد في المسودة وها هو المؤلف يورده هنا .

٣ علق صاحب المختار بعد هذا بقوله : «قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد ، لطف الله به : لو اقتصر ابن مطروح في بيته الثاني منهما على التشبيه بالحدق فقط لكان كافياً محصلا للمقصود ؛ وقد ألم بهذا المعنى الجمال ابن عبد الشاعر — المقدم ذكره — في بيتين كتبهما إلى والدي ، قدس الله روحه ،

وقد سبق في ترجمة بهاء الدين ذكر بيتين كتبهما ابن مطروح إلى بهاء الدين وذكرت السبب في نظم ذينك البيتين على ما حكاه لي بهاء الدين ، ثم بعد ذلك وصل إلى الديار المصرية من الموصل بعض الأدباء وجرى حديث ما ذكره لي بهاء الدين زهير وأنّه أنشدني بيت ابن الحلاوي وهو قوله :

تجيزها وتجيز المادحين[1] بها فقل لنا أزهيرٌ أنت أم هرمُ

فقال ذلك الأديب : هذه القصيدة أنشدنيها ناظمها ابن الحلاوي ونحن بالموصل ، وأروي عنه هذا البيت على خلاف هذه الرواية فإنّه أنشدني :

تجيدها ثم تجدو من أتاك بها فقل لنا أزهير أنت أم هرم

فما أدري : هل ابن الحلاوي أنشدها أوّلاً كما رواه بهاء الدين زهير ثم غير البيت كما رواه هذا الأديب أم حصل الغلط لأحدهما ؟ والله تعالى أعلم ، مع أن كل واحد من الطريقين حسن .

وقصة زهير بن أبي سلمى المزني الشاعر الجاهلي المشهور معلومة فلا حاجة إلى شرحها والخروج عما نحن بصدده ، فإنّه كان يمدح هرم بن سنان المري أحد أمراء العرب في الجاهلية ، وكان هرم كثير العطاء له ، حتى آلى على نفسه أنّه لا يسلم عليه زهير إلا أعطاه غرة من ماله فرساً أو بعيراً أو عبداً أو أمة ، فأجحف ذلك بهرم ، فجعل زهير يمر بالجماعة فيهم هرم فيقول : عِمُوا صباحاً خلا هرماً ، وخيركم تركت .

= وهما بالديار المصرية ، وهما :

إذا ما اشتقت يوماً أن أراكم وحال البعد بينكم وبيني
بعثت لكم سواداً في بياض لأنظركم بشيء مثل عيني

والله أعلم » .

[1] ق بر من : المادحيك .

ونعود إلى ما كنا فيه من حديث ابن مطروح :

بلغني أنّه كتب قبل ارتفاع درجته رقعة تتضمن شفاعة في قضاء شغل بعض أصحابه ، أرسلها إلى بعض الرؤساء ، فكتب ذلك الرئيس في جوابه « هذا الأمر فيه عليّ مشقة » فكتب جوابه ثانياً « لولا المشقة » فلما وقف عليها ذلك الرئيس قضى شغله وفهم ما قصده ، وهو قول المتنبي :

لولا المشقةُ ساد الناسُ كلهمُ ... الجودُ يفقر والإقدام قتال

وهذا من لطيف الإشارات .

وأنشدني الأديب الفاضل جمال الدين أبو الحسين يحيى بن عبد العظيم ابن يحيى بن محمد بن علي المعروف بالجزار المصري[1] قصيدة بديعة مدح بها جمال الدين ابن مطروح المذكور ، وهي بديعة طويلة فاقتصرت منها على ذكر غزلها ، وهو هذا :

هو ذا الربعُ ولي نفسٌ مشوقَهْ ... فاحبسِ الركبَ عسى أقضي حقوقَه

فقبيحٌ بيَ في شرع الهوى ... بعد ذاك البر أن أرضى عقوقه

لست أنسى فيه ليلاتٍ مضت ... مَعَ من أهوى وساعاتٍ أنيقه

ولئن أضحى مجازاً بعدهم ... فغرامي فيه ما زال حقيقه

يا صديقي والكريمُ الحر في ... مثلِ هذا الوقت لا ينسى صديقه

ضعْ يداً منك على قلبي عسى ... أن تُهَدّي بين جنبيَّ خفوقه

فاض دمعي مذ رأى ربعَ الهوى ... ولَكَمْ فاض وقد شام بروقه

نفد اللؤلؤ من أدمعه ... فغدا ينثرُ في الترب عقيقه

قفْ معي واستوقفِ الركبَ فإن ... لم يقفْ فاتركه يمضي وطريقه

---

[1] راجع ترجمة الجزار في المغرب (قسم مصر) ١ : ٢٩٦ وحسن المحاضرة ١ : ٣٢٧ والشذرات ٥ : ٣٦٤ والنجوم الزاهرة ٧ : ٣٤٥ والفوات ٢ : ٦٣٠ والبدر السافر ، الورقة : ٢٢٥ والزركشي ٣ الورقة : ٣٦٥ ؛ وفي المسالك قطعة كبيرة من شعره ، وكانت وفاته سنة ٦٧٩ .

فهي أرضٌ قلما يلحقها آمل والركب لم أعدم لحوقه
طالما استجليت في أرجائها من يتيه البدر إذ يدعى شقيقه
يفضح الوردَ احمراراً خده وتودُّ الخمر لو تشبه ريقه
فبه الحسن خليق لم يزل والمعالي بابن مطروح خليقه

وكانت ولادته يوم الاثنين ثامن رجب سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة بأسيوط ، وتوفي ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة بمصر ، ودفن بسفح الجبل المقطم ، وحضرت الصلاة عليه ودفنه ، وأوصى أن يكتب عند رأسه دوبيت نظمه في مرضه ، وهو :

أصبحتُ بِقعرِ حفرَةٍ مرْتَهنا لا أملكُ من دُنياي إلا كفنا
يا من وسعت عبادَهُ رحمته مِنْ بعض عبادك المسيئين أنا

ومما ذكر أنه وجد في رقعة مكتوبة تحت رأسه بعد موته :

أتجزع مِ الموتِ[1] هذا الجزعْ ورحمةُ ربك فيها الطمعْ
ولو بذنوبِ الورى جئته فرحمته كلَّ شيء تسع

رحمه الله تعالى .

(330) وتوفي قاضي القضاة بدر الدين يوسف[2] المذكور يوم السبت رابع عشر رجب سنة ثلاث وستين وستمائة بالقاهرة ، ودفن في تربته المجاورة لمدرسته بالقرافة الصغرى . وأخبرني مراراً عديدة أنّه ولد في شهر ربيع الأول سنة ثمان وخمسمائة في جبال إربل ، وهو زرزاري النسب ، رحمه الله تعالى[3] .

وأسيوط : بضم الهمزة وسكون السين المهملة وضم الياء المثناة من تحتها وبعدها واو ساكنة ثم طاء مهملة ، وهي بليدة بالصَّعيد الأعلى من ديار مصر ومنهم من يسقط الهمزة ويضم السين فيقول : سُيوط ، والله تعالى أعلم .

---

١ س من بر : للموت .
٢ انظر شذرات الذهب ٥ : ٣١٣ وعبر الذهبي ٥ : ٢٧٤ ، وفي كليهما (زراري) .
٣ هنا تنتهي الترجمة في ع .

٨١٢
ابن جزلة صاحب المنهاج

أبو علي يحيى بن عيسى بن جَزْلَة الطبيب ، صاحب كتاب « المنهاج » الذي رتبه على الحروف ، وجمع فيه أسماء الحشائش والعقاقير والأدوية وغير ذلك شيئاً كثيراً ؛ كان نصرانياً ثم أسلم وصنف رسالة في الرد على النصارى وبيان عوار مذاهبهم ، ومدح فيها الإسلام وأقام الحجة على أنّه الدين الحق ، وذكر فيها ما قرأه في التوراة والإنجيل من ظهور النبي صلى الله عليه وسلّم ، وأنّه نبي مبعوث وأن اليهود والنصارى أخفوا ذلك ولم يظهروه ، ثم ذكر فيها معايب اليهود والنصارى . وهي رسالة حسنة أجاد فيها وقرئت عليه في ذي الحجة سنة خمس وثمانين وأربعمائة . وكان سبب إسلامه أنّه كان يقرأ على أبي علي ابن الوليد المعتزلي ويلازمه ، فلم يزل يدعوه إلى الإسلام ويذكر له الدلائل الواضحة حتى هداه الله تعالى ، وحسن إسلامه ، وهو تلميذ أبي الحسن سعيد ابن هبة الله بن الحسن ، وبه انتفع في الطب ، وكان له نظر في علم الأدب ، وكتب الخط الجيد .

وصنف للإمام المقتدي بأمر الله كثيراً من الكتب ، فمن ذلك كتاب « تقويم الأبدان » وكتاب « منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان » وكتاب « الإشارة في تلخيص العبارة » ورسالة في مدح الطب وموافقته للشرع والردّ على من طعن عليه ، ورسالة كتبها إلى إليا القس لما أسلم ، وغير ذلك من التصانيف .

وهو من المشاهير في علم الطب وعمله ، وذكره أبو المظفر يوسف سبط أبي الفرج ابن الجوزي في تاريخه الذي سماه « مرآة الزمان » فقال : إنّه لمّا أسلم استخلفه أبو الحسن القاضي ببغداد[1] في كتب السجلات ، وكان يطبب

---

٨١٢ – ترجمته في المنتظم ٩ : ١١٩ وابن الأثير ١٠ : ٣٠٢ وتاريخ الحكماء : ٣٦٥ وابن أبي أصيبعة ١ : ٢٥٥ وابن العبري ٣٣٩ .

١ في تاريخ الحكماء أن الذي استخدمه في كتابة السجلات هو القاضي أبو عبد الله الدامغاني .

أهل محلته ومعارفه بغير أجرة ، ويحمل إليهم الأشربة والأدوية بغير عوض ، ويتفقد الفقراء ويحسن إليهم . ووقف كتبه قبل وفاته ، وجعلها في مشهد أبي حنيفة رضي الله عنه ، ذكر هذا كله في سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة ، وعادته أن يذكر الإنسان ، ويشرح أحواله في سنة وفاته ، فإن كتابه مرتب على السنين .

وذكر صاحب كتاب « البستان الجامع لتواريخ الزمان » أن ابن جزلة مات سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة، وزاد أبو الحسن الهمداني : في أواخر شعبان، نقله عنه ابن النجار في « تاريخ بغداد » ، وذكر غيره أن إسلامه كان في سنة ست وستين وأربعمائة ، زاد ابن النجار في تاريخه : يوم الثلاثاء حادي عشر جمادى الآخرة ، رحمه الله تعالى .

وجَزْلة : بفتح الجيم وسكون الزاي وفتح اللام وبعدها هاء ساكنة ، والله تعالى أعلم .

٨١٣

السهروردي المقتول

أبو الفتوح يحيى بن حبَش بن أميرَك ، الملقب شهاب الدين ، السهروردي الحكيم المقتول بحلب ؛ وقيل اسمه أحمد ، وقيل كنيته اسمه ، وهو أبو الفتوح ، وذكر أبو العباس أحمد بن أبي أصيبعة الخزرجي الحكيم في كتاب « طبقات الأطباء » أن اسم السهروردي المذكور عمر ، ولم يذكر اسم أبيه[1] ، والصحيح الذي ذكرته أولاً ، فلهذا بنيت الترجمة عليه ، فإني وجدته بخط جماعة من أهل المعرفة بهذا الفن وأخبرني به جماعة أُخرى لا أشك في معرفتهم ،

٨١٣ – ترجمته في مرآة الجنان ٣ : ٤٣٤ ولسان الميزان ٣ : ١٥٦ ومعجم الأدباء ١٩ : ٣١٤ وابن أبي أصيبعة ٢ : ١٦٧ والنجوم الزاهرة ٦ : ١١٤ وعبر الذهبي ٤ : ٢٦٣ .

١ هنالك بياض في موضع اسم الأب في المطبوعة .

فقوي عندي ذلك ، فترجمت عليه ، والله أعلم .

كان المذكور من علماء عصره . قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجيلي بمدينة المراغة من أعمال أذربيجان ، إلى أن برع فيهما وهذا مجد الدين الجيلي هو شيخ فخر الدين الرازي[1] ، وعليه تخرج وبصحبته انتفع ، وكان إماماً في فنونه .

وقال في « طبقات الأطباء » : كان السهروردي المذكور أوحد أهل زمانه في[2] العلوم الحكمية ، جامعاً للفنون الفلسفية بارعاً في الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله ، ثم ذكر أنّه قتل في أواخر سنة ست وثمانين وخمسمائة ، والصحيح ما سنذكره في أواخر هذه الترجمة إن شاء الله تعالى ، وعمره نحو ست وثلاثين سنة ، ثم قال : ويقال إنّه كان يعرف علم السيمياء .

وحكى بعض فقهاء العجم : أنّه كان في صحبته ، وقد خرجوا من دمشق ، قال : فلما وصلنا إلى القابون ، القرية التي على باب دمشق في طريق من يتوجه إلى حلب ، لقينا قطيع غنم مع تركماني ، فقلنا للشيخ : يا مولانا نريد من هذه الغنم رأساً نأكله ، فقال : معي عشرة دراهم ، خذوها واشتروا بها رأس غنم ، وكان هناك تركماني فاشترينا منه رأساً بها ، ومشينا قليلاً فلحقنا رفيق له وقال : ردوا هذا الرأس ، خذوا أصغر منه ، فإن هذا ما عرف يبيعكم ، يساوي هذا الرأس أكثر من ذلك ، وتقاولنا نحن وإياه ، فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا : خذوا الرأس وامشوا وأنا أقف معه وأرضيه ، فتقدمنا نحن ، وبقي الشيخ يتحدث معه ويطيب قلبه ، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا ، وبقي التركماني يمشي خلفه ويصيح به وهو لا يلتفت إليه ، فلما لم يكلمه لحقه بغيظ وجذب يده اليسرى ، وقال : أين تروح وتخليني ؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه وبقيت في يد التركماني ودمها يجري ، فبهت التركماني وتحير في أمره ، فرمى اليد وخاف ، فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا ، وبقي التركماني راجعاً وهو يتلفت

---

١ المختار : فخر الدين ابن الخطيب الرازي .

٢ طبقات الأطباء : أوحداً في .

إليه حتى غاب عنهُ ، ولما وصل الشيخ إلينا رأينا في يده اليمنى منديلاً لا غير .

قلت : ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة ، والله أعلم بصحتها .

وله تصانيف ، فمن ذلك كتاب «التنقيحات»[1] في أصول الفقه ، وكتاب «التلويحات» وكتاب «الهياكل» وكتاب «حكمة الإشراق» ، وله الرسالة المعروفة «بالغربة الغريبة» على مثال «رسالة الطير» لأبي علي ابن سينا، ورسالة «حي بن يقظان» لابن سينا أيضاً ، وفيها بلاغة تامة أشار فيها إلى حديث النفس وما يتعلق بها على اصطلاح الحكماء .

ومن كلامه : الفكر في صورة قدسية ، يتلطف بها طالب الأريحية ، ونواحي القدس دار لا يطؤها القوم الجاهلون ، وحرام على الأجساد المظلمة أن تلج ملكوت السموات ، فوحد الله وأنت بتعظيمه[2] ملآن، واذكره وأنت من ملابس الأكوان عريان ، ولو كان في الوجود شمسان لانطمست الأركان ، فأبى النظام أن يكون غير ما كان :

فخفيتُ حتى قلتُ لستُ بظاهر ... وظهرت من سعتي على الأكوانِ

[آخر][3] :

لو علمنا أننا ما نلتقي ... لقضينا من سليمى وطرا

اللهم خلص لطيفي من هذا العالم الكثيف .

وتنسب إليه أشعار : فمن ذلك ما قاله في النفس على مثال أبيات ابن سينا العينية، وهي مذكورة في ترجمته في حرف الحاء ، واسمه الحسين[4] ، فقال هذا الحكيم :

خلعت هياكلها بجرعاء الحمى ... وصبت لمغناها القديم تشوقا

---

١ بر : التحقيقات .

٢ بر : بتوحيده .

٣ زيادة من : س ر بر من .

٤ انظر ج ٢ : ١٦٠ .

وتلفتت نحو الديار فشاقها ... ربع عفت أطلاله فتمزقا
وقفت تسائله فرد جوابها ... رجع الصدى أن لا سبيل إلى اللقا
فكأنّما[1] برق تألّق بالحمى ... ثم انطوى فكأنّه ما أبرقا

ومن شعره المشهور :

أبداً تحن إليكم الأرواحُ ... ووصالكم ريحانُها والراحُ
وقلوبُ أهل ودادكم تشتاقكم ... وإلى لذيذ لقائكمْ ترتاح[2]
وارحمةً[3] للعاشقين تكلفوا ... سَتْرَ المحبة والهوى فَضَّاح
بالسر إن باحوا تباح دماؤهم ... وكذا دماء البائحين تباح
وإذا هُمُ كتموا تحدث عنهم ... عند الوشاة المدمعُ السفاح[4]
وبدت شواهدُ للسَّقام عليهمُ ... فيها لمشكل أمرهم إيضاح
خفض الجناح لكم وليس عليكم ... للصب في خفض الجناح جناح
فإلى لقاكم نفسه مرتاحة ... وإلى رضاكم طرفه طماح
عودوا بنور الوَصل من غَسَق الجفا ... فالهجر ليلٌ والوصالُ صباح
صافاهمُ فصفوا له فقلوبهم ... في نورها المشكاةُ والمصباح
وتمتعوا فالوقتُ طاب بقربكم ... راق الشراب ورقت الأقداح[5]
يا صاحِ ليس على المحبِّ ملامةٌ ... إن لاح في أُفقِ الوصالِ صباح
لا ذنب للعشاق إن غلب الهوى ... كتمانَهمْ فنما الغرام وباحوا
سمحوا بأنفسهمْ وما بخلوا بها ... لمّا دَرَوْا أن السماحَ رباح

---

١ ر : فكأنها .

٢ هامش س : خ : وإلى جلال جمالكم ترتاح .

٣ بر : وارحمتا .

٤ ر س : السحاح .

٥ هذا البيت أول ما بقي من خط المؤلف في نسخة المسودة ، وقد كتب فيه « راق الشباب » وفوقها « لعله الشراب » ، وكذلك فعل في س .

ودعاهمُ داعي الحقائق دعوة فغدوا بها مستأنسين وراحوا
ركبوا على سنن الوفا فدموعهم بحرٌ وشدةُ شوقهم ملاح
والله ما طلبوا الوقوف ببابه حتى دُعوا وأتاهم المفتاح
لا يطربون بغير ذكر حبيبهمْ أبداً فكلُّ زمانهم أفراح
حضروا وقد غابت شواهد ذاتهم فتهتكوا لما رأوه وصاحوا
أفناهمُ عنهمْ وقد كشفت لهم حجبُ البقا فتلاشتِ الأرواح
فتشبهوا إن لم تكونوا مثلَهم إن التشبهَ بالكرام فلاح
قم يا نديمُ إلى المدام فهاتها في كاسها قد دارت الأقداح
من كرمِ إكرام بِدنّ ديانة لا خمرة قد داسها الفلاح

وله في النظم والنثر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها . وكان شافعي المذهب ، ويلقب بالمؤيد بالملكوت ، وكان يتهم بانحلال العقيدة والتعطيل ويعتقد مذهب الحكماء المتقدمين ، واشتهر ذلك عنه ، فلما وصل إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله بسبب اعتقاده وما ظهر لهم من سوء مذهبه ، وكان أشد الجماعة عليه الشيخين : زين الدين ومجد الدين ابني جَهْبَل .

وقال الشيخ سيف الدين الآمدي — المقدم ذكره في حرف العين[1] — : اجتمعت بالسهروردي في حلب ، فقال لي : لا بد أن أملك الأرض ، فقلت له : من أين لك هذا ؟ قال : رأيت في المنام كأنّي شربت ماء البحر ، فقلت : لعل هذا يكون اشتهار العلم وما يناسب هذا ، فرأيته لا يرجع عما وقع في نفسه ، ورأيته كثير العلم قليل العقل ، ويقال : إنّه لمّا تحقق القتل كان كثيراً ما ينشد :

أرى قدمي أراقَ دمي وهان دمي فها ندمي

والأول مأخوذ من قول أبي الفتح علي بن محمد البستي — المقدم ذكره[2]— :

إلى حتْفي مشى قدمي أرى قدمي أراق دمي

---

١ ج ٣ : ٢٩٣ .
٢ ج ٣ : ٣٧٦ .

فلم أنفك من ندم   وليس بنافعي نـدمي

وكان ذلك في دولة الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين رحمه الله ، فحبسه ثم خنقه بإشارة والده السلطان صلاح الدين ، وكان ذلك في خامس رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب ، وعمره ثمان وثلاثون سنة .

وذكره القاضي بهاء الدين المعروف بابن شداد قاضي حلب في أوائل سيرة صلاح الدين[1] ، وقد ذكر حسن عقيدته[2] فقال : كان كثير التعظيم لشعائر الدين ، وأطال الكلام في ذلك ، ثم قال : ولقد أمر وَلَدَه صاحب حلب بقتل شاب نشأ يقال له « السهروردي » قيل عنه : إنّه معاند[3] للشرائع ، وكان قد قبض عليه ولده المذكور لما بلغه من خبره ، وعرف السلطان به فأمر بقتله ، فقتله وصلبه أياماً .

ونقل سبط ابن الجوزي في تاريخه عن ابن شداد المذكور أنّه قال : لما كان يوم الجمعة بعد الصلاة سلخ ذي الحجة سنة سبع وثمانين وخمسمائة أخرج الشهاب السهروردي ميتاً من الحبس بحلب فتفرق عنه أصحابه .

قلت : وأقمت بحلب سنين للاشتغال بالعلم الشريف ، ورأيت أهلها مختلفين في أمره ، وكل واحد يتكلم على قدر هواه : فمنهم من ينسبه إلى الزندقة والإلحاد ، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنّه من أهل الكرامات ، ويقولون : ظهر لهم بعد قتله ما يشهد له بذلك ، وأكثر الناس على أنّه كان ملحداً لا يعتقد شيئاً ، نسأل الله تعالى العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة ، وأن يتوفانا على مذهب أهل الحق والرشاد ، وهذا الذي ذكرته في تاريخ قتله هو الصحيح ، وهو خلاف ما نقلته في أول هذه الترجمة ، وقد قيل إن ذلك كان في سنة ثمان وثمانين ، وليس بشيء أيضاً .

وحَبَش : بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وبالشين المعجمة .

وأميرَك : بفتح الهمزة وبعدها ميم مكسورة ثم ياء مثناة من تحتها ساكنة

---

١ سيرة صلاح الدين : ١٠ .   ٢ أي حسن عقيدة السلطان .

٣ ق : كان معانداً ، وكذلك في سيرة ابن شداد .

وبعدها راء مفتوحة ثم كاف ، وهو اسم أعجمي معناه أُمَيِّر تصغير أمير ، وهم يلحقون الكاف في آخر الاسم للتصغير .

وقد تقدم الكلام على سُهْرُوَرْد في ترجمة الشيخ أبي النجيب عبد القاهر السهروردي فليطلب منه ، إن شاء الله تعالى .

٨١٤

يزيد بن القعقاع القارىء

أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء ، مولى عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي عَتاقة ، ويعرف أبو جعفر المذكور بالمدني ؛ أخذ القراءة عَرْضاً عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ، وعن مولاه عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه ؛ وسمع عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، ومروان بن الحكم ، ويقال قرأ على زيد بن ثابت رضي الله عنه ، وروى القراءة عنه عرضاً نافعُ بن عبد الرحمن بن أبي نعيم وسليمان ابن مسلم بن جَمّاز وعيسى بن وَرْدان الحذاء وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وله قراءة .

قال أبو عبد الرحمن النسائي : يزيد بن القعقاع ثقة ، وكان يقرىء الناسَ بالمدينة قبل وقعة الحرة . وقال محمد بن القاسم المالكي : أبو جعفر يزيد بن القعقاع مولى أم سلمة رضي الله عنها ، زوج النبي صلى الله عليه وسلّم ، قال : ويقال إنه جندب بن فيروز مولى عبد الله بن عياش المخزومي ، وكان من أفضل الناس . وقال سليمان بن مسلم : أخبرني أبو جعفر يزيد بن القعقاع أنّه كان يقرىء في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل الحرة ، وكانت الحرة على

---

٨١٤ – ترجمته في المعارف : ٥٢٨ ورجال ابن حبان : ٧٦ وابن الأثير ٥ : ٣٩٤ وتهذيب التهذيب ١٢ : ٥٨ وميزان الاعتدال ٤ : ٥١١ وغاية النهاية ٢ : ٣٨٢ والشذرات ١ : ١٧٦ .

رأس ثلاث وستين سنة من مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلّم المدينة ، وأخبرني أنّه كان يمسك المصحف على مولاه عبد الله بن عياش ، وكان من أقرأ الناس وكنت أرى كل يوم ما يقرأ وأخذت عنه قراءته ، وأخبرني أنّه أتي به إلى أم سلمة رضي الله عنها وهو صغير ، فمسحت على رأسه ودعت له بالبركة ، قال سليمان المذكور : وسألته متى أقرأت القرآن ؟ فقال : أقرأت أو قرأت ؟ فقلت : لا بل أقرأت ، فقال : هيهات ، قبل الحرة في زمان يزيد بن معاوية ، وكانت الحرة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث وخمسين سنة .

وقال نافع بن أبي نعيم : لما غسل أبو جعفر يزيد بن القعقاع القارىء بعد وفاته نظروا ما بين نحره إلى فؤاده مثل ورقة المصحف ، فما شك أحد ممن حضره أنه نور القرآن .

وقال سليمان بن مسلم : أخبرني أبو جعفر يزيد بن القعقاع حين كان نافع يمر به فيقول : أترى هذا ؟ كان يأتيني وهو غلام له ذؤابة فيقرأ عليّ ثم كفرني ، وهو يضحك . قال سليمان ، وقالت أم ولد أبي جعفر : إن ذلك البياض الذي كان بين نحره وفؤاده صار غرة بين عينيه . وقال سليمان : رأيت أبا جعفر بعد موته في المنام وهو على الكعبة فقلت له : أبا جعفر ؟ قال : نعم اقرىء إخواني عني السلام ، وأخبرهم أن الله تعالى جعلني من الشهداء الأحياء المرزوقين ، واقرىء أبا حازم السلام وقل له : يقول لك أبو جعفر : الكيس الكيس ، فإن الله عزّ وجل وملائكته يتراءون مجلسك بالعشيات .

وقال مالك بن أنس رحمه الله تعالى : كان أبو جعفر القارىء رجلاً صالحاً يفتي [1] الناس بالمدينة .

وقال خليفة بن خياط [2] : مات أبو جعفر يزيد بن القعقاع سنة اثنتين وثلاثين ومائة بالمدينة ، وقال غيره : مات سنة ثمان وعشرين ومائة ، وقال أبو علي الأهوازي في أول كتاب «الإقناع» في القراءات ، قال ابن جمّاز : ولم يزل أبو جعفر إمام الناس في القراءة إلى أن توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة بالمدينة ،

---

١ الجزري : يقرىء .

٢ تاريخ خليفة : ٦١٤ .

وقيل إنّه توفي في سنة ثلاثين ومائة ، والله أعلم .

قلت : وقد تكرر ذكر الحرة في هذه الترجمة في مواضع ، وقد يتشوف إلى الوقوف على معرفة ذلك من لا علم له به .

والحرة في الأصل اسم لكل أرض ذات حجارة سود ، فمتى كانت بهذه الصفة قيل لها حرة ، والحِرار كثيرة ، والمراد بهذه الحرة حرة واقم ، بالقاف المكسورة ، وهي بالقرب من المدينة في جهتها الشرقية — كان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان في مدة ولايته قد سير إلى المدينة جيشاً مقدمه مسلم بن عقبة المري فنهبها ، وخرج أهلها إلى هذه الحرة ، فكانت الوقعة بها ، وجرى فيها ما يطول شرحه وهو مسطور في التواريخ ، حتى قيل إنّه بعد وقعة الحرة ولدت أكثر من ألف بكر من أهل المدينة ، ممن ليس لهن أزواج ، بسبب ما جرى فيها من الفجور .

ثم إن مسلم بن عقبة المري لما قتل أهل المدينة وتوجه إلى مكة ، نزل به الموت بموضع يقال له : ثنية هَرْشَى ، فدعا حصين بن نمير السكوني وقال له : يا برذعة الحمار ، إن أمير المؤمنين عهد إليّ إن نزل بي الموت أن أوليك، وأكره خلافه عند الموت . ثم إنّه أوصى إليه بأمور يعتمدها ثم قال : لئن دخلت النار بعد قتلي أهل الحرة إنّي إذاً لشقي .

وأمّا واقم فإنّه اسم أطم من آطام المدينة . والأطم : بضم الهمزة والطاء المهملة ، شبيه بالقصر ، وكان مبنياً عند هذه الحرة فأضيفت الحرة إليه ، فقيل حرة واقم ، والله أعلم .

٨١٥
يزيد بن رومان

أبو روح يزيد بن رُوْمان القارىء مولى آل الزبير بن العوام المدني ؛ أخذ القراءة عَرْضاً عن عبد الله بن عياش بن أبي ربيعة المخزومي ، وسمع ابن عباس وعروة بن الزبير رضي الله عنهم ، وروى القراءة عنه عرضاً نافع ابن أبي نعيم .

قال يحيى بن معين : يزيد بن رومان ثقة . وقال وهب بن جرير : حدثنا أبي قال : رأيت محمد بن سيرين ويزيد بن رومان يعقدان الآي في الصلاة .

وقال يزيد بن رومان : كنت أصلي إلى جنب نافع بن جبير بن مطعم ، فيغمزني فأفتح عليه ونحن نصلي .

وروى يزيد أنّه كان الناس يقومون في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه بثلاث وعشرين ركعة في شهر رمضان . وتوفي يزيد في سنة ثلاثين ومائة ، رحمه الله تعالى [١] .

ورُوْمان : بضم الراء وسكون الواو وبعدها ميم ثم ألف ونون .

---

٨١٥ – ترجمته في غاية النهاية ٢ : ٣٨١ وتهذيب التهذيب ١١ : ٣٢٥ .

١ هنا تنتهي الترجمة في ق .

٨١٦

يزيد بن المهلب

أبو خالد يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي – قد تقدم ذكر أبيه في حرف الميم[١] ورفعتُ نسبه وتكلمت عليه فأغنى عن الإعادة هاهنا – ؛ ذكر ابن قتيبة في كتاب « المعارف »[٢] وجماعة من المؤرخين : أنّه لمّا مات أبوه – في التاريخ المذكور في ترجمته – كان قد استخلف ولده يزيد مكانه ، ويزيد ابن ثلاثين سنة يومئذ[٣] ، فعزله عبد الملك بن مروان برأي الحجاج بن يوسف الثقفي ، وولّى مكانه في خراسان قُتَيبة بن مسلم الباهلي – قلت : وقد تقدم ذكره في حرف القاف[٤] – وصار يزيد في يد الحجاج – قلت : وكان الحجاج زوج أخته هند بنت المهلب – وكان الحجاج يكره يزيد لما يرى فيه من النجابة فيخشى منه لا يترتب مكانه ، فكان يقصده بالمكروه في كل وقت كي لا يثب عليه ، وكان الحجاج في كل وقت يسأل المنجمين ومن يعاني هذه الصناعة عمّن يكون مكانه ، فيقولون : رجل اسمه يزيد ، فلا يرى من هو أهل لذلك سوى يزيد المذكور ، والحجاج يومئذ أمير العراقين ، وكذا وقع ، فإنّه لما مات الحجاج ولي يزيد مكانه ، هذا قول المؤرخين .

نعود إلى تتمة ما ذكره في « المعارف » – قال : فعذبه الحجاج ، وهرب يزيد من حبسه إلى الشام يريد سليمان بن عبد الملك ، فأتاه فشفع له إلى أخيه

---

٨١٦ – ترجمته وأخباره في المصادر التاريخية التي تتحدث عن العصر الأموي كالطبري وابن الأثير والمسعودي واليعقوبي وابن خلدون والعيون والحدائق ، وفي الكتب الأدبية العامة كالكامل والعقد . . . الخ . وسنشير إلى المصادر التي اعتمد عليها المؤلف في مواضعها ، حيث يتيسر ذلك .

١ انظر ج ٥ : ٣٥٠ .

٢ المعارف : ٤٠٠ .

٣ زاد في المطبوعة المصرية : فمكث نحواً من ست سنين من يومئذ ؛ ولم يرد في المسودة والنسخ الأخرى .

٤ انظر ج ٤ : ٨٦ .

الوليد بن عبد الملك ، فأمنه وكف عنه ، ثم ولاه سليمان خراسان حين أفضت إليه الخلافة ، فافتتح جرجان ودِهَستان وأقبل يريد العراق ، فتلقاه موت سليمان ابن عبد الملك ، فصار إلى البصرة ، فأخذه عدي بن أرطأة ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فحبسه عمر ، فهرب من حبسه وأتى البصرة ، ومات عمر ، فخالف يزيد [وخلع يزيد] [1] بن عبد الملك ، فوجه إليه أخاه مَسلمة فقتله .

وقال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير : يزيد بن المهلب ولي إمرةَ البصرة لسليمان بن عبد الملك ، ثم نزعه عمر بن عبد العزيز وولى عــديَّ بن أرطأة ، وقُدِمَ به على عمر مسخوطاً عليه ؛ حَكى عن أنس بن مالك وعمر بن عبد العزيز وأبيه المهلب ، وروى عنه ابنه عبد الرحمن وأبو عيينة ابن المهلب وأبو إسحاق السَّبيعي وغيرهم . وقال الأصمعي : إن الحجاج قبض على يزيد وأخذه بسوء العذاب ، فسأله أن يخفف عنه العذاب على أن يعطيه كل يوم مائة ألف درهم ، فإن أداها وإلا عذبه إلى الليل ، قال : فجمع يوماً مائة ألف درهم ليشتري بها عذابه في يومه ، فدخل عليه الأخطل الشاعر فقال [2] :

أبا خالد بادَتْ خراسانُ بعدكم ... وصاح ذوو الحاجاتِ أين يزيدُ
فلا مُطِرَ المروانِ بعدك مطرةً ... ولا اخضرَّ بالمروين بعدك عود
فما لسريرِ الملك بعدك بهجةٌ ... ولا لجواد بَعدَ جودك جود

— قوله في البيت الثاني « فلا مطر المروان ، ولا اخضر بالمروين » هما تثنية مرو ، إحداهما مرو الشاهجان ، وهي العظمى ، والأخرى مرو الروذ ، وهي الصغرى ، وكلتاهما مدينتان مشهورتان بخراسان ، وقد تكرر ذكرهما في هذا الكتاب — قال : فأعطاه مائة الألف ، فبلغ ذلك الحجاج ، فدعا به وقال : يا مروزي ، أكلُّ هذا الكرم وأنت بهذه الحالة ؟ قد وهبتُ لك عذاب اليوم وما بعده .

---

[1] زيادة من ر بر .   [2] وردت في ديوان الفرزدق ١ : ١٣٧ .

قلت : هكذا ذكر ابن عساكر ، والمشهور أن صاحب هذه الواقعة والأبيات هو الفرزدق ؛ ثم إنّي رأيت هذه الأبيات في ديوان زياد الأعجم ، والله أعلم بالصواب .

وذكر الحافظ أيضاً أن يزيد لما هرب من الحجاج قاصداً سليمان بن عبد الملك ، وهو يومئذ بالرملة ، فاجتاز في طريقه بالشام على أبيات عرب ، فقال لغلامه : استَقِنا [1] هؤلاء لبناً ، فأتاه بلبن فشربه ، فقال : أعطهم ألف درهم ، فقال الغلام : إن هؤلاء لا يعرفونك ، قال : لكني أعرف نفسي ، أعطهم ألف درهم ، فأعطاهم .

وقال الحافظ أيضاً : حج يزيد بن المهلب فطلب حلاقاً ، فجاء فحلق رأسه ، فأمر له بألف درهم ، فتحير ودُهش ، وقال : هذا الألف أمضي إلى أمي فلانة أشتريها ، فقال : أعطوه ألفاً آخر ، فقال : امرأتي طالق إن حلقت رأس أحد بعدك ، فقال : أعطوه ألفين آخرين .

وقال المدائني : وكان سعيد بن عمرو بن العاص مؤاخياً ليزيد بن المهلب ، فلما حبس عمرُ بن عبد العزيز يزيدَ منع الناس من الدخول إليه ، فأتاه سعيد فقال : يا أمير المؤمنين ، لي على يزيد خمسون ألف درهم ، وقد حُلتَ بيني وبينه ، فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه ، فأذن له ، فدخل عليه ، فسر به يزيد وقال : كيف دخلت إليّ ؟ فأخبره سعيد ، فقال : والله لا تخرج إلا وهي معك ، فامتنع سعيد ، فحلف يزيد ليقبضنها ، فوجه إلى منزله ، حتى حُمل إلى سعيد خمسون ألف درهم .

وزاد ابن عساكر فقال : وفي ذلك قال بعضهم :

فلم أرَ محبوساً من الناس ماجداً ... حبا زائراً في السجن غير يزيدِ
سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه ... بخمسين ألفاً عُجّلَتْ لسعيد

[وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب « الجليس والأنيس » عن عبد الله الكوفي قال : أغرم سليمان بن عبد الملك عمر بن هبيرة عن غزاة

---

[1] كذا في المسودة ؛ وفي أكثر النسخ : استسقنا .

في البحر ألف ألف درهم ، فمشى إلى يزيد بن المهلب ، وقد ولي العراق ، عثمان بن حيان المرّي والقعقاع بن خالد العبسي والهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي وغيرهم من قيس ، فلما انتهوا إلى باب سرادق يزيد أذن لهم الحاجب في دخولهم وأعلمهم أنّه يغسل رأسه ، فلما فرغ خرج في مستقة [1] فألقى نفسه على فراشه ثم قال : ما ألّف بينكم ؟ فقال عثمان : هذا ابن هبيرة شيخنا وسيدنا ، كان الوليد حمل معه مالاً حيث وجهه إلى البحر فأعطاه جنده فخرج عليه من غرمه ألف ألف درهم ، فقلنا يزيد سيد أهل اليمن ووزير لسليمان وصاحب العراق ومن قد يحمل أمثالها عمن ليس بأمثالنا ، ووالله لو وسعتها أموال قيس لاحتملناها . ثم تكلم القعقاع فقال : [يا] ابن المهلب ، هذا خير ساقه الله إليك وليس أحد أولى به منك ، فافعل به كبعض فعلاتك الأولى ، فلن يصدك عن قضاء هذا الحق ضيق ، ولا تبخل وقد أتيناك مع ابن هبيرة فيما حمل ، فهب لنا أموالنا واستر في العرب عورتنا ؛ ثم تكلم الهذيل بن زفر فقال : يا ابن المهلب ، إنّي لو وجدت من الممشى إليك بدأ لما مشيت إليك ، لأن أموالك بالعراق ، وإنّما أتيتنا خائفاً ثم أقمت فينا ضيفاً ، ثم تخرج من عندنا محروساً ، وايم الله لئن تركناك بالشام لنأتينك بالعراق ، وما هاهنا أقرب في الحظوة وأوجب للذمام ؛ ثم تكلم ابن خيثمة فقال : إنّي لأقول [2] لك يا ابن المهلب ما قال هؤلاء ، أخبرني إن أنت عجزت عن احتمال ما على ابن هبيرة فعلى من المعوّل ؟ لا والله ما عند قيس له مكيال ، ولا في أموالهم متسع ، ولا عند الخليفة له فرج ؛ ثم تكلم ابن هبيرة فقال : أما أنا فقد قضيت حاجتي ، رددت أم أنجحت ، لأنّه ليس لي أمامك متقدّم ولا خلفك متأخر ، وهذه حاجة كانت في نفسي فقضيتها . فضحك يزيد بن المهلب وقال : إن التعذر أخو البخل ، ولا اعتذار فاحتكموا ، فقال القعقاع : نصف المال ، فقال يزيد : قد فعلت ، يا غلام : غداءك [3] ، قال : فجيء بالطعام

---

١ المستقة : فروة طويلة الكم ؛ وهذه القراءة تقديرية فإن اللفظة غير واضحة في النسخ الثلاث والأقرب إليها في بر : سبيبة ، وفي من : مسنية .

٢ بر : لا أقول .

٣ بر : أرنا يا غلام غداءك .

فأبقينا أكثر مما أفرغنا[1] ، فلما فرغنا أمر بتطييبنا وأجاد الكسوة لنا ، قال : ثم خرجنا حتى إذا مررنا ، قال ابن هبيرة : فأخبروني عما بقي ، من يحمله بعد ابن المهلب ،لقد صغّر الله أقداركم وأخطاركم ، والله ما يدري يزيد ما بين النصف والتمام ، وما هما عنده إلا سواء ، ارجعوا إليه فكلّموه في الباقي ، قال : وقد كان يزيد ظن بهم أن سيرجعون[2] إليه في التمام، فقال للحاجب : إذا عادوا فأدخلهم ؛ فلما عادوا أدخلهم ، فقال لهم يزيد ؛ إن ندمتم أقلناكم وان استقللتم زدناكم ، فقال له ابن هبيرة : يا ابن المهلب ، إن البعير إذا أوقر أثقلته أذناه ، وأنا بما بقي مثقل ، فقال : قد حملتها عنك ، ثم ركب إلى سليمان فقال : يا أمير المؤمنين ، إنك إنما رشحتني لتبلغ بي ، وإنّي لا أضيق عن شيء اتسع له مالك ، وما في أيدينا فواضلك يصطنع بها الناس وتبنى بها المكارم ، ولولا مكانك قلقنا بالصغير ؛ ثم قال له إنّه أتاني ابن هبيرة بوجوه أصحابه ، فقال له سليمان : أمسك، اياك في مال الله عنده ، خب ضب ، جموع منوع ، جزوع هلوع ، هيه ، فصنعت ماذا ؟ قال : حملتها عنه ، قال : احملها إذن إلى بيت مال المسلمين ، قال : والله ما حملتها خدعة وأنا حاملها بالغداة ، ثم حملها ، فلما أخبر سليمان بذلك دعا يزيد ، فلما رآه ضحك وقال : ذكت بك ناري ، ووريت بك زنادي ، غرمها علي وحمدها لك ، قد وفت لي يميني ، فأرجع المال إليك ، ففعل][3] .

وقال يزيد يوماً : والله للحياة أحب من الموت ، ولثناء حسن أحب إلي من الحياة ، ولو أنّي أعطيت ما لم يُعْطَه أحد لأحببت أن يكون لي أذن أسمع غداً ما يقال فيَّ إذا أنا مت كريماً ؛ وقد سبق ذكر هذا الكلام في ترجمة أبيه المهلب وأنّه من كلامه ، لا من كلام ابنه يزيد ، والله أعلم .

وقال أبو الحسن المدائني : باع وكيل ليزيد بن المهلب بطيخاً جاءه من مَغَلّ بعض أملاكه بأربعين ألف درهم ، فبلغ ذلك يزيد فقال له : تركتنا بقالين ،

---

١ بر : وأنكرنا منه أكثر مما عرفنا .

٢ بر : ظن أنهم سيرجعون .

٣ زيادة من : ر من بر دون سائر النسخ .

أما كان في عجائز الأزد من تقسمه فيهن [1] ؟

ومدحه عمر بن لجأ بشعر يقول فيه :

آلُ المهلب قوم إن نسبتهمُ ... كانوا الأكارمَ آباء وأجدادا
كم حاسدٍ لهمُ يعيا بفضلهمُ ... وما دنا من مساعيهم ولا كادا
إن العرانين تلقاها محسّدةً ... ولا ترى للئامِ الناسِ حسادا
لو قيل للمجد حِدْ عنهم وخلهمُ ... بما احتكمتَ من الدنيا لما حادا
إن المكارمَ أرواحٌ يكون لها ... آلُ المهلب دون الناس أجسادا

وقال الأصمعي : قدم على يزيد بن المهلب قومٌ من قضاعة ، فقال رجل منهم :

والله ما ندري إذا ما فاتنا ... طَلَبٌ لديك من الذي نتطلبُ
ولقد ضربنا في البلاد فلم نجدْ ... أحداً سواك إلى المكارم يُنْسبُ
فاصبرْ لعادتك التي عودتنا ... أو لا فأرشدنا إلى مَنْ نذهب

فأمر له بألف دينار ، فلما كان في العام المقبل وفد عليه فأنشده :

ما لي أرى أبوابهمْ مهجورةً ... وكأنّ بابك مجمعُ الأسواق
حابوك أم هابوك أم شاموا الندى ... بيديكَ فانتجعوا من الآفاق
إنّي رأيتك للمكارم عاشقاً ... والمكرماتُ قليلةُ العشاق

فأمر له بعشرة آلاف درهم .

وأجمع علماء التاريخ على أنّه لم يكن في دولة بني أمية أكرم من بني المهلب ، كما لم يكن في دولة بني العباس أكرم من البرامكة ، والله أعلم ؛ وكان لهم في الشجاعة أيضاً مواقف مشهورة .

وحكى ابن الجوزي في كتاب « الأذكياء » أن يزيد بن المهلّب وقعت

---

[1] زاد بعده في المطبوعة المصرية : وغضب غضباً شديداً ، ولم يرد في المسودة والنسخ ق ع بر من ، أما س فإن رواية المدائني كلها سقطت منها .

عليه حيّةٌ فلم يدفعها عن نفسه ، فقال له أبوهُ : ضيعتَ العقل من حيث حفظت الشجاعة .

ولما خرج عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي على الحجاج ، وقصته مشهورة ، أتى تستر فاجتمع إليه جماعة ، فذكروا يوماً آل المهلب ووقعوا فيهم ، فقال عبد الرحمن لحريش بن هلال القُرَيْعي ، وكان في القوم : ما لك يا أبا قدامةَ لا تتكلم ؟ فقال : والله ما أعلم أحداً أصون لنفسه في الرخاء ولا أبذل لها في الشدة منهم .

وقدم عبد الرحمن بن سليم الكلبي على المهلب ، فرأى بنيه قد ركبوا عن آخرهم ، فقال : أنس الله الإسلام بتلاحقكم ، أما والله لئن لم تكونوا أسباط نبوة إنكم لأسباط ملحمة .

ومات ابن لحبيب بن المهلب بن أبي صفرة ، فقدَّم أخاه يزيد ليصلي عليه ، فقيل له : أتقدمه وأنت أسن منه والميت ابنك ؟ فقال : إن أخي قد شرفه الناس وشاع فيهم له الصيت ، ورمته العرب بأبصارها ، فكرهت أن أضع منه ما رفعه الله تعالى .

ونظر مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير إلى يزيد بن المهلب وهو يمشي وعليه حلة يسحبها ، فقال له : ما هذه المشية التي يبغضها الله ورسوله ؟ فقال يزيد : أما تعرفني ؟ فقال : بلى ، أولك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت بين ذلك حامل عذرة ، قلت : وقد نظم هذا المعنى أبو محمد عبد الله بن محمد البسامي الخوارزمي فقال :

عجبتُ من مُعجبٍ بصورته ... وكان من قبلُ نطفةً مَذِرَهْ
وفي غدٍ بعد حسن صورته ... يصيرُ في الأرض جيفة قذره
وَهْوَ على عجبه ونخوته ... ما بين ثوبيه[1] يحمل العذره

(331) وذكر الحافظ المعروف بابن عساكر في تاريخه الكبير في ترجمة أبي خداش مخلد بن يزيد بن المهلب أن مخلداً أحد الأسخياء الممدوحين ، وفد على

---

[1] د بر من : جنبيه .

عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يكلمه في أمر أبيه يزيد ، وقد حبسه عمر ، وكان أبوه قد ولاه جرجان ، فاجتاز في طريقه بالكوفة ، فأتاه حمزة بن بيض الحنفي الشاعر المشهور في جماعة من أهل الكوفة فقام بين يديه وأنشده :

أتيناك في حاجة فاقضهـا وقل مرحباً يجب المرحبُ

ولا لا تكِلْنا[1] إلى معشرٍ متى يعدوا عدة يكذبوا

فإنّك في الفرع من أسرةٍ لهمْ خضع الشرقُ والمغرب

وفي أدبٍ فيهم ما[2] نشأت فنعـم لعمرك مـا أدبوا

بلغت لعشرٍ مضت من سنيك مـا بلغ السيدُ الأشيب

فهمّكَ فيها جسامُ الأمورِ . هم لداتك أن يلعبوا

وجدت فقلت ألا سائلٌ فيسأل أو راغب يرغب

فمنك العطيةُ للسائلينَ وممّن ببابك أن يطلبوا

فقال له : هات حاجتك ، فقضاها ، وقيل أمر له بمائة ألف درهم .

وقدم على مخلد رجل كان قد زاره قبل ذلك فأجازه وقضى حقه ، فلما عاد إليه قال له مخلد : ألم تكن أتيتنا فأجزناك ؟ قال : بلى، قال : فماذا ردك ؟ قال : قول الكميت فيك :

[سألناه الجزيل فما تلـكا وأعطى فوق منيتنا وزادا][3]

فأعطى ثم أعطى ثم عـدنا فأعطى ثم عدت لـه فعادا

مراراً مـا أعودُ إليه إلاّ تبسم ضاحكاً وثنى الوسادا

فأضعف له ما كان أعطاه .

وقال قبيصة بن عمر المهلبي : كان يزيد بن المهلب قد فتح جرجان وطبرستان وأخذ صول ، وهو رئيس من رؤسائهم — قلت : كان صاحب جرجان ،

---

١ ق بز من والمختار : ولا تكلنا – بتشديد النون – .

٢ بر : قد . ٣ زيادة من س .

وهو جد إبراهيم بن العباس الصولي وأبي بكر محمد بن يحيى الصولي الأديبين الشاعرين المشهورين — قال : فأصاب يزيد أموالاً كثيرة وعروضاً كثيرة ، فكتب إلى سليمان بن عبد الملك : إنّي قد فتحت طبرستان وجرجان ، ولم يفتحهما أحد من الأكاسرة ولا أحد ممن كان بعدهم غيري ، وإنّي باعث إليك بقطران عليها الأموال والهدايا يكون أولها عندك وآخرها عندي . فلما مات سليمان وأفضت الخلافة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه بعده،أخذه عمر بهذه العدة لسليمان فحبسه ، فقدم ابنه مخلد على عمر — قال قبيصة المهلبي : وهب مخلد من لدن خروجه من مرو الشاهجان إلى أن ورد دمشق ألف ألف درهم — فلما أراد مخلد الدخول على عمر لبس ثياباً مستنكرة وقلنسوة لاطية ، فقال له عمر : لقد شمّرت ، فقال له : إذا شمرتم شمرنا وإذا أسبلتم أسبلنا ؛ ثم قال له : ما بالك قد وسع الناسَ عفوك حبست هذا الشيخ ، فإن تكن عليه بينة عادلة فاحْكم عليه وإلا فيمينه ، أو فصالحه على ضياعه ، فقال يزيد : أما اليمين فلا تتحدث العرب أن يزيد بن المهلب صبر عليها ، ولكن ضياعي فيها وفاء لما يطلب .

ومات مخلد وهو ابن سبع وعشرين سنة ، فقال عمر : لو أراد الله بهذا الشيخ خيراً لأبقى له هذا الفتى . ويقال إن مخلد بن يزيد أصابه الطاعون فمات، وصلى عليه عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، ثم قال : اليوم مات فتى العرب ، وأنشد متمثلاً :

على مثل عمرو تذهب النفسُ حسرةً … وتضحي وجوه القوم مغبرةً سودا

ورثاه حمزة بن بيض الحنفي — المقدم ذكره — بأبيات منها :

وَعُطِّلَتِ الأسرَّة منك إلا … سريرك يوم تحجب بالثيابِ

وآخر عهدنا بك يوم يحثى … عليك بدابقٍ سهلُ الترابِ

وقال الفرزدق يرثيه[1] :

وما حملت أيديهمُ من جنازةٍ … ولا ألبست أثوابها مثل مَخْلَدِ

---

[1] المختار : وقال الفرزدق الشاعر يرثيه أيضاً ؛ وانظر ديوانه ١ : ١٦٣ .

أبوك الذي تُستهزم الخيلُ باسمه وإن كان فيها قيد شهر مطرد
وقد علموا إذ شد حقويه أنّه هو الليث ليث الغاب لا بالمعرّد

قلت : وهذا يدل على أن مخلد بن يزيد مات في حدود سنة مائة للهجرة لأن عمر بن عبد العزيز ولي الخلافة في صفر سنة تسع وتسعين وتوفي في رجب سنة إحدى ومائة ، وقد مات عنده وصلى عليه ، ويدل على أن موت مخلد كان بدابق ما تقدم من مرثية حمزة بن بيض ؛ ودابق : قرية من أعمال حلب من جانبها الشمالي ، وإليها ينسب المرج الذي يقال له «مرج دابق» وبه كانت وفاة سليمان بن عبد الملك ، وقبره هناك مشهور .

ونعود إلى ذكر يزيد:

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه الكبير [1] : إن المغيرة بن المهلب كان نائباً عن أبيه بمرو وعمله كله ، ومات في رجب سنة اثنتين وثمانين – كما ذكرناه في ترجمة المهلب – فأتى الخبر يزيد ، وعلم [2] أهل المعسكر ولم يعلموا المهلب ، وأحب يزيد أن يعلمه من [3] النساء فصرخن ، فقال المهلب : ما هذا ؟ فقيل : مات المغيرة ، فاسترجع وجزع حتى ظهر جزعه عليه ، فلامه بعض خاصته ، فدعا يزيد فوجهه إلى مرو وجعل يوصيه بما يعمل ودموعه تنحدر على لحيته ، وكتب الحجاج إلى المهلب يعزيه عن المغيرة ، وكان سيداً .
(332) قلت : وكان للمغيرة ابن اسمه بشر ذكره أبو تمام الطائي في كتاب «الحماسة» [4] في الباب الأول ، وأورد من شعره قوله في يزيد :

جفاني يزيدُ والمغيرةُ قد جفا وأمسى يزيدٌ لي قد ازورّ جانبُهْ

١ تاريخ الطبري (حوادث سنة : ٨٢) ٢ : ١٠٧٧ (الطبعة الأوروبية) .
٢ الطبري : وعلمه .
٣ الطبري : فأمر ؛ وفي بر من : أن يبلغه من .
٤ انظر شرح المرزوقي ، الحماسة : ٧٣ .

وكلهمُ قد نال شِبْعاً لبطنـه ... وشبع الفتى لؤمٌ إذا جاع صاحبه
فيا عـمِّ مهلاً واتخذني لنوبـة ... تنوبُ فإن الدهرَ جمٌّ نوائبه
أنا السيفُ إلا أن للسيف نبوةً ... ومثليَ لا تنبو عليك مضاربه
على أيّ بابٍ أبتغي الإذنَ بعد ما ... حجبتُ عن الباب الذي أنا حاجبه

رجعنا إلى تتمة كلام الطبري :

وكان المهلب يوم مات المغيرة مقيماً بكش وراء النهر لحرب أهلها ، فسار يزيد في ستين فارساً ، فلقيهم خمسمائة من الترك في المفازة ، وحاصل الأمر أنّه جرى بينهم قتال شديد ، ورمي يزيد في ساقه . ثم إن المهلب صالح أهل كش على فدية وانصرف عنهم متوجهاً إلى مرو ، فلما وصل إلى زاغول، قرية من أعمال مرو الروذ، أصابته الشوصة ، فدعا ولده حبيباً ومن حضر من ولده، ودعا بسهام فحزمت ، وقال : أفترونكم كاسريها مجتمعة ؟ فقالوا : لا ، قال : أفترونكم كاسريها مفترقة[1] ؟ قالوا : نعم ، قال : هكذا الجماعة ، ثم أوصاهم وصية طويلة لا حاجة إلى ذكرها[2] ، ثم قال في آخرها : وقد استخلفت يزيد ، وجعلت حبيباً على الجند حتّى يقدم بهم على يزيد ، فلا تخالفوا يزيد ، فقال له ولده المفضل : لو لم تقدمه لقدمناه ، ومات المهلب ـــ حسبما شرحناه في ترجمته ـــ وأوصى إلى حبيب ، فصلى عليه حبيب ثم سار إلى مرو ، فكتب يزيد إلى عبد الملك بوفاة المهلب واستخلافه إياه ، فأقره الحجاج ، ثم إنّه عزله في سنة خمس وثمانين واستعمل أخاه المفضل .

وكان سبب ذلك[3] أن الحجاج وفد على عبد الملك فمر في منصرفه بدير فنزله ، فقيل له : إن بهذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً فدعا به وقال : يا شيخ ، هل تجدون في كتبكم ما أنتم فيه ونحن ؟ فقال : نعم ، نجد ما مضى

١ ق ر س : متفرقة .
٢ الوصية في الطبري ٢ : ١٠٨٢ .
٣ انظر الطبري ٢ : ١١٣٨ .

من أمركم وما أنتم فيه وما هو كائن ، قال : أفمسمّى أم موصوفاً ؟ قال : كل ذلك موصوف بغير اسم واسم بغير صفة ، قال : فما تجدون صفة أمير المؤمنين قال : نجده في زماننا الذي نحن فيه أنّه ملك أقرع ، من يقم لسبيله يصرع ، قال : ثم من ؟ قال : رجل يقال له الوليد[1] ، قال : ثم ماذا ؟ قال : رجل اسمه اسم نبي يفتح به على الناس — قلت : وهو سليمان بن عبد الملك — قال : أفتعلم ما ألي ؟ قال : نعم ، قال : فمن يليه بعدي ؟ قال : رجل يقال له يزيد ، قال : في حياتي أم بعد موتي ؟ قال : لا أدري ؟ قال : أفتعرف صفته ؟ قال : يغدر غدرة ، لا أعرف غير هذا .

قال : فوقع في نفسه أنّه يزيد بن المهلب ، وارتحل فسار سبعاً وهو وجل من قول الشيخ ، وقدم فكتب إلى عبد الملك يستعفيه من العراق ، فكتب إليه : قد علمت الذي تغزو ، وأنّك تريد أن تعلم رأيي فيك . ثم إن الحجاج أجمع على عزل يزيد فلم يجد لذلك سبباً ، حتّى قدم الخيار بن سبرة ، وكان من فرسان المهلب ، وكان مع يزيد ، فقال له الحجاج : أخبرني عن يزيد ؟ فقال : حسن الطاعة لين السيرة ، قال : كذبت ، اصدقني عنه ، فقال : الله أجل وأعظم ، قد أسرج ولم يلجم ، قال : صدقت ، واستعمل الخيار على عمان بعد ذلك .

ثم كتب إلى عبد الملك يذم يزيد وآل المهلب ، وخلاصة الأمر أنّه كرر القول مع عبد الملك في ذلك إلى أن كتب إليه عبد الملك : قد أكثرت في يزيد وآل المهلب ، فسمِّ لي رجلاً يصلح لخراسان ، فسمى له مجاعة بن سعد[2] السعدي ، فكتب إليه عبد الملك : إن رأيك الذي دعاك إلى استفساد آل المهلب هو الذي دعاك إلى مجاعة بن سعد السعدي ، فانظر لي رجلاً حازماً ماضياً لأمرك ، فسمى قتيبة بن مسلم الباهلي ، فكتب إليه وَلِّهِ ، فبلغ يزيد أن الحجاج عزله فقال لأهل بيته : من ترون الحجاج يولي خراسان ؟ قالوا : رجلاً من ثقيف ، قال :

---

١ بر : رجل اسمه الوليد .

٢ في متن الطبري : مجاعة بن سعر ، وفي سرح العيون : ابن مسعر .

كلا والله ، ولكنه يكتب إلى رجل منكم بعهده ، فإذا قدمت عليه ولى غيره ، وأخلق بقتيبة بن مسلم .

قال : فلما أذن عبد الملك للحجاج في عزل يزيد كره أن يكتب بعزله فكتب إليه أن استخلف أخاك المفضل وأقبلْ ، فاستشار يزيد حصين[1] بن المنذر ، فقال له : أقم واعتل فإن أمير المؤمنين حسن الرأي فيك ، وإنّما أتيت من الحجاج ، فإن أقمت ولم تعجل رجوت أن يكتب إليه أن يقر يزيد ، فقال : إنّا أهل بيت بورك لنا في الطاعة ، وأنا أكره المعصية والخلاف ، وأخذ في الجهاز فأبطأ ذلك على الحجاج ، فكتب إلى أخيه المفضل : إنّي قد وليتك خراسانَ ، فجعل المفضل يستحث يزيد ، فقال له يزيد : إن الحجاج لا يقرك بعدي ، وإنما دعاه إلى ما صنع مخافة أن أمتنع عليه ، قال : بل حسدتني ، قال يزيد : أنا لا أحسدك ولكن ستعلم . وخرج يزيد في شهر ربيع الآخر سنة خمس وثمانين ، فعزل الحجاج المفضل وولى قتيبة بن مسلم الباهلي ، وقيل فيروز بن حصين . وقال حصين بن منذر ليزيد المذكور :

أمرتُكَ أمراً حازماً فعَصَيْتَني ... فأصبحت مسلوبَ الإمارةِ نادما
فما أنا بالباكي عليك صبابة ... وما أنا بالداعي لترجعَ سالما

فلما قدم قتيبة خراسان قال لحصين : كيف قلت ليزيد ؟ قال قلت :

أمرتكَ أمراً حازماً فعصيتني ... فنفسَك ولِّ اللوم إن كنت لائما
فإن يبلغ الحجاج أن قد عَصَيْتَهُ ... فإنّكَ تلقى أمره متفاقما

قال : فماذا أمرته به فعصاك ؟ قال : أمرته أن لا يدع صفراء ولا بيضاء إلا حملها إلى الأمير .

وفي تولية قتيبة وعزل يزيد قال عبد الله بن همام السلولي :

أقُتيبَ قد قلنا غداةَ أتيتنا ... بَدلٌ لعَمْرُك من يزيد أعورُ
إن المهلبَ لم يكنْ كأبيكمُ ... هيهات شأنكُمُ أدقُّ وأحقر

---

[1] في متن الطبري : حضين .

شتان من بالصنج أدرك والذي بالسيف شمر والحروب تسعَّر
حولانُ باهلـَة الألى في ملكهم مات الندى فيهم وعاش المنكر

قوله « بدل أعور » هذا مثل يضرب للمذموم يتولى بعد الرجل المحمود ؟ يقال بدل أعور ، وخلَف أعور ؛ وقوله « من بالصنج أدرك » يقال : إن قتيبة كان يضرب بالصنج في بدء أمره ؛ وقوله « حولان باهلـَة » جمع أحْوَل ، وكان قتيبة أحول ، وهذا الجمع مثل قولهم : أسود وسودان ، وأحمر وحمران وغير ذلك .

وقد قيل : إن هذه الأبيات ليست لعبد الله بن همام ، وإنها لنهار بن توسعة اليشكري ، والله أعلم .

ثم ذكر الطبري في سنة تسعين [1] أن الحجاج خرج إلى الأكراد الذين غلبوا على عامة أرض فارس ، فخرج بيزيد معه وأخويه المفضل وعبد الملك ، وجعل عليهم في العسكر كهيئة الخندق وجعلهم في فسطاط قريباً منه [2] ، وجعل عليهم حرَساً من أهل الشام ، وأغرمهم ستة آلاف ألف ، وأخذ يعذبهم ، وكان يزيد يصبر صبراً حسناً ، وكان الحجاج يغيظه ذلك ، فقيل له إنّه رمي بنشابة فثبت أصلها في ساقه ، فهو لا يمسها شيء إلا صاح ، فإن حُرّكتْ أدنى شيء سمعتَ صوته ، فأمر أن يعذب به ويرهق ساقه ، فلما فعل به ذلك صاح ، وأختـُه هند عند الحجاج ، فلما سمعت صياح يزيد صاحت وناحت فطلقها .

ثم إنّه كفّ عنهم وأقبل يستأديهم ، فأخذوا يؤدون وهم يعملون في المخلص من مكانهم ، فبعثوا إلى مروان بن المهلب وهو بالبصرة يأمرونه أن يضمّر لهم الخيل ويري الناس أنّه إنما يريد بيعها ويعرضها على البيع ويغلْي بها كي لا تشترى ، فتكون لنا عُدةً إن نحن قدرنا أن ننجو من هاهنا ، ففعل ذلك مروان بن المهلب ، وحبيب بالبصرة يعذب أيضاً ، فأمر يزيد بالحرس فصنع لهم طعام كثير فأكلوا ، وأمر لهم بشراب فسقوا ، وكانوا متشاغلين به ، ولبس

---

١ تاريخ الطبري ٢ : ١٢٠٨ .

٢ بر : قريباً من حجرته .

يزيد ثياب طباخه ، ووضع[1] على لحيته لحية بيضاء وخرج ، فرآه بعض الحرس فقال : كأن هذه مشية يزيد، فجاء حتّى استعرض وجهه ليلاً فرأى بياض اللحية فانصرف عنه ، وقال : هذا شيخ . وخرج المفضل على أثره ولم يفطن له ، فجاؤوا إلى سفينة[2] وقد هيؤوها في البطائح وبينهم وبين البصرة ثمانية عشر فرسخاً ، فلما انتهوا إلى السفينة أبطأ عليهم عبد الملك وشغل عنهم، فقال يزيد للمفضل : اركب ، فإنّه لاحق ، فقال المفضل ، وكان عبد الملك أخاه لأمه : لا والله لا أبرح حتّى يجيء عبد الملك ولو رجعت إلى السجن ، فأقام يزيد حتّى جاءهم عبد الملك ، وركبوا في السفينة ، وساروا ليلتهم حتّى أصبحوا .

ولما أصبح الحرس علموا بذهابهم ، فرفع ذلك إلى الحجاج ، ففزع لذلك الحجاج وذهب وهمه أنهم ذهبوا قِبَل خراسان ، وبعث البريد إلى قتيبة بن مسلم يحذّره قدومهم ويأمره أن يستعد لهم ، وبعث إلى أمراء الثغور والكور أن يرصدوهم ويستعدوا ، وبعث إلى الوليد بن عبد الملك يخبره بهم ، وأنّه لا يراهم أرادوا إلا خراسان . ولم يزل الحجاج يظن بيزيد ما صنع، كان يقول : إنّي لأظنه يحدث نفسه بمثل الذي صنع ابن الأشعث – قلت : ابن الأشعث هو عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي ، وكان قد خرج على عبد الملك بن مروان ، وقصته مشهورة مذكورة في التواريخ – قال الطبري[3] : ولما دنا يزيد من البطائح استقبلته الخيل ، وقد هيئت لهم ، فخرجوا عليهم ومعهم دليل ، فأخذ بهم على السماوة ، وأتي الحجاج بعد يومين فقيل له إنّما أخذ الرجل طريق الشام ، وهذه الخيل حَسْرَى في الطريق ، وقد أتى من رآهم متوجهين في البر ، فبعث إلى الوليد يعلمه بذلك ، ومضى يزيد حتّى قدم فلسطين فنزل على وُهَيْب بن عبد الرحمن الأزدي ، وكان كريماً على سليمان بن عبد الملك ، وجاء وهيب حتّى دخل على سليمان فقال : إن يزيد وإخوته عندي ، وقد أتوا هُرّاباً من الحجاج متعوذين بك ، فقال : آتني بهم فهم آمنون لا يوصل

---

١ بر : وجعل .

٢ الطبري : سفنهم ؛ وهي بصيغة الجمع في بقية النص .

٣ متابع لنص الطبري : ١٢١١ .

إليهم أبداً وأنا حي ، فجاء بهم حتى دخلوا عليه ، فكانوا في مكان أمنٍ .
وكتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك : إن آل المهلب خانوا مالَ الله ، وهربوا مني ولحقوا بسليمان ، فلما بلغ الوليد مكانه عند سليمان أخيه هون عليه بعض ما كان في نفسه ، وطار غضباً للمال الذي ذهبوا به ، وكتب سليمان إلى أخيه الوليد : إن يزيد بن المهلب عندي وقد آمنته ، وإنّما عليه ثلاثة آلاف ألف ، كان الحجاج أغرمهم ستة آلاف ألف ، فأدى ثلاثة آلاف ألف ، وبقيت ثلاثة آلاف ألف ، فهي عليّ ، فكتب إليه : لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلي ، فكتب إليه : لئن أنا بعثت به لأجيئن معه ، فأنشدك الله أن لا تفضحني ولا أن تُخْفرني ، فكتب إليه الوليد : والله لئن جئتني به لا أؤمنه ، فقال يزيد : ابعثني إليه ، فوالله ما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحرباً ، ولا أن يتشاءم بي لكما الناس ، ابعث إليه بي وأرسل معي ابنك ، واكتب إليه بألطف ما قدرت عليه ، فأرسل ابنه أيوب معه ، وكان الوليد أمره أن يبعث به إليه في وثاق ، فبعثه إليه وقال لابنه : إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد في سلسلة على الوليد ، ففعل ذلك حتى انتهيا إلى الوليد فدخلا عليه ، فلما رأى الوليد ابن أخيه مع يزيد في سلسلة قال : والله لقد بَلَغْنا من سليمان . ثم إن الغلام دفع كتاب أبيه إلى عمه وقال : يا أمير المؤمنين ، نفسي فداؤك ، لا تخفر ذمة أبي وأنت أحق مَن منعها ، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة في جوارنا لمكاننا منك ، ولا تذلّ من رجا العز في الانقطاع إلينا لعزنا بك ، وقرأ الكتاب : «لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك ، أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إني لأظُن لو استجار بي عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلتُه وأجرته ، فإنّك لا تذل جاري ولا تخفر جواري ، بل إني لم أُجِرْ إلا سامعاً مطيعاً حسن البلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته ، وبعد فقد بعثت به إليك ، فإن كنت إنّما تغزو قطيعتي والإخفار لذمتي والإبلاغ في مساءتي ، فقد قدرت إن أنت فعلت ذلك ، وأنا أعيذك بالله من اجترار [1] قطيعتي وانتهاك حرمتي وترك يدي وصلتي ، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدري ما بقائي وبقاؤك ، ولا متى يفرق

---

[1] ر : احتراز ، وأثبتنا ما في المسودة .

الموت بيني وبينك ، فإن استطاع أمير المؤمنين ، أدام الله سروره أن لا يأتي علينا أجل الوفاة إلا وهو لي واصل ولحقي مؤدٍّ وعن مساءتي نازع ، فليفعل ؛ والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت لشيء من أمور الدنيا بعد تقوى الله تعالى فيها بأسر مني برضاك وسرورك ، ولرضاك مما ألتمس به رضوانَ الله ، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوماً من الدهر مسرتي وصلتي وكرامتي وإعظام حقي فتجاوز لي عن يزيد ، وكل ما طلبته به فهو علي » ، فلما قرأ كتابه قال : لقد شققنا على سليمان ، ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه ، ثم تكلم يزيد فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم ، ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء ، فمن ينسَ ذلك فلسنا ناسيه ، ومن يكفر فلسنا كافريه ، وقد كان من بلائنا ، أهلَ البيت ، في طاعتكم والطعن في أعين أعدائكم في المواطن العظام في المشارق والمغارب ما إنّ المنة فيه عظيمة ، فقال له : اجلس ، فجلس فآمنه وكف عنه ، ورجع إلى سليمان ، وسعى إخوته في المال الذي عليه ، وكتب إلى الحجاج : إني لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان ، فاكفف عنهم ، والهَ عن الكتاب إليّ فيهم ، فلما رأى ذلك الحجاج كف عنهم . وكان أبو عيينة عند الحجاج عليه ألف ألف درهم فتركها له ، وكف عن حبيب بن المهلب ، وأقام يزيد عند سليمان تسعة أشهر في أرغد عيش وأنعم بال لا تأتي سليمان هدية إلا أرسل نصفها إليه[1] .

وقال بعض جلساء يزيد له : لم لا تتخذ لك داراً ؟ فقال : وما أصنع بها ولي دار حاصلة مجهزة على الدوام ؟ فقال له : وأين هي ؟ قال : إن كنتُ متولياً فدار الإمارة ، وإن كنت معزولاً فالسجن .

ومن كلام يزيد : ما يسرني أن أكفى أمور دنياي كلها ولي الدنيا بحذافيرها ، فقيل له : ولم ذاك ؟ فقال : لأني أكره عادة العجز .

ثم إن الحجاج مات في شوال سنة خمس وتسعين للهجرة[2] ، وقيل كانت وفاته لخمس ليال بقين من شهر رمضان من السنة ، وعمره ثلاث وخمسون سنة ،

---

١ هنا يتوقف النقل مؤقتاً عن الطبري .

٢ انظر الطبري ٢ : ١٢٦٨ .

وقيل أربع وخمسون . ولما حضرته الوفاة استخلف يزيد بن أبي كبشة على الحرب والصلاة بالمصرين : البصرة والكوفة ، وولّى خراجهما يزيد بن أبي مسلم ، فأقرهما الوليد ، وكذلك فعل بكل من استخلف الحجاج ، وقيل بل الوليد هو الذي ولاهما ، وكانت ولاية الحجاج بالعراقين عشرين سنة .

ثم توفي الوليد بن عبد الملك يوم السبت النصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين للهجرة ، بدير مُرّان — قلت : وهو بسفح جبل قاسيون ظاهر دمشق — ودفن في مقابر باب الصغير ظاهر دمشق ، وبويع سليمان بن عبد الملك في اليوم الذي مات فيه أخوه الوليد .

وفي هذه السنة [1] أعني سنة ست وتسعين ، عزل سليمان بن عبد الملك يزيد ابن أبي مسلم عن العراق ، وأمر عليه يزيد بن المهلب ، وقال خليفة بن خياط [2] : جمع ليزيد المصران ، يعني الكوفة والبصرة ، سنة سبع وتسعين ، والله أعلم . وجعل صالح بن عبد الرحمن على الخراج ، وأمره أن يعذب [3] آل أبي عقيل — قلت : هم رهط الحجاج — قال : ويبسط عليهم العذاب ، فأخذ صالح آل أبي عقيل فكان يعذبهم ، وكان يلي عذابهم عبد الملك بن المهلب .

وكان الوليد قد عزم على خلع أخيه سليمان عن ولاية العهد ، ويجعل ولي عهده ولده عبد العزيز [بن الوليد] وتابعه على ذلك الحجاج وقتيبة بن مسلم الباهلي والي خراسان الذي تولى بعد يزيد بن المهلب — كما سبق ذكره قبل هذا — فلما ولي سليمان الخلافة خافه قتيبة بن مسلم ، وتوهم أن يعزله ويولي خراسان يزيد ابن المهلب ، فكتب إلى سليمان كتاباً يهنئه بالخلافة ويعزيه عن الوليد ، ويعلمه بلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، وأنّه على مثل ما كان لهما عليه من الطاعة والنصيحة إن لم يعزله عن خراسان ، وكتب إليه كتاباً آخر يعلمه فيه فتوحه ومكانه وعظم قدره عند ملوك العجم وهيبته في صدورهم ، ويذم المهلب وآل المهلب ، ويحلف بالله لئن استعمل يزيد على خراسان ليخلعنه ، وكتب كتاباً ثالثاً فيه

---

١ المصدر السابق : ١٢٨٢ .

٢ تاريخ خليفة : ٤٢٧ وفيه سنة ست وتسعين .

٣ صورة الكلمة في المسودة « يقذل » وفي بعض النسخ « يقتل » .

خلعه ، وبعث بالكتب الثلاثة مع رجل من باهلة وقال له : ادفع إليه هذا الكتاب ، فإن كان يزيد بن المهلب حاضراً فقرأه ثم ألقاه إليه فادفع إليه هذا الكتاب ، وإن قرأ الأول فاحتبَسه ولم يدفعه إلى يزيد فاحتبس الكتابين الآخرين ، قال : فقدم رسول قتيبة بن مسلم على سليمان وعنده يزيد بن المهلب ، فدفع إليه الكتاب فقرأه ثم ألقاه إلى يزيد ، فدفع إليه الكتاب الآخر ، فقرأه ثم رماه إلى يزيد ، فأعطاه الكتاب الثالث ، فقرأه ، فتمعّر[1] لونه ، ثم دعا بطين فختمه ثم أمسكه بيده .

وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى : كان في الكتاب الأول وقيعة في يزيد بن المهلب وذكر غدره وكفره وقلة شكره ، وفي الكتاب الثاني ثناء على يزيد ، وفي الكتاب الثالث : لئن لم تقرني على ما كنت عليه وتؤمنّي لأخلعنك خلع النعل ، ولأملأنها عليك خيلاً ورجلاً .

ثم إن سليمان[2] أمر برسول قتيبة أن ينزلَ بدار الضيافة، فلما أمسى دعا به سليمان وأعطاه صرة فيها دنانير وقال : هذه جائزتك وهذا عهد صاحبك على خراسان فَسِرْ وهذا رسول معك بعهده . فخرج الباهلي ومعه رسول سليمان ، فلما كان بحلوان تلقاهم الناس بخلع قتيبة ، فرجع رسول سليمان ودفع العهد إلى رسول قتيبة ، فوصل به إليه ، فاستشار إخوته فقالوا : لا يثق بك سليمان بعد هذا .

ثم إن قتيبة قتل — كما ذكرته في ترجمته في حرف القاف مع الاختصار لأن الشرح في ذلك يطول .

ثم إن يزيد بن المهلب نظر في نفسه لما تولى العراق فقال[3] : إن العراق قد أخربها الحجاج ، وأنا اليوم رحا[4] أهل العراق ، ومتى قدمتها وأخذت الناس

---

١ ر س من بر : فتغير ؛ وأثبتنا ما في المسودة .

٢ متابع للنقل عن الطبري : ١٢٨٥ .

٣ المصدر السابق : ١٣٠٦ .

٤ كذا في المسودة : بالحاء المهملة ، وتحتها رسم المؤلف صورة الحاء ، وفي ر س بر من والطبري : رجاء ، وفي ق ع : رجل .

بالخراج وعذّبتهم عليه صرتُ مثلَ الحجاج أُدخلُ على الناس الحرب وأُعيد عليهم تلك الشجون[1] التي قد عافاهم الله منها ، ومتى لم آت سليمان بمثل ما جاء به الحجاج لم يقبل مني . فأتى يزيدُ سليمانَ فقال : أدلك على رجل بصير بالخراج توليه إياه وهو صالح بن عبد الرحمن مولى بني تميم . فقال : قد قبلنا رأيك ، فأقبل يزيد إلى العراق ، وكان صالح قدم العراق قبل قدوم يزيد ونزل واسطاً ، ولمّا قدم يزيد خرج الناس يتلقونه ، فلم يخرج صالح حتّى قرب يزيد من المدينة ، ثم خرج إليه وبين يديه أربعمائة من أهل الشام ، فلقي يزيد وسايره ، فلما دخل المدينة قال له صالح : قد فرغت لك هذه الدار ، فنزل يزيد ، ومضى صالح حتّى أتى منزله ، وضيق صالح على يزيد فلم يملكه شيئاً ، واتخذ يزيد ألف خوان يطعم الناس عليها فأخذها صالح ، فقال له يزيد : اكتب ثمنها علي ؛ واشترى متاعاً كثيراً وصك صكاكاً إلى صالح لباعتها منه، فلم ينفذه[2] ، فرجعوا إلى يزيد فغضب وقال : هذا عملي بنفسي ، فلم يلبث أن جاء صالح فأوسع له يزيد فجلس وقال ليزيد : ما هذه الصكاك ؟ إن الخراج لا يقوم لها ، ولقد أنفذت لك منذ أيام صكاكاً بمائة ألف وعجلت لك أرزاقك وسألت مالاً فأعطيتك ، فهذا لا يقوم له شيء ، ولا يُرضي أميرَ المؤمنين ، وتؤخذ به ، فقال له يزيد : يا أبا الوليد أجز هذه الصكاك هذه المرة ، وضاحكه فقال : إنّي أجيزه فلا تكثرن علي ، قال : لا .

ولما ولّى سليمانُ يزيدَ العراقَ لم يولّه خراسان ، فقال سليمان لعبد الملك ابن المهلب : كيف أنت يا عبد الملك إن وليتك خراسان ؟ قال : يجدني أمير المؤمنين حيث يُحبّ ، ثم أعرض سليمان عن ذلك ، وكتب عبد الملك إلى رجال من خاصته بخراسان : إن أمير المؤمنين عرض عليّ ولاية خراسان ، فبلغ الخبر إلى أخيه يزيد وقد ضجر بالعراق ، وقد ضيّق عليه صالح بن عبد الرحمن ، فليس يصل معه إلى شيء ، فدعا يزيد عبد الله بن الأهتم فقال : إنّي أريدك لأمر قد أهمني ، وقد أحببتُ أن تكفينيه ، قال : مرني بما أحببت ، قال : أنا فيما

---

[1] كذا في المسودة ؛ وفي ر ع س بر من والطبري : السجون .

[2] ر : فلم ينفذها .

ترى من الضيق وقد أضجرني ذلك ، وخراسان شاغرة ، وقد بلغني أن أمير المؤمنين ذكرها لعبد الملك بن المهلب ، فهل من حيلة ؟ قال : نعم سرِّحني إلى أمير المؤمنين فإنّي أرجو أن آتيك بعهده عليها ، قال : فاكتم ما أخبرتك به ، وكتبْ إلى سليمان كتابين : أحدهما يذكر له فيه أمر العراق ، وأثنى فيه على ابن الأهتم ، وذكر له علمه بها ، ووجه ابن الأهتم وحمله على البريد ، وأعطاه ثلاثين ألفاً ، وسار سبعاً فقدم بكتاب يزيد على سليمان ، فدخل عليه وهو يتغدى ، فجلس ناحية فأتي بدجاجتين فأكلهما ، ثم قال له سليمان : لك مجلس بعد هذا تعود إليه ، ثم دعا به بعد ثالثة ، فقال له سليمان : إن يزيد بن المهلب كتب إلي يذكر علمك بالعراق وبخراسان ويثني عليك ، فكيف علمك بها ؟ قال : أنا أعلم الناس بها ، بها ولدت ، وبها نشأت ، قال : ما أحوج أمير المؤمنين إلى مثلك يشاوره في أمرها ، فأشر علي برجل أوليه خراسان ، قال : أمير المؤمنين أعلم بمن يريد يولي ، فإن ذكر منهم أحداً أخبرته برأيي فيه هل يصلح أم لا ؟ فسمى سليمان رجلاً من قريش ، فقال : ليس من رجال خراسان ، فسمى عبد الملك ابن المهلب ، فقال : لا ، حتى عدد رجالاً ، فكان في آخر من ذكر وكيع ابن أبي سُود ، فقال : يا أمير المومنين وكيع رجل شجاع صارم مقدام وليس بصاحبها ، ومع هذا إنّه لم يَقُدْ ثلثمائة قط فرأى لأحد عليه طاعة ، قال : صدقت ويحك ! فمن لها ؟ قال : رجل أعلمه لم تسمه ، قال : فمن هو ؟ قال : لا أبوح باسمه إلا أن يضمن لي أمير المؤمنين سَتْرَ ذلك وأن يجيرني منه إن علم ، قال : نعم ، سمّه لي ، قال : يزيد بن المهلب ، قال : ذلك بالعراق والمقام بها أحب إليه من المقام بخراسان ، قال : قد علمت يا أمير المؤمنين ، ولكن تُكرهه فيستخلف على العراق رجلاً ويسير ، قال : أصبت الرأي ، فكتب عهد يزيد ابن المهلب على خراسان ، وكتب إليه إن ابن الأهتم كما ذكرت من عقله ودينه وفضله ورأيه ، ودفع الكتاب وعهدَ يزيد إليه ، فسار سبعاً فقدم على يزيد فقال له : ما وراءك؟ فأعطاه الكتاب فقال : ويحك ! أعندك خبر ، فأعطاه العهد، فأمر يزيد بالجهاز للمسير من ساعته ودعا ابنه مخلداً فقدمه إلى خراسان فسار من يومه.

ثم سار يزيد إلى خراسان فأقام بها ثلاثة أشهر أو أربعة ، ثم غزا جرجان

وطبرستان ودِهستان وفتحها ، وذلك في سنة ثمان وتسعين . وقتل من أصحاب يزيد على حصار بعض قلاع جرجان خمسة آلاف رجل ، فحلف يزيد يميناً مغلظة أنّه ليقتلنهم حتّى تطحن الرحى بدمائهم ، فأكثر من قتلهم ، وكانت الدماء لا تجري حتّى صُبَّ عليها الماء فجرت فطحنت ، وأكل مما طحنت بدمائهم .

ثم مات سليمان بن عبد الملك يوم الجمعة لعشر ليال بقين من صفر سنة تسع وتسعين للهجرة ، وقيل لعشر ليال مضين من صفر ، والله أعلم بالصواب ، بدابق ، قريةٍ من شماليّ حلب . وعهد إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فعزل عمر في هذه السنة يزيد بن المهلب عن العراق[1] ، وجعل مكانه عدي بن أرطأة الفزاري ، فأخذ يزيد وأوثقه ، وبعث به إلى عمر بن عبد العزيز ، وقد كان عمر يبغض يزيد وأهل بيته ، ويقول : هؤلاء جبابرة ولا أحب مثلهم ، وكان يزيد يبغض عمر ويقول : إنّي لأظنه مرائياً . ولما وصل يزيد سأله عمر عن الأموال التي كتب بها إلى سليمان فقال : كنت من سليمان بالمكان الذي قد رأيتَ ، وإنّما كتبت إلى سليمان لأسمع الناس به ، وقد علمت أن سليمان لم يكن ليأخذني بشيء ممّا سمعت ، ولا بأمر أكرهه ، فقال عمر : ما أجد في أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأدِّ ما قبلك فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها ، فردّه إلى محبسه .

وذكر البلاذري في كتاب « فتوح البلدان »[2] في الفصل المتضمن حديث جرجان وطبرستان ، أن يزيد بن المهلب لما فرغ من أمر جرجان سار إلى خراسان فتلقته الهدايا ، ثم ولى ابنه مخلداً خراسان ، وانصرف إلى سليمان ، فكتب إليه إن معه خمسة وعشرين ألف ألف درهم ، فوقع الكتاب في يد عمر بن عبد العزيز ، فأخذ يزيد به وحبسه ، والله أعلم .

وبعث[3] عمر إلى الجراح بن عبد الله الحكمي فسرحه إلى خراسان ، ثم قدم

---

١ انظر الطبري ٢ : ١٣٥٠ .

٢ فتوح البلدان : ٤١٤ .

٣ عاد إلى النقل عن الطبري : ١٣٥٠ .

مخلد بن يزيد على عمر ، وجرى بينهما ما سبق ذكره ، فلما خرج مخلد بن يزيد قال عمر : هذا عندي خير من أبيه ، فلم يلبث مخلد إلا قليلاً حتّى مات . ولمّا أبى يزيد أن يؤدي المال إلى عمر ألبسه جبة صوف وحمله على جمل ، ثم قال : سيروا به إلى دهلك — قلت : وهي جزيرة في بحر عيذاب بالقرب من سواكن كان الخلفاء يحبسون بها من نقموا عليه — . قال : فلما أُخرج يزيد مروا به على الناس ، فجعل يزيد يقول : مالي عشيرة ؟ يُذْهَبُ بي إلى دهلك ؟ إنّما يُذْهَب إلى دهلك بالفاسق المريب ، سبحان الله ، أما لي عشيرة ؟ فدخل على عمر سلامة ابن نعيم الخولاني ، وقال يا أمير المؤمنين ، اردد يزيد إلى محبسه ، فإنّي أخاف إن أمضيته أن ينتزعه قومه ، فإني رأيت قومه قد غضبوا له، فردّه إلى محبسه ، ولم يزل في محبسه حتّى بلغه مرض عمر .

وقيل[1] إن عدي بن أرطأة سلمه إلى وكيع بن حسان بن أبي سود التميمي مغلولاً مقيداً في سفينة ليوصله إلى عين التمر حتّى يحمل إلى عمر ، فعرض لوكيع ناس من الأزد لينتزعوه منه ، فوثب وكيع وانتضى سيفه وقطع قَلْسَ السفينة ، وأخذ سيف يزيد بن المهلب ، وحلف بطلاق امرأته ليضربن عنقه إن لم يتفرقوا عنه ، فناداهم يزيد وأعلمهم بيمين وكيع ، فتفرقوا ، ومضى به حتّى سلمه إلى الجند الذين بعين التمر ، وحمله الجند إلى عمر فحبسه .

ولما كان يزيد في حبس عمر دخل عليه الفرزدق ، فرآه مقيداً فأنشده :

أصبح في قيدكَ السماحةُ والـ ... جودُ وحمل الديات والحسبُ
لا بَطِرٌ إن ترادَفتْ نِعمٌ ... وصابرٌ في البلاء محتسبُ

فقال له يزيد : ويحك ماذا صنعت ؟ أسأت إلي ، قال : ولم ذاك ؟ قال : تمدحني وأنا على هذه الحالة ؟ فقال له الفرزدق : رأيتك رخيصاً فأحببت أن أسلف فيك بضاعتي ، فرمى يزيد إليه بخاتمه وقال : شراؤه ألف دينار ، وهو ربحك إلى أن يأتيك رأس المال .

واستمر في حبسه[2] إلى أن مرض عمر في سنة إحدى ومائة ، فخاف

---

١ الطبري ٢ : ١٣٥٢ .   ٢ الطبري : محبسه .

يزيد بن المهلب من يزيد بن عبد الملك بن مروان أن يلي الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز ، وكان يزيد بن المهلب لما ولي العراق قد عذب آل أبي عقيل — وهم رهط الحجاج كما سبق ذكره — وكانت أم الحجاج بنت محمد بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل عند يزيد بن عبد الملك، وهي أم الوليد بن يزيد فاسق بني أمية ، وهي بنت أخي الحجاج، وكان يزيد بن عبد الملك قد عاهدها لئن أمكنه الله من يزيد بن المهلب ليقطعن منه طابقاً[1] ، فكان يخشى ذلك ، فأخذ يعمل في المهرَب[2] ، فبعث إلى مواليه فأعدوا له إبلاً ، وكان مرض عمر في دير سمعان ، فلما اشتد مرض عمر نزل يزيد من محبسه وخرج حتى أتى المكان الذي فيه إبله ، وقد واعدهم إليه ، فاحتمل وخرج ، فلما جاز كتب إلى عمر : إنّي والله لو علمت أنّك تبقى ما خرجت من محبسي ، ولكني لم آمن يزيد بن عبد الملك ، فقال عمر : اللهم إن كان يريد بهذه الأمة شراً فاكفهم شره واردد كيدَهُ في نحره .

ومضى يزيد بن المهلب ؛ وزعم الواقدي أن يزيد بن المهلب : إنّما هرب من سجن عمر بعد موت عمر — قلت : وجدت في مُسودة تاريخ القاضي كمال الدين ابن العَديم الحلبي ، أن عمر حبس يزيد بن المهلب وابنه معاوية بحلب وهربا منها ، والله أعلم .

(333) ثم توفي عمر بن عبد العزيز[3] يوم الجمعة ، وقيل الأربعاء ، لخمس ليال بقين من رجب سنة إحدى ومائة ، رحمه الله تعالى ، بدير سمعان ، وقيل إنّه مات لعشر بقين من رجب من السنة ، وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأشهر ، وقيل إنه مات بخُنَاصِرة[4] . وأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وكان يقال له « أشجُّ بني أمية » ، وذلك أن دابة من

---

١ ر : طائفاً .

٢ فأخذ . . . المهرب : لم ترد في الطبري .

٣ متابع للطبري : ١٣٦٢ .

٤ ورد في ر بر من هنا تعريف بخناصرة ، وذلك سيرد في الترجمة التالية ، ولم يرد في هذا الموضع في المسودة وسائر النسخ ، وكان المؤلف قد كتب التعريف في مسودته هنا ثم أضرب عن ذلك .

دواب أبيه كانت شجته . قال نافع مولى ابن عمر : كنت أسمع ابن عمر كثيراً يقول : ليت شعري مَن هذا الذي من ولد عمر في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً ، قال سالم الأفطس : إن عمر بن عبد العزيز رمحته دابة وهو غلام بدمشق ، فأتى أمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فضمته إليها وجعلت تمسح الدم عن وجهه ، ودخل أبوه عليها على تلك الحال ، فأقبلت عليه تعذله وتلومه وتقول : ضيعت ابني ، ولم تضم إليه خادماً ولا حاضناً يحفظه من مثل هذا ، فقال لها : اسكتي يا أم عاصم ، فطوبى لك إن كان أشجَّ بني أمية .

وقال حماد بن زيد : إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مر بعجوز تبيع لبناً معها في سوق اللبن ، فقال لها : يا عجوز لا تغشّي المسلمين وزوار بيت الله تعالى ولا تشوبي اللبن بالماء ، فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ، ثم مر بها بعد ذلك ، فقال لها : يا عجوز ، ألم أتقدم إليك أن لا تشوبي اللبن بالماء ؟ فقالت : والله ما فعلت ، فقالت ابنة لها من داخل الخباء : أغشاً وكذباً جمعت على نفسك ؟ فسمعها عمر رضي الله عنه فهمَّ بمعاقبة العجوز ، فتركها لكلام ابنتها ؛ ثم التفت إلى بنيه فقال : أيكم يتزوج هذه ، فلعل الله عزّ وجلّ يخرج منها نسمة طيبة مثلها ؟ فقال عاصم بن عمر : أنا أتزوجها ، فزوجها إياه ، فولدت له أم عاصم ، فتزوج أم عاصم عبد العزيز بن مروان ، فولدت له عمر بن عبد العزيز . ثم تزوج بعدها حفصة وفيها قيل : ليست حفصة من نساء أم عاصم .

[وذكر الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزغلي بن عبد الله ، سبط الشيخ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي في كتاب « جوهرة الزمان في تذكرة السلطان » عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : بينما أبي يعس بالمدينة إذ سمع امرأة وهي تقول لابنتها : يا بنية ، قومي فشوبي اللبن بالماء ، فقالت : يا أماه أما سمعت منادي أمير المؤمنين أنّه نادى : أن لا يشاب اللبن بالماء ؟ فقالت : وأين أنت من مناديه الساعة ؟ فقالت : إذا لم يرني مناديه ألم يرني رب مناديه ؟ — وفي رواية أخرى ، قالت : والله ما كنت لأطيعه في الملا وأعصيه في الخلا ، قال : فبكى عمر رضي الله عنه . فلما أصبح دعا بالمرأة وبابنتها وسأل : هل لها زوج ؟ فقالت : ليس لها زوج ، فقال : يا عبد الله ، تزوج هذه ، فلو كانت

بي حاجة إلى النساء لتزوجتها ، فقلت : أنا في غنى عنها ، فقال : يا عاصم تزوجها ، فتزوجها ، فجاءت بابنة فحملت بعمر بن عبد العزيز] [1] .

ولما مات عمر بن عبد العزيز ، رضي الله تعالى عنه ، ولي مكانه يزيد بن عبد الملك بن مروان .

ثم إن يزيد بن المهلب لحق بالبصرة فغلب عليها ، وأخذ عامل يزيد بن عبد الملك وهو عدي بن أرطأة الفزاري فحبسه ، وخلع يزيد بن عبد الملك ورام الخلافة لنفسه ، فجاءته إحدى حَظاياه وقبلت الأرض بين يديه وقالت : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فأنشدها :

رُويْدك حتّى تنظري عَمَّ تنجلي عَمايةُ هذا العارضِ المتألقِ

قلت : وهذا البيت من جملة أبيات لبشر بن قُطَيّة الأسدي .

قلت : ولا حاجة إلى تفصيل الحال فيه فإن شرحه يطول ، وهذه خلاصته ؛ ثم إن يزيد بن عبد الملك جهز لقتاله أخاه مسلمة بن عبد الملك ، وابن أخيه العباس ابن الوليد بن عبد الملك ، ومعهما الجيش ، وخرج يزيد بن المهلب للقائهم ، واستخلفَ على البصرة ولده معاوية بن يزيد وعنده الرجال والأموال والأسرى ، وقدَّم بين يديه أخاه عبد الملك بن المهلب وسار حتى نزل العَقْر – قلت : هي عَقْر بابل ، وهي عند الكوفة بالقرب من كربلاء ، الموضع الذي قتل فيه الحسين ، رضي الله عنه ؛ والعَقْر : بفتح العين المهملة وسكون القاف وبعدها راء ، وهو في الأصل اسم القِصر ؛ والمواضع المسماة بالعَقْر أربعة : أحدها هذا ولا حاجة إلى ذكر الباقي ، وقد ذكرها ياقوت الحموي في كتابه الذي سماهُ « المشترك وَضعاً » – .

قال الطبري [2] : ثم أقبل مسلمة بن عبد الملك حتى نزل على يزيد بن المهلب فاصطفوا ، ثم اقتتل القوم ، فشدَّ أهل البصرة على أهل الشام فكشفوهم ، ثم إن أهل الشام كروا عليهم فكشفوهم ، وكان على مقدمة جيش يزيد أخوه

---

١ انفردت به ر بر من ، ولم يرد في المسودة .

٢ الطبري ٢ : ١٣٩٥ .

عبد الملك ، فلما انكشف جاء إلى أخيه يزيد ، وكان الناس يبايعون يزيد بن المهلب ، وكانت مبايعته على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأن لا تطأ الجنودُ بلادهم ولا بيضتهم ، ولا تعاد عليهم سيرة الفاسق الحجاجِ، وكان مروان بن المهلب بالبصرة يحرض الناس على حرب أهل الشام ويسرح الناس إلى أخيه يزيد .

وكان الحسن البصري [1] ، رضي الله عنه يثبط الناس عن يزيد بن المهلب ، فقال يوماً في مجلسه : يا عجباً لفاسق من الفاسقين ومارق من المارقين غبر برهة من دهره ، يهتك لله في هؤلاء القوم كلّ حرمة ، ويركب له فيهم كل معصية ويأكل ما أكلوا ويقتل من قتلوا ، حتى إذا منعوه لماظةً كان يتلمظها قال : أنا لله غضبان فاغضبوا ، ونصب قصباً عليها خِرَقٌ ، وتبعه رجراجة رعاع هباء ما لهم أفئدة وقال : أدعوكم إلى سنة عمر بن عبد العزيز ، ألا وإن من سنة عمر أن توضع رجلاه في قيد ثم يوضع حيث وضعه عمر ؛ فقال له رجل : أتعذر أهل الشام يا أبا سعيد ؟ يعني بني أمية ، فقال : أنا أعذرهم ؟ لا عذرهم الله ! والله لقد حدث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال « اللهم إنّي حرمتُ المدينة بما حرمتَ به بلدك مكة » ، فدخلها أهلُ الشام ثلاثاً لا يغلق لها باب إلا أحرق بما فيه ، حتى إن الأقباط والأنباط ليدخلون على نساء قريش فينتزعون خُمُرهنّ من رؤوسهنّ وخلاخلهنّ من أرجلهنّ، سيوفهم على عواتقهم ، وكتاب الله تعالى تحت أرجلهم ، أنا أقتل نفسي لفاسقين تنازعا هذا الأمر ؟ والله لوددت أن الأرض أخذتهما خسفاً جميعاً .

فبلغ ذلك يزيد بن المهلب فأتى الحسن ، هو وبعض بني عمه إلى حلقته في المسجد متنكرين ، فسلّما عليه ثم خلوا به ، فاشرأبَّ الناس ينظرون إليهم ، فلاحاه يزيد ، فدخل في ملاحاتهما ابن عم يزيد ، فقال له الحسن : وما أنت وذاك يا ابن اللخناء ؟ فاخترط سيفه ليضربه به ، فقال يزيد : ما تصنع ؟ قال : أقتله ، فقال له يزيد : اغمد سيفك ، فوالله لو فعلت لانقلب من معنا علينا .

قلت : ويزيد بن المهلب المذكور ، هو الذي عناه ابن دريد في مقصورته

---

[1] المصدر السابق : ١٣٩٢ مع بعض اختلاف .

المعروفة بالدريدية بقوله :

وقد سما قبلي يزيدُ طالباً شأو العلا فما وهى ولا وَنى

وكل من شرح الدريدية تكلم على هذا البيت وشرح قصته .

وكانت إقامة يزيد بن المهلب منذ اجتمع هو ومسلمة بن عبد الملك ثمانية أيام ، حتى إذا كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر سنة اثنتين ومائة[1] أمر مسلمة أن تحرق السفن فأُحرقت ، والتقى الجمعان وشبت الحرب ، فلما رأى الناسُ الدخان وقيل لهم : أُحرق الجسر ، انهزموا ، فقيل ليزيد : قد انهزم الناس ، فقال : مم انهزموا ؟ فقيل له : أحرق الجسر فلم يلبث أحد ، فقال : قبحهم الله ، بَقٌّ دُخِّنَ عليه فطار . وكان يزيد لا يحدث نفسه بالفرار ، وجاءه مَنْ أخبره أن أخاه حبيباً قد قتل فقال : لا خير في العيش بعد حبيب ، قد كنت والله أبغض الحياة بعد الهزيمة فوالله ما ازددت لها إلا بغضاً ، امضوا قُدُماً ، قال أصحابه : فعلمنا أن الرجل قد استقتل . وأخذ من يكره القتال ينكص ، وأخذوا يتسالّون[2] ، وبقيت معه جماعة حسنة ، وهو يزدلف ، فكلما مر بخيل كشفها أو جماعة من أهل الشام عدلوا عنه وعن سَنَن أصحابه ، فجاء أبو رؤبة المرجىء وقال : ذهب الناس ، فهل لك أن تنصرف إلى واسط فإنّها حصن تنزلها ويأتيك مدد أهل البصرة ويأتيك أهل عمان والبحرين في السفن وتضرب خندقاً ؟ فقال له : قبح الله رأيك ، ألي تقول ذا ؟ الموت أيسر علي من ذلك ، فقال له : فإنّي أتخوف عليك ، أما ترى ما حولك من جبال الحديد ؟ فقال له : فأنا أباليها أجبال حديد كانت أو جبال نار ؟ اذهب عنا إن كنت لا تريد قتالاً معنا .

وأقبل على مسلمة لا يريد غيره ، حتى إذا دنا منه دعا مسلمة بفرسه ليركبه ، فعطفت عليه خيول أهل الشام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد بن المهلب ، وقتل معه أخوه محمد وجماعة من أصحابه ، وقال القحل – بفتح القاف وسكون الحاء

---

١ متابع للطبري ٢ : ١٤٠٢ وما بعدها .

٢ كذا في المسودة ؛ وفي النسخ : يتسللون .

المهملة وآخره لام — ابن عياش الكلبي ، لما نظر إلى يزيد : يا أهل الشام ، هذا والله يزيد ، لأقتلنه أو ليقتلُنّي ، إن دونه ناساً ، فمن يحمل معي يكفيني أصحابه ، حتى أصل إليه ؟ فقال له ناس من أصحابه : نحن نحمل معك ، فحملوا بأجمعهم ، فاضطربوا ساعة وسطع الغبار وانفرج الفريقان عن يزيد قتيلاً ، وعن القحل بن عياش بآخر رمق ، فأومأ إلى أصحابه يريهم مكان يزيد ، وجاء برأس يزيد مولى لبني مرة ، فقيل له : أنت قتلته ؟ فقال : لا . وفي أثناء الوقعة نظر الحواري بن زياد إلى برذون عائر فقال : الله أكبر ، هذا برذون الفاسق ابن المهلب ، قد قتله الله إن شاء الله ، فطلبوه ، فأتي مسلمة برأسه ، فلم يُعرف الرأس ، فقال حسان النبطي : مهما ظننتم فلا تظنوا أن الرجل هرب ، ولقد قتل ، فقال مسلمة : وما علامة ذلك ؟ فقال : إنّي سمعته أيام ابن الأشعث يقول : قبح الله ابن الأشعث ، هبوه غلب على أمره أكان يغلب على الموت ؟ ألا مات كريماً ؟

(334) قلت : ذكر الأمير أبو نصر ابن ماكولا في باب «الفحل والقحل والعجل» ما مثاله : وأما القحل فمثل الفحل إلا أن أوله قاف فهو القحل بن عياش بن حسان بن عثمير بن شراحيل بن عزيز [1] ، قتل يزيد بن المهلب وقتله يزيد ، ضرب كل واحد منهما صاحبه فقتله . فلما أُتي به إلى مسلمة لم يعرف ولم ينكر ، فقيل له : مر برأسه فليغسل ثم ليعمم ، ففُعل به ذلك فعرفه ، فبعث به إلى أخيه يزيد بن عبد الملك مع خالد بن الوليد بن عقبة بن أبي معيط .

وقال خليفة بن خياط [2] : ولد يزيد بن المهلب سنة ثلاث وخمسين وتوفي مقتولاً يوم الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين ومائة ، والله أعلم بالصواب .

ولما جاءت هزيمة يزيد واسط [3] أخرج معاوية بن يزيد بن المهلب اثنين وثلاثين أسيراً كانوا في يديه فضربوا أعناقهم ، منهم عدي بن أرطأة ، ثم خرج

---

١ س : عزين .

٢ تاريخ خليفة : ٤٧١ .

٣ ر : واسطاً ؛ ولم ينونها المؤلف في المسودة .

وقد قال له القوم[1] : ويحك ، إنّا لا نراك تقتلنا الا أن أباك قد قتل ، ثم أقبل حتّى أتى البصرة معه المال والخزائن ، وجاء المفضل بن المهلب ، واجتمع جميع أهل المهلب بالبصرة وقد كانوا يتخوفون الذي كان ، فأعدوا السفن البحرية وتجهزوا بكل الجهاز . وأراد معاوية بن يزيد أن يتأمر على آل المهلب ، فاجتمعوا وأمروا عليهم المفضل بن المهلب ، وقالوا : المفضل أكبرنا سنّاً ، وإنّما أنت غلام حَدَث[2] السن كبعض فتيان أهلك ، فلم يزل المفضل عليهم حتى خرجوا إلى كرمان ، وبكرمان فلول كثيرة ، فاجتمعوا إلى المفضل ، وبعث مسلمة بن عبد الملك في طلب آل المهلب وطلب الفلول ، فأدركوهم في عقبة بفارس ، فاشتد قتالهم ، فقتل المفضل وجماعة من خواصه ، ثم قتل آل المهلب من عند[3] آخرهم ، إلا أبا عيينة وعثمان بن المفضل فإنهما نَجَوَا ولحقا بخاقان ورُتْبيل ، وبعث مسلمة برؤوسهم إلى أخيه يزيد وهو على حلب ، فلما نصبوا خرج لينظر إليهم ، فقال لأصحابه : هذا رأس عبد الملك، هذا رأس المفضل ، والله لكأنّه جالس معي يحدثني .

وقال غير الطبري : لما حُمل رأس يزيد بن المهلب إلى يزيد بن عبد الملك نال منه بعض جلسائه ، فقال له : مه إن يزيد طلب جسيماً ، وركب عظيماً ، ومات كريماً .

ولما فرغ مسلمة من حرب آل المهلب جمع له أخوه يزيد ولاية الكوفة والبصرة وخراسان في هذه السنة .

ولما قتل يزيد بن المهلب رثاه شاعره ثابت قُطْنة بمراثٍ كثيرة حسنة ، منها قوله :

كلُّ القبائل بايعوك على الذي ... تدعو إليه وتابعوك وساروا
حتّى إذا اشتجر القنا وتركتهم ... رَهْنَ الأسنة أسلموك وطاروا

---

١ الطبري ٢ : ١٤٠٩ .

٢ ر والطبري : حديث .

٣ كذا في المسودة ؛ وفي النسخ : عن آخرهم .

إن يقتلوك فإن قتلك لم يكن عاراً عليك ، ورب قتلٍ عار

(335) قلت : وهذا ثابت قطنة من شعراء خراسان وفرسانهم ، وذهبت عينه فكان يحشوها قطنة فسمّي ثابت قطنة ؛ وقد كان يزيد بن المهلب استعمله على بعض كور خراسان فلما علا المنبر أُرتج عليه ، فلم ينطق حتّى نزل فدخل عليه الناس فقال :

فإن لا أقمْ فيكم خطيباً فإنني بسيفي إذا جدّ الوغى لخطيبُ

فقالوا : لو كنت قلت هذا على المنبر لكنت أخطب الناس ، ذكره ابن قتيبة في كتاب « طبقات الشعراء »[1] . وقال ابن الكلبي في « جمهرة النسب » : هو ثابت بن كعب بن جابر بن كعب بن كزمان بن طرفة بن وهب بن مازن بن يمّ بن الأسد بن الحارث بن العتيك بن الأسْد بن عمران بن عمرو مزيقياء بن عامر ماء السماء [وفيه يقول صاحب الفيل الحنفي ، وكانا يتهاجيان :

أبا العلاء لقد لاقيت مُعضلةً يوم العَروبة من كرب وتخنيقِ
تلوي اللسان إذا رمت الكلام به كما هوى زلَقٌ من شاهق النّيق
لما رمتك عيونُ الناس ضاحيةً أنشأت تجرَضُ لما قمت بالرّيق][2]

وقال غير الطبري : إن الذي قتل يزيد بن المهلب هو الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي .

وقال الكلبي : نشأت والناس يقولون : ضحّى بنو أمية بالدين يوم كربلاء وبالكرم يوم العَقْر[3] ؛ وقال محمد بن واسع لما جاء نعي يزيد : أشتهي باكية عُمانية تندب لي قتلى آل المهلب ؛ وقال عبّاد بن عباد : مكثنا نيفاً وعشرين سنة بعد قتلى آل المهلب لا تولد فينا جارية ولا يموت منا غلام .

وقال خليفة بن خياط ، سنة اثنتين ومائة : فيها قتل يزيد بن المهلب يوم

---

١ الشعر والشعراء : ٥٢٦ وانظر في ترجمته أيضاً كتاب الأغاني ١٤ : ٢٤٧ والخزانة ٤ : ١٨٤ .
٢ انفردت به : ر بر من .
٣ مر مثل هذا في ترجمة كثير عزة ٤ : ١٠٩ .

الجمعة لاثنتي عشرة ليلة خلت من صفر ، وهو ابن تسع وأربعين سنة ، رحمه الله تعالى ، فلقد كان من النجباء الكرماء العظماء الفرسان .

وروي أن مسلمة بن عبد الملك دخل على أخيه يزيد بن عبد الملك حين خلعه يزيد بن المهلب ، فرآه في ثوب مصبوغ فقال له : أتلبس مثل هذا وأنت ممن قيل فيه :

قوم إذا حاربوا شَدّوا مآزرهم دونَ النساء ولو باتتْ بأطهارِ

فقال مسلمة : ذاك ونحن نحارب أكفاءنا من قريش ، فأمّا إن نعق ناعق فلا ولا كرامة .

قلت : وهذا البيت للأخطل التغلبي النصراني الشاعر المشهور[1] .

٨١٧

يزيد بن أبي مسلم الثقفي مولاهم

أبو العلاء يزيد بن أبي مسلم دينار الثقفي ، مولاهم ؛ كان مولى الحجاج ابن يوسف الثقفي وكاتبه ، وكان فيه كفاية ونهضة ، قدمه الحجاج بسببهما – وقد تقدم في ترجمة يزيد بن المهلب أن الحجاج لما حضرته الوفاة استخلفه على الخراج بالعراق – فلما مات الحجاج أقره الوليد بن عبد الملك على حاله ولم يغير عليه شيئاً . وقيل إن الوليد هو الذي ولاّه بعد موت الحجاج ، وقال الوليد يوماً : مثلي ومثل الحجاج وابن أبي مسلم كرجل ضاع منه درهم فوجد ديناراً .

ولما مات الوليد وتولى أخوه سليمان عزل يزيد بن أبي مسلم وبعث مكانه

١ ديوان الأخطل : ١٢٠ .

٨١٧ – أخباره في تاريخ الطبري وابن الأثير وابن خلدون ، وانظر البيان المغرب ١ : ٤٨ وتاريخ الرقيق : ٩٩ وابن أبي دينار : ٣٩ .

يزيد بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي المذكور قبله ، وأحضر إليه يزيد بن أبي مسلم في جامعة ، وكان رجلاً قصيراً دميماً قبيح الوجه عظيم البطن تحتقره العين ، فلما نظر إليه سليمان قال : أنت يزيد بن أبي مسلم ؟ قال : نعم أصلح الله أمير المؤمنين قال : لعن الله من أشركك في أمانته وحكمك في دينه ، قال : لا تفعل يا أمير المؤمنين ، فإنك رأيتني والأمور مدبرةٌ عني ، ولو رأيتني والأمور مقبلة علي لاستعظمت ما استصغرت ولاستجللت ما احتقرت ، فقال سليمان : قاتله الله ، فما أسدَّ عقله وأعضَبَ لسانه ! ثم قال سليمان : يا يزيد ، أترى صاحبك الحجاج يهوي بعدُ في نار جهنم أم قد استقر في قعرها ؟ فقال يزيد : لا تقل ذلك يا أمير المومنين ، فإن الحجاج عادى عدوكم ووالى وليكم ، وبذل مهجته لكم ، فهو يوم القيامة عن يمين عبد الملك وعن يسار الوليد ، فاجعله حيث أحببت . وفي رواية أخرى : إنه يحشر غداً بين أبيك وأخيك ، فضعهما حيث شئت ، قال سليمان : قاتله الله ، فما أوفاه لصاحبه ! إذا اصطنعت الرجالُ فلتصطنع مثل هذا ، فقال رجل من جلساء سليمان : يا أمير المؤمنين ، اقتل يزيد ولا تستبقِه ، فقال يزيد : من هذا ؟ فقالوا : فلان بن فلان ، قال يزيد : والله لقد بلغني أن أمه ما كان شعرها يوازي[1] أذنيها ، فما تمالك سليمان أن ضحك وأمر بتخليته . ثم كشف عنه سليمان فلم يجد عليه خيانة ديناراً ولا درهماً ، فهم باستكتابه ، فقال له عمر بن عبد العزيز : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن تحيي[2] ذكر الحجاج باستكتابك كاتبه ، فقال : يا أبا حفص ، إني كشفت عنه فلم أجد عليه خيانة ، فقال عمر : أنا أوجدكَ مَن هو أعف عن الدينار والدرهم منه ، فقال سليمان : من هذا ؟ فقال : إبليس ، ما مسَّ ديناراً ولا درهماً بيده وقد أهلك هذا الخلق . فتركه سليمان .

وحدث جُوَيرية بن أسماء أن عمر بن عبد العزيز بلغه أن يزيد بن أبي مسلم في جيش[3] من جيوش المسلمين ، فكتب إلى عامل الجيش أن يرده وقال : إني

---

١ في ق ر ع س : يواري ، وما أثبتناه موافق للمسودة وبر ؛ وفي بر : ما كان لها شعر يوازي.. الخ.

٢ س : لا تحيي ؛ ع : لأن .

٣ ع : خرج في جيش .

لأكره أن أستنصر بجيش هو فيهم .

ونقل الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في « تاريخ دمشق » في ترجمة يزيد المذكور عن يعقوب أنّه قال : في سنة إحدى ومائة أُمِّرَ يزيد بن أبي مسلم على إفريقية ، ونزع إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر مولى بني مخزوم ، فسار أحسن سيرة ، وفي سنة اثنتين ومائة قتل يزيد .

وقال الطبري في تاريخه الكبير : وكان سبب ذلك أنّه كان فيما ذكر عزم أن يسير فيهم بسيرة الحجاج بن يوسف في أهل الإسلام الذين سكنوا الأمصار ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة فأسلم بالعراق ، ممن ردهم إلى قرارِهم ورساتيقهم ، ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم ، فلما عزم على ذلك توامروا ، فأجمع رأيهم على قتله [1] فقتلوه ، وولوا على أنفسهم الوالي الذي كان قبل يزيد بن أبي مسلم ، وكتبوا إلى يزيد بن عبد الملك: إنّا لم نخلع أيدينا عن الطاعة ، ولكن يزيد بن أبي مسلم سامنا ما لا يرضى به الله والمسلمون فقتلناه وأعدنا عاملك ، فكتب إليهم يزيد بن عبد الملك: إنّني لم أرض ما صنع يزيد بن أبي مسلم ، وأقرّ محمد بن يزيد على إفريقية ، وكان ذلك في سنة اثنتين ومائة .

قال الوضاح بن خيثمة : أمرني عمر بن عبد العزيز رحمه الله تعالى بإخراج قوم من السجن ، وفيهم يزيد بن أبي مسلم ، فأخرجتهم وتركته فحقد علي ، وإنّي بإفريقية إذ قيل قدم يزيد والياً ، فهربت منه ، وعلم بمكاني وأمر بطلبي ، فظُفِرَ بي وحملت إليه ، فلما رآني قال: طالما سألت الله تعالى أن يمكنني منك ، فقلت : وأنا والله لطالما سألت الله أن يعيذني منك ، فقال : ما أعاذك الله ، والله لأقتلنك والله لأقتلنّك ولو سابقني فيك ملك الموت لسبقته . ثم دعا بالسيف والنطع فأتي بهما ، وأمر بالوضاح فأقيم على النطع وكتف ، وقام وراءه رجل بالسيف ؛ وأقيمت الصلاة فخرج يزيد إليها ، فلما سجد أخذته السيوف . ودخل إلى الوضاح من قطع كتافه وأطلقه ، وأعيد إلى الولاية محمد بن يزيد مولى الأنصار ، والله أعلم .

---

[1] فاجمع . . . قتله : سقط من ع .

قلت : كان الوضاح حاجب عمر بن عبد العزيز ، فلما مرض أمر الوضاح بإخراج المحابيس ، فأخرجهم سوى يزيد المذكور ، فلما مات عمر هرب الوضاح إلى إفريقية خوفاً من يزيد ، وجرى ما جرى ، وكان مرض عمر بخُناصرة[1] .

هكذا قاله الطبري : محمد بن يزيد ، وابن عساكر قال : إسماعيل بن عبيد الله ، والله أعلم بالصواب ؛ وقوله « وأحضر إليه يزيد بن أبي مسلم في جامعة » فالجامعة : الغُلّ ، لأنها تجمع اليدين إلى العنق ؛ وقوله « وكان رجلاً قصيراً دميماً » الدميم : بالدال المهملة ، القبيح المنظر ، ومنه قول عمر رضي الله عنه « لا تزوجوا بناتكم من الرجل الدميم فإنّه يعجبهن منهم ما يعجبهم منهن » وأما الذميم بالذال المعجمة فإنّه المذموم ، وكذا قول ابن الرومي الشاعر المشهور :

كضرائِرِ الحسناء قُلْنَ لوجهها حَسَداً وبغياً إنّه لدميم

— بالدال المهملة أيضاً — وإنّما قيدته بالضبط لأنّه يتصحف على الناس كثيراً[2] .

وخُناصرة : بضم الخاء المعجمة ثم نون وبعد الألف صاد مهملة مكسورة ثم راء بعدها هاء ، وهي بلدة قديمة من أعمال الأحص من ولاية حلب من جهتها القبلية بشرق ، بالقرب من قنسرين ، كان عمر بن عبد العزيز أميراً بها من جهة عبد الملك بن مروان ثم من جهة سليمان بن عبد الملك ، وهي التي عناها المتنبي بقوله :

أحب حمصاً إلى خُناصرة وكل نفس تحبُّ محياها

وذكرها عديّ بن الرقاع العاملي الشاعر المشهور في قصيدته الدالية المشهورة فقال :

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه فسقى خُناصرة الأحص وجادها

---

١ قلت . . . بخناصرة : لم يرد في س ر ، وهو ثابت في المسودة ؛ وقد أورد في ع ضبط خناصرة في هذا الموضع .

٢ نهاية الترجمة في ر س .

٨١٨

يزيد بن عمر بن هبيرة

أبو خالد يزيد بن أبي المثنى عمر بن هبيرة بن مُعَيّة بن سُكين بن خَديج ابن بَغيض بن مالك بن سعد بن عدي بن فزارة ؛ ونسب فزارة معروف فلا حاجة إلى الإطالة بذكره .

قال ابن دريد : معية تصغير مِعًى ، وهو الواحد من أمعاء البطن ، وقد ردوا على ابن دريد هذا القول فقالوا : بل صوابه أنّه تصغير معاوية .

وسكين : بضم السين المهملة وفتح الكاف ؛ وخديج : بفتح الخاء المعجمة ؛ وبغيض : بفتح الباء الموحدة ؛ والباقي معلوم لا حاجة إلى ضبطه .

ذكر الحافظ أبو القاسم ابن عساكر في تاريخه الكبير أن أصله من الشام ، وأنّه ولي قنسرين للوليدبن يزيد بن عبد الملك ، وكان مع مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية يوم غلب على دمشق وجمع له ولاية العراق .

مولده سنة سبع وثمانين . وذكره ابن عياش في تسمية من ولي العراق وجُمع له المصران ، وهما البصرة والكوفة . وكذلك ذكره ابن قتيبة في كتاب « المعارف »[١] في تسمية من ولي العراقين ، وعدّ الولاة الذين جمع لهم العراقان فكان أولهم زياد بن أبيه الذي استلحقه معاوية بن أبي سفيان ، وآخرهم يزيد بن عمر بن هبيرة صاحب هذه الترجمة ؛ ثم قال : ولم يجمع العراقان لأحد بعد هؤلاء ، وذكره أيضاً قبل هذا في ترجمة أبيه عمر ، فقال[٢] : وكان أبو جعفر المنصور حصر يزيد بواسط شهوراً ثم آمنه ، وافتتح البلد صلحاً ، وركب إليه يزيد في أهل بيته ، وكان أبو جعفر يقول : لا يعز مُلك هذا فيه ، ثم قتله .

---

٨١٨ – أخباره في تاريخ الطبري وابن الأثير وابن خلدون وخليفة بن خياط والمسعودي واليعقوبي وينقل المؤلف من ترجمته في تاريخ دمشق لابن عساكر ، وانظر العيون والحدائق : ٢٠٨ وما بعدها .

١ المعارف : ٥٧١ . ٢ المعارف : ٤٠٩ .

وقال خليفة بن خياط[1] : وفي سنة ثمان وعشرين ومائة وجه مروان بن محمد يزيد بن عمر بن هبيرة والياً على العراق ، وذلك قبل قتل الضحاك – يعني ابن قيس الشيباني الخارجي – فسار حتى نزل هيت .

وكان سخيّاً جسيماً طويلاً خطيباً أكولاً شجاعاً وكان فيه حسد ؛ وذكره أبو جعفر الطبري في تاريخه في سنة ثمان وعشرين ومائة ، فقال[2] : وفي هذه السنة وجه مروان بن محمد يزيدَ بن عمر بن هبيرة إلى العراق لحرب مَنْ بها من الخوارج ، ثم ذكر في سنة اثنتين وثلاثين ومائة[3] خروج قحطبة بن شبيب أحد دعاة بني العباس لما أظهروا أمرهم بخراسان وتلك النواحي ، وكان أبو مسلم الخراساني – المقدم ذكره في حرف العين[4] – أعظم الأعوان وأصل تلك القضية حتى انتظمت أمورها كما هو مشهور ، وقد سبق في ترجمة أبي مسلم طرف من هذا الحديث ، ولا حاجة إلى التطويل فيه . وكان خروج قحطبة بأرض العراق وقصد محاربة يزيد بن عمر بن هبيرة ، وجرت وقائع يطول شرحها ، وحاصل الأمر أن قحطبة خاض الفرات عند الفَلّوجة القرية المشهورة بالعراق ، ليقاتل ابن هبيرة ، وكان في قبالته ، فغرق قحطبة في عشية الأربعاء عند غروب الشمس لثمان خلون من المحرم من هذه السنة ، وقام ولده الحسن بن قحطبة مقامه في تقدمة الجيش ، وهي واقعة مشهورة طويلة وليس هذا موضع ذكرها .

وكان معن بن زائدة الشيباني – المقدم ذكره[5] – من أتباع يزيد بن هبيرة المذكور ومن أكبر أعوانه في الحروب وغيرها ، فيقال إنه في تلك الليلة ضرب قحطبة ابن شبيب بالسيف على رأسه ، وقيل على عاتقه ، فوقع في الماء ، فأخرجوه حيّاً فقال : إن مت فادفنوني في الماء لئلا يقف أحد على خبري وقيل في غرقه غير ذلك ، والله أعلم .

---

١ تاريخ خليفة : ٥٧٨ .

٢ تاريخ الطبري ٢ : ١٩٤١ .

٣ الأصح في السنة التي قبلها ، وانظر في مهلك قحطبة ص ١٣ من القسم الثالث من تاريخ الطبري .

٤ انظر ج ٣ : ١٤٥ .

٥ انظر ج ٥ : ٢٤٤ .

عدنا إلى حديث ابن هبيرة :

وكان من خبره أن جيوش خراسان التي كان مقدمها قحطبة ثم ولده الحسن من بعد استظهرت عليه فهزمت عسكره ، ولحق ابن هبيرة بمدينة واسط فتحصن فيها ثم وصل أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه الملقب بالسفاح وأخوه أبو جعفر عبد الله بن محمد الملقب بالمنصور من الحميمة ، بضم الحاء المهملة ، القرية التي كانت مسكن بني العباس في أطراف الشام من أرض البلقاء إلى الكوفة،وبها جماعة من أشياعهم ونوابهم ومن قام معهم بإقامة دولتهم وإزالة دولة بني أمية التي أميرها إذ ذاك مروان ابن محمد بن مروان بن الحكم الأموي المعروف بالجعدي والمنبوز بالحمار آخر ملوكهم ، فلما وصلوا إلى الكوفة بويع أبو العباس السفاح بها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين ومائة ؛ وقيل إن المبايعة كانت في شهر ربيع الأول ، والأول أصح .

وظهر أمر بني العباس وقويت شوكتهم ، وأدبرت دولة بني مروان ، فعند ذلك وجه السفاح أخاه أبا جعفر المنصور إلى واسط لحرب يزيد بن عمر بن هبيرة ، فجاء المنصور إلى المعسكر الذي مقدمه الحسن بن قحطبة ، وهو مقابل يزيد بن هبيرة[1] بواسط ، فنزل فيه .

قال أبو جعفر الطبري في تاريخه الكبير[2] : وجرت السفراء بين أبي جعفر المنصور وبين ابن هبيرة ، حتى جعل له أماناً وكتب به كتاباً ، فمكث يشاور فيه العلماء أربعين ليلة حتى رضيه ابن هبيرة ، ثم أخذه إلى أبي جعفر ، فأنفذه أبو جعفر إلى أبي العباس السفاح فأمر بإمضائه له ، وكان رأى أبي جعفر الوفاء له بما أعطاه . وكان أبو العباس السفاح لا يقطع أمراً دون أبي مسلم الخراساني صاحب الدعوة ، وكان لأبي مسلم عين على السفاح يكتب إليه بأخباره كلها ،

---

١ س : يزيد بن عمر بن هبيرة .

٢ تاريخ الطبري ٣ : ٦٦ .

فكتب أبو مسلم إلى السفاح : إن الطريق السهل إذا ألقيت فيه الحجارة فسد ، لا والله لا صلح [1] طريق فيه ابن هبيرة . ولما تم الكتاب خرج ابن هبيرة إلى أبي جعفر في ألف وثلثمائة من البُخارية ، فأراد أن يدخل الحجرة على دابته ، فقام إليه الحاجب فقال : مرحباً أبا خالد ، انزل راشداً ، وقد أطاف بالحجرة عشرة آلاف من أهل خراسان ، فنزل ودعا له بوسادة ليجلس عليها ، ثم دعا له بالقواد فدخلوا ، ثم قال له الحاجب : ادخل أبا خالد ، فقال : أنا ومن معي ؟ فقال : إنّما استأذنت لك وحدك ، فقام فدخل ، ووضعت له وسادة وحادثه ساعة ، ثم قام وأتبعه أبو جعفر بصره حتى غاب عنه ، ثم مكث يقيم عنه [2] يوماً ويأتيه يوماً في خمسمائة فارس وثلثمائة راجل ، فقال يزيد بن حاتم لأبي جعفر : أيها الأمير ، إن ابن هبيرة ليأتي فيتضعضع له العسكر وما نقص من سلطانه شيء ، فقال أبو جعفر للحاجب : قل لابن هبيرة يدع الجماعة ويأتينا في حاشيته، فقال له الحاجب ذلك ، فتغير وجهه ، وجاء في حاشيته نحواً من ثلاثين ، فقال له الحاجب : كأنك تأتي متأهباً [3] فقال : إن أمرتم أن نمشي إليكم مشينا ، فقال : ما أردنا بك استخفافاً ولا أمر الأمير بما أمر به إلا نظراً لك ، فكان بعد ذلك يأتي في ثلاثة .

وقال محمد بن كثير : كلم ابن هبيرة يوماً أبا جعفر فقال : يا هياه [4] ، أو يا أيها المرء ، ثم رجع فقال : أيها الأمير إن عهدي بكلام الناس بمثل ما خاطبتك به حديث فسبقني لساني بما لم أرده . وألح أبو العباس السفاح على أبي جعفر يأمره بقتله ، وهو يراجعه ، فكتب إليه : والله لتقتلنه أو لأرسلن إليه من يخرجه من حجرتك ثم يقتله ، فأزمع على قتله ، فبعث أبو جعفر مَن ختم بيوت المال ، ثم بعث إلى وجوه مَن مع ابن هبيرة فحضروا ، وخرج الحاجب من عند أبي جعفر وطلب ابن الحوثرة ومحمد بن نُباتة وهما من الأعيان ، فقاما فدخلا ، وقد أجلس أبو جعفر ثلاثة من خواصه في مائة من جماعته في حجرة ، فنزعت

---

١ الطبري : يصلح .

٢ س : يقيم عنده .

٣ الطبري : مباهياً .

٤ كذا في المسودة ، وصوابه : يا هناه كما في س ع ق والطبري .

سيرفهما وكتفا ، ثم أدخلوا بعدهما اثنين ففعل بهما كذلك ، وبعدهم جماعة أُخرى فعل بهم كذلك، فقال موسى بن عقيل . أعطيتمونا عهد الله ثم خستم به إنا لنرجو أن يدرككم الله ، وجعل ابن نباتة يضرط في لحية نفسه ، فقال له [ابن][1] الحوثرة : إن هذا لا يغني عنك شيئاً ، فقال : كأنّي كنت أنظر إلى هذا ، فقتلوا وأخذت خواتيمهم . وانطلق حازم والهيثم بن شُعْبَة والأغلب ابن سالم في نحو من مائة ، فأرسلوا إلى ابن هبيرة : إنّا نريد هذا المال ، فقال ابن هبيرة لحاجبه : انطلق فدلهم عليه ، فأقاموا عند كل بيت نفراً ثم جعلوا ينظرون في نواحي الدار ، ومع ابن هبيرة ابنه داود وكاتبه عمرو بن أيوب وحاجبه وعدة من مواليه وبنيٌّ له صغير في حجره ، فجعل ينكر نظرهم ، فقال : أقسم بالله إن في وجوه القوم لشراً ، فأقبلوا نحوه ، فقام حاجبه في وجوههم فقال : وراءكم ، فضربه الهيثم بن شعبة على حبل عاتقه فصرعه ، وقاتل ابنه داود فقتل ، وقُتل مواليه ، ونحى الصبي من حجره وقال : دونكم هذا الصبي ، وخر ساجداً ، فقتل وهو ساجد، ومضوا برؤوسهم إلى أبي جعفر فنادى بالأمان للناس .

وقال أبو عطاء السندي ، واسمه مرزوق ، وقيل أفلح ، مولى بني أسد يرثي ابن هبيرة :

ألا إن عيناً لم تجدْ يومَ واسطٍ عليك بجاري دمعها لجمودُ
عشيةَ قام النائحاتُ وشققت جيوبٌ بأيدي مأتم وخدود
فإن تمسِ مهجورَ الفناء فربما أقام به بعدَ الوفود وفود
وإنّكَ لم تبعُدْ على متعهدٍ بلى كلُّ من تحت التراب بعيد

قلت : وهذه المرثية ذكرها أبو تمام الطائي في كتاب « الحماسة »[3] في باب المراثي .

قلت : إلى هنا انتهى ما نقلته من تاريخ الطبري مقتضباً فإنّني جمعته من

---

١ سقطت من المسودة في هذا الموضع ، مع أنها وردت من قبل .

٢ الطبري ٣ : ٧٠ .

٣ شرح المرزوقي ، الحماسية رقم : ٢٦٦ .

عدة مواضع حتّى انتظم على هذه الصورة .

وأما غير الطبري فإنّه قال : لما قدم أبو جعفر على الحسن بن قحطبة تحول له الحسن من سرادقه فأنزله فيه ، وأقاموا يقتتلون أياماً ، وثبت معن بن زائدة مع ابن هبيرة ، وطال الحصار عليهم ، وكان أبو جعفر المنصور يقول : ابن هبيرة يخندق على نفسه مثل النساء ، وبلغ ابن هبيرة ذلك ، فأرسل إليه : أنت القائل كذا ؟ ابرز إلي لترى ، فأرسل إليه المنصور : ما أجد لك ولي مثلاً إلا كأسد لقي خنزيراً ، فقال له الخنزير : بارزني ، فقال الأسد : ما أنت لي بكفؤ فإن بارزتك فنالني منك سوء كان عاراً ، وإن قتلتك قتلت خنزيراً ، فلم أحصل على حمد ، ولا في قتلك فخر ، فقال له الخنزير : لئن لم تبارزني لأعرفن السباع أنك جبنت عني ، فقال الأسد : احتمال عار كذبك أيسرُ من تلطيخ براثني بدمك . ثم إن المنصور كاتب القواد ، وفهم ابن هبيرة فطلب الصلح ، فأجابه المنصور ، وكتبوا كتاب الصلح والأمان ، وبعثه المنصور إلى أخيه السفاح فأمضاه ، وكتب فيه : فإن غدر ابن هبيرة أو نكث فلا عهد له ولا أمان ، وكان من رأي المنصور الوفاء له .

وقال أبو الحسن المدائني : لما كتب المنصور بينه وبين ابن هبيرة كتاب الصلح خرج إلى المنصور وبينه وبينه ستر ، فقال ابن هبيرة : أيها الأمير إن دولتكم بكر فأذيقوا الناس حلاوتها وجنبوهم مرارتها ، تصلْ محبتكم إلى قلوبهم ويعذب ذكركم على ألسنتهم ، وما زلنا منتظرين لدعوتكم ، قال : فرفع المنصور الستر بينه وبينه وقال في نفسه : عجباً لمن يأمرني بقتل مثل هذا . وصار ابن هبيرة يخرج إلى المنصور في آخر أمره في ثلاثة من أصحابه يتغدى ويتعشى عنده وكان يثني له وساده .

فيقال إنّه كان يكاتب عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ويدعو إليهم وإلى خلع السفاح ، وجاءه كتاب أبي مسلم يحثه على قتل ابن هبيرة ، فكتب السفاح إلى المنصور يأمره بقتله ، فقال : لا أفعل وله في عنقي بيعة وأيمان فلا أضيعها بقول أبي مسلم ، فكتب السفاح : ما أقتله بقول أبي مسلم بل بنكثه وغدره ودسيسه إلى آل أبي طالب ، وقد أبيح لنا

دمه ، فلم يجبه المنصور وقال : هذا فساد الملك ، فكتب إليه السفاح : لستَ مني ولستُ منك إن لم تقتله ، فقال المنصور للحسن بن قحطبة : اقتله أنت ، فامتنع ، فقال خازم بن خُزيمة [1] : أنا أقتله ، فدخل عليه في جماعة من قواد خراسان ، وهو في القصر وعنده ابنه داود وكاتبه ومواليه ، وعليه قميص مصري وملاءة موردة ، وعنده الحجام وهو يريد أن يحجمه ، فلما رآهم سجد ، فقتلوه وقتلوا ابنه وكاتبه ومن كان معه ، وحملوا رأسه إلى المنصور . وكان معن بن زائدة غائباً عند السفاح فسلم . وبعث المنصور برأسه إلى السفاح ، وكان ذلك في سنة اثنتين وثلاثين ومائة .

قال الهيثم بن عدي : لما قتل ابن هبيرة قال بعض الخراسانيين لبعض أصحاب ابن هبيرة : ما كان أكبر رأس صاحبكم ، فقال له الرجل : أمانكم له كان أكبر .

وذكر الخطيب أبو زكريا التبريزي ، في كتاب « شرح الحماسة » [2] في باب المراثي ، عند ذكره أبيات أبي عطاء السندي الدالية — المقدم ذكرها — التي رثى بها يزيد المذكور ، فقال : وكان المنصور قد حلف له وأكد الأيمان ، فلما قتله وحمل رأسه إليه قال المنصور للحرسي : أترى طينة رأسه ما أعظمها ! فقال الحرسي : طينة أيمانه أعظم من طينة رأسه .

وهدم المنصور قصر واسط .

وقال الحافظ ابن عساكر في تاريخه الكبير : كان ابن هبيرة إذا أصبح أتي بعُس — قلت : العس ، بضم العين المهملة وبعدها سين مهملة مشددة ، هو القدح الكبير — قال : وفيه لبن قد حُلب على عسل وأحياناً سكر فيشربه ، فإذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تحل الصلاة فيصلي ، ثم يدخل ، فيحركه اللبن فيدعو بالغداء فيأكل دجاجتين وناهضين ونصف جدي وألواناً من اللحم — و الناهض ، بالنون وبعد الهاء المكسورة ضاد معجمة ، وهو الفرخ من الحمام — قال : ثم يخرج فينظر في أمور الناس إلى نصف النهار ،

---

١ ر س ع ق بر من : حازم بن حزيمة .

٢ شرح التبريزي ٢ : ١٥١ .

ثم يدخل فيدعو جماعة من خواصه وأعيان الناس ، ويدعو بالغداء فيتغدى ويضع منديلاً على صدره ، ويعظم اللُّقم ويتابع ، فإذا فرغ من الغداء تفرق من كان عنده ، ودخل إلى نسائه ، حتى يخرج إلى صلاة الظهر ، ثم ينظر بعد الظهر في أمور الناس ، فإذا صلى العصر وضع له سرير ووضعت الكراسي للناس ، فإذا أخذ الناس مجالسهم أتوهم بعساس اللبن والعسل وألوان الأشربة — قلت : والعِساس ، بكسر العين ، جمع عُسّ ، وقد تقدم الكلام عليه — ثم توضع السفرة والطعام للعامة ويوضع له ولأصحابه خوان مرتفع ، فيأكل معه الوجوه إلى المغرب ، ثم يتفرقون للصلاة ، ثم تأتيه سمّاره فيحضرون مجلساً يجلسون فيه حتى يدعوهم فيسامروه حتى يذهب عامة الليل . وكان يُسأَلُ في كل ليلة عشر حوائج ، فإذا أصبحوا قضيت ، وكان رزقه ستمائة ألف درهم ، فكان يُقَسِّمُ كل شهر في أصحابه من قومه ومن الفقهاء والوجوه وأهل البيوتات ، فقال عبد الله بن شُبْرُمَة الضبي القاضي الفقيه الكوفي وكان من سماره :

إذا نحن أعتمنا ومال بنا الكرى ... أتانا بإحدى الراحتين عياض

وعياض بوابه ، وإحدى الراحتين : الدخول أو الانصراف ، ولم يكن له منديل ، فكان إذا دعا بالمنديل قام الناس .

وقال شيخ من قريش : أذن يزيد بن عمر بن هبيرة في يوم صائف شديد الحر للناس ، فدُخل [1] عليه وعليه قميص خلق مرقوع الجيب ، فجعلوا ينظرون إليه ويعجبون منه ، ففطن لهم ، فتمثل بقول إبراهيم بن هرمة [2] :

قد يدرك الشرفَ الفتى ورداؤه ... خَلَقٌ وجيبُ قميصه مرقوعُ

[وحكي أن شريك بن عبد الله النميري سايره يوماً فبدرت دابة شريك فقال له يزيد : غضّ من لجامها ، فقال شريك : إنها مكتوبة أصلح الله الأمير ، فقال

---

١ ر والمختار : فدخلوا .

٢ زاد في المختار : الشاعر المشهور .

له يزيد : ذهبت حيث أردت ؛ قول يزيد « غض من لجامها » يشير إلى قول جرير :

فغضّ الطرف إنّك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

فعرض له شريك بقول ابن دارة :

لا تأمننَّ فزارياً خلوت به على قَلوصك واكتبها بأسيارِ

وكان بنو فزارة في العرب يرمون بإتيان الإبل] [1] .

وأخباره ومحاسنه كثيرة مشهورة .

وقال خليفة بن خياط [2] : قتل ابن هبيرة بواسط يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة اثنتين وثلاثين ومائة ، رحمه الله تعالى .

وقال أبو جعفر الطبري في تاريخه : توفي الحسن بن قحطبة في سنة إحدى وثمانين ومائة .

٨١٩

يزيد بن حاتم المهلبي

أبو خالد يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب بن أبي صفرة الأزدي . قد سبق ذكر بقية نسبه في ترجمة جده المهلب بن أبي صفرة ، وقد ذكرت أخاه روح ابن حاتم في حرف الراء [3] ، وعم أبيه يزيد بن المهلب ، ومن ولده الوزير أبو

---

١ زيادة من ق والمختار لم ترد في المسودة وسائر النسخ .

٢ تاريخ خليفة : ٦٠٩ .

٨١٩ – أخباره في تاريخ الطبري وابن الأثير والرقيق وابن خلدون وأعمال الأعلام والنجوم الزاهرة ٢ : ١ والبيان المغرب ١ : ٧٨ والخزانة ٣ : ٥١ ومرآة الجنان ١ : ٣٦١ ، ٣٩٦ والكندي : ١١١ وابن أبي دينار : ٤٦ .

٣ ج ٢ : ٣٠٥ .

محمد الحسن بن محمد المهلبي – المقدم ذكره[1] –؛ وهم أهل بيت كبير ، اجتمع فيه خلق كثير من الأعيان الأمجاد النجباء .

ذكر ابن جرير الطبري في تاريخه أن الخليفة أبا جعفر المنصور عزل حميد ابن قحطبة عن ولاية مصر ، فولاها نوفل بن الفرات ، ثم عزله وولى يزيد بن حاتم ، وذلك في سنة ثلاث وأربعين ومائة ، ثم إن المنصور عزله عن مصر في سنة اثنتين وخمسين ومائة ، وجعل مكانه محمد بن سعيد ؛ وقال أبو سعيد ابن يونس في تاريخه : ولي يزيد بن حاتم مصر في سنة أربع وأربعين ومائة ، وزاد غيره : في منتصف ذي القعدة .

ثم إن المنصور خرج إلى الشام وزيارة بيت المقدس في سنة أربع وخمسين ومن هناك سير يزيد بن حاتم إلى إفريقية لحرب الخوارج الذين قتلوا عامله عمر ابن حفص ، وجهز معه خمسين ألف مقاتل ، واستقر يزيد المذكور والياً بإفريقية من يومئذ ، وكان وصوله إليها واستظهاره على الخوارج في سنة خمس وخمسين ، ودخل مدينة القيروان في هذا التاريخ .

وكان جواداً سرياً مقصوداً ممدّحاً ، قصده جماعة من الشعراء فأحسن جوائزهم . وكان أبو أسامة ربيعة بن ثابت الأسدي الرقيّ[2] ، وقيل إنّه من موالي سليم[3] ، قد قصد يزيد بن أُسيد ، بضم الهمزة وفتح السين المهملة ، ابن زافر ابن أسماء بن أسيد بن قنفذ بن جابر بن قنفذ بن مالك بن عوف بن امرىء القيس ابن بُهثة بن سليم بن منصور بن عكرمة بن خَصَفَة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، وهو يومئذ والٍ على أرمينية ، وكان قد وليها زماناً طويلاً لأبي جعفر المنصور ، ثم من بعده لولده المهدي ، وكان يزيد المذكور من أشراف قيس وشجعانهم ، ومن ذوي الآراء الصائبة ، ومدحه ربيعة المذكور بشعر أجاد فيه ، فقصر في حقه ، ومدح يزيد بن حاتم المذكور ، فبالغ في الإحسان إليه ، فقال ربيعة قصيدة يفضل فيها يزيد بن حاتم على يزيد بن أسيد ، وكان

---

١ ج ٢ : ١٢٤ .

٢ ترجمة ربيعة في الأغاني ١٦ : ١٨٩ وطبقات ابن المعتز : ١٥٧ ونكت الهميان : ١٥١ .

٣ المختار : موالي آل سليم .

في لسان يزيد بن أسيد تمتمة ، فعرّض بذكرها في هذه الأبيات ، فقال :

حلفتُ يميناً غيرَ ذي مَثْنَوِية ... يمينَ امرىء آل بها غيرَ آثم
لشتّانَ ما بين اليزيدين في الندى ... يزيدِ سُلَيْمٍ والأغرِّ ابن حاتم
يزيدُ سليم سالمُ المالِ ، والفتى ... أخو الأزدِ للأموالِ غيرُ مسالم
فهمُّ الفتى الأزديِّ إتلافُ ماله ... وهمُّ الفتى القيسيِّ جَمْعُ الدراهم
فلا يحسبِ التمتامُ أنّي هجوته ... ولكنني فَضَّلْتُ أهل المكارم
فيا أيها الساعي الذي ليس مدركاً ... بمَسْعاته سَعْيَ البحورِ الخضارم
سعيتَ ولم تدركْ نوالَ ابنِ حاتمٍ ... لفكِّ أسير واحتمالِ العظائم
كفاك بناءَ المكرماتِ ابنُ حاتم ... ونمتَ وما الأزديُّ عنها بنائم
فيا ابن أسيدٍ لا تسامِ ابنَ حاتم ... فتقرعَ إن ساميته سنَّ نادم
هو البحر إن كلفتَ نفسك خَوْضَه ... تهالكتَ في آذيّهِ المتلاطم
تمنيتَ مجداً في سليمٍ سفاهةً ... أمانيّ خالٍ أو أمانيّ حالم
ألا إنّما آلُ المهلّب غُرَّةٌ ... وفي الحرب قاداتٌ لكم بالخزائم
هم الأنفُ في الخرطوم والناس بعدهم ... مناسمُ ، والخرطومُ فوق المناسم
قضيتُ لكم آلَ المهلبِ بالعلا ... وتفضيلُكم حقٌّ على كل حالم
لكم شيم ليست لخلقٍ سواكمُ ... سماحٌ وصدقُ البأسِ عند الملاحم
مُهينون للأموالِ فيما ينوبكم ... مناعيشُ دفّاعون عن كلّ جارم

قال دعبل بن علي الخزاعي — المقدم ذكره [1] — : قلت لمروان بن أبي حفصة الشاعر — وقد تقدم ذكره أيضاً [2] — : يا أبا السمط ، من أشعركم جماعةَ المحدثين ؟ قال : أسيرنا بيتاً ، قلت : ومن هو ؟ قال : الذي يقول :

لشتّانَ ما بين اليزيدين في الندى ... يزيدِ سليمٍ والأغرِّ ابن حاتم

---

[1] انظر ٢ : ٢٦٦ ؛ وفي ر : دعبل الخزاعي بن علي الشاعر .
[2] ج ٥ : ١٨٩ .

وكنت قد ذكرت بعض هذه الأبيات في ترجمة أخيه روح بن حاتم[1] ، ثم إنّي ظفرت بها أكمل من تلك فأحببت أن أفرد له ترجمة وأذكر ما جرى له ، لأن مثله لا يصلح لأن يكون ضميمة في ترجمة أخيه .

وكان ربيعة بن ثابت الرقي قد قصده قبل هذه المرة ، فلم ير منه من الإحسان ما كان يرجوه ، فنظم أبياتاً من جملتها :

أراني ولا كفرانَ لله راجعاً ... بخفّيْ حنينٍ من نوالِ ابنِ حاتمِ

ولما عقد أبو جعفر المنصور ليزيد المهلبي المذكور على بلاد إفريقية وليزيد السلمي المذكور على ديار مصر خرجاً معاً ، فكان يزيد المهلبي يقوم بكفاية الجيشين فقال ربيعة الرقي المذكور :

يزيدَ الخيرِ ، إن يزيدَ قومي ... سميّك لا يجود كما تجودُ
تقودُ كتيبةً ويقودُ أُخرى ... فتَرْزُقُ مَنْ تقود ومن يقودُ

قلت : وهذا يدل على أن ربيعة المذكور مولى بني سليم لقوله : « يزيد قومي » ، والله أعلم .

وقدم أشعب المشهور بالطمع على يزيد وهو بمصر ، فجلس في مجلسه ، ودعا بغلامه فسارَّه ، فقام أشعب فقبل يده ، فقال له يزيد : لم فعلت هذا ؟ فقال : إنّي رأيتك تسارّ غلامك فظننت أنك قد أمرتَ لي بشيء ، فضحك منه وقال : ما فعلت هذا ولكني أفعل ، ووصله وأحسن إليه .

وقال الطرطوشي في كتاب « سراج الملوك »[2] قال سحنون بن سعيد : كان يزيد بن حاتم حكيماً يقول : والله ما هبت شيئاً قط هيبتي لرجل ظلمته وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله تعالى ، فيقول : حسبك الله ، الله بيني وبينك .

وذكر أبو سعد السمعاني في كتاب « الأنساب » أن المشهّر التميمي الشاعر وفد على يزيد بن حاتم بإفريقية فأنشده :

---

١ انظر ٢ : ٣٠٦ ، وكنا أفردنا يزيد هنالك برقم من أرقام التراجم العارضة ، ولكن ها هو المؤلف قد عاد عن خطته وأفرد له هذه الترجمة أصالة .
٢ سراج الملوك : ٢٥٨ .

إليك قَصَرْنا النصفَ من صلواتنا مسيرةَ شهر ثم شهرٍ نواصِلُهْ
فلا نحن نخشى أن يخيبَ رجاؤنا لديك ، ولكن أهنأُ البرِّ عاجله

فأمر يزيد بوضع العطاء في جنده وكان معه خمسون ألف مرتزق ، فقال : من أحب أن يسرني فليضع لزائري هذا من عطائه درهمين ، فاجتمع له مائة ألف درهم ، وضم يزيد إلى ذلك مائة ألف درهم أُخرى ودفعها إليه .

قلت : ثم وجدت البيتين المذكورين لمروان بن أبي حفصة ، والله أعلم .

وقد ذكره الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في « تاريخ دمشق » فقال بعد ذكر أحواله وولاياته : إن يزيد بن حاتم قال لجلسائه : استنقوا لي ثلاثة أبيات ، فقال صفوان بن صفوان من بني الحارث بن الخزرج : أفيك ؟ فقال : فيمن شئتم ، فكأنّها كانت في كمه :

لم أدرِ ما الجودُ إلا ما سمعتُ به حتى لقيتُ يزيداً عصمةَ الناسِ
لقيتُ أجودَ من يمشي على قدمٍ مفضلاً برداءِ الجودِ والباس
لو نيل بالجودِ مجدٌ[1] كنتَ صاحبه وكنت أولى به :

ثم كففت ، فقال : أتمم ، من آل عباس ، فقلت : لا يصلح ، فقال : لا يسمعن هذا منك أحد .

وقال يموت بن المزرّع : قال لي الأصمعي[2] يوماً ، وقد جئته مسلماً إلى أن ذكر الشعراء المحسنين المداحين[3] من المولدين ، فقال لي : يا أبا عثمان ، ابن المولى من المحسنين المداحين[3] ، ولقد أسهرني في ليلتي هذه حسنُ مديحه يزيدَ بن حاتم حيث يقول :

وإذا تُباع كريمة أو تشترى فسواك بائعها وأنت المشتري
وإذا تُخُيِّلُ من سحابك لامعٌ سبقت مَخيلته يدَ المستمطر

---

١ في ق والمسودة : لو نيل بالمجد جود ؛ ولعله سهو .
٢ هذا مستبعد لبعد ما بين وفاة الأصمعي (حوالي ٢١٠) ووفاة يموت (٣٠٤) .
٣ ر : من المادحين .

وإذا صنعتَ صنيعةً أتممتها بيدين ليس نداهما بمكدّرِ
وإذا الفوارسُ عدِّدَتْ أبطالُها عَدُّوك في أبطالهمْ بالخنصر

ولما قدم عليه ابن المولى المذكور أنشده وهو أمير مصر [1] :

يا واحدَ العربِ الذي أضحى وليس له نظيرُ
لو كان مثلك آخرٌ ما كان في الدنيا فقيرُ

فدعا يزيد بخازنه وقال : كم في بيت مالي ؟ قال : فيه من العين والورِق ما مبلغه عشرون ألف دينار ، فقال : ادفعها إليه ، ثم قال : يا أخي ، المعذرةُ إلى الله تعالى وإليك ، والله لو أن في ملكي غيرها لما ادخرتها عنك ؛ وهذا ابن المولى هو أبو عبد الله محمد بن مسلم ، وعرف بابن المولى [2] .

وروى الأصمعي أيضاً أن يزيد لما كان بأفريقية جاءه البشير يخبره أنه ولد له مولود بالبصرة ، فقال : قد سميته المغيرة ، وكان عنده المشهّر التميمي فقال : بارك الله لك أيها الأمير فيه وبارك له في بنيه كما بارك لجده في أبيه .

ولم يزل يزيد والياً بأفريقية إلى أن توفي بها يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة سبعين ومائة بالقيروان ، ودفن بباب سَلْم ، واستخلف على إفريقية ولده داود بن يزيد فعزله هارون الرشيد في سنة اثنتين وسبعين ومائة ، وولاها عمه روح بن حاتم — المقدم ذكره — .

---

[1] وهو أمير مصر : سقطت من س ؛ وفي ع : ولما قدم عليه أمير مصر ابن المولى . . . الخ ، وهذا مضطرب .

[2] هو محمد بن عبد الله بن مسلم ، شاعر أنصاري عفيف ، عاش في عهد الدولة الأموية وأسن وأدرك الدولة العباسية (انظر معجم المرزباني : ٣٤٢ والأغاني ٣ : ٢٨٠ والمرزوقي : ١٧٦١) .

٨٢٠
يزيد بن مزيد الشيباني

أبو خالد وأبو الزبير ، يزيد بن مَزْيَد بن زائدة ، وهو ابن أخي مَعْن ابن زائدة الشيباني – المقدم ذكره – ، وقد استوفيت ذكر نسبه هناك فلا حاجة إلى إعادته هاهنا .

كان يزيد المذكور من الأمراء المشهورين والشجعان المعروفين ؛ كان والياً بأرمينية فعزله عنها هارون الرشيد سنة اثنتين وسبعين ومائة ، ثم ولاه إياها وضم إليها أذربيجان في سنة ثلاث وثمانين .

وقد سبق طرف من خبره في ترجمة الوليد بن طريف الشيباني الخارجي فإنّه الذي تولى محاربته وقتله : ذكر أرباب التاريخ أن الوليد بن طريف الشيباني لما خرج على هارون الرشيد ببلاد الجزيرة ، وهي فيما بين الفرات وشط الموصل ، وذلك في سنة ثمان وسبعين ومائة ، وكثر جمعه من الشراة حتّى انتشروا في تلك البلاد ، ونهض إليهم عامل ديار ربيعة فقتلوه ، وصاروا إلى ديار مضر ، فحصَروا عبد الملك بن صالح بن علي العباسي بالرقة ، فاستشار هارون الرشيد يحيى بن خالد البرمكي فيمن يوجهه لحرب الوليد بن طريف ، فقال له يحيى بن خالد البرمكي : وجه موسى بن حازم التميمي ، فإن فرعون كان اسمه الوليد فغرقه موسى عليه السلام ، فوجهه إليه الرشيد في جيش كثيف ، فلاقاه الوليد في أصحابه فهزمه الوليد وقتله ، فلما بلغ الرشيد ذلك وجّه إليه مَعْمَر بن عيسى العَبْديّ ، فكانت بينهما عدة وقائع بناحية دارا من ديار ربيعة ، فلما اتصل ذلك وكثرت جموع الوليد وظهر هذا الظهورَ العظيم ، قال الرشيد : ليس لها إلا الأعرابي يزيد بن مزيد الشيباني ، فقال بكر بن النطاح الشاعر [1] :

---

٨٢٠ – ألف عبد الجبار الجومرد في سيرته وأخباره كتاباً ، وفيه ذكر للمصادر الهامة .

١ ترجمة بكر بن النطاح في الأغاني ١٩ : ٣٥ وطبقات ابن المعتز : ٢١٧ وتاريخ بغداد ٧ : ٩٠ .

لا تبعثنَّ إلى ربيعةَ غيرَها إن الحديدَ بغيره لا يُفْلَحُ

فوجه الرشيد إليه يزيد المذكور في عسكر ضخم وأمره بمناجزته . فقصده يزيد وجعل الوليد يراوغه ويزيد يتبعه ، وكان الوليد ذا مكر ودهاء . ثم كانت بينهما حربٌ صعبة ، وبلغ الرشيد مماطلة يزيد بن مزيد له ، فوجه إليه خيلاً بعد خيل ، ثم بعث إليه من يُعَنّفُه ، فسار يزيد في طلبه ، ثم نزل يصلي الصبح ، فلم يستتم صلاته حتى طلع الوليد عليه في عسكره . واصطفت الخيلان وتزاحف الناس ؛ فلما شبت الحرب ناداه يزيد : يا وليد ، ما حاجتك إلى التستّر بالرجال ؟ ابرز إليَّ ، قال : نعم والله ، فبرز الوليد وبرز إليه يزيد . ووقف العسكران فلم يتحرك منهما أحد ، فتطاردا ساعة، وكل واحد منهما لا يقدر على صاحبه ، حتى مضت ساعات من النهار ، فأمكنت يزيدَ فيه الفرصة فضرب رجله فسقط ، وصاح[1] بخيله فسقطوا عليه واحتزوا رأسه .

ذكر أبو يعقوب إسحاق بن إبراهيم المعروف بابن القَرَّاب[2] الهروي في تاريخه أن الوليد بن طريف قتله يزيد بن مزيد بالحديثة من أرض الجزيرة قلت : وهذه الجزيرة هي الجزيرة الفراتية ، والحديثة بالقرب من عانة ، وتعرف بحديثة النورة ، وهي على فراسخ من الأنبار ، وهي غير حديثة الموصل .

ووجه يزيد برأس الوليد إلى الرشيد، وبكتاب الفتح مع ابنه أسد بن يزيد، وفي ذلك يقول أبو الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المشهور ، وكان منقطعاً إلى يزيد ومختصاً به[3] :

سَلَّ الخليفة سيفاً من بني مطرٍ يمضي فيخترقُ الأجسامَ والهاما
لولا يزيدُ ومقدارٌ له سببٌ عاش الوليدُ مع العامين أعواما
أكرِمْ به وبآباءٍ له سلفوا أبقوا من المجد أياماً وأياما

---

١ ع : فصاح .

٢ ق ع ر : الفرات ، وأثبتنا ما في المسودة ؛ وسقط النص من س ؛ وكتابه المشار إليه هو « تاريخ وفيات العلماء » (انظر الأعلام للزركلي ١ : ٢٨٥) .

٣ ديوان مسلم : ٦٣ .

ولما انصرف يزيد إلى باب الرشيد قدّمه ورفع مرتبته وقال له : يا يزيد ، ما أكثر أمراء المؤمنين [1] في قومك ؟ قال : نعم ، إلا أن منابرهم الجذوع ، يعني الجذوع التي يصلبون عليها إذا قتلوا .

وكان قتل الوليد في سنة تسع وسبعين ومائة – كما سبق ذكره في ترجمته – ورثته أخته بتلك الأبيات الفائية المذكورة هناك ، وقالت أخته الفارعة فيه أيضاً :

يا بني وائلٍ لقد فجعتكمْ من يزيدٍ سيوفُه بالوليدِ
لو سُيوفٌ سوى سيوف يزيد قاتلته لاقتْ خلافَ السعود
وائلٌ بعضها يُقَتِّلُ بعضاً لا يفلُّ الحديدَ غيرُ الحديد

وقد روي أن هارون الرشيد لما جهز يزيد بن مَزْيد إلى حرب الوليد بن طريف أعطاه ذا الفقار [2] سيف النبي [3] صلى الله عليه وسلم ، وقال له : خذه يا يزيد فإنّك ستُنْصَر به ، فأخذه ومضى ، وكان من هزيمة الوليد وقتله ما قد شرحناه . وفي ذلك يقول مسلم بن الوليد الأنصاري من جملة قصيدة يمدح بها يزيد بن مزيد المذكور :

أذكرتَ سيفَ رسول الله سنته وبأسَ أوّل مَنْ صلى ومن صاما

يعني بأس علي بن أبي طالب رضي الله عنه إذ كان هو الضارب به .

وقد ذكر هشام بن الكلبي في كتاب « جمهرة النسب » شيئاً يتعلق بذي الفقار ، وهي فائدة يحسن ذكرها هاهنا ، فإنّه قال في نسب قريش : منَبِّه ونُبَيْه ابنا الحجاج بن عامر بن حُذَيْفة بن سعد بن سَهْم القرشي ، كانا سيدي بني سهم في الجاهلية قتلا يوم بدر كافرين ، وكانا من المطعمين ، والعاص ابن نبيه قتل مع أبيه ، وكان له ذو الفقار ، قتله علي بن أبي طالب رضي الله

١ ر : المسلمين .
٢ وضع في المسودة كسرة وفتحة فوق الفاء وكتب فوقها : « معاً » .
٣ المختار : رسول الله .

عنه يوم بدر وأخذه منه ؛ وقال غير [ابن] الكلبي : إن ذا الفقار أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه .

والفقار : بفتح الفاء ، جمع فَقارة الظهر ، يقال في جمعها فَقار ، وفَقارات ، ويقال ذو الفِقار ، بكسر الفاء أيضاً ، والفِقار : جمع فقرة ، بكسر الفاء وسكون القاف ، ولم يأت مثله في الجموع إلا قولهم إبرة وإبار .

رجعنا إلى حديث ذي الفقار :

وكان سبب وصوله إلى هارون الرشيد فيما ذكره أبو جعفر الطبري [1] بإسناد متصل إلى عمر [2] بن المتوكل [عن أمه] وكانت أمه تخدم فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، قالت : كان ذو الفقار مع محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه يوم قتل في محاربته لجيش أبي جعفر المنصور العباسي ، والواقعة مشهورة ، فلما أحس محمد بالموت دفع ذا الفقار إلى رجل من التجار كان معه ، وكان له عليه أربعمائة دينار ، وقال له : خذ هذا السيف فإنك لا تلقى أحداً من آل أبي طالب إلا أخذه منك وأعطاك حقك ، فكان السيف عند ذلك التاجر حتى ولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه اليمن والمدينة ، فأخبر عنه ، فدعا بالرجل فأخذ منه السيف وأعطاه أربعمائة دينار ، فلم يزل عنده حتى قام المهدي ابن المنصور ، واتصل خبره به فأخذه ، ثم صار إلى موسى الهادي ثم إلى أخيه هارون الرشيد . وقال الأصمعي : رأيت الرشيد بطوس متقلداً سيفاً ، فقال : يا أصمعي ، ألا أريك ذا الفقار ؟ قلت : بلى جعلني الله فداك ، فقال : استل [3] سيفي هذا ، فاستللته ، فرأيت فيه ثماني عشرة فقارة .

---

[1] تاريخ الطبري ١٠ : ٢٤٧ .

[2] الطبري : عمرو ، وفي بعض أصوله : عمر .

[3] ر : سل .

قلت : خرجنا عن المقصود ، فلنرجع إلى تتمة حديث يزيد بن مزيد :

ذكر الخطيب أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت البغدادي في « تاريخ بغداد[1] » أن يزيد المذكور دخل على الرشيد ، فقال له الرشيد : يا يزيد ، من الذي يقول فيك :

لا يُعْبِقُ الطيبَ كَفَّيهِ ومَفْرِقه   ولا يمسّحُ عينيه من الكُحُلِ
قدِ عَوَّدَ الطيرَ عاداتٍ وثقن بها   فهن يتبعنه في كلّ مُرْتحل

فقال : لا أدري يا أمير المؤمنين ، قال : أفيقال فيك مثل هذا الشعر ولا تعرف قائله ؟ فانصرف خجلاً ، فقال لحاجبه من بالباب من الشعراء ؟ فقال : مسلم بن الوليد الأنصاري ، قال : ومنذ كم هو مقيم بالباب ؟ قال : منذ زمان طويل منعته من الوصول إليك لما عرفته من إضاقتك ، قال : أدْخِلْهُ[2] فأدْخَلَه ، فأنشده هذه القصيدة حتى ختمها ، فقال للوكيل : بع ضيعتي الفلانية وأعطه نصف ثمنها واحتبس نصفاً لنفقتنا ، فباعها بمائة ألف درهم ، فأعطى مسلماً خمسين ألفاً . ورفع الخبر إلى الرشيد فاستحضر يزيد وسأله عن الخبر ، فأعلمه الحديث ، فقال : قد أمرت لك بمائتي ألف درهم لتسترجع الضيعة بمائة ألف درهم وتزيد الشاعر خمسين ألفاً وتحبس خمسين ألفاً لنفسك .

قال أبو بكر ابن الأنباري ، قال أبي : سرق مسلم بن الوليد هذا المعنى من قول النابغة الذبياني حيث يقول[3] :

إذا ما غزوا بالجيش حلّقَ فوقهم   عصائبُ طير تهتدي بعصائبِ
يصاحبنهم حتى يُغِرْنَ مُغارهم   من الضاريات بالدماء الدوارب
جوانحَ قد أيقنَّ أن قبيله   إذا ما التقى الجمعان أولُ غالب
لهنَّ عليهمْ عادةٌ قد عرفنها   إذا عُرِضَ الخطيّ فوق الكواثب

---

١ تاريخ بغداد ١٤ : ٣٣٤ .
٢ المختار : فأدخله .
٣ ديوان النابغة : ٥٧ وما بعدها .

الكوائب : بالثاء المثلثة وبعدها الباء الموحدة ، جمع كاثبة ، وهي ما يقرب من منسج الفرس أمام قَرَبوس السرج .

قلت : وأول قصيدة مسلم بن الوليد الأنصاري [1] :

أُجررْتُ حَبْلَ خليعٍ في الصبا غزل وقَصّرَتْ همم العُذّالِ عن عذلي

ومن مديحها [2] :

حاط الخلافةَ سيفٌ من بني مطر أقام قائمُهُ مَن كان ذا ميَلِ
كم صائلٍ في ذُرا علياء مملكةٍ لولا يزيدُ بني شيبانَ لم يَصُل
نابُ الإمام الذي يفترّ عنه إذا ما افترت الحربُ عن أنيابها العُصُل
يفترّ عند افترار الحرب مبتسماً إذا تغيَّرَ وجهُ الفارسِ البطل
ينال بالرفقِ ما يعيا الرجالُ به كالموت مستعجلاً يأتي على مهل
لا يرحلُ الناسُ إلا عند حجرته كالبيت يُضْحي إليه مُلتقى السُّبل
يكسو السيوفَ نفوسَ الناكثينَ به ويجعلُ الهامَ تيجانَ القنا الذُّبُل
يغدو فتغدو المنايا في أسنّته شوارعاً تتحدّى الناسَ بالأجل
إذا طغتْ فئةٌ عن عَبِّ طاعتهِ عبّا لها الموتَ بين البيض والأسل
تراه في الأمنِ في درعٍ مضاعَفَةٍ لا يأمن الدهْرَ أن يُدعى على عجل

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب « الأغاني » [3] في ترجمة مسلم بن الوليد الأنصاري ، قال يزيد بن مزيد : أرسل إليَّ الرشيد يوماً في وقت لا يرسل فيه إلى مثلي ، فأتيته لابساً سلاحي مستعداً لأمرٍ [4] إن أراده ، فلما رآني ضحك إلي وقال : من الذي يقول فيك :

---

١ ديوان مسلم : (القصيدة الأولى) .

٢ ومن مديحها : سقطت من س ع ق ؛ ر : ومن مدائحها .

٣ الأغاني ١٨ : ٣١٨ .

٤ ر : لأمره .

تراه في الأمن في درع مضاعفة لا يأمن الدهرَ أن يدعى على عجل
لله من هاشم في أرضه جبَلٌ وأنت وابنك ركنا ذلك الجبل

فقلت : لا أعرفه يا أمير المؤمنين ، فقال : سوأةً لك من سيد قوم يُمْدَحُ بمثل هذا الشعر ولا يعرف قائله ، وقد بلغ أمير المؤمنين فرواه ووصل قائله ، هو مسلم بن الوليد ، فانصرفت ودعوت به ووصلته وولّيته .

قلت : وهذان البيتان من جملة القصيدة التي ذكرت منها الأبيات التي قبلها .

وقد رُوِيَ أن عمه مَعْنَ بن زائدة كان يقدمه على أولاده ، فعاتبته امرأته في ذلك وقالت له : كم تقدم يزيد ابن أخيك وتؤخر بنيك ، ولو قدمتهم لتقدموا ولو رفعتهم لارتفعوا ، فقال لها : إن يزيد قريب مني وله عليَّ حق الولد إذ كنت عمه ، وبعد فإن بنيّ ألوط بقلبي وأدنى من نفسي ، ولكني لا أجد عندهم من الغَناء ما عنده ، ولو كان ما يضطلع به يزيد في بعيد لصار قريباً أو عدو لصار حبيباً ، وسأريك في هذه الليلة ما تبسطين به عذري ، يا غلام اذهب فادعُ جساساً وزائدة وعبد الله وفلاناً وفلاناً ، حتى أتى على جميع أولاده ، فلم يلبثوا أن جاءوا في الغلائل المطيبة والنعال السنديّة ، وذلك بعد هَدْأة من الليل ، فسلموا وجلسوا ، ثم قال معن : يا غلام ادع يزيد ، فلم يلبث أن دخل عجلاً وعليه سلاحه ، فوضع رمحه بباب المجلس ثم دخل ، فقال له معن : ما هذه الهيئة يا أبا الزبير ؟ فقال : جاءني رسول الأمير فسبق وهمي إلى أنه يريدني لمهمّ ، فلبست سلاحي وقلت : إن كان الأمر كذلك مضيت ولم أعرج ، وإن كان على غير ذلك فنزع هذه الآلة عني من أيسر شيء ، فقال معن : انصرفوا في حفظ الله ، فلما خرجوا قالت زوجته : قد تبين لي عذرك ، فأنشد متمثلاً :

نفسُ عصامٍ سوّدَتْ عصاما وعلمته الكرَّ والأقداما
وصيّرتهُ ملكاً هماما

وإلى هذه الحالة أشار مسلم بن الوليد بقوله :

تراه في الأمن في درع مضاعفة[1] ... ...

---

[1] أكمل البيت في ر .

وقد روي أن مسلم بن الوليد لما انتهى في إنشاد هذه القصيدة إلى هذا البيت قال له يزيد بن مزيد الممدوح : هلا قلت كما قال أعشى بكر بن وائل في مديح قيس بن معدي كرب :

وإذا تجيءُ كتيبةٌ ملمومة شهباءُ تجتنبُ الكماةُ نزالها
كنت المقدَّمَ غيرَ لابسٍ جُنّة بالسيفِ تضربُ معلماً أبطالها

فقال مسلم : قولي أحسن من قوله ، لأنّه وصفه بالخرق وأنا وصفتك بالحزم[1] .

الخُرْق : بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وبعدها قاف ، وهو الاسم من عدم معرفة العمل .

قلت : وقيس الذي مدحه الأعشى هو والد الأشعث بن قيس الكندي أحد الصحابة رضوان الله عليهم .

قلت : وقد تقدم الكلام على قوله :

قد عود الطير عادات وثقن بها

وأنّه أخذ هذا المعنى من أبيات النابغة البائية التي تقدم ذكرها ، وقد وافقه في أخذ هذا المعنى جماعة منهم أبو نواس ، قال عمر الوراق : سمعت أبا نواس ينشد قصيدته الرائية التي أولها[2] :

أيّها المنتابُ من عُفُره لستَ من ليلي ولا سمره
لا أذودُ الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرَّ من ثمره

فحسدته عليها ، فلما بلغ إلى قوله :

وإذا مجَّ القنا علقاً وتراءى الموت في صُوَره
راح في ثِنْيَيْ مُفاضته أسدٌ يدمى شبا ظفره

---

١ تروى حكاية مشابهة جرت بين كثير وعبد الملك بن مروان .
٢ ديوان أبي نواس : ٦٦ .

تتأيَّ الطيرُ غَدوتَه ثقةً بالشِّبع من جزَره

قلت له : ما تركت للنابغة شيئاً حيث يقول :

إذا ما غزوا بالجيش حلّقَ فوقهم عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

فقال : اسكت ، فلئن أحسَنَ الاختراع لما أسأتُ الاتباع .
وأخذ هذا المعنى أبو تمام حبيب بن أوس الطائي فقال[1] :

وقد ظُلِّلت عِقْبانُ أعلامه ضحىً بعقبانِ طيرٍ في الدماء نواهلِ
أقامتْ على الرايات حتى كأنّها من الجيشِ إلا أنها لم تقاتلِ

وقال المتنبي أيضاً[2] :

يطمِّعُ الطيرَ فيهم طولُ أكلهمُ حتى تكادَ على أحيائهم تقعُ

وللمتنبي أيضاً في صفة جيش وقد ألم بهذا المعنى[3] :

وذي لجَب لا ذو الجناحِ أمامه بناجٍ ولا الوحشُ المثارُ بسالمِ
تمرُّ عليه الشمسُ وهي ضعيفةٌ تطالعه من بين ريشِ القشاعم
إذا ضوءها لاقى من الطير فُرْجَةً تدوَّرَ فوق البَيْضِ مثلَ الدراهم

ولمّا كان يزيد والياً على اليمن قصده أبو الشمقمق مروان بن محمد — مولى مروان بن محمد الجعدي آخر ملوك بني أمية — الشاعر المشهور الكوفي، وكنيته أبو محمد ، وكان مشهوراً بأبي الشمقمق، وهو في حال رثة ، وكان راجلاً ، فمدحه وشرح حاله بقوله[4] :

رحل المطيَّ إليك طلابُ الندى ورحلتُ نحوك ناقةً نَعْلَيَّهْ

---

١ ديوان أبي تمام ٣ : ٨٢ .
٢ ديوانه : ٣٠٣ .
٣ ديوانه : ١٩٧ .
٤ تاريخ بغداد ١٤ : ٣٣٦ .

إذا لم تكنْ لي يا يزيدُ مطيةٌ فجعلتها لي في السفار مطيه
تَخْدي أمام اليعملاتِ وتغتلي في السير تترك خلفها المَهْريه
من كلّ طاوية الصوى مُزْوَرَّةٍ قَطْعاً لكلٍّ تَنوفةٍ دويه

ومنها :

تنتاب أكرمَ وائل في بيتها حسباً وقبةُ مجدها مبنيه
أعني يزيداً سيفَ آلِ محمد فَرّاجَ كلٍّ شديدة مخشيه
يوماه يومٌ للمواهب والجَدا خضِلٌ ويومُ دمٍ وخطف منيه
ولقد أتيتك واثقاً بك عالماً أن لستَ تسمع مدحة بنَسيّه

فقال : صدقت يا شمقمقيّ ولست أقبل مدحة بنسيئة ، أعطوه ألف دينار .

ومدحه أبو الفضل منصور بن سلمة النمري الشاعر المشهور [1] بقصيدة طويلةٍ بائية أحسن فيها كل الإحسان منها قوله :

لو لم يكنْ لبني شيبانَ من حَسَبٍ سوى يزيدَ لفاتوا الناسَ بالحسبِ
ما أعرفَ الناسَ أن الجودَ مَدْفَعةٌ للذمّ لكنه يأتي على النشب

وذكر أبو العباس المبرد في كتاب « الكامل » [2] أن يزيد بن مزيد المذكور نظر إلى رجل ذي لحية عظيمة وقد تلففت على صدره ، وإذا هو خاضب ، فقال له : إنّك من لحيتك في مؤنة ، فقال : أجل ولذلك أقول :

لها درهمٌ للدهن في كلّ ليلةٍ [3] وآخرُ للحناء يبتدرانِ
ولولا نوالٌ من يزيد بن مزيد لصوّت في حافاتها الجلَمانِ

قلت ، الجلمان : بفتح الجيم واللام ، تثنية جلَم ، وهو المقص .

---

١ ترجمته في طبقات ابن المعتز : ٢٤٢ والشعر والشعراء : ٧٣٦ والأغاني ١٣ : ١٤٠ وتاريخ بغداد ١٣ : ٦٥ .

٢ الكامل ٢ : ١٢٨ .

٣ الكامل : في كل جمعة .

وقال له هارون الرشيد يوماً : يا يزيد ، إنّي قد أعددتك لأمر كبير ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الله تعالى قد أعدّ لك مني قلباً معقوداً بنصيحتك ، ويداً مبسوطة لطاعتك [1] ، وسيفاً مشحوذاً على عدوّك ، فإذا شئت فقل . وذكر المسعودي في كتاب « مروج الذهب ومعادن الجوهر » [2] أن هذه المقالة دارت بين هارون الرشيد ومعن بن زائدة عم يزيد المذكور ، ثم قال بعد هذا : وقيل إن هذا الكلام من كلام يزيد بن مزيد .

قلت أنا : وهذا لا يمكن أن يكون بين الرشيد ومعن أصلاً ، لأن معناً قتل في خلافة أبي جعفر المنصور – حسبما تقدم ذكره في ترجمته – على الاختلاف في السّنة ، وهو بعد الخمسين ومائة ، فكيف يمكن أن يقول له الرشيد ذلك والرشيد ولي الخلافة في سنة سبعين ومائة ؟

وذكر ابنُ أبي عون [3] في كتاب « الأجوبة المسكتة » أن الرشيد قال ليزيد المذكور في لعب الصوالجة : كن مع عيسى بن جعفر ، فأبى يزيد فغضب الرشيد وقال : تأنف أن تكون معه ؟ فقال : قد حلفت لأمير المؤمنين أن لا أكون عليه في جد ولا هزل .

ورأيت في بعض المجاميع حكاية عن بعضهم أنّه قال : كنت مع يزيد بن مزيد ، فإذا صائح في الليل : يا يزيد بن مزيد ، فقال يزيد : عليّ بهذا الصائح ، فلما جيء به قال له : ما حملك على أن [4] ناديت بهذا الاسم ؟ فقال : نفقت دابتي ونفدت نفقتي ، وسمعت قول الشاعر فتيمنت به ، فقال : وما قال الشاعر ؟ فأنشد :

إذا قيل من للمجد والجود والندى ... فنادِ بصوتٍ يا يزيدُ بنَ مزيد

فلما سمع يزيد مقالته هش له وقال له : أتعرف يزيد بن مزيد ؟ قال : لا والله ، قال : أنا هو ، وأمر له بفرسٍ أبلق [5] كان معجباً به وبمائة دينار .

---

١ المختار : بطاعتك .
٢ المروج ٣ : ٣٦٠ .
٣ في المسودة : ابن عون .
٤ أن : سقطت من المسودة .
٥ أبلق : سقطت من المختار .

وقد أطلنا القول في هذه الترجمة ، لكن الكلام شجون يتعلق بعضه ببعض ، ومحاسن يزيد كثيرة ؛ وتوفي في سنة خمس وثمانين ومائة، ورثاه أبو محمد عبد الله ابن أيوب التيمي الشاعر المشهور، وقيل بل هذه المرثية لأبي الوليد مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر المذكور ، والصحيح أنها للتيمي المذكور ، وهي[1] :

أحقاً أنّه أودى يزيدُ ... تبيّنْ أيها الناعي المُشيدُ
أتدري منْ نعيتَ وكيف فاهت ... به شفتاك ؟ كان بها الصعيد
أحامي المجدِ والإسلام أودى ... فما للأرض ويحكَ لا تميد
تأملْ هل ترى الإسلامَ مالت ... دعائمه وهل شاب الوليد
وهل شِيمَتْ سيوفُ بني نزار ... وهل وُضِعَتْ عنِ الخيل اللبود
وهل تسقي البلادَ ثِقالُ مزن ... بدرّتها وهل يخضرُّ عود
أمّا هُدّتْ لمصرعه نزارٌ ... بلى ، وتقوّض المجد المَشيد
وحل ضريحَهُ إذ حلّ فيه ... طريفُ المجد والحسبُ التليد
أما والله ما تنفكّ عيني ... عليكَ بدمعها أبداً تجود
وإن تجمدْ دموعُ لئيم قوم ... فليس لدمع ذي حسب جمود
أبعد يزيدَ تختزن البواكي ... دموعاً أو يصانُ لها خدود
لتبكك قُبّةُ الإسلام لما ... وهت أطنابها ووهى العمود
ويبكي شاعر لم يبقِ دهرٌ ... له نشباً وقد كسد القصيد
فإن يهلِكْ يزيدُ فكلُّ حيٍّ ... فريسٌ للمنية أو طريد
لقد عزّى ربيعةَ أن يوماً ... عليها مثلُ يومك لا يعود

قلت : وهذا البيت الأخير قد استعمله الشعراء كثيراً ، فمن ذلك قول مُطيع ابن إياس يرثي يحيى بن زياد الحارثي من جملة أبيات :

فاذهبْ بمن شئتَ إذ ذهبتَ به ... ما بعد يحيى في الرزءِ منْ ألمِ

---

1 ترجمته والقصيدة في الأغاني ١٨ : ٣٢٣ .

وقول أبي نواس يرثي الأمين[1] :

وكنت عليه أحذرُ الموتَ وحده ... فلم يبقَ لي شيءٌ عليه أُحاذرُ

وقول إبراهيم بن العباس الصولي يرثي ابنه :

أنت السوادُ لمقلة ... تبكي عليك وناظرُ
من شاء بعدك فليمتْ ... فعليك كنتُ أحاذرُ

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في كتاب « الأغاني »[2] في ترجمة مسلم بن الوليد بإسناد متصل إلى أحمد بن أبي سعد[3] قال : أُهْدِيَتْ إلى يزيد بن مزيد جارية وهو يأكل ، فلما رفع يده من الطعام وطئها فلم يُنْزَلْ عنها إلا ميتاً ، وهو ببرْدَعَةَ ، فدفن في مقابر بردعة ، وكان مسلم بن الوليد معه في جملة أصحابه فقال يرثيه :

قبرٌ ببردعةَ استسرَّ ضريحُه ... خطراً تقاصَرُ دونه الأخطارُ
أبقى الزمانُ على ربيعةَ بعده ... حزناً لعمرُ الله ليس يُعار
سلكت بك العَرَبُ السبيلَ إلى العلا ... حتّى إذا سبق الردى بك حاروا
نَفَضَتْ بك الأحلاسَ آمالُ الغنى ... واسترجعتْ زوّارها الأمصار
فاذهبْ كما ذهبت غوادي مزنةٍ ... أثنى عليها السهل والأوعار

قد قيل إن هذا البيت الأخير أبلغ شيء قيل في المراثي ، وهذه الأبيات في كتاب « الحماسة »[4] في باب المراثي .

وبَرْدعة : بفتح الباء الموحدة وسكون الراء وبعدها دال مهملة ثم عين مهملة ، وهي مدينة من أقصى بلاد أذربيجان . قلت : هكذا رأيته في التواريخ ،

---

١ زاد في المختار : ابن هارون الرشيد .

٢ الأغاني ١٨ : ٣٢٥ – ٣٢٦ .

٣ ع ق : سعيد .

٤ زاد في المختار : لأبي تمام الطائي ؛ وانظر شرح المرزوقي : ٣٢٤ .

وأهل تلك البلاد يقولون بردعة من إقليم إرّان ، والله أعلم ؛ ويقال برذعة أيضاً ، بالذال المعجمة ، وكذلك بردعة الدابة يقال بالدال والذال [1] .

وقد قيل إن مسلم بن الوليد إنما رثى بهذه الأبيات يزيد بن أحمد السلمي ، وقيل بل رثى بها مالك بن علي الخزاعي ، وإن أول الأبيات :

قبر بحُلْوان استسرّ ضريحه

لأن الذي قيلت فيه مات بحُلْوان ، بضم الحاء المهملة ، وهي آخر مدينة بأرض السواد من أعمال العراق ، والله أعلم بالصواب في ذلك كله .

وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتاب « معجم الشعراء » أن أبا البَلْهاءِ [2] عميرَ بن عامر مولى يزيد بن مزيد الشيباني هو القائل :

نعم الفتى فَجعَتْ به إخوانَهُ ... يومَ البقيع حوادثُ الأيامِ
سَهْل الفناء إذا حللت ببابه ... طلقُ اليدين مؤدَّبُ الخدّام
وإذا رأيتَ صديقه وشقيقه ... لم تدرِ أيهما ذوو الأرحام

وذكر أبو تمام الطائي هذه الأبيات في كتاب « الحماسة » في باب المراثي لمحمد بن بشير الخارجي ، وقيل ابن يسير بالسين المهملة وهو فعيل من اليسر ، وبشير [3] من البشارة ، وهو من خارجة عَدْوان ، قبيلة ، وليس من الخوارج ، والله أعلم بالصواب في ذلك كله .

ورثاه منصور النمري ، وهي في كتاب « الحماسة » [4] بقوله :

أبا خالد ، ما كان أدهى مصيبةً ... أصابتْ معدّاً يوم أصبحتَ ثاويا
لعمري لئن سرّ الأعادي فأظهروا ... شماتاً لقد مرّوا بربعك خاليا
فإن يكُ أفنته الليالي وأوشكتْ ... فإن له ذكراً سيفني اللياليا

---

١ المختار : بالدال المهملة والذال المعجمة .

٢ المختار : البكاء ؛ ق : البكهاء ؛ وانظر معجم المرزباني : ٧٥ وشرح المرزوقي ص : ٨٠٨ .

٣ ر والمختار : وبشر .

٤ شرح المرزوقي رقم : ٣٣٧ وهي منسوبة لشبيب بن عوانة .

وكان ليزيد[1] ولدان نجيبان جليلان سيدان :

(336) أحدهما خالد بن يزيد وهو ممدوح أبي تمام الطائي ، وله فيه أحسن المدائح ،وقد تضمنها ديوانه ، فلا حاجة إلى ذكر شيء منها لشهرة ديوانه .

(337) والآخر محمد بن يزيد ، كان موصوفاً بالكرم وأنّه لا يرد طالباً ، فإن لم يحضره مال لم يقل لا ، بل يَعد ثم يعجّل العِدَة ، ومدحه أحمد بن أبي فنن صالح بن سعيد[2] بقوله ، ثم وجدت هذه الأبيات لأبي الشيص الخزاعي في كتاب « البارع »[3] :

عشقَ المكارمَ فهو مشتغل بها ... والمكرماتُ قليلةُ العشّاقِ
وأقام سوقاً للثناء ولم تكنْ ... سوقُ الثناء تُعَدُّ في الأسواق
بثَّ الصنائعَ في البلاد فأصبحتْ ... تجبى إليه محامدُ الآفاق

وكان خالد بن يزيد قد تولى الموصل من جهة المأمون ، فوصل إليها وفي صحبته أبو الشمقمق الشاعر الذي ذكرته في هذه الترجمة ، فلما دخل خالد إلى الموصل نشب اللواء الذي لخالد في سقف باب المدينة فاندق ، فتطير خالد من ذلك ، فأنشده أبو الشمقمق ارتجالاً[4] :

ما كان مندقُّ اللواء لريبةٍ ... تخشى ولا سوءٍ يكونُ معجّلا
لكنَّ هذا الرمحَ أضعفَ متنه ... صِغَرُ الولايةِ فاستقلَّ الموصلا

فبلغ الخليفة ما جرى ، فكتب إلى خالد بن يزيد : قد زدنا في ولايتك ديار ربيعة كلها لكونِ رمحك استقلَّ الموصل ، ففرح بذلك وأجزل جائزة أبي الشمقمق .

ولما انتقض أمر أرمينية في أيام الواثق جهز إليها خالد بن يزيد المذكور في

---

١ المختار : ليزيد المذكور ، رحمه الله تعالى .

٢ المختار : سعد .

٣ قلت : انظر ما تقدم ص ٢٨٣ .

٤ انظر شعراء عباسيون : ١٤٧ .

جيش عظيم فاعتل في الطريق ومات في سنة ثلاثين ومائتين ، ودفن بمدينة دبيل أرمينية ، رحمهم الله أجمعين .

٨٢١
يزيد ابن مفرغ الحميري

أبو عثمان يزيد بن زياد بن ربيعة بن مُفرّغ بن ذي العشيرة بن الحارث ابن دلال بن عوف بن عمرو بن يزيد بن مُرَّةَ بن مَرْثَد بن مسروق بن زيد ابن يحصب الحميري – وبقية النسب من يحصب معروفة فلا حاجة إلى ذكرها – هكذا ساق هذا النسب ابن الكلبي في كتاب « جمهرة النسب » غير أنّه لم يذكر كنية يزيد، بل ذكرها صاحب « الأغاني » ، وأكثر العلماء يقولون : هو يزيد بن ربيعة بن مفرغ ويسقطون زياداً .

(338) وقال صاحب « الأغاني » : إنّما لقب جده مفرغاً لأنّه راهن على سقاء من لبن يشربه كله ، فشربه حتّى فرّغه فسمي مفرغاً . وذكر في ترجمة حفيده السيد الحميري في كتاب « الأغاني » [1] أيضاً أن ابن عائشة قال : مفرغ هو ربيعة ، ومفرغ لقبه ، ومن قال ربيعة بن مفرغ فقد أخطأ ، والله أعلم . وقال الفضل ابن عبد الرحمن النوفلي : كان مفرغ المذكور حداداً باليمن ، فعمل لامرأة قفلاً وشرط عليها عند فراغه منه أن تجيئه بلبن كرِش [2]، ففعلت ، فشرب منه ووضعه ، فقالت له : ردّ علي الكرش ، فقال : ما عندي شيء أفرغه فيه ، قالت : لا بد منه ، ففرغه في جوفه فقالت : إنّك لمفرغ ، فعرف به ، وهو

---

٨٢١ – ترجمته في الشعر والشعراء : ٢٧٦ وابن سلام : ٥٥٤ والأغاني ١٨ : ١٨٠ والإكليل ٢ : ٢٦٦ وأمالي الزجاجي : ٢٢٩ والخزانة ٢ : ٢١٠ ، ٥١٤ وتاريخ الطبري ٧ : ١٩١ وقد جمع شعره الدكتور داود سلوم (بغداد : ١٩٦٨) .

١ ترجمة السيد الحميري في الأغاني ٧ : ٢٢٤ .

٢ ر : بكرش لبن .

من حمير فيما يزعم أهله . وذكر ابن الكلبي وأبو عبيدة أن مفرغاً كان شعّاباً بتَبالة .

قلت ، تبالة : بفتح التاء المثناة من فوقها وبعدها باء موحدة ثم ألف ولام وفي آخرها هاء ، وهي بليدة على طريق اليمن للخارج من مكة ، وهذا المكان كثير الخصب ، له ذكر في الأخبار والأمثال والأشعار ، وهي أول ولاية وليها الحجاج بن يوسف الثقفي ، ولم يكن رآها قبل ذلك . فخرج إليها ، فلما قرب منها سأل عنها ، فقيل له إنها وراء تلك الأكمة ، فقال : لا خير في ولاية تسترها أكمة ، ورجع عنها محتقراً لها وتركها . فضربت العرب بها المثل وقالت للشيء الحقير : أهون من تَبالَة على الحجاج .

قال الراوي : فادعى يزيد أنّه من حمير ، وهو حليف آل خالد بن أسيد بن أبي العيص الأموي ، وقيل إنّه كان عبداً للضحاك بن عبد عوف الهلالي ، فأنعم عليه .

وكان يزيد شاعراً غزلاً محسناً .

(339) والسيد الحميري الشاعر المشهور من ولده .وهو إسماعيل بن محمد بن بكار بن يزيد المذكور ، كذا ذكره ابن ماكولا في كتاب « الإكمال » ولقبه السيد وكنيته أبو هاشم ، وهو من كبار الشيعة ، وله في ذلك أخبار وأشعار مشهورة .

ومن محاسن شعر يزيد المذكور قوله من جملة قصيدة يمدح بها مروان بن الحكم الأموي ، وكان قد أحسن مروان إليه :

وأقمتمُ سوقَ الثناء ولم تـكنْ سوق الثناء تقامُ في الأسواقِ

فـكأنّما جعل الإلـهُ إليكمُ قَبْضَ النفوس وقسمةَ الأرزاق

والبيت الأول من هذين البيتين تقدم ذكره في ترجمة يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني منسوباً إلى أحمد بن أبي فنن يمدح به خالد بن يزيد بن مزيد المذكور من جملة أبيات[1] ، والله أعلم بالصواب في ذلك .

ولما ولي[2] سعيد بن عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، خراسان عرض على

---

١ انظر ص : ٣٤١ .

٢ انظر الأغاني : ١٨٣ وما بعدها .

يزيد بن مفرغ أن يصحبه فأبى ذلك ، وصحب عباد بن زياد بن أبيه ، فقال له سعيد : أمّا إذ أبيت أن تصحبني وآثرت صحبة عباد فاحفظ ما أوصيك[1] به : إن عباداً رجل لئيم فإياك والدالة عليه وإن دعاك إليها من نفسه ، فإنّها خَدعة منه لك عن نفسك ، وأقلل زيارته فإنّه ملول ، ولا تفاخره وإن فاخرك فإنّه لا يحتمل لك ما كنت أحتمله . ثم دعا سعيد بمال فدفعه له وقال له : استعنْ به على سفرك فإن صحَّ لك مكانك من عباد ، وإلا فمكانك عندي ممهد فائتني .

ثم سار سعيد إلى خراسان وخرج ابن مفرغ مع عباد ، فلما بلغ عبيد الله بن زياد أمير العراقين صحبة يزيد أخاه عباداً شق عليه ، فلما سار عباد شيعه أخوه عبيد الله وشيعه الناس وجعلوا يودعونه ، فلما أراد عبيد الله أن يودع أخاه دعا ابن مفرغ فقال له : إنّك سألت عباداً أن يُصْحِبك فأجابك ، وقد شق علي ، فقال له : ولم أصلحك الله ؟ قال : لأن الشاعر لا يقنعه من الناس ما يُقْنِعُ بعضَهم من بعض ، لأنّه يظن فيجعل الظن يقيناً ولا يعذر في موضع العذر ، وإن عباداً يقدم على أرض حرب فيشتغل بحروبه وخراجه عنك ، فلا تعذره أنت وتكسونا شراً وعاراً ، فقال له : لستُ كما ظنّ الأمير ، وإن لمعروفه عندي لشكراً كثيراً ، وإن عندي إن أغفل أمري عذراً ممهداً ، فقال : لا ، ولكن تضمنُ لي إن أبطأ عنك ما تحبه أن لا تعجل عليه حتّى تكتب إلي ، قال : نعم ، قال : امض إذاً على الطائر الميمون. قال : فقدم عباد خراسان ، وقيل سجستان ، فاشتغل بحروبه وخراجه ، فاستبطأه ابن مفرغ ولم يكتب لأخيه عبيد الله بن زياد يشكوه كما ضمن له ، ولكنه بسط لسانه فذمه وهجاه .

وكان عباد كبير اللحية كأنها جوالق ، فسار ابن مفرغ مع عباد فدخلت الريح فيها فنفشتها ، فضحك ابن مفرغ وقال لرجل من لخم كان إلى جنبه :

ألا ليتَ اللّحى كانت حشيشاً فنعلفَها خيولَ المسلمينا

فسعى به اللخمي إلى عباد ، فغضب من ذلك غضباً شديداً ، وقال : لا تجمل بي عقوبته في هذه الساعة مع صحبته لي ، وما أؤخرها إلا لأشفي نفسي

---

[1] ر : أوصيتك .

منه ، فإنّه كان يقوم فيشتم أبي في عدة مواضع .

وبلغ الخبر ابن مفرغ فقال : إنّي لأجد ريحَ الموت من عباد ، ثم دخل عليه فقال : أيها الأمير ، إنّي قد كنت مع سعيد بن عثمان ، وقد بلغك رأيه في وجميل أثره علي، وقد اخترتك عليه فلم أحظ منك بطائل ، وأريد أن تأذن لي بالرجوع فلا حاجة لي في صحبتك ، فقال له : أما اختيارك إياي فقد اخترتك كما اخترتني ، واستصحبتك حين سألتني ، وقد أعجلتني عن بلوغ حجتي فيك، وطلبتَ الإذن لترجع إلى قومك فتفضحني فيهم وأنت على الإذن قادرٌ بعد أن أقضي حقك .

وبلغ عباداً أنّه يسبه ويذكره وينال من عرضه ، فدس إلى قوم كان لهم عليه دين أن يقدموه إليه ، ففعلوا فحبسه وأضرَّ به ، ثم بعث إليه بعني الأراكة وبرداً ، وكانت الأراكة قَيْنَةَ لابن مفرغ ، وبرد غلامه ، رباهما وكان شديد الضن بهما ، فبعث إليه ابن مفرغ مع الرسول : أيبيع المرء نفسه وولده ؟ فأخذهما عباد منه ، وقيل إنّه باعهما عليه ، فاشتراهما رجل من أهل خراسان . فلما دخلا منزله قال له برد ، وكان داهية أديباً[1] : أتدري ما اشتريت؟ قال : نعم اشتريتك وهذه الجارية ، قال : لا والله ، ما اشتريت إلا العار والدمار والفضيحة أبداً ما حييت ، فجزع الرجل وقال له : كيف ذاك ويلك ؟ قال : نحن ليزيد ابن مفرغ ، ووالله ما أصاره إلى هذه الحال إلا لسانه وشره ، أفتراه يهجو عباداً وهو أمير خراسان ، وأخوه عبيد الله أمير العراقين ، وعمه الخليفة معاوية بن أبي سفيان ، في أن استبطأه ، ويمسك عنك وقد ابتعتني وابتعت هذه الجارية وهي نفسه التي بين جنبيه ؟ ووالله ما أرى أحداً أدْخلَ بيته أشأمَ على نفسه وأهله مما أدخلته منزلك ، فقال : أشهدك أنك وإياها له ، فإن شئتما أن تمضيا إليه فامضيا ، وعلى أنّي أخاف على نفسي إن بلغ ذلك ابن زياد، وإن شئتما أن تكونا له عندي فافعلا ، قال: فاكتب إليه بذلك ، فكتب الرجل إلى ابن مفرغ إلى الحبس بما فعله ، فكتب إليه يشكر فعله ، وسأله أن يكونا عنده حتى يفرّج الله عنه .

وقال عباد لحاجبه : ما أرى هذا ، يعني ابن مفرغ ، يبالي بالمقام في الحبس ،

---

١ كذا في المسودة ، ولعل الأنسب : « أريباً » .

فبع فرسه وسلاحه وأثاثه واقسم ثمنها بين غرمائه ، ففعل ذلك وبقيت عليه بقية حبسه بها ، فقال ابن مفرغ في بيعهما :

شَرَيتُ برداً ولو مُلِّكْتُ صفقته ... لما تطلبتُ في بيعٍ لـه رَشَدا
لولا الدَّعي ولولا ما تعرضَ لي ... من الحوادث ما فارقته أبدا
يا بردُ ما مسّنا دهرٌ أضرَّ بنـا ... من قبل هذا ولا بعنـا له ولدا

معنى شريت : بعت ، وهو من الأضداد يقع على الشراء والبيع . والأبيات أكثر من هذا فتركت الباقي .

وعلم ابن مفرغ أنّه إن أقام على ذم عباد وهجائه وهو في حبسه زاد نفسه شراً ، فكان يقول للناس إذا سألوه عن حبسه ما سببه : رجل أدبه أميره ليقوّم من أوده ويكف من غربه ، وهذا لعمري خيرٌ من جرّ الأمير ذَيْلَه على مداهنة صاحبه . فلما بلغ ذلك عباداً رقّ له وأخرجه من السجن ، فهرب حتى أتى البصرة ثم خرج منها إلى الشام ، وجعل يتنقل في مدنها هارباً ويهجو زياداً وولده ، فمن ذلك قوله في تَرْكِ سعيد بن عثمان بن عفان ، رضي الله عنه ، واتباعه عباد بن زياد ويذكر بيع برد عليه :

أصرَمْتَ حبلك من أُمامَهْ ... من بعد أيامٍ برامهْ
فالريحُ تبكي شجوها ... والبرقُ يضحكُ في الغمامه
لهفي على الأمرِ الذي ... كانت عواقبُهُ ندامه
تركي سعيداً ذا الندى ... والبيت ترفعُهُ الدعامه
ليثاً إذا شهد الوغى ... ترك الهوى ومضى أمامه
فُتِحَتْ سَمَرْقَنْدٌ له ... وبنى بعرصتها خيامه
وتبعتُ عبد بني علا ... جٍ ، تلك أشراطُ القيامه
جاءت به حبشيةٌ ... سكّاءُ تحسبها نعامه
من نسوةٍ سود الوجو ... ه ترى عليهن الدمامه
وشريتُ برداً ليتني ... من بعدِ بردٍ كنتُ هامه

هامة إذ[1] تدعو صَدًى بين المشقّر واليمامه
فالهولُ يركبه الفتى حَذَرَ المخازي والسآمه
والعبدُ يقرع بالعصا والحرُّ تكفيه الملامه

قلت ، قوله : وتبعت عبد بني علاج ، بنو علاج بطن من ثقيف – وسيأتي ذكره عند ذكر الحارث بن كَلَدَة في هذه الترجمة إن شاء الله تعالى – قاله أبو بكر ابن دريد في كتاب « الاشتقاق »[2] وأنشد عليه :

آلَ أبي بكرةَ استفيقوا هل تُعْدلُ الشمس بالسراج
إن ولاء النبيّ أعلى من دعوةٍ في بني علاج

وهذا القول له سبب يذكر عند ذكر أبي بكرة نفيع بن الحارث في هذه الترجمة ، إن شاء الله تعالى .

وقوله في البيت الآخر : سكاء تحسبها نعامة ، يقال أذن سكاء ، إذا كانت صغيرة ، والسكاء أيضاً التي لا أذن لها ، والعرب تقول : كل سكاء تبيض ، وكل شرفاء تلد ، والشرفاء : التي لها أذن طويلة ، والسكّاء ، بفتح السين المهملة وتشديد الكاف ؛ والشرفاء ، بفتح الشين المعجمة وسكون الراء وبعدها فاء ، والضابط عندهم فيه أن كل حيوان له أذن ظاهرة فإنّه يلد . وكل حيوان ليست له أذن ظاهرة فإنّه يبيض .

قال الراوي : ثم إن ابن مفرغ لج في هجاء بني زياد . حتى تغنى أهل البصرة في أشعاره . فطلبه عبيد الله طلباً شديداً حتى كاد يؤخذ ، فلحق بالشام ، واختلف الرواة فيمن رده إلى ابن زياد ، فقال بعضهم : رده معاوية بن أبي سفيان ، وقال بعضهم : بل رده يزيد بن معاوية ، والصحيح أنّه يزيد لأن عباداً إنّما ولي سجستان في أيام يزيد .

---

١ ر : أو هامة ، وبهامش المسودة : خ ويروى : هامة تدعو . وهي ما ورد في بر من؛ وفي ع : هاماه إذ ؛ وفي الأغاني : أو بومة .
٢ الاشتقاق : ٣٠٥ – ٣٠٦ .

قلت : ثم ذكر صاحب « الأغاني » عقيب هذا الفصل [1] أن سعيد بن عثمان ابن عفان ، رضي الله عنه ، دخل على معاوية بن أبي سفيان فقال له : علام جعلت ولدك يزيد ولي عهدك دوني ؟ فوالله لأبي خير من أبيه وأمي خير من أمّه وأنا خير منه ، وقد وليناك فما عزلناك وبنا نلت ما نلت ، فقال له معاوية : أما قولك إن أباك خير من أبيه فقد صدقت ، لعمر الله إن عثمان لخير مني ، وأما قولك إن أمك خير من أمه فحسب المرأة أن تكون في بيت قومها وأن يرضاها بعلها وينجب ولدها ، وأما قولك إنك خير من يزيد ، فوالله يا بني ما يسرني أن لي بيزيد ملء الغوطة مثلك ، وأما قولك : إنكم وليتموني فما عزلتموني ، فما وليتموني وإنّما ولاني من هو خير منكم عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، فأقررتموني ، وما كنت بئس الوالي لكم ، لقد قمت بثاركم وقتلت قتلة أبيكم وجعلت الأمر فيكم ، وأغنيت فقيركم ورفعت الوضيع منكم ؛ فكلمه يزيد في أمره فولاه خراسان .

رجعنا إلى حديث ابن مفرّغ :

قال الراوي [2] : ولم يزل يتنقل في قرى الشام ويهجو بني زياد ، وأشعاره تنقل إلى البصرة . فكتب عبيد الله بن زياد أمير العراق إلى معاوية – وقيل إلى يزيد وهو الأصح – يقول : إن ابن مفرغ هجا زياداً وبني زياد بما هتكه في قبره وفضح بنيه طول الدهر ، وتعدى إلى أبي سفيان فقذفه بالزنا وسب ولده ، وهرب من سجستان وطلبتـُه حتى لفظته الأرض،وهرب من الشام يتمضغ لحومنا ويهتك أعراضنا ، وقد بعثت إليك بما قد هجانا به لتنتصف لنا منه . ثم بعث بجميع ما قاله ابن مفرغ فيهم ، فأمر يزيد بطلبه ، فجعل يتنقل في البلاد حتى لفظته الشام ، فأتى البصرة ونزل على الأحنف بن قيس – قلت : وهو الذي يضرب به المثل في الحلم، وقد سبق ذكره واسمه الضحاك [3] – قال : فاستجار

---

١ الأغاني : ١٨٧ .

٢ النقل مستمر عن الأغاني : ١٨٨ .

٣ انظر ج ٢ : ٤٩٩ .

به ، فقال له الأحنف : إنّي لا أجير على ابن سُمية فأغرك ، وإنّما يجير الرجل على عشيرته وأمّا على سلطانه فلا . ثم إنّه مشى على غيره فلم يجره أحد ، فأجاره المنذر بن الجارود العبدي ، وكانت ابنته تحت عبيد الله بن زياد ، وكان المنذر من أكرم الناس عليه ، فاغترّ بذلك وأدلّ بموضعه منه ، وطلبه عبيد الله وقد بلغه وروده البصرة، فقيل له: أجاره المنذر بن الجارود، فبعث عبيد الله إلى المنذر فأتاه ، فلما دخل عليه بعث عبيد الله بالشرط فكبسوا داره وأتوه بابن مفرغ ، فلم يشعر ابن الجارود إلا بابن مفرغ قد أقيم على رأسه ، فقام ابن الجارود إلى عبيد الله فكلمه فيه ، فقال: أذكّرك الله أيها الأمير أن تُخفر جواري فإنّي قد أجرته ، فقال عبيد الله : يا منذرُ ، اللهَ ، ليمدحن أباك ويمدحنك وقد هجاني وهجا أبي ثم تجيره علي ! ! لاها الله ، لا يكون ذلك أبداً و لا أغفرها له ، فغضب المنذر ، فقال له : لعلك تدلي بكريمتك عندي ، إن شئت والله لأبيتها[1] بتطليق البتة ؛ فخرج المنذر من عنده .

وأقبل عبيد الله على ابن مفرغ فقال له : بئس ما صحبت به عباداً ، فقال : بل بئس ما صحبني عباد ، اخترته على سعيد بن عثمان وأنفقت على صحبته جميع ما أملكه ، وظننت أنّه لا يخلو من عقل زياد وحلم معاوية وسماحة قريش ، فعدل عن ظني كله ، ثم عاملني بكل قبيح وتناولني بكل مكروه من حبس وغُرم وشتم وضرب ، فكنت كمن شام بَرْقاً خُلّباً في سحاب جهام فأراق ماءه طمعاً فيه فمات عطشاً ، وما هربت من أخيك إلا لما خفت أن يجري فيّ ما يندم عليه ، وقد صرت الآن في يديك فشأنك فاصنع بي ما شئت . فأمر بحبسه وكتب إلى يزيد بن معاوية يسأله أن يأذن له في قتله ، فكتب إليه يزيد : إياك وقتله ، ولكن تناوله بما ينكله ويشد سلطانك ولا يبلغ نفسه ، فإن له عشيرة هي جندي وبطانتي ولا ترضى بقتله مني ولا تقنع إلا بالقود منك ، فاحذر ذلك واعلم أنّه الجد منهم ومني وأنك مرتهن بنفسه ، ولك في دون تلفها مندوحة تشفي من الغيظ . فورد الكتاب على عبيد الله ، فأمر بابن مفرغ فسقي نبيذاً حلواً قد خلط معه الشُّبْرُم ، وقيل التَّرْبِذ[2] فأسهل بطنه فطيف به وهو على

---

١ ر : لأبنتها ، وفي الأغاني : لابينها .

٢ التربذ : راسب زئبقي أصفر .

تلك الحال، وقرن بهرة وخنزيرة، فجعل يسلح والصبيان يتبعونه ويصيحون، وألح عليه ما يخرج منه حتّى أضعفه فسقط ، فقيل لعبيد الله : لا نأمن أن يموت ، فأمر به أن يغسل ، ففعلوا ، فلما اغتسل قال :

يغسلُ المـاءُ ما فعلتَ وقولي   راسخٌ منك في العظام البوالي

فرده عبيد الله إلى الحبس ، وقيل لعبيد الله : كيف اخترت له هذه العقوبة ؟ فقال : لأنّه سلح علينا ، فأحببت أن تسلح الخنزيرةُ عليه .

وكان مما قاله ابن مفرغ في عباد بن زياد من جملة أبيات عديدة :

إذا أودى معاوية بنُ حرب   فبشّر شَعْبَ قَعْبكَ بانصداعِ
فأشهدُ أن أمك لم تباشرْ   أبا سفيان واضعةَ القنـاع
ولكن كان أمراً[1] فيه لبسٌ   على وجلٍ شديدٍ وارتيـاع

وقال أيضاً :

ألا أبلغ معـاويةَ بنَ صخرٍ   مغلغلة عن الرجل اليمـاني
أتغضب أن يقالَ أبوك عفٌّ   وترضى أن يقالَ أبوك زاني
فأشهدُ أن رِحْمكَ من زياد   كرحم الفيل من ولد الأتـان
وأشهد أنهـا ولدت زياداً   وصخرٌ من سميةَ غيرُ دان

قلت ، قوله : فأشهد أن رحمك من زياد ، البيت الثالث ، أخذه من قول أبي الوليد ، وقيل أبي عبد الرحمن ، حسان بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه ، في بيت من جملة أبيات وهي قوله[2] :

لعمرك إن إلّكَ من قريشٍ   كإلّ السَّقْب من رألِ النعامِ

الإل : بكسر الهمزة وتشديد اللام ، وهو الرحم ، والسقب : بفتح السين

---

١ بهامش المسودة : خ : امر .
٢ ديوان حسان : ٢١٦ .

المهملة وسكون القاف وبعدها باء موحدة ، وهو الذكر من ولد الناقة ، والرأل : بفتح الراء وبعدها همزة وفي آخره لام ، وهو ولد النعام .

(340) وهذه الأبيات قالها حسان في أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن هاشم، وهو ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان أخاه من الرضاعة، أرضعتهما حليمة ابنة أبي ذؤيب السعدية، وكان من أكثر الناس شَبَهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان له فيه هجاء ، وكان حسان يجاوب عنه ، فمن ذلك هذه الأبيات الميمية – المقدم ذكرها – ، ومنها قوله[1] :

ألا أبلغ أبا سفيان عني	مغلغلةً فقد بَرِح الخفاءُ
هجوتَ محمداً فأجبتُ عنه	وعند الله في ذاك الجزاء
أتهجوه ولستَ له بكفءٍ	فشرّكما لخيركما الفداء
فإن أبي ووالدَهُ وعرضي	لعرض محمدٍ منكم وقاء

وقوله : فشركما لخيركما الفداء ، فيه كلام لأهل العلم لأجل شر وخير لأنهما من أداة التفضيل ، وتقتضي المشاركة .

وإنّما أجابه حسان بأمر النبي صلى الله عليه وسلّم له في ذلك .

قلت : والجماعة الذين كانوا يشبهون رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهله خمسة : أبو سفيان المذكور والحسن بن علي بن أبي طالب وجعفر بن أبي طالب وقُثَم بن العباس بن عبد المطلب والسائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم ابن المطلب بن عبد مناف ، وهو جد الإمام الشافعي ، رضي الله عنهم أجمعين .

ثم إن أبا سفيان أسلم عام الفتح ، وكان ذلك في السنة الثامنة من الهجرة ، وحسن إسلامه ، وخرج مع النبي صلى الله عليه وسلّم إلى الطائف وحُنين . ولمّا انهزم المسلمون يوم حنين كان أبو سفيان أحد السبعة الذين ثَبَتُوا مع النبي صلى الله عليه وسلّم حتى رجع إليهم المسلمون وكانت النصرة لهم وكسبوا من الغنائم ستة آلاف رأس من الرقيق . ثم منّ النبي صلى الله عليه وسلّم عليهم فأطلقهم ، والشرح في ذلك يطول وليس هذا موضعه . وكان أبو سفيان

---

١ ديوان حسان : ٩ .

المذكور يومئذ ممسكاً لجام بغلة النبي صلى الله عليه وسلّم ، ولم يفارقها ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إنّي لأرجو أن يكون فيه خلف من حمزة بن عبد المطلب ، وشهد له بالجنة فقال : أبو سفيان بن الحارث من شباب أهل الجنة ، أو سيد فتيان أهل الجنة ، والله أعلم . وأكثر العلماء يقولون : اسمه كنيته ليس له اسم سواها ، وقيل إن اسمه المغيرة ، وقيل المغيرة أخوه ، وهو أبو سفيان لا غير . ويقال إنّه ما رفع رأسه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ أسلم حياء منه لما تقدم من هجائه .

رجعنا إلى حديث ابن مفرغ :

وهو من شعراء الحماسة ، وهو القائل [1] :

ألا طرقتنا آخِرَ اللّيلِ زينبُ عليكِ سلامٌ هل لما فات مطلبُ

قيل أراد بالليل الشباب .

وقالت تجنبنا ولا تَقْرَبَنّنا فكيف وأنتم حاجتي أتجنّبُ

يقولون : هل بعد الثلاثين ملعبٌ فقلتُ : وهل قبل الثلاثين ملعب

لقد جلّ خطبُ الشيب إن كان كلّما بدتْ شيبةٌ يعرى من اللهو مركب

وذكر المظفّري [2] الأندلسي في تاريخه الكبير في جملة هذه الأبيات :

فلو أن لحمي إذ وهى لعبتْ به كرامُ ملوكٍ أو أُسودٌ وأذؤب

لهوّنَ من وجدي وسلّى مصيبتي ولكنّما أودى بلحميَ أكْلُب

---

١ لم يرد منها في س بر من إلا البيتان الأولان وبقيتها مزيدة في هامش المسودة بخط المؤلف في تاريخ متأخر ، وانظر ديوانه : ٤٤ .

٢ ق : المظفر ، والمظفري بخط المؤلف ، والمظفر أصوب ، وهو محمد بن عبد الله ، أحد بني الأفطس حكام بطليوس في عهد ملوك الطوائف بالأندلس ، وله تأليف كبير اسمه « المظفري » قيل انه في نحو خمسين مجلداً .

(341) ولمّا بلغ الحسينَ بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنهما، وفاة معاوية ابن أبي سفيان وبيعة ولده يزيد بن معاوية عزم على قصد الكوفة بمكاتبة جماعة من أهلها كما هو مشهور في هذه الواقعة التي قتل فيها الحسين رضي الله عنه، فكان في تلك المدة يتمثل كثيراً بقول يزيد بن مفرغ المذكور من جملة أبيات [1] :

لا ذَعَرتُ السّوامَ في غَلَسِ الصبـ ـح مغيراً ولا دُعِيتُ [2] يزيدا
يومَ أُعطي على المخافة ضيماً والمنايا يرصدنني أن أحيدا

فعلم مَنْ سمع ذلك منه أنّه سينازع [3] يزيد بن معاوية في الأمر. فخرج الحسين إلى الكوفة وأميرها يومئذ عبيد الله بن زياد، فلما قرب منها سير إليه جيشاً مقدمه عمر بن سعد بن أبي وقاص، رضي الله عنه [4] فقتل الحسين رضي الله عنه بالطّف، وجرى ما جرى.

وروي أن معاوية بن أبي سفيان كتب إلى الحسين رضي الله عنه: إنّي لأظن في رأسك نزوة، ولا بد لك من إظهارها، وددت لو أدركتها فأغتفرها لك [5]. وروي عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه أنّه قال: لو كنت من قتلة الحسين وغفر الله لي وأدخلني الجنّة لما دخلتها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقال عبيد الله بن زياد لحارثة بن بدر الغُداني: ما تقول فيّ وفي الحسين يوم القيامة؟ قال: يشفع له أبوه وجده صلى الله عليه وسلّم، ويشفع لك أبوك وجدك، فاعرف من هاهنا ما تريد.

نقلت من كتاب تاريخ شمس الدين أبي المظفر يوسف بن قُزُغْلي المعروف بسبط الحافظ جمال الدين أبي الفرج ابن الجوزي الواعظ الذي سمّاه «مرآة الزمان» ورأيته بخطّه في أربعين مجلداً بدمشق، وقد رتبه على السنين فقال، في السنة التاسعة والخمسين للهجرة، بعد أن قص حديث يزيد بن مفرغ مع بني

---

١ ديوانه: ٧٢.
٢ ق ع والمختار: دعوت.
٣ المختار: ينازع.
٤ المختار: عن أبيه؛ ولم يرد الدعاء في س بر من.
٥ هنا تعليق لابن المؤلف سقط لضياع أوراق.

زياد ، فقال في آخر الحديث : ومات يزيد بن مفرغ في سنة تسع وستين يعني للهجرة ، والله أعلم .

وقال أبو اليقظان في كتاب « النسب » : مات عباد بن زياد في سنة مائة للهجرة بجَرُود .

قلت ، وجرود[1] : بفتح الجيم وضم الراء وسكون الواو وبعدها دال مهملة ، وهي قرية من أعمال دمشق من جهة حمص ، ويكون في أرضها من حمير الوحش شيء كثير يجاوز الحصر ، ولمّا وصل بعض عسكر الديار المصرية إلى الشام في أثناء سنة ستين وستمائة وتوجهوا بعسكر الشام إلى أنطاكية ، وكنت يومئذ بدمشق ، أقاموا عليها قليلاً ، ثم عادوا فدخلوا دمشق في سلخ شعبان من السنة ، وأخبرني بعضهم بقضية غريبة يصلح أن تذكر هاهنا لغرابتها ، وهي أنهم نزلوا على جرود المذكورة ، واصطادوا من الحمر الوحشية شيئاً كثيراً على ما قالوا ، فذبح واحد من الجماعة حماراً وطبخ لحمه الطبخ المعتاد ، فلم ينضج ولا قارب النضج ، فزاد في الحطب والإيقاد فلم يؤثر فيه شيئاً ، ومكث يوماً كاملاً يفعل ذلك وهو لا يفيد ، فقام شخص من الجند وأخذ الرأس يقلبه فوجد على أذنه وسماً فقرأه ، فإذا هو « بهرام جور » فلما وصلوا إلى دمشق أحضروا تلك الأذن عندي ، فوجدت الوسم ظاهراً ، وقد رق شعر الأذن إلى أن بقي كالهباء[2] وبقي موضع الوسم أسود ، وهو بالقلم الكوفي .

(342) وهذا بهرام جور من ملوك الفرس ، وكان قبل مبعث النبي صلى الله عليه وسلّم بزمان طويل ، وكان من عاداته أنّه إذا كثر عليه ما يصطاده وسمَهُ وأطلقه ، والله أعلم كم كان عمر الحمار لما وسمه ، والله يعلم لو تركوه ولم يذبحوه كم كان يعيش . وعلى الجملة فإن حمار الوحش من الحيوانات المعمرة ، وهذا الحمار لعله عاش ثمانمائة سنة أو أكثر .

وهذه جرود في أرضها جبل المدخّن المشهور ، وقد ذكره أبو نواس في قصيدته التي ذكر فيها المنازل لما قصد الخصيب بمصر فقال[3] :

---

١ سقط هذا الضبط من س ، وكذلك قصة حمار الوحش وبهرام جور .

٢ ر : مثل الهباء .   ٣ ديوان أبي نواس : ١٠٠ .

ووافينَ إشراقاً كنائسَ تدمرٍ وهُنّ إل رُعْنِ المدخّنِ صُور

والمدخن : بضم الميم وبالدال المهملة وفتح الخاء المعجمة المشددة وبعدها نون ، وسمي المدخن لأنّه لا يزال عليه مثل الدخان من الضباب .

ثم بعد هذا وجدت في كتاب « مفاتيح العلوم » [1] تأليف محمد بن أحمد بن محمد بن يوسف الخوارزمي أن بهرام جور بن بهرام بن سابور الجنود بن سابور ذي الأكتاف ، سمي بهرام جور لأنّه كان مولعاً بصيد العَيْر ، وهو الحمار الوحشي والأهلي أيضاً ، انتهى كلامه ؛ ثم إني حسبت مدة ملكهم بعد هذا فكانت إلى سنة الهجرة النبوية مقدار مائتين وست عشرة سنة ، فقد عاش هذا الحمار منذ وسمه بهرام جور إلى أن ذبح في سنة ستين وستمائة مقدار ثمانمائة سنة وأكثر ، والله أعلم [2] .

قلت : وقد تكرر في هذه الترجمة حديث زياد وبنيه وسُمَيّة وأبي سفيان ومعاوية ، وهذه الأشعار التي قالها يزيد بن مفرغ فيهم ، ومن لا يعرف هذه الأسباب قد يتشوف إلى الاطلاع عليها ، فنورد منها شيئاً مختصراً ، فأقول :

(343) إن أبا الجبر [3] الملك الذي ذكره أبو بكر ابن دريد في المقصورة المشهورة في البيت الذي يقوله فيها ، وهو [4] :

وَخامَرَتْ نفسُ أبي الجبرِ الجوَى حتى حَواهُ الحتفُ فيمنْ قدْ حوى

كان أحد ملوك اليمن واسمه كنيته ، وقيل هو أبو الجبر يزيد بن شُرَحْبيل الكندي ، وقيل أبو الجبر بن عمرو ، وتغلب عليه قومه فخرج إلى بلاد فارس يستجيش كسرى عليهم فبعث معه جيشاً من الأساورة ، فلما صاروا إلى كاظمة ونظروا إلى وحشة بلاد العرب وقلة خيرها قالوا : إلى أين نمضي مع هذا ؟

---

١ مفاتيح العلوم : ٦٥ .

٢ ثم بعد هذا وجدت . . . أعلم : سقط من ر س .

٣ أبا الخير في س .

٤ انظر شرح التبريزي للمقصورة .

فعمدوا إلى سم فدفعوه إلى طباخه ، ووعدُوه بالإحسان إليه إن ألقى ذلك السم في طعام الملك ففعل ذلك ، فما استقر الطعام في جوفه حتى اشتد وجعه ، فلما علم الأساورة ذلك دخلوا عليه فقالوا له : إنك قد بلغت إلى هذه الحالة ، فاكتب لنا إلى الملك كسرى أنك قد أذنت لنا في الرجوع ، فكتب لهم بذلك .

ثم إن أبا الجبر خف ما به، فخرج إلى الطائف، البُليدة التي بالقرب من مكة، وكان بها الحارث بن كَلَدَة طبيب العرب الثقفي ، فعالجه فأبرأه ، فأعطاه سمية — بضم السين المهملة وفتح الميم وتشديد الياء المثناة من تحتها وفي آخره هاء — وَعُبيداً — بضم العين المهملة تصغير عبد — وكان كسرى قد أعطاهما أبا الجبر في جملة ما أعطاه ، ثم ارتحل أبو الجبر يريد اليمن ، فانتقضت عليه العلة فمات في الطريق .

(344) ثم إن الحارث بن كَلَدَة الثقفي زَوَّجَ عبيداً المذكور سُمية المذكورة فولدت سمية زياداً على فراش عبيد ، وكان يقال له زياد بن عبيد ، وزياد بن سمية ، وزياد ابن أبيه ، وزياد ابن أمه ، وذلك قبل أن يستلحقه معاوية — كما سيأتي إن شاء الله تعالى — وولدت سُمية أيضاً أبا بكرة نفيع بن الحارث بن كَلَدَة المذكور ، ويقال نفيع بن مسروح ، وهو الصحابي المشهور بكنيته رضي الله عنه ، وولدت أيضاً شبل بن معبد ونافع بن الحارث، وهؤلاء الإخوة الأربعة هم الذين شهدوا على المغيرة بن شعبة بالزنا — وسيأتي خبر ذلك بعد الفراغ من حديث زياد إن شاء الله تعالى — ؛ وكان أبو سفيان صخر بن حرب الأموي والد معاوية بن أبي سفيان يتهم في الجاهلية بالتردد إلى سمية المذكورة ، فولدت سُمية زياداً في تلك المدة ، لكنها ولدته على فراش زوجها عبيد . ثم إن زياداً كبر وظهرت منه النجابة والبلاغة ، وهو أحد الخطباء المشهورين في العرب بالفصاحة والدهاء والعقل الكثير حتى إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد استعمل أبا موسى الأشعري رضي الله عنه على البصرة ، فاستكتب زياد ابن أبيه . ثم إن زياداً قدم على عمر رضي الله عنه من عند أبي موسى ، فأعجب به عمر رضي الله عنه ، فأمر له بألف درهم، ثم تذكرها بعدما مضى فقال : لقد ضاع ألف أخذها زياد ، فلما

قدم عليه بعد ذلك قال له : ما فعل ألفك يا زياد ؟ قال : اشتريت بها عُبَيْداً فأعتقته ، يعني أباه ، قال : ما ضاع ألفك يا زياد ، هل أنت حامل كتابي إلى أبي موسى في عزلك عن كتابته ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين ، إن لم يكن ذلك عن سخطة ، قال : ليس عن سخطة ، قال : فلم تأمره بذلك ؟ قال : كرهت أن أحمل على الناس فضلَ عقلك .

واستكتب أبو موسى بعد زياد أبا الحصين ابن أبي الحرِّ العنبري ، فكتب إلى عمر رضي الله عنه كتاباً فلحن في حرف منه ، فكتب إليه أن قنِّعْ كاتبك سوطاً .

وكان عمر رضي الله عنه إذا وفد إليه من البصرة رجل أحبَّ أن يكون زياداً ليشفيه من الخبر . وكان عمر رضي الله عنه قد بعثه في إصلاح فساد وقع باليمن ، فرجع من وجهه ، وخطب خطبة لم يسمع الناس مثلها ، فقال عمرو ابن العاص : أما والله لو كان هذا الغلام من قريش لساق العرب بعصاه ، فقال أبو سفيان : والله إنّي لأعرف الذي وضعه في رحم أمه ، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : ومن هو يا أبا سفيان ؟ قال : أنا ، قال : مهلاً أبا سفيان ، فقال أبو سفيان :

أما والله لولا خوفُ شخصٍ ... يراني يا عليُّ من الأعادي
لأظهر سرَّه صخرُ بنُ حربٍ ... ولم يَكُنِ المقالةَ عن زياد
وقد طالت مجاملتي ثقيفاً ... وتركي فيهم ثمرَ الفؤاد

فلما صار الأمر إلى علي رضي الله عنه وجه زياداً إلى فارس ، فضبط البلاد وحمى وجبى وأصلح الفساد ، فكاتبه معاوية يروم إفساده على علي ، رضي الله عنه ، فلم يفعل ووجّه بكتابه إلى عليّ وفيه شعر تركته ، فكتب إليه علي : إنما وليتك ما وليتك وأنت أهلٌ لذلك عندي ، ولن تدرك ما تريده ممّا أنت فيه إلا بالصبر واليقين ، وإنّما كانت من أبي سفيان فلتة زمن عمر رضي الله عنه لا تستحقّ بها نسباً ولا ميراثا ، وإن معاوية يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه فاحذره ثم احذره ، والسلام . فلما قرأ زياد الكتاب قال : شهد لي أبو الحسن

وَرَبِّ الكعبة ، فذلك الذي جرّأ زياداً ومعاوية على ما صنعا [1] .

فلما قتل علي رضي الله عنه وتولى ولده الحسن رضي الله عنه ، ثمّ فوّض الأمر إلى معاوية كما هو مشهور ، أراد معاوية استمالة زياد إليه وقصد تأليف قلبه ليكون معه كما كان مع علي ، رضي الله عنه ، فتعلق بذلك القول الذي صدر من أبيه بحضرة علي وعمرو بن العاص ، فاستلحق زياداً في سنة أربع وأربعين للهجرة ، فصار يقال له زياد بن أبي سفيان . فلما بلغ أخاه أبا بكرة أن معاوية استلحقه وأنّه رضي ذلك حلف يميناً أن لا يكلمه أبداً ، وقال : هذا زنّى أُمه وانتفى من أبيه ، والله ما علمتُ سُمَيَّة رأت أبا سفيان قط ، ويله ما يصنع بأم حبيبة بنت أبي سفيان زوج النبي صلى الله عليه وسلّم ، أيريد أن يراها ، فإن حجبته فضحته وإن رآها فيا لها مصيبة، يهتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم حرمةً عظيمة . وحج زياد في زمن معاوية ودخل المدينة ، فأراد الدخول على أُم حبيبة لأنها أخته على زعمه وزعم معاوية ، ثم ذكر قول أخيه أبي بكرة ، فانصرف عن ذلك . وقيل إن أم حبيبة حجبته ولم تأذن له في الدخول عليها ، وقيل إنّه حج ولم يزر من أجل قول أبي بكرة ، وقال : جزى الله أبا بكرة خيراً ، فما يدع النصيحة على حال [2] . وقدم زياد على معاوية وهو نائب عنه

---

١ ر : فعلا .

٢ علق هنا صاحب المختار بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به : نقلت من خط والدي رضي الله عنه ما صورته : وفد على معاوية بن أبي سفيان وفد من بني مخزوم وفيهم رجل أعمى معروف بين العرب ، فوقفوا ببابه ينتظرون الإذن لهم في الدخول عليه ، فجاء زياد ابن أبيه يوماً ليدخل إلى معاوية فسلم فارتج له الباب ، فقال أعمى بني مخزوم : من الرجل ؟ فقيل له زياد بن أبي سفيان ، فقال : كذب والله ، إن أبا سفيان كان صديقي وأغشاه في كل وقت وأنا أعرف الناس به وببنيه وحاشاه من الزنا ، فمضى زياد إلى معاوية فقال له صد عني أعمى بني مخزوم فقال معاوية ولم ذلك ؛ قال : طعن في نسبي منك وأفسد في عقائد أهل الشام، فقال له معاوية : أعجزت عن قطع لسانه ، فانصرف إلى منزله ، وأرسل إلى أعمى بني مخزوم بألف دينار ، فلما كان من الغد جاء ليدخل على معاوية،فسلم على من بالباب ، وفيهم وفد بني مخزوم والأعمى فارتج له الباب ، فقال الأعمى : من المسلم ؟ فقيل زياد ، فبكى الأعمى ، فقيل له مم بكاؤك ؟ فقال : قد علمتم ما كان بيني وبين أبي سفيان رحمه الله من المودة والألفة وكنت أعرف منه بحة في حلقه وقد سمعتها من نغمة ولده زياد ، فذكرت عهده فبكيت . انتهى ما نقلته والله أعلم » .

وحمل معه هدايا جليلة ، من جملتها عقد نفيس ، فأعجب به معاوية ، فقال زياد : يا أمير المؤمنين ، دوخت لك العراق ، وجبيت لك برها وبحرها وحملت إليك لبها وسرَّها ، وكان يزيدُ بن معاوية جالساً فقال له : أما إنّك إذ فعلت ذلك فإنّا نقلناك من ثقيف إلى قريش ، ومن عُبَيْدٍ إلى أبي سفيان ، ومن القلم إلى المنابر ، فقال له معاويةُ : حسبك ، وَرِيتْ بكَ زنادي .

وقال أبو الحسن المدائني : أخبرنا أبو الزبير الكاتب عن ابن إسحاق قال : اشترى زياد أباه عُبيداً ، فقدم زياد على عمر رضي الله عنه ، فقال له : ما صنعت بأول شيء أخذت من عطائك ؟ قال : اشتريتُ به أبي ، قال : فأعجب ذلك عمر رضي الله عنه ، وهذا ينافي استلحاق معاوية إياه ، والله أعلم .

ولمّا ادعى معاوية زياداً دخل عليه بنو أمية ، وفيهم عبد الرحمن بن الحكم أخو مروان بن الحكم الأموي ، فقال : يا معاوية ، لو لم تجد إلا الزنج لاستكثرت بهم علينا قلةً وذلة ، فأقبل معاوية على أخيه مروان بن الحكم وقال : أخرجْ عنا هذا الخليع ، فقال مروان : والله إنّه لخليعٌ ما يطاق ، قال معاوية : والله لولا حلمي وتجاوزي لعلمت أنّه يطاق ، ألم يبلغني شعره فيّ وفي زياد ؟ ثم قال لمروان : أسمعنيه ، فقال :

ألا أبلغ معاويةَ بن صخر ... لقد ضاقتْ بما تأتي اليدانِ
أتغضبُ أن يقالَ أبوك عفٌّ ... وترضى أن يقالَ أبوكَ زانِ

وقد تقدم ذكر بقية هذه الأبيات منسوبةً إلى يزيد بن مفرغ ، وفيها خلاف هل هي ليزيد بن مفرغ أم لعبد الرحمن بن الحكم ، فمن رواها لابن مفرغ روى البيت الأول على تلك الصورة ، ومن رواها لعبد الرحمن رواها على هذه الصورة .

ولمّا استلحق معاوية زياداً وقرّبه وأحسن إليه وولاه ، صار من أكبر الأعوان على بني علي بن أبي طالب ، رضي الله عنهُ ، حتى قيل إنّه لمّا كان أمير العراقين طلب رجلاً من أصحاب الحسن بن علي رضي الله عنهما يعرف بابن سَرْح وكان في الأمان الذي كتب لأصحاب الحسن رضي الله عنه لمّا نزل

عن الخلافة لمعاوية ، فكتب الحسنُ إلى زياد : من الحسن إلى زياد ، أما بعد ، فقد علمت ما كنا أخذنا لأصحابنا من الأمان ، وقد ذكر لي ابنُ سَرْح أنك عرضت له فأحب أن لا تعرض له إلا بخير ، والسلام . فلما أتاه الكتابُ وقد بدأ فيه بنفسه ، ولم ينسبه إلى أبي سفيان غضب وكتب إليه : من زياد ابن أبي سفيان إلى الحسن ، أما بعد ، فإنّه أتاني كتابك في فاسق تؤويه الفساق من شيعتك وشيعة أبيك ، وايم الله لأطلبنه ولو كان بين جلدك ولحمك ، وإنّ أحبّ الناس إليّ لحماً أن آكله للحم أنت منه . فلما قرأه الحسن رضي الله عنه بعث به إلى معاوية ، فلما قرأه غضب وكتب إلى زياد : من معاوية بن أبي سفيانَ إلى زياد ، أما بعد ، فإن الحسن بن عليّ بعث إليّ كتابك إليه، جوابَ كتابه كان إليك في ابن سرح ، فأكثرتُ التعجب منه ، وقد علمت أن لك رأيين : رأيٌ من أبي سفيان ، ورأيٌ من سمية ، فأمّا رأيك من أبي سفيان فحلم وحزم ، وأما رأيك من سُمَيَة فكما يكون رأي مثلها ، ومن ذلك كتابك إلى الحسن تسمّيه وتعرض له بالفسق ، ولعمري لأنت أولى بذلك منه ، فإن كان الحسن بدأ بنفسه ارتفاعاً عنك فإن ذلك لن يضعك ، وأمّا تركك تشفيعه فيما شفع فيه إليك فحظ دفعته عن نفسك إلى مَنْ هو أولى به منك ، فإذا أتاك كتابي فخلّ ما بيدك لابن سرح ولا تعرض له فيه ، فقد كتبت إلى الحسن يخيّره : إن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده ، وإنّه ليس لك عليه سبيل بيد ولا لسان . وأمّا كتابك إلى الحسن باسمه ولا تنسبه إلى أبيه ، فإن الحسن ويحك ممن لا يرمى به الرّجوَان ، أفاستصغرت أباه ، وهو عليّ ابن أبي طالب ؟ أم إلى أُمّه وكلته وهي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فذلك أفخر له إن كنت[1] عقلت ، والسلام .

قوله : لا يرمى به الرّجوان ، بفتح الراء الجيم ، وهو لفظ مثنى ، ومعناه المهالك .

قلت : وقد رُوِيَتْ هذا الحكاية على صورة أُخرى وهي[2] : كان سعيد

---

١ ر : فالآن حين فخرت له لو .

٢ كان المؤلف قد زاد هذه الرواية في ورقة منفصلة وكتب عندها « تكتب هذه الورقة بعد الملحق في الحاشية » ولكن النسخة س لم توردها .

ابن سرح مولى كريز بن حبيب بن عبد شمس من شيعة عليّ بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، فلما قدم زياد ابن أبيه الكوفة والياً عليها أخافه وطلبه ، فأتى المدينة فنزل على الحسين بن عليّ ، رضي الله عنه، فقال له الحسين : ما السبب الذي أشخصك وأزعجك ؟ فذكر له قضيته وصنيع زياد به ، فكتب إليه الحسين : أما بعد فإنّك عمدت إلى رجل من المسلمين ، له ما لهم وعليه ما عليهم ، فهدمت داره وأخذت ماله وعياله ، فإذا أتاك كتابي هذا فابن له داره واردد عليه ماله وعياله ، فإنّي قد أجرته فشفّعني فيه ، فكتب إليه زياد : من زياد بن أبي سفيان إلى الحسين بن فاطمة ، أمّا بعد ، فقد أتاني كتابك تبدأ فيه باسمك قبل اسمي وأنت طالب حاجة، وأنا سلطان وأنت سوقة، وكتابك إلي في فاسق لا يؤويه إلا فاسق مثله ، وشر من ذلك توليه أباك ، وقد آويتَه إقامةً منك على سوء الرأي ورضًى بذلك ، وايم الله لا تسبقني إليه ولو كان بين جلدك ولحمك ، فإن أحبَّ لحم إلي أن آكله للحم أنت منه ، فأسْلِمْهُ بجريرته إلى من هو أولى به منك ، فإن عفوت عنه لم أكن شفّعتك ، وإن قتلته لم أقتله إلا بحبه أباك[1] .

فلما قرأ الحسين ، رضي الله عنه الكتاب كتب إلى معاوية يذكر له حال ابن سرح وكتابه إلى زياد فيه وإجابة زياد إياه ، ولف كتابه في كتابه وبعث به إليه ، وكتب الحسين إلى زياد : من الحسين بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلّم إلى زياد بن سمية عبد بني ثقيف « الولد للفراش وللعاهر الحجر » . فلما قرأ معاوية كتاب الحسين ، رضي الله عنه ، ضاقت به الشام ، وكتب إلى زياد : أما بعد ، فإن الحسين بن علي بعث إلي بكتابك جواب كتابه إليك في ابن سرح ، فأكثرت التعجب منه ، وعلمت أن لك رأيين : أحدهما من أبي سفيان وآخر من سمية ، فأمّا الذي من أبي سفيان فحلم وحزم ، وأمّا الذي من سمية فكما يكون رأي مثلها ، ومن ذلك كتابك إلى الحسين تشتم أباه وتعرض له بالفسق ، ولعمري لأنت أولى بالفسق من الحسين ، ولأبوك إذ كنت تنسب إلى عُبيد أولى بالفسق من أبيه ، وإن كان الحسين بدأ بنفسه ارتفاعاً عنك فإن ذلك لم يضعك ، وأما تشفيعه فيما شفع إليك فيه فحظ دفعته عن نفسك إلى من هو أولى به منك ، فإذا قدم عليك كتابي هذا فخلِّ ما في يدك لسعيد بن سرح ، وابن له

داره ولا تُعْذِرْ له واردد عليه ماله ، فقد كتبت إلى الحسين أن يُخْبِرَ صاحبه بذلك ، فإن شاء أقام عنده وإن شاء رجع إلى بلده ، فليس لك عليه سلطان بيد ولا لسان ، وأمّا كتابك إلى الحسين باسمه واسم أمه ، لا تنسبه إلى أبيه فإن الحسين ، ويلك ، ممن لا يرمى به الرجوان [1] ، أإلى أمه وكلته لا أم لك ؟ فهي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلك أفخر له إن كنت تعقل ، والسلام .

وقال عبيد الله بن زياد : ما هجيت بشيء أشد علي من قول ابن مفرغ [2] :

فكرْ ففي ذاكَ إنْ فكرتَ مُعتبرٌ هَلْ نِلْتَ مَكرُمَةً إلا بتأميرِ
عاشَتْ سُمية ما عاشَتْ وما علمتْ أنَّ ابنها مِنْ قُرَيْشٍ في الجماهير

وقال قتادة ، قال زياد لبنيه وقد احتضر : ليت أباكم كان راعياً في أدناها وأقصاها ولم يقع بالذي وقع به .

قلت : فبهذا الطريق كان ينظم ابن مفرغ هذه الأشعار في زياد وبنيه ويقول إنهم أدعياء ، حتى قال في زياد وأبي بكرة ونافع أولاد سمية [3] :

إن زياداً ونافعاً وأبا بكرةَ عندي من أعجبِ العجبِ
هُمُ رجالٌ ثلاثةٌ خلقوا في رحم أنثى وكلّهم لأب
ذا قرشيٌّ كما يقولُ ، وذا مولى ، وهذا بِزَعْمِهِ عربي

(345) وهذه الأبيات تحتاج إلى زيادة إيضاح فأقول ، قال أهل العلم بالأخبار : إن الحارث بن كلدة بن عمرو بن علاج بن أبي سلمة بن عبد العزى بن غِيَرَة ابن عوف بن قَسّي ، وهو ثقيف — هكذا ساق هذا النسب ابن الكلبي في كتاب « الجمهرة » — وهو طبيب العرب المشهور ، ومات في أوّل الإسلام ، وليس يصح إسلامه ؛ وروي أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أمر سعد بن أبي وقاص

---

[1] بعده في المختار : أفاستصغرت أباه وهو علي بن أبي طالب أم إلى أمه . . . الخ .
[2] ديوان ابن مفرغ : ٨٥ .
[3] قد سها جامع الديوان عن إدراج هذه الأبيات فيه ، وانظر الشعر والشعراء : ٢٨٠ .

أن يأتي الحارث يستوصفه في مرض نزل به ، فدل ذلك على أنّه جائز أن يشاور أهل الكفر في الطب إذا كانوا من أهله . وكان ولده الحارث بن الحارث من المؤلفة قلوبهم ، وهو معدود في جملة الصحابة ، رضي الله تعالى عنهم ؛ ويقال إن الحارث بن كلدة كان رجلاً عقيماً لا يولد له ، وإنّه مات في خلافة عمر رضي الله عنه .

(346) ولما حاصر رسول الله صلى الله عليه وسلم الطائف ، قال : أيما عبد تدلى إليّ فهو حر ، فنزل أبو بكرة رضي الله عنه من الحصن في بَكْرة — . قلت : وهي بفتح الباء الموحدة وسكون الكاف وبعدها راء ثم هاء ، وهي التي تكون على البئر ، وفيها الحبل يستقى به ، والناس يسمونها بكرة ، بفتح الكاف ، وهو غلط ، إلا أن صاحب كتاب « مختصر العين » حكاها بالفتح أيضاً ، وهي لغة ضعيفة لم يحكها غيره — ، قال : فكناه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكرة لذلك ، وكان يقول : أنا مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأراد أخوه نافع أن يدلي نفسه في البكرة أيضاً ، فقال له الحارث بن كلدة : أنت ابني فأقم ، فأقام ونسب إلى الحارث ، وكان أبو بكرة قبل أن يحسن إسلامه ينسب إلى الحارث أيضاً . فلما حسن إسلامه ترك الانتساب إليه . ولمّا هلك الحارث بن كلدة لم يقبض أبو بكرة من ميراثه شيئاً تورعاً ، هذا عند من يقول : إن الحارث أسلم ، وإلا فهو محروم من الميراث لاختلاف الدين[1] .

فلهذا قال ابنُ مفرغ الأبيات الثلاثة البائية ، لأن زياداً ادعى أنّه قرشي باستلحاق معاوية له ، وأبو بكرة اعترف بولاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونافع كان يقول إنّه ابن الحارث بن كلدة الثقفي ، وأمهم واحدة ، وهي سمية المذكورة . وهذا سبب نظم البيتين في آل أبي بكرة — كما تقدم ذكره — وعلاج جد الحارث بن كلدة كما ذكرته .

---

[1] علق هنا صاحب المختار بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به ، وهذا عند من يقول إنه مات متأخراً في خلافة عمر ، ولا يصح على رواية من يقول إنه مات في أول الإسلام ، فإن غزوة الطائف كانت متأخرة في أواخر مدة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم » .

هذه قصة زياد وأولاده ذكرتها مختصرة . قلت : إلا أن قول ابن مفرغ في البيت الثاني « وكلهم لأب » ، ليس بجيد ، فإن زياداً ما نسبه أحد إلى الحارث ابن كلدة ، بل هو ولد عبيد ، لأنّه ولد على فراشه . وأمّا أبو بكرة ونافع فقد نسبا إلى الحارث ، فكيف يقول : « وكلهم لأب » فتأمله .

وذكر ابن النديم في كتابه الذي سماه « الفهرست »[1] : أن أول من ألف كتاباً في المثالب زياد ابن أبيه ، فإنّه لما طعن عليه وعلى نسبه عمل ذلك لولده ، وقال لهم : استظهروا به على العرب فإنّهم يكفون عنكم .

وأمّا حديث المغيرة بن شعبة الثقفي والشهادة عليه ، فإن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان قد رتب المغيرة أميراً على البصرة ، وكان يخرج من دار الإمارة نصف النهار ، وكان أبو بكرة المذكور يلقاه فيقول : أين يذهب الأمير ؟ فيقول : في حاجة ، فيقول : إن الأمير يزار ولا يزور .

قالوا : وكان يذهب إلى امرأة يقال لها أم جميل بنت عمرو ، وزوجها الحجاج بن عتيك بن الحارث بن وهب الجشمي . وقال ابن الكلبي في كتاب « جمهرة النسب » : هي أم جميل بنت الأفقم بن محجن بن أبي عمرو بن شُعَيثة[2] ابن الهُزَم ، وعدادهم في الأنصار . وزاد غير ابن الكلبي فقال : الهزم بن رُؤيْبة ابن عبد الله بن هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن ، والله أعلم .

قال الراوي : فبينما أبو بكرة في غرفة مع إخوته ، وهم نافع وزياد المذكوران وشبل بن معبد ، والجميع أولاد سمية المذكورة فهم إخوة لأم ، وكانت أم جميل المذكورة في غرفة أخرى قبالة هذه الغرفة ، فضربت الريح باب غرفة أم جميل ففتحته ، ونظرْ القوم فإذا هم بالمغيرة مع المرأة على هيئة الجماع ، فقال أبو بكرة : هذه بلية قد ابتليتم بها فانظروا ، فنظروا حتى أثبتوا ، فنزل أبو بكرة فجلس حتى خرج عليه المغيرة من بيت المرأة فقال له : إنّه قد كان من أمرك ما قد علمت فاعتزلنا ، قال : وذهب المغيرة ليصلي بالناس الظهر ،

---

١ الفهرست : ٨٩ .

٢ ع ق س : شعبة ، وأثبتنا ما في المسودة .

ومضى أبو بكرة فقال : لا والله لا تصلّي بنا وقد فعلت ما فعلت ، فقال الناس : دعوه فليصلّ فإنّه الأمير ، واكتبوا بذلك إلى عمر رضي الله عنه ، فكتبوا إليه ، فأمرهم أن يقدموا عليه جميعاً المغيرة والشهود ، فلما قدموا عليه جلس عمر رضي الله عنه ، فدعا بالشهود والمغيرة فتقدم أبو بكرة فقال له : رأيتَه بين فخذيها ؟ قال : نعم والله لكأنّي أنظر إلى تشريم جُدَريّ بفخذيها ، فقال له المغيرة : لقد ألطفت في النظر ، فقال أبو بكرة : لم آلُ أن أثبتَ ما يخزيك الله به ، فقال عمر رضي الله عنه : لا والله حتّى تشهد لقد رأيته يلج فيها ولوجَ المرود في المُكْحلة ، فقال : نعم أشهد على ذلك ، فقال : فاذهب عنك مغيرة ذهب رُبْعك ، ثم دعا نافعاً فقال له : علام تشهد ؟ قال : على مثل شهادة أبي بكرة ، قال : لا ، حتّى تشهد أنّه ولج فيها ولوج الميل في المكحلة ، قال : نعم حتى بلغ قُذَذَه — قلت ، القذذ : بالقاف المضمومة وبعدها ذالان معجمتان وهي ريش السهم — قال الراوي : فقال له عمر رضي الله عنه : اذهب مغيرة ذهب نصفك ، ثم دعا الثالث فقال له : على ما تشهد ؟ فقال : على مثل شهادة صاحبيّ ، فقال له عمر رضي الله عنه : اذهب عنك مغيرة ذهب ثلاثة أرباعك . ثم كتب إلى زياد ، وكان غائباً فقدم ، فلما رآه جلس له في المسجد واجتمع عنده رؤوس المهاجرين والأنصار ، فلما رآه مقبلاً قال : إنّي أرى رجلاً لا يخزي الله على لسانه رجلاً من المهاجرين . ثم إن عمر رضي الله عنه رفع رأسه إليه فقال : ما عندك يا سلح الحبارى ؟ فقيل إن المغيرة قام إلى زياد فقال : لا مخبأ لعطر بعد عروس[1] — قلت : وهذا مثل للعرب لا حاجة إلى الكلام عليه، فقد طالت هذه الترجمة كثيراً — . قال الراوي : فقال له المغيرة : يا زياد ، اذكر الله تعالى واذكر موقف يوم القيامة ، فإن الله تعالى وكتابه ورسوله وأمير المؤمنين قد حقنوا دمي ، إلا أن تتجاوز إلى ما لم تر ممّا رأيت ، فلا يحملنك سوء منظر رأيته على أن تتجاوز إلى ما لم تر ، فوالله لو كنت بين بطني وبطنها ما رأيت أن[2] يسلك ذكري فيها ، قال فدمعت عينا زياد واحمر وجهه وقال : يا أمير

---

١ انظر في هذا المثل فصل المقال : ٤٢٦ (ط . بيروت) .

٢ س ق ع والمختار : أين ؛ ر : أن سلك .

المؤمنين ، أما إن أحق ما حقّ القوم فليس عندي ، ولكن رأيت مجلساً وسمعت نفساً حثيثاً وانتهازاً ورأيته مستبطنها ، فقال عمر رضي الله عنه : رأيته يدخل كالميل في المكحلة ؟ فقال : لا ، وقيل قال زياد : رأيته رافعاً رجليها فرأيت خصيه تتردد إلى بين فخذيها ورأيت حفزاً شديداً وسمعت نفساً عالياً[1] ، فقال عمر رضي الله عنه : رأيتَ يدخله ويخرجه كالميل في المكحلة ؟ فقال : لا ، فقال عمر رضي الله عنه : الله أكبر قم إليهم فاضربهم ، فقام إلى أبي بكرة فضربه ثمانين وضرب الباقين ، وأعجبه قول زياد ، ودرأ الحد عن المغيرة . فقال أبو بكرة بعد أن ضرب : أشهد أن المغيرة فعل كذا وكذا ، فهمّ عمر رضي الله عنه أن يضربه حداً ثانياً ، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه : إن ضربته فارجم صاحبك ، فتركه . واستتاب عمر أبا بكرة فقال : إنّما تستتيبني لتقبل شهادتي ، فقال : أجل ، فقال : لا أشهد بين اثنين ما بقيت في الدنيا . فلما ضربوا الحد قال المغيرة : الله أكبر ، الحمد لله الذي أخزاكم ، فقال عمر رضي الله عنه : بل أخزى الله مكاناً رأوك فيه .

وذكر عمر بن شبة في كتاب « أخبار البصرة » أن أبا بكرة لما جلد أمرت أمه بشاة فذبحت وجعلت جلدها على ظهره ، فكان يقال ما ذاك إلا من ضرب شديد . وحكى عبد الرحمن بن أبي بكرة أن أباه حلف لا يكلم زياداً ما عاش ، فلما مات أبو بكرة كان قد أوصى أن لا يصلّي عليه زياد وأن يصلي عليه أبو برزة الأسلمي ، وكان النبي صلى الله عليه وسلّم آخى بينهما ، وبلغ ذلك زياداً فخرج إلى الكوفة . وحفظ المغيرة بن شعبة ذلك لزياد وشكره .

ثم إن أم جميل وافقت عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموسم ، والمغيرة هناك فقال له عمر : أتعرف هذه المرأة يا مغيرة ؟ قال : نعم هذه أم كلثوم بنت علي ، فقال له عمر : أتتجاهل علي ؟ والله ما أظن أبا بكرة كذب عليك ، وما رأيتك إلا خفت أن أرمى بحجارة من السماء .

قلت : ذكر الشيخ أبو إسحاق الشيرازي في أول باب عدد الشهود في كتاب « المهذب » : وشهد على المغيرة ثلاثة : أبو بكرة ونافع وشبل بن معبد،

---

1 زاد في المختار هنا قولا سيجيء من بعد ، على طريقته في جمع الأشباه في موضع واحد .

وقال زياد : رأيت استاً تنبو ونفساً يعلو ورجلين كأنهما أذنا حمار ، ولا أدري ما وراء ذلك ، فجلد عمر الثلاثة ولم يحدّ المغيرة .

قلت : وقد تكلم الفقهاء على قول علي رضي الله عنه لعمر رضي الله عنه إن ضربته فارجم صاحبك ، فقال أبو نصر ابن الصباغ – المقدم ذكره [1] – وهو صاحب كتاب « الشامل » في المذهب : يريد أن هذا القول إن كان شهادة أُخرى فقد تم العدد ، وإن كان هو الأول فقد جلدته عليه، والله أعلم .

وذكر عمر بن شبة في « أخبار البصرة » أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن رسول الله صلى الله عليه وسلّم أقطعني البحرين ، فقال : ومن يشهد لك بذلك ؟ قال : المغيرة بن شعبة ، فأبى أن يجيز شهادته [2] .

قلت : وقد طالت هذه الترجمة ، وسببه أنها اشتملت على عدة وقائع ، فدعت الحاجة إلى الكلام على كل واحدة منها فانتشر القول لأجل ذلك ، وما خلا عن فوائد .

٨٢٢

يزيد بن الطثْرية الشاعر المشهور

أبو المكشوح يزيد بن سَلَمة بن سَمُرة بن سلمة الخير بن قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، المعروف بابن الطثْرية ، الشاعر المشهور ؛ هكذا ساق نسبه أبو عمرو الشيباني ، وإنّما قيل لجده « سلمة الخير » لأنّه كان لقشير ولد آخر يقال له سلمة الشر ، قال : وقد قيل إنّه يزيد بن المنتشر بن

١ انظر ج ٣ : ٢١٧ .

٢ وذكر عمر . . . شهادته : سقط من ر س .

٨٢٢ – ترجمته في ابن سلام : ٥٨٦ والشعر والشعراء : ٣٤٠ والأغاني ٨ : ١٥٧ والسمط : ١٠٣ ومعجم الأدباء ٧ : ٢٩٩ وشرح التبريزي ٣ : ٤٦ وأسماء المغتالين : ٢٤٧ .

سلمة . وذكر ابن الكلبي أنّه يزيد بن الصمة أحد بني سلمة الخير بن قشير . وذكر البصريون أنّه من ولد الأعور بن قشير .

ذكر أبو الحسن علي بن عبد الله الطوسي في أول ديوان يزيد بن الطثْرية المذكور ، وكان الطوسي قد اعتنى به وجمعه ، فقال : كان ابن الطثْرية شاعراً مطبوعاً عاقلاً فصيحاً كامل الأدب وافر المروءة لا يعاب ولا يطعن عليه ، وكان سخياً شجاعاً له أصل ومحل في قومه من قشير ، وكان من شعراء بني أمية مقدماً عندهم .

وقال غير الطوسي : كان يزيد بن الطثْرية يسمى مودّقا ، سُمّيَ بذلك لحسن وجهه وحسن شعره وحلاوة حديثه ، فكانوا يقولون إنّه إذا جلس بين النساء ودّقهن — يقال استودقت المرأة وودقت إذا مالت إلى الفحل لأجل الجماع — والأصل في هذه اللفظة أن تكون لذوات الحافر ، ثم نقلت إلى بني آدم ، وهي بالدال المهملة والقاف ، والمودق : هو الذي يجعل النساء يملن عليه — وكان يزيد كثيراً ما يجلس عند النساء ويتحدث معهن ، ويقال إنّه كان عنيناً لا يأتي النساء . وليس له عقب ، وهو من أعيان الشعراء ، ذكره أبو تمام الطائي في كتاب « الحماسة »[1] في عدة مواضع ، فمن ذلك قوله في باب النسيب :

عُقَيلية أما مَلاثُ إزارِها ... فدِعص وأمّا خصرها فبتيلُ
تَقَيّظُ أكنافَ الحمى ويُظلها ... بنعمانَ من وادي الأراك مقيل
أليس قليلاً نظرةٌ إن نظرتُها ... إليكِ ؟ وكلٌّ ليس منك قليل
فيا خُلّةَ النفس التي ليس دونها ... لنا من أخلاء الصفاء خليل
ويا من كتمنا حبّهُ لم يُطَعْ به ... عدوٌّ ولم يؤمَنْ عليه دخيل
أما من مقام أشتكي غربة النوى ... وخوفَ العدا فيه إليك سبيل
فديتك، أعدائي كثيرٌ ، وشقّتي ... بعيد ، وأشياعي لديك قليل
فلا تحملي ذنبي وأنت ضعيفة ... فحملُ دمي يومَ الحساب ثقيل

---

[1] انظر شرح المرزوقي ، رقم : ٥٤١ ، وقد ألحقت القصيدة التالية بديوان ابن الدمينة : ١٨٦ وانظر تخريجها والقول في نسبتها ص ٢٥٦ .

وكنت إذا ما جئتُ جئتُ بعـلة فأفنيتُ عـلاتي فكيف أقول
فما كلَّ يوم لي بأرضك حاجةٌ ولا كلَّ يوم لي إليـك رسول [1]

وكان أبو الفرج الأصبهاني صاحب كتاب «الأغاني» قد جمع شعر يزيد ابن الطثرية أيضاً في ديوان ، وأورد له قوله [2] .

ألا بأبي مَن قد برى الجسمَ حبّهُ ومن هـو مومقٌ [3] إلى حبيبُ
ومن هو لا يزدادُ إلا تشوقـاً وليس يُرَى إلاّ عليه رقيب
وإنّي وإن أحموا عليَّ كـلامها وحالتْ أعادٍ دوننا وحروب
لمثنٍ على ليلى ثنـاءً يزينها قوافٍ بأفواه الرجال تطيب
أليلى احذري نقض القوى لا يزلْ لنا على النّأي والهجران منك نصيب
وكوني على الواشين لدّاء شَغْبةً كما أنا للواشي ألدُّ شغوب
فإن خفتِ ألا تحكمي مِرّةَ الهوى فردي فؤادي والمزار قريب

وأورد له أيضاً [4] :

بنفسيَ من لو مَرَّ بَرْدُ بنانـه على كبدي كانت شفاءً أناملُهْ
ومن هابني في كل شيء وهبته فلا هو يعطيني ولا أنـا سائله

وأما أبو الحسن الطوسي فإنّه أورد له :

وإنّي لأستحيي من الله أن أرى رديفاً لوصل أو عليَّ رديفُ
وأن أردَ الماء الموطا حَنيّهُ وأتبعَ وصلاً منكِ وهو ضعيف

قلت : ورأيت في موضع آخر بعد البيت الأول :

---

١ في هامش س : في الحماسة ليس مرتباً هكذا ؛ بعده في الحماسة :
صحائف عندي للعتاب طويتها ستنشر يوماً والعتاب يطول

٢ الأغاني ٨ : ١٧٩ .

٣ ق والمختار : موقوف .

٤ الأغاني ٨ : ١٦٤ .

وإنّيَ للماء المخالطه القذى وإن كثُرتْ وُرّاده لعَيُوف

وأورد له الطوسي أيضاً :

ألا ربَّ راج حاجةً لا ينالها وآخر قد تقضى له وهو جالسُ
يجولُ لها هذا وتقضى لغيره وتأتي الذي تقضى له وهو آيس

وأورد له أيضاً من جملة أبيات :

برغمي أطيل الصدَّ عنها إذا نأت أحاذرُ أسماعاً عليها وأعينا
أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكنا

وأورد له أيضاً أبياتاً منها قوله :

وقولا إذا عدَّتْ ذنوباً كثيرة علينا تجنّاها ذَرِي ما تَغَيّبا
هبيني امرأ إما بريئاً ظلمتِهِ وإما مسيئاً تاب بعدُ وأعتبا
فلما أبتْ لا تقبلُ العذرَ وارتمى بها كذبُ الواشين شأوا مغرّبا[1]
تعزيتُ عنها بالسلو ولم أكنْ لمن ضَنَّ عني بالمودة أقربا
وكنت كذي داء تبغّى لدائِهِ طبيباً فلما لم يجده تطببا

وأورد له أبو عبد الله المرزباني في كتاب « معجم الشعراء » وهي في « الحماسة » أيضاً ، وقد رويت أيضاً لعبد الله بن الدمينة الخثعمي ، والله أعلم[2] :

بنفسي وأهلي مَن إذا عرّضوا له ببعضِ الأذى لم يدرِ كيف يجيبُ
ولم يعتذر عذرَ البرىء ولم تزل به رِعدةٌ حتى يقالَ مريب

وأورد له المرزباني في « المعجم » أيضاً :

حننت إلى ريا ونفسُك باعدتْ مزارك من ريا وشعباكما معا

---

١ ر والمختار : شرقاً ومغرباً .

٢ الحماسية رقم : ٥٣٠ ولم ترد في معجم المرزباني المطبوع ، وانظر ديوان ابن الدمينة : ١١٣ (البيتين رقم ٨٧ ، ٨٨) .

[فما حسنٌ أن تأتي الأمر طائعا   وتجزع أن داعى الصبابة أسمعا
قفا وَدِّعا نجداً ومن حل بالحمى   وقلَّ لنجد عندنا أن يودعا
ولمّا رأيت البشر أعرض دوننا   وجالت بنات الشوق يحْننَّ نزعا
بكت عينيَ اليمنى فلما زجرتُها   عن الجهل بعد الحلم أسبلتا معا
تلفتُّ نحو الحي حتّى وجدتني   وَجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا
وأذكر أيام الحمى ثم أنثني   على كبدي من خشية أن تقطعا
وليست عشيات الحمى برواجع   عليك ولكن خلِّ عينيك تدمعا][1]

قلت : وهي أبيات في غاية الرقة واللطافة ، وذكرها أبو تمام الطائي في كتاب « الحماسة »[2] في أول باب النسيب وقال إنّها للصمة بن عبد الله القشيري ، والله أعلم بالصواب في ذلك .

وقال أبو عمر يوسف بن عبد البر — صاحب كتاب « الاستيعاب » في أخبار الصحابة رضي الله عنهم ، وقد تقدم ذكره — في كتاب « بهجة المجالس » ، ما مثاله : للصمة بن عبد الله القشيري :

أما وجلالِ الله لو تذكرينني   كذكريكِ ما كفكفتُ للعينِ مدمعا
فقالت بلى والله ذكراً لَوَانّه   يُصَبُّ على الصخر الأصمِّ تصدعا

ثم قال بعد ذلك : وأكثرهم ينسبون إليه في هذا الشعر :

حننتَ إلى ريا ونفسك باعدتْ   مزارك من ريا وشعباكما معا

وذكر الأبيات بكمالها كما ذكرها في « الحماسة » وبعد الفراغ منها قال: ومنهم من ينسبها إلى قيس بن ذريح وإلى المجنون أيضاً ، والأكثر أنها للصمة ، والله أعلم .

---

١ لم ترد هذه الأبيات في المسودة ونسخة س ق ع ولكنها ثابتة في المختار ؛ وقد سقطت هي وما بعدها من ر حتى لفظة « معا » .

٢ الحماسية رقم : ٤٥٤ ونسبها للصمة بن عبد الله .

قلت : فقد وقع الاختلاف في أن هذه الأبيات العينية هل هي ليزيد بن الطثرية أم للصمة بن عبد الله القشيري أم لقيس بن ذريح أم للمجنون ، والله أعلم .

قلت : وذكره المرزباني أيضاً في كتاب « المونق » فقال : أنشدني أبو الحَنْبَش لابن الطثرية :

وحنّتْ قَلوصي بعد هذا صبابةً فيا روعةً ما راع قلبي حنينها
فقلت لها صبراً فكلُّ قرينة مفارقها ، لا بد يوماً ، قرينها

وأورد له أيضاً :

كيف العزاء وأنت أومقُ مَن مشى والنفسُ معولةٌ ودارك نائيه
بيديك قتلي إن أردتِ منيتي وشفاءُ نفسي إن أردتِ شفائيه
ولقد عرفتِ فما أويتِ لمدنفٍ ما النفسُ عنك وإن نأيت بساليه

وأورد له أيضاً :

إذا نحن جئنا لم تَجَمّلْ بزينة حذارَ الأعادي وهي بادٍ جمالها
ولا نبتديها بالسلام ولم نقلْ لهم من توَقّي شرهم : كيف حالها

وأورد له أشياء كثيرة غير هذا فنقتصر على هذا القدر .

وقال[1] أبو بكر أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري في كتاب « أنساب الأشراف » بعد ما ذكر مقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان الأموي الحكمي ووقائع جرت في سنة ست وعشرين ومائة : فكان في أثناء ذلك وقعة قتل فيها المندلث ابن إدريس الحنفي ، وقتل معه يزيد بن الطثرية المذكور على قرية يقال لها الفَلَج – بفتح الفاء واللام وفي آخره الجيم – وأظنها من قرى اليمامة . ثم وجدت في كتاب أبي بكر الحازمي الذي صنفه في أسماء المواضع أن فَلَج بفتح الفاء واللام وآخره جيم قرية عظيمة لبني جعدة بها منهر يقال لها فلج الأفلاج

[1] ر : وذكر .

من ناحية اليمامة ، وقال غيره : فلج بينها وبين هَجَر التي هي قصبة البحرين ستة أيام وبينها وبين مكة تسعة أيام ، والله أعلم [1] .

وذكر أبو إسحاق الزجاج في كتاب « معاني القرآن الكريم » في سورة الفرقان أن الرس قرية باليمامة يقال لها فلج ، فتكون هي هذه القرية على ما قال ، وأما الذي جاء في قول الشاعر [2] :

وإن الذي حانت بفَلْج دماؤهم هم القومُ كلُّ القوم يا أمَّ خالد

فإنه بفتح الفاء وسكون اللام ، وهو واد بين البصرة وحمى ضَرِية ، وضرِيّة قرية على القرب من مكة شرفها الله تعالى . وأمّا فلجة الذي جاء في شعر بعض العرب :

ألا حبذا أعلام فلجةَ بالضحى وخيم روابي جَلْهَتَيْها المنصّبُ
يقولون مِلْحٌ ماءُ فلجةَ آجنٌ أجل هو مملوحٌ إلى القلب طيب

فهذا الاسم يقع على موضعين ، أحدهما منزل بين مكة والبصرة ، والثاني موضع بالعقيق ، وكانت به الواقعة في السنة التي قتل فيها الوليد بن يزيد الأموي المذكور .

رجعنا إلى ما كنا فيه :

وكان قتل الوليد في جمادى الآخرة يوم الخميس لليلتين بقيتا منها من سنة ست وعشرين ومائة بالبخراء – بفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وبعد الراء ألف ممدودة [3] – . وذكر أبو الحسن الطوسي المذكور في هذه الواقعة أن الراية كانت مع يزيد بن الطثرية ، فلما قتل المندلث وهرب أصحابه ثبت يزيد بن الطثرية بالراية ، وكانت عليه جبة خز فتشبثت في عُشَرة – قلت :

---

١ انظر المشترك : ٣٣٤ في باب « فلج » . ٢ أورده البكري وياقوت (فلج) ونسباه للأشهب .
٣ زاد في هامش المسودة بعدها : « وهي » ثم طمس النص .

وهي بضم العين المهملة وفتح الشين وبعدها راء مفتوحة ثم هاء ، وهي شجرة لها صمغ من شجر العضاه — قال : فعثر فضربه بنو حنيفة حتّى قتلوه .

قلت : وذكر هذه الواقعة بعد قتل الوليد في التاريخ المذكور، فيكون قتل يزيد ابن الطثرية بين تاريخ قتل الوليد بن يزيد وبين آخر سنة ست وعشرين ومائة والله أعلم .

وذكر أبو الفرج الأصبهاني في أول الديوان الذي جمعه من شعر يزيد بن الطثرية أن بني حنيفة قتلته في خلافة بني العباس ، والأول أصح .

ولما قتل ابن الطثرية رثاه القحيف بن حُمَيْر بن سُلَيم الندى بن عبد الله العُقيلي بقوله :

ألا تبكي سراةُ بني قشيرٍ على صنديدها وعلى فتَاها
أبا المكشوح بعدك من يحامي ومَن يُزجي المطيَّ على وَجَاها

ورثى القحيف أيضاً الوليد بن يزيد .
ورثاه أخوه ثور بن سلمة بقوله :

أرى الأثلَ من بطنِ العقيقِ مجاوري مقيماً وقد غالت يزيد غوائله

وهي من الشعر المختار . وذكر أبو تمام الطائي في « الحماسة »[1] أن هذه الأبيات لأخته زينب بنت الطثرية وقيل إنها لأمه ، والله أعلم .

وذكر الطوسي المذكور أن هذه الواقعة كانت بالعقيق ، وقال ياقوت الحموي في كتاب « المشترك وضعاً »[2] : إن العقيق عشرة مواضع ، قال الأصمعي : الأعقة الأودية التي تشقها السيول ، ثم عد المواضع فقال : الثالث « عقيق عارض » بأرض اليمامة ، وهو واد واسع مما يلي العَرَمَة تندفق فيه شعاب العارض ، وفيه عيون وقرى ، ثم قال : والعقيق من قرى اليمامة لبني عُقَيل ، وهو عقيق تمرة[3] في طريق اليمن من اليمامة .

---

١ الحماسية رقم : ٣٦٧ .
٢ المشترك : ٣١٤ وفيه أن الأعقة أحد عشر موضعاً .
٣ معجم البلدان : تمرة ، والاسم ند طمس في حاشية المسودة .

قلت : فيحتمل أن يكون المراد بقوله « بطن العقيق » في هذا البيت العقيق الأول ، ويحتمل العقيق الثاني ، والله أعلم .

وإنّما كني ابن الطثرية بأبي المكشوح لأنّه كان على كشحه كيٌّ نار ، والكشح – بفتح الكاف وسكون الشين المعجمة وبعدها الحاء المهملة – وهي الخاصرة .

والطثرية : بفتح الطاء المهملة وسكون الثاء المثلثة وبعدها راء ثم ياء النسب وهاء التأنيث ، وهي أمه ، ينسب يزيد المذكور إليها ، وهي من بني طثر بن عنز بن وائل[1] ، والطثر : الخصب وكثرة اللبن يقال إن أُمه ولدت في عام هذا وصفه ، وقيل بل ولدته في عام هذا شأنه ، ويقال إن أُمه كانت مولعة بإخراج زبد اللبن ، فسميت الطثرية ، وطثرة اللبن زبدته ، والله أعلم .

قلت : وهذا الكلام في النفس منه شيء ، فإنّهم قالوا : إن أمه من بني طثر ابن عنز بن وائل ، فعلى هذا تكون أمه منسوبة إلى هذه القبيلة ، فلا معنى حينئذ لقولهم : إن أمه ولدت في عام هذا وصفه ، أو ولد هو في عام هذا شأنه ، أو أو كانت أمه تخرج الزبد من اللبن ، فتأمله ، إلا أن يكون عندهم فيه خلاف : هل هو منسوب إلى القبيلة أم إلى هذا المعنى الثاني ، والله أعلم بالصواب في ذلك[2] .

ويروى لزينب بنت الطثرية أخت يزيد المذكور شيء كثير من الشعر ، فمن ذلك قولها في المديح :

أشمُّ إذا ما جئت للعرف طالباً ... حباك بما تحنو عليه أنامله
ولو لم يكنْ في كفه غير روحه ... لجاد بها فليتقِّ الله سائله

وينسب هذان البيتان إلى زياد الأعجم أيضاً ، والبيت الثاني منهما يوجد في ديوان أبي تمام الطائي أيضاً في قصيدته التي أولها[3] :

أجل أيها الربعُ الذي خفَّ آهله ... لقد أدركتْ فيكَ النوى ما تحاوله

والله أعلم بالصواب .

---

١ كذا ذكر ابن قتيبة في الشعر والشعراء .
٢ هنا تنتهي الترجمة في ر س ق ع .
٣ ديوان أبي تمام ٣ : ٢١ والبيت المشار إليه هو رقم : ٣٧ فيها .

٨٢٣
الماجشون

أبو يوسف يعقوب بن أبي سلمةَ دينار ، وقيل ميمون ، الملقب بالماجشون القرشي التيمي ، من موالي آل المنكدر من أهل المدينة ؛ سمع ابن عمر رضي الله عنهما ، وعمر بن عبد العزيز ومحمد بن المنكدر وعبد الرحمن بن هُرْمُز الأعرج ؛ روى عنه ابناه : يوسف وعبد العزيز ، وابن أخيه عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سلمة . وقال يعقوب بن شيبة : الماجشون يعقوب بن أبي سلمة مولى آل الهُدَيْر [1]. وكان يعقوب مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في ولاية عمر المدينة يحدثه ويأنس به ، فلما استخلف عمر رضي الله عنه قدم عليه الماجشون فقال له عمر : إنّا تركناك حيث تركنا لبس الخز ، فانصرف عنه .

وذكره محمد بن سعد في كتاب « الطبقات » . وقال يعقوب بن شيبة، قال مصعب : وكان الماجشون يعين ربيعة الرأي على أبي الزناد ، لأن أبا الزناد كان معادياً لربيعة الرأي ، فكان أبو الزناد يقول : مثلي ومثل الماجشون مثل ذئب كان يلح على أهل قرية فيأكل صبيانهم ، فاجتمعوا له وخرجوا في طلبه ، فهرب منهم فانقطعوا عنه ، إلا صاحب فخار ، فإنّه ألح في طلبه ، فوقف له الذئب فقال : هؤلاء أعذرهم ، فأنت ما لي ولك ؟ ما كسرت لك فخارة قط ، والماجشون ما كسرت له كبراً ولا بَرْبطاً قطّ [2] .

وقال ابن الماجشون : عرج بروح الماجشون ، فوضعناه على سرير الغسْل

---

٨٢٣ – ترجمته في طبقات الشيرازي : ٦٧ وتهذيب التهذيب ١١ : ٣٨٨ ورجال ابن حبان : ٨٠ وانظر ترجمة ابنه يوسف في طبقات ابن سعد ٥ : ٤١٥ (ويبدو أن ترجمة يعقوب في الطبقات مما ضاع من الكتاب) وتاريخ الإسلام للذهبي ٥ : ١٩ والتاج (مجش = الماجشون) واللباب (الماجشون) .

١ آل الهدير هم أيضاً آل المنكدر .

٢ يشير إلى أن الماجشون كان يعلم الغناء ويتخذ القيان .

وقلنا للناس : نروح به ، فدخل غاسلٌ إليه يغسله ، فرأى عِرْقاً يتحرك في أسفل قدمه فأقبل علينا وقال : أرى عرقاً يتحرك ولا أرى أن أعجل عليه ، فاعتللنا على الناس بالأمر الذي رأيناه ، وفي الغد جاء الناس وغدا الغاسل عليه فرأى العرق على حاله ، فاعتذرنا إلى الناس، فمكث ثلاثاً على حاله ، ثم إنّه استوى جالساً فقال : آتوني بسويق ، فأتي به فشربه ، فقلنا له : خبرنا ما رأيت ، قال : نعم عُرج بروحي ، فصعد بي الملك حتّى أتى سماء الدنيا فاستفتح ففتح له ، ثم هكذا في السموات حتّى انتهى بي إلى السماء السابعة ، فقيل له : من معك ؟ قال : الماجشون ، فقيل له : لم يأنِ له بعد ، بقي من عمره كذا كذا سنة وكذا كذا شهراً وكذا كذا يوماً وكذا كذا ساعة ، ثم هبط فرأيت النبي صلى الله عليه وسلّم وأبا بكر عن يمينه وعمر عن يساره وعمر بن عبد العزيز بين يديه ، فقلت للملك الذي معي : مَنْ هذا ؟ قال : هذا عمر بن عبد العزيز ، قلت : إنّه لقريب المقعد من رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال : إنّه عمل بالحق في زمن الجور، وإنّهما عملا بالحق في زمن الحق؛ ذكر هذا يعقوب بن شيبة في ترجمة الماجشون . وذكر أبو الحسن محمد بن أحمد بن القواس الوراق أن يعقوب الماجشون مات سنة أربع وستين ومائة[1] ، رحمه الله تعالى ؛ هذا كله نقلته من تاريخ الحافظ أبي القاسم المعروف بابن عساكر الذي جعله تاريخاً لدمشق .

وذكر ابن قتيبة في كتاب « المعارف » في ترجمة محمد بن المنكدر[2] أن الماجشون من مواليه ، واسمه يعقوب ، وكان فقيهاً ؛ ثم قال بعد ذلك : وكان للماجشون أخ يقال له عبد الله بن أبي سلمة .

(347) وابنه عبد العزيز بن عبد الله يكنى أبا عبد الله ، توفي ببغداد وصلى عليه المهدي ، ودفنه في مقابر قريش ، وذلك في سنة أربع وستين ومائة — قلت : وقد تقدم في هذا الكتاب ترجمة ولده عبد الملك بن عبد العزيز بن

---

١ هذه هي سنة وفاة ابنه عبد العزيز كما سيرد بعد أسطر ، وتعقب ابن حجر الحافظ ابن عساكر في هذا فقال : كذا قال وهو خطأ لم ينبه عليه أبو القاسم والصواب إن شاء الله تعالى في سنة أربع وعشرين ومائة .

٢ المعارف : ٤٦١ — ٤٦٢ .

عبد الله ، وذكرت ما قاله العلماء في معنى الماجشون ، فأغنى عن الإعادة هاهنا والله أعلم .

قوله ما كسرت له كَبَراً ولا بَرْبطاً ، الكَبَر : بفتح الكاف والباء الموحدة ، وبعدها راء ، وهو طبل ذو وجه واحد ، والبربط : بفتح الباءين الموحدتين بينهما راء ساكنة ، وفي آخره طاء مهملة ، وهو نوع من العود الذي للغناء ، وأصله بر ، وهو الصدر بالفارسي ، وبط الطائر المعروف ، فلما كان هذا الملهى يشبه صدر البط سمي به ، واسمه بالعربي العود . والمزهر أيضاً : بكسر الميم وسكون الزاي وفتح الهاء وبعدها راء ، وبالعجمي البربط كما ذكرناه .

٨٢٤

القاضي أبو يوسف صاحب أبي حنيفة

القاضي أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب بن خُنَيس بن سعد بن حَبْتة الأنصاري — وسعد بن حبتة أحد الصحابة رضي الله عنهم ، وهو مشهور في الأنصار بأمه ، وهي حبته بنت مالك من بني عمرو بن عوف — .

وأما أبو سعد ابن حبتة : فهو عوف بن بَحير بن معاوية بن سَلْمى بن بجيلة ، حليف بني عمرو بن عوف الأنصاري ، هكذا ساق نسب سعد بن حبتة في « الاستيعاب »[1] ؛ وأمّا الخطيب أبو بكر البغدادي فإنه قال في تاريخه[2] : هو سعد بن بُجَيْر بن معاوية بن قحافة بن بُليل بن سَدوس بن عبد مناف بن أبي

٨٢٤ — ترجمته في الفهرست : ٢٠٣ وأخبار القضاة ٣ : ٢٥٤ وطبقات الشيرازي : ١٣٤ والجواهر المضية ٢ : ٢٢٠ ومرآة الجنان ١ : ٣٨٢ والبداية والنهاية ١٠ : ١٨٠ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٠٧ وتذكرة الحفاظ : ٢٩٢ والشذرات ١ : ٢٩٨ وعبر الذهبي ١ : ٢٨٤ وبروكلمان ٣ : ٢٤٥ (الترجمة العربية) .

١ الاستيعاب : ٥٨٤ .

٢ تاريخ بغداد ١٤ : ٢٤٢ — ٢٤٣ .

أُسامة بن سَحْمة بن سعد بن عبد الله بن قُداد [1] بن ثعلبة بن معاوية بن زيد بن الغوث [2] بن بجيلة .

كان القاضي أبو يوسف المذكور من أهل الكوفة ، وهو صاحب أبي حنيفة رضي الله عنه ، كان فقيهاً عالماً حافظاً ، سمع أبا إسحاق الشيباني وسليمان التيمي ويحيى بن سعيد الأنصاري والأعمش وهشام بن عروة وعطاء بن السائب ومحمد بن إسحاق بن يسار ، وتلك الطبقة . وجالس محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى ثم جالس أبا حنيفة النعمان بن ثابت ، وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة وخالفه في مواضع كثيرة . روى عنه محمد بن الحسن الشيباني الحنفي وبشر بن الوليد الكندي وعلي بن الجعد وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين في آخرين .

وكان قد سكن بغداد وتولى القضاء بها لثلاثة من الخلفاء : المهدي وابنه الهادي ثم هارون الرشيد ، وكان الرشيد يكرمه ويجله ، وكان عنده حظياً مكينا ، وهو أول من دعي بقاضي القضاة ، ويقال إنّه أول من غير لباس العلماء إلى هذه الهيئة الّتي هم عليها في هذا الزمان ، وكان ملبوس الناس قبل ذلك شيئاً واحداً ، لا يتميز أحد عن أحد بلباسه . ولم يختلف يحيى بن معين وأحمد بن حنبل وعلي ابن المديني في ثقته في النقل .

وذكر أبو عمر ابن عبد البر صاحب كتاب « الاستيعاب » في كتابه الذي سماه كتاب « الانتقاء في فضائل الثلاثة الفقهاء » [3] أن أبا يوسف المذكور كان حافظاً وأنه كان يحضر المحدث ويحفظ خمسين ستين حديثاً ، ثم يقوم فيمليها على الناس ، وكان كثير الحديث . وقال محمد بن جرير الطبري : وتحامى حديثه قوم من أهل الحديث من أجل غلبة الرّأي عليه وتفريعهِ الفرُوعَ والأحكام ، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء .

وحكى أبو بكر الخطيب البغدادي في « تاريخ بغداد » [4] أن أبا يوسف قال :

---

١ تاريخ بغداد : قدار .

٢ تاريخ بغداد : العوذ .

٣ الانتقاء : ١٧٢ .

٤ تاريخ بغداد ١٤ : ٢٤٤ .

كنت أطلب الحديث والفقه وأنا مُقِل رثّ الحال ، فجاء أبي يوماً وأنا عند أبي حنيفة ، فانصرفت معه ، فقال : يا بني ، لا تمد رجلك مع أبي حنيفة ، فإن أبا حنيفة خبزه مشوي ، وأنت تحتاج إلى المعاش ، فقصرت عن كثير من الطلب وآثرت طاعة أبي ، فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني ، فجعلت أتعاهد مجلسه ، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري عنه قال لي : ما شغلك عنا ؟ قلت : الشغل بالمعاش وطاعة والدي ، فجلست ، فلما انصرف الناس دَفَع إليّ صرّة وقال : استمتع بها ، فنظرت فإذا فيها مائة درهم ، فقال لي : الزم الحلقة وإذا فرغت هذه فأعلمني ، فلزمت الحلقة ، فلما مضت مدة يسيرة دفع إليّ مائة أخرى ، ثم كان يتعاهدني ، وما أعلمته بخلّة قط ولا أخبرته بنفاد شيء ، وكأنّه كان يخبر بنفادها ، حتى استغنيت وتموّلت .

ثم قال الخطيب[1] : وحكي أن والد أبي يوسف مات وخلف أبا يوسف طفلاً صغيراً ، وأن أمّه هي التي أنكرت عليه حضور حلقة أبي حنيفة ؛ ثم روى الخطيب أيضاً بإسناد متصل إلى علي بن الجعد قال : أخبرني أبو يوسف القاضي قال : توفي أبي وخلفني صغيراً في حجر أمّي ، فأسلمتني إلى قصار أخدمه ، فكنتُ أدع القصار وأمرّ إلى حلقة أبي حنيفة فأجلس أستمع ، فكانت أمّي تجيء خلفي إلى الحلقة فتأخذ بيدي فتذهب [بي] إلى القصار ، وكان أبو حنيفة يُعْنى بي ، لما يرى من حضوري وحرصي على التعلم ، فلما كثر ذلك على أمي وطال عليها هربي قالت لأبي حنيفة : ما لهذا الصبي فساد غيرك ، هذا صبي يتيم لا شيء له وإنّما أطعمه من مغزلي ، وآمل أن يكسب دانقاً يعود به على نفسه ، فقال لها أبو حنيفة : مُرّي يارَعْناء ، ها هو ذا يتعلم أكل الفالوذج بدهن الفستق ، فانصرفت عنه وقالت له : أنت شيخ قد خرفت وذهب عقلك . ثم لزمته فنفعني الله تعالى بالعلم ، ورفعني حتى تقلدت القضاء ، وكنت أجالس الرشيد وآكل معه على مائدته ، فلما كان في بعض الأيام قدم إلى هارون فالوذجة ، فقال لي : يا يعقوب كل منها فليس في كل يوم يعمل لنا مثلها ، فقلت : وما هذه يا أمير المؤمنين ؟ فقال : هذه فالوذجة بدهن الفستق ،

---

[1] المصدر نفسه .

فضحكت ، فقال لي : مم ضحكك[1] ! فقلت : خيراً ، أبقى الله أمير المؤمنين ، قال : لتخبرنّي ، وألحّ عليّ ، فأخبرته بالقصة من أوّلها إلى آخرها ، فعجب من ذلك وقال : لعمري إن العلم لينفع دنيا وديناً ، وترحم على أبي حنيفة وقال : كان ينظر بعين عقله مالا يراه بعين رأسه .

وحكى عليّ بن المحسّن التنوخي عن أبيه عن جده قال : كان سبب اتصال أبي يوسف بالرّشيد أنّه كان قدم بغداد بعد موت أبي حنيفة رحمه الله تعالى فحنث بعض القواد في يمين ، فطلب فقيهاً يستفتيه ، فجيء بأبي يوسفَ ، فأفتاه أنّه لم يحنث ، فوهب له دنانير وأخذ له داراً بالقرب منه . ودخل القائد يوماً على الرشيد فوجده مغموماً ، فسأله عن سبب غمه فقال : شيء من أمر الدين قد حزنني فاطلب فقيهاً كي أستفتيه ، فجاءه بأبي يوسف . قال أبو يوسف : فلما دخلت إلى ممر بين الدور رأيت فتى حسناً عليه أثر الملك ، وهو في حجرة محبوس ، فأومأ إليّ بأصبعه مستغيثاً فلم أفهم منه إرادته ، وأُدخلت إلى الرشيد ، فلما مثلت بين يديه سلمت ووقفت فقال لي : ما اسمك ؟ فقلت : يعقوب أصلح الله أمير المؤمنين ، قال : ما تقول في إمام شاهد رجلاً يزني هل يحده ؟ قلت : لا ، فحين . قلتها سجد الرشيد، فوقع لي أنّه قد رأى بعض أهله على ذلك وأن الذي أشار إليّ بالاستغاثة هو الزاني . ثم قال الرشيد : من أين قلت هذا ؟ قلت : لأن النبي صلى الله عليه وسلّم قال : « ادرأوا الحدود بالشبهات » وهذه شبهة يسقط الحدّ معها ، قال : وأيّ شبهة مع المعاينة ؟ قلت : ليس توجب المعاينة لذلك أكثر من العلم بما جرى ، والحدود لا تكون بالعلم ، وليس لأحد أخذ حقّه بعلمه ، فسجد مرّة أخرى ، وأمر لي بمال جزيل وأن ألزم الدار ، فما خرجت حتى جاءتني هدية الفتى وهدية أمه وجماعته ، وصار ذلك أصلاً للنعمة ، ولزمت الدار ، فكان هذا الخادم يستفتيني وهذا يشاورني ، ولم يزل حالي يقوى عند الرشيد حتى قلدني القضاء .

قلت : وهذا يخالف ما نقلته قبل هذا من أنّه ولي القضاء لثلاثة من الخلفاء . والله أعلم بالصواب .

---

[1] تاريخ بغداد : مم ضحكت .

وقال طلحة بن محمد بن جعفر : أبو يوسف مشهور الأمر ظاهر الفضل ، وهو صاحب أبي حنيفة ، وأفقه أهل عصره ، ولم يتقدمه أحد في زمانه ، وكان النهاية في العلم والحكم والرياسة والقدر ، وأوّل من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة ، وأملى المسائل ونشرها ، وبثّ علم أبي حنيفة في أقطار الأرض .

وقال عمار بن أبي مالك : ما كان في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف ، لولا أبو يوسف ما ذكر أبو حنيفة ولا محمد بن أبي ليلى ، ولكنه هو نشر قولهما وبثّ علمهما .

وقال محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة[1] : مرض أبو يوسف في زمن أبي حنيفة مرضاً خيف عليه منه ، فعاده أبو حنيفة ونحن معه ، فلما خرج من عنده وضع يده على عتبة بابه وقال : إن يمت هذا الفتى فإنّه أعلم من عليها ، وأومأ إلى الأرض .

وقال أبو يوسف : سألني الأعمش عن مسألة ، فأجبته فيها فقال لي : من أين لك هذا ؟ فقلت : من حديثك[2] الذي حدّثتناه أنت ، ثم ذكرت له الحديث ، فقال لي : يا يعقوب ، إنّي لأحفظ هذا الحديث قبل أن يجتمع أبواك وما عرفت تأويله حتى الآن .

وقال هلال بن يحيى : كان أبو يوسف يحفظ التفسير والمغازي وأيام العرب ، وكان أقل علومه الفقه ، ولم يكن في أصحاب أبي حنيفة مثل أبي يوسف[3] .

وذكر أبو الفرج المعافى بن زكريا النهرواني في كتاب « الجليس والأنيس » عن الشافعي رضي الله عنه أنّه قال : مضى أبو يوسف القاضي ليسمع المغازي من محمد بن إسحاق أو من غيره ، وأخلّ بمجلس أبي حنيفة أياماً ، فلما أتاه قال له أبو حنيفة : يا أبا يوسف ، من كان صاحب راية جالوت ؟ فقال له أبو يوسف : إنك إمام وإن لم تمسك عن هذا سألتك والله على رؤوس الملإ أيما

---

١ تاريخ بغداد ١٤ : ٢٤٦ .

٢ تاريخ بغداد : لحديثك .

٣ ولم يكن . . . يوسف : لم ترد هذه الجملة ضمن ما قاله هلال بن يحيى في تاريخ الخطيب .

كان أولاً وقعة بدر أو أحد ؟ فإنّك لا تدري أيهما كان قبل الآخر ، فأمسك عنه .

وذكر في الكتاب المذكور أيضاً عن عليّ بن الجعد أن القاضي أبا يوسف كتب يوماً كتاباً ، وعن يمينه إنسان يلاحظ ما يكتبه ، ففطن له أبو يوسف ، فلما فرغ من الكتابة التفت إليه وقال له : هل وقفت على شيء من خطإ ؟ فقال : لا والله ولا حرف واحد ، فقال له أبو يوسف : جزيت خيراً حيث كفيتنا مؤونة قراءته ، ثم أنشد :

كأنّـهُ مِنْ سوء تأديبهِ أسْلم في كُتّاب سوء الأدبْ

وقال حماد بن أبي حنيفة [1] : رأيت أبا حنيفة يوماً وعن يمينه أبو يوسف وعن يساره زُفَر ، وهما يتجادلان في مسألة ، فلا يقول أبو يوسف قولاً إلا أفسده زفر ، ولا يقول زفر قولاً إلا أفسده أبو يوسف ، إلى وقت الظهر ، فلما أذن المؤذن رفع أبو حنيفة يده فضرب بها فخذ زُفَر ، وقال : لا تطمع في رياسة ببلدة فيها أبو يوسف ، وقضى لأبي يوسف على زفر ، ولم يكن بعد أبي يوسف في أصحاب أبي حنيفة مثل زفر .

وقال طاهر بن أحمد الزبيري [2] : كان يجلس إلى أبي يوسف رجل فيطيل الصمت ، فقال له أبو يوسف : ألا تتكلم ، فقال : بلى ، متى يفطر الصائم ؟ فقال : إذا غابت الشمس ، فقال : فإن لم تغب إلى نصف الليل ، فضحك أبو يوسف وقال : أصبت في صمتك وأخطأت أنا في استدعاء نطقك ، ثم تمثل :

عجبتُ لإزراء الغبيّ بنفسه وصمتِ الذي قد كان بالقول أعلما
وفي الصمت سترٌ للغبي وإنّما صحيفة لبّ المرء أن يتكلما

ومن كلام أبي يوسف [3] : صحبة من لا يخشى العار عار يوم القيامة . وكان يقول : رؤوس النعم ثلاثة : فأولها نعمة الإسلام التي لا تتم نعمة إلا بها ،

---

١ تاريخ بغداد : ٢٤٧ .
٢ المصدر السابق : ٢٤٨ .
٣ متابع للنقل عن المصدر السابق .

والثانية : نعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها ، والثالثة نعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها .

وقال علي بن الجعد : سمعت أبا يوسف يقول : العلم شيء لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك ، وأنت إذا أعطيته كلك من إعطائه البعض كنت على غَرَرٍ .

وكان أبو يوسف [1] راكباً وغلامه يعدو وراءه ، فقال له رجل : أتستحل أن تُعَدّيَ غلامك وراءك ؟ لم لا تركبه ؟ فقال له : أيجوز عندك أن أسلم غلامي مكارياً ؟ قال : نعم ، قال أبو يوسف : فيعدو معي كما كان يعدو لو كان مكارياً .

وقال يحيى بن عبد الصمد [2] : خوصم أمير المؤمنين الهادي إلى القاضي أبي يوسف في بستانه [3] ، وكان الحكم في الظاهر للهادي وفي الباطن خلاف ذلك ، فقال الهادي للقاضي أبي يوسف : ما صنعت في الأمر الذي نتنازع إليك فيه ؟ فقال : خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلّفَ أمير المؤمنين أن شهوده شهدوا على حق ، فقال له الهادي : وترى ذلك ؟ قال : فقد كان ابن أبي ليلى يراه ، فقال : اردد البستان عليه ؛ وإنّما احتال عليه أبو يوسف لعلمه أن الهادي لا يحلف [4] .

وقال بشر بن الوليد الكندي ، قال لي القاضي أبو يوسف [5] : بينا أنا البارحة قد أويت إلى فراشي فإذا داق يدق الباب دقاً شديداً ، فأخذت علي إزاري وخرجت ، فإذا هرثمة بن أعْيَن ، فسلمت عليه ، فقال : أجب أمير المؤمنين ، فقلت : يا أبا حاتم ، لي بك حرمة ، وهذا وقت كما ترى ، ولست آمن أن يكون أمير المؤمنين قد دعاني لأمر من الأمور ، فإن أمكنك أن تدفع بذلك إلى غد فلعله أن يحدث له رأي ، فقال : ما لي إلى ذلك سبيل، قلت : كيف كان السبب ؟

---

١ تاريخ بغداد : ٢٤٩ .

٢ المصدر نفسه .

٣ ر والمختار : بستان .

٤ علّق ابن المؤلف هنا بقوله : « قلت ، أعني كاتبها موسى بن أحمد لطف الله به ؛ وهذا يقوي نقل من روى أنه تولى القضاء لثلاثة من الخلفاء منهم الهادي ، كما تقدم ذكره ، والله أعلم » .

٥ تاريخ بغداد : ٢٥٠ .

قال : خرج إلي مسرور الخادم فأمرني أن آتي بك أمير المؤمنين ، فقلت : تأذن لي أن أصب علي ماء وأتحنط ؟ فإن كان أمر من الأمور كنت قد أحكمت شأني وإن رزق[1] الله العافية فلن يضرني ، فأذن لي ، فدخلت فلبست ثياباً جدداً ، وتطيبت بما أمكن من الطيب ، ثم خرجنا فمضينا حتى أتينا دار أمير المؤمنين هارون الرشيد فإذا مسرور واقف ، فقال له هرثمة : قد جئت به ، فقلت لمسرور : يا أبا هاشم خدمتي وحرمتي وميلي ، وهذا وقت ضيق ، فتدري لم طلبني أمير المؤمنين ؟ قال : لا ، فقلت : فمن عنده ؟ قال : عيسى بن جعفر ، قلت : ومن ؟ قال : ما عندهما ثالث ، ثم قال لي : مر ، فإذا صرت في الصحن فإنه في الرواق ، وهو ذاك جالس فحرك رجلك بالأرض ، فإنه سيسألك فقل : أنا . قال أبو يوسف : فجئت ففعلت ذلك فقال : من هذا ، فقلت : يعقوب ، فقال : ادخل ، فدخلت فإذا هو جالس وعن يمينه عيسى بن جعفر ، فسلمت فرد السلام علي وقال : أظننا روعناك ؟ فقلت : إي والله وكذلك مَنْ خلفي ، فقال : اجلس ، فجلست حتى سكن رَوْعي ، ثم التفتَ إليّ وقال : يا يعقوب ، تدري لم دعوتك ؟ قلت : لا ، قال : دعوتك لأشهدك على هذا ان عنده جارية سألته أن يهبها لي فامتنع ، وسألته أن يبيعها فأبى ، والله لئن لم يفعل لأقتلنه ، قال أبو يوسف : فالتفتُّ إلى عيسى فقلت له : وما بلغ الله بجارية تمنعها أمير المؤمنين وتنزل نفسك هذه المنزلة ؟ قال فقال لي : عجلت علي في القول قبل أن تعرف ما عندي ، قلت : وما في هذا من الجواب ؟ قال : إن عليّ يميناً بالطلاق والعتاق وصدقة ما أملك أن لا أبيع هذه الجارية ولا أهبها ، فالتفت إليّ الرشيد فقال : هل له في ذلك من مخرج[2] ؟ قلت نعم ، قال : وما هو ؟ قلت : يهب لك نصفها ويبيعك نصفها ، فيكون لم يهب ولم يبع ، فقال عيسى : ويجوز ذلك ؟ قلت : نعم ، قال : فأشهدك أنّي قد وهبت له نصفها وبعته نصفها الباقي بمائة ألف دينار ، فقال له الرشيد : قبلت الهبة واشتريت نصفها بمائة ألف دينار ، ثم طلب منه الجارية[3] ، فأتى بالجارية وبالمال ، فقال : خذها يا أمير المؤمنين بارك الله لك فيها ، فقال الرشيد : يا يعقوب

---

١ ر : وإن يكن رزق . ٢ المختار : فرج .
٣ فقال له الرشيد . . . الجارية ، سقط من المسودة .

بقيت واحدة ، فقلت : وما هي ؟ فقال : هي مملوكة ولا بد أن تستبرأ ، ووالله لئن لم أبت معها ليلتي هذه إنني أظن أن نفسي ستخرج ، فقلت : يا أمير المؤمنين تعتقها وتتزوجها ، فإن الحرة لا تستبرأ ، قال : فإنّي قد أعتقتها فمن يزوجنيها ؟ فقلت : أنا ، فدعا بمسرور وحسين ، فخطبت وحمدت الله تعالى ثم زوّجته إياها على عشرين ألف دينار ، ودعا بالمال فدفعه إليها ، ثم قال لي : يا يعقوب انصرف ، ورفع رأسه إلى مسرور فقال : يا مسرور، فقال : لبيك ، فقال : احمل إلى يعقوب مائتي ألف درهم وعشرين تختاً ثياباً ، فحمل ذلك معي . قال بشر بن الوليد : فالتفت إليّ أبو يوسف وقال : هل رأيت بأساً فيما فعلت ؟ فقلت : لا ، فقال : خذ حقك منها ، قلت : وما حقي ؟ فقال : العشر ، قال بشر : فشكرته ودعوت له وذهبت لأقوم ، فإذا بعجوز قد دخلت فقالت : يا أبا يوسف إن بنتك تقرئك السلام وتقول لك : والله ما وصل إلي في ليلتي هذه من أمير المؤمنين إلا المهر الذي قد عرفته ، وقد حملت إليك النصف منه وخلفت الباقي لما أحتاج إليه ، فقال : رديه فوالله لا قبلتها ؛ أخرجتها من الرق وزوّجتها أمير المؤمنين وترضى لي بهذا ! قال بشر : فلم نزل نطلب إليه أنا وعمومتي حتى قبلها ، وأمر لي منها بألف دينار .

وقال أبو عبد الله اليوسفي [1] : إن أم جعفر زبيدة ابنة جعفر زوجة الرشيد كتبت إلى أبي يوسف : ما ترى في كذا ، وأحب الأشياء إليّ أن يكون الحق فيه كذا ، فأفتاها بما أحبت ، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقاق فضة مُطْبقات ، في كل واحد لون من الطيب ، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير ، فقال له جليس له ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: من أُهْدِيَتْ له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها ، فقال أبو يوسف : ذاك حين كانت الهدايا اللبن والتمر .

وقال يحيى بن معين [2] : كنت عند أبي يوسف القاضي وعنده جماعة من أصحاب الحديث وغيرهم ، فوافته هدية أم جعفر احتوت على تخوت دَبيقي ومُصْمَتٍ وَشَرْب وطيب وتماثيل ند وغير ذلك ، فذاكرني رجل بحديث

---

[1] تاريخ بغداد : ٢٥٢ .

[2] المصدر نفسه .

رسول الله صلى الله عليه وسلم : من أتته هدية وعنده قوم جلوس فهم شركاؤه فيها ، فسمعه أبو يوسف فقال : أبي تعرّض ؟ ذاك إنّما قاله النبي صلى الله عليه وسلّم والهدايا يومئذ الأقط والتمر والزبيب ، ولم تكن الهدايا ما ترون ، يا غلام أشِلْ إلى الخزاين .

ونقلت من كتاب اسمه « اللفيف » ولم يذكر فيه من هو مصنفه قال : كان عبد الرحمن بن مسهر أخو علي بن مسهر قاضياً على المبارك — قلت : وهي بضم الميم وبعدها باء موحدة وبعد الألف راء مفتوحة وبعدها كاف، وهي بليدة بين بغداد وواسط على شاطىء دجلة — قال : فبلغ القاضي خروج الرشيد إلى البصرة ومعه أبو يوسف القاضي في الحرّاقة ، فقال عبد الرحمن القاضي لأهل المبارك : أثنوا عليّ عند أمير المؤمنين وعند القاضي أبي يوسف ، فأبوا عليه ذلك ، فلبس ثيابه وقلنسوة طويلة وطيلساناً أسود ، وجاء إلى الشريعة ، فلما أقبلت الحراقة رفع صوته وقال : يا أمير المؤمنين نعم القاضي قاضينا، قاضي صدق ، ثم مضى إلى شريعة أُخرى فقال مثل مقالته الأولى ، فالتفت هارون إلى أبي يوسف وقال : يا يعقوب هذا شرُّ قاض في الأرض . قاض في موضع لا يثني عليه إلا رجل واحد ! فقال له أبو يوسف : وأعجب من هذا يا أمير المؤمنين هو القاضي يثني على نفسه ، قال : فضحك هارون وقال : هذا أظرف الناس ، هذا لايعزل أبداً ، وكان الرشيد إذا ذكره يقول : هذا لا يعزل أبداً . وقيل لأبي يوسف : أتولي مثل هذا القضاء ؟ فقال : إنّه أقام ببابي مدة وشكا إليّ الحاجة فوليته .

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، صاحب كتاب « الفصيح » : أخبرني بعضُ أصحابنا قال ؛ قال الرشيد لأبي يوسف : بلغني أنك تقول : إن هؤلاء الذين يشهدون عندك وتقبل أقوالهم متصنّعة ، فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأن من صح ستره وخلصت أمانته لم يعرفنا ولم نعرفه ، ومن ظهر أمره وانكشف خبره لم يأتنا ولم نقبله ، وبقيت هذه الطبقة وهم هؤلاء المتصنعة الذين أظهروا الستر وأبطنوا غيره ، فتبسم الرشيد وقال : صدقت .

وقال محمد بن سماعة : سمعت أبا يوسف في اليوم الذي مات فيه يقول :

اللّهم إنك تعلم أنّي لم أجُرْ في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمداً ، ولقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك صلى الله عليه وسلم ، وكل ما أشكل عليّ جعلت أبا حنيفة بيني وبينك ، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه .

قلت : وهذا الكلام مأخوذ من قول أبي محمد عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقد رؤيَ يمسح على خفيه ، فقيل له : تمسح ؟ قال : نعم ، قد مسح عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ومن جعل عمر بينه وبين الله فقد استوثق ، ذكر هذا ابن قتيبة في كتاب « المعارف » في ترجمة علي رضي الله عنه [1] .

وأخبار أبي يوسف كثيرة ، وأكثر الناس من العلماء على تفضيله وتعظيمه .

وقد نقل الخطيب البغدادي في تاريخه الكبير ألفاظاً عن عبد الله بن المبارك ووكيع بن الجراح ويزيد بن هارون ومحمد بن إسماعيل البخاري وأبي الحسن الدارقطني وغيرهم ، ينبو السمع عنها ، فتركت ذكرها ، والله أعلم بحاله .

وكانت ولادة القاضي أبي يوسف سنة ثلاث عشرة ومائة . وتوفي يوم الخميس أوّل وقت الظهر لخمس خلون من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين ومائة ببغداد . وقيل إنّه توفي سنة اثنتين وسبعين ومائة ، والأوّل أصح . وولي القضاء سنة ستّ وستين ومائة ، ومات وهو على القضاء ، رحمه الله تعالى .

(348) وأما ولده يوسف [2] ، فإنّه كان قد نظر في الرأي وَتفقّه وسمع الحديث من يونس بن أبي إسحاق السبيعي والسري بن يحيى وغيرهما . وولي القضاء بالجانب الغربي من بغداد في حياة أبيه ، وصلى بالناس الجمعة في مدينة المنصور بأمر هارون الرشيد ، ولم يزل على القضاء إلى أن مات في رجب سنة اثنتين وتسعين ومائة ببغداد .

وذكر الخطيب البغدادي أن أبا يوسف القاضي لمّا مات ولّى الرّشيد مكانه

---

١ قلت وهذا الكلام . . . عنه : سقط من ر س وهو ثابت في المسودة والمختار ونسختي ق ع .

٢ انظر ترجمة يوسف في تاريخ بغداد ١٤ : ٢٩٦ .

أبا البختري وهب بن وهب القرشي؛ قلت : وقد تقدم ذكره في حرف الواو [1] .

وكان أبو يعقوب الخريمي الشاعر المشهور صديقاً لأبي يوسف ولابنه يوسف، فلما توفي أبو يوسف سمع الخريمي رجلاً يقول : اليوم مات الفقه ، فأنشد الخريمي [2] :

يا ناعيَ الفقــهِ إلى أهلهِ أن ماتَ يعقوبُ ولا يدري
لم يمتِ الفقهُ ولـكنهُ حُوِّلَ من صدر إلى صدر
ألقاه يعقوبُ إلى يوسفٍ فزال من طيبٍ إلى طهرِ
فهو مقيمٌ فإذا مـا ثوى حلَّ وحلَّ الفقه في قبر

رحمهما الله تعالى .

وخنيس : بضم الخاء المعجمة ، تصغير أخنس ، وهو الذي تأخر أنفه عن وجهه مع ارتفاع قليل في الأرنبة ، فالرجل أخنس والمرأة خنساء ، وهذا التصغير يسمى تصغير ترخيم ، وحقيقته أن تحذف منه الحروف الزوائد ، ويصغر الباقي . كما قالوا : أزهر وزهير ، وأسود وسويد ، وأحمد وحميد ، وغير ذلك .

وحبتة : بفتح الحاء المهملة وسكون الباء الموحدة وبعدها تاء مثناة من فوقها ثم هاء ساكنة ، وكشفت عن معنى هذا الاسم في عدة مواضع من كتب اللغة وغيرها فلم أجده .

وبحير : بفتح الباء الموحدة وكسر الحاء المهملة وقيل هو بضم الباء وبالجيم المفتوحة ، والأول أصح ؛ والباقي معروف لا حاجة إلى ضبطه .

(349) وسعد بن حبتة من جملة من استصغر يوم أحد هو والبراء بن عازب وأبو سعيد الخدري رضي الله عنهم، فردهم النبي صلى الله عليه وسلم، ورآه النبي صلى الله عليه وسلّم يوم الخندق وهو يقاتل قتالاً شديداً مع حداثة

---

[1] انظر هذا الجزء ص : ٣٧ .

[2] تاريخ بغداد ١٤ : ٢٩٧ .

سنه ، فدعاه وقال له : من أنت ؟ فقال : سعد بن حبتة ، فقال : أسعد الله جدك ، ومسح على رأسه ، رضي الله عنه .

وخُنَيْس هو صاحب جِهارسُوجْ خُنَيْس بالكوفة ، وهو لفظ عجمي تفسيره بالعربي أربع طرق ، لأن هذا المكان رحبة مربعة تفترق إلى أربع جهات ، والله تعالى أعلم .

٨٢٥
يعقوب الحضرمي

أبو محمد يعقوب بن إسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق الحَضْرَمي بالولاء ، البصري المقرىء المشهور ؛ وهو أحد القراء العشرة ، وهو المقرىء الثامن ، وله في القراءات رواية مشهورة منقولة عنه ، وهو من أهل بيت العلم بالقراءات والعربية وكلام العرب والرواية الكثيرة للحروف والفقه ، وكان من أقرإ القراء ، وأُخذ عنه عامة حروف القرآن مسنداً وغير مسند من قراة الحَرَميين والعراقيين وأهل الشام وغيرهم ، وأخذ هو القراءة عَرْضاً عن سلام بن سليمان الطويل ومهدي بن ميمون وأبي الأشهب العطاردي وغيرهم . وروى عن حمزة حروفاً ، وسمع الحروف من أبي الحسن الكسائي ، وسمع من جده زيد بن عبد الله وشعبة . وأمّا إسناده في القراءة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلّم ، فإنّه قرأ على سلام المذكور ، وقرأ سلام على عاصم بن أبي النجود ، وقرأ عاصم على أبي عبد الرحمن السلمي ، وقرأ أبو عبد الرحمن على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه ، وقرأ عليّ على رسول الله صلى الله عليه وسلّم . وروى القراءة عن

---

٨٢٥ – ترجمته في غاية النهاية ٢ : ٣٨٦ وطبقات الزبيدي : ٥١ ومعجم الأدباء ٢٠ : ٥٢ والنجوم الزاهرة ٢ : ١٧٩ وبغية الوعاة : ٤١٨ ونور القبس : ١٧٨ وطبقات ابن سعد ٧ : ٣٠٤ وعبر الذهبي ١ : ٣٤٨ والشذرات ٢ : ١٤ وتهذيب التهذيب ١١ : ٣٨٢ .

يعقوب المذكور عرضاً جماعة : منهم رَوح بن عبد المؤمن ومحمد بن المتوكل وأبو حاتم السجستاني وغيرهم ، وسمع منه الزعفراني ، واقتدى به في اختياره عامة البصريين بعد أبي عمرو بن العلاء . فهم أو أكثرهم على مذهبه ، وكان طاهر بن عبد المنعم بن غَلبون إمام الجامع بالبصرة لا يقرأ إلا بقراءة يعقوب .

وقال أبو الحسين ابن المنادي : قرأ يعقوب على أبي عمرو ، وغلط في ذلك ، وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم : سئل أحمد بن حنبل رضي الله عنه عن يعقوب الحضرمي فقال : صدوق ؛ وسئل أبو حاتم الرازي عنه فقال : صدوق . وقال أبو حاتم السجستاني : كان يعقوب الحضرمي أعلم من أدركنا ورأينا بالحروف والاختلاف في القرآن الكريم وتعليله ومذاهبه ومذاهب النحو في القرآن الكريم .

وله كتاب سماه « الجامع » جمع فيه عامة اختلاف وجوه القراءات ، ونسب كل حرف إلى مَن قرأ به . وبالجملة فإنّه كان إمام أهل البصرة في عصره في القراءات ، وكان يأخذ أصحابه بعدد آي القرآن العزيز ، فإذا أخطأ أحدهم في العدد أقامه .

وتوفي يعقوب المذكور في ذي الحجة ، وقيل في جمادى الأولى ، سنة خمس ومائتين ، وهو الأصح . وعاش هو وأبوه إسحاق وجدّه زيد ، كل واحد منهم ثمانياً وثمانين سنة رحمهم الله أجمعين .

(350) وأمّا جدّ أبيه عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي [1] فإنّه كان من الأئمة الأعلام المشار إليه في علومهم .

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى : أوّل من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي ثم ميمون الأقرن ثم عنبسة الفيل ثم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي . وقد جاء في رواية أخرى أن عنبسة قبل ميمون ، والله أعلم بالصواب . وكان في زمان عبد الله بن أبي إسحاق عيسى بن عمر الثقفي وأبو عمرو بن العلاء ، ومات عبد الله قبلهما .

---

١ ترجمة عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي في انباه الرواة ٢ : ١٠٤ وفي الحاشية ذكر لعدد وافر من مصادر ترجمته .

وذكر أبو عبيد الله المرزباني في كتاب « المقتبس في أخبار النحويين » أن المبرد قال : أجمعت العلماء باللغة أن أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي وأنّه لقن ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، ثم أخذ النحو عن أبي الأسود عنبسةُ بن مَعْدان المهري[1] ، وأخذه عنه ميمون الأقرن ، وأخذه عنه عبد الله الحضرمي ، وأخذه عنه عيسى بن عمر ، وأخذه عنه الخليل بن أحمد ، وأخذه عنه سيبويه ، وأخذه عنه الأخفش .

وكان بلال بن أبي بُرْدة بن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قد جمع بين عبد الله وأبي عمرو بن العلاء ، وبلال يومئذ متولي البصرة ، قال أبو عمرو : فغلبني ابن أبي إسحاق بالهمز ، فنظرت فيه بعد ذلك وبالغت فيه .

وكان عبد الله كثيراً ما يأخذ على الفرزدق الغلط في شعره ، فقال الفرزدق : واللهِ لأهجونهُ ببيت يسير بين أهل الأدَبِ وَيتمثلونَ به ، فعمل :

فلو كان عبدُ اللهِ مَولى هجوتهُ ولكنَّ عبدَ الله مَوْلى مواليا[2]

وإنّما قال الفرزدق ذلك لأن عبد الله مولى الحضرميين ، وهم حلفاء بني عبد شمس بن عبد مناف ، والحليف عند العرب مولى ، ولهم على ذلك شواهد ، ولولا خوف الإطالة لذكرت طرفاً من ذلك ، لكن ليس هذا موضع ذكره .

---

١ في نور القبس : ٢٣ أنه ادعى إلى مهرة بن حيدان ؛ وفي المختار : المهرمي .

٢ المختار : المواليا .

٨٢٦

أبو عوانة الحافظ

أبو عَوانةَ يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم بن يزيد النيسابوري ثم الإسفرايني ، الحافظ ، صاحب المسند الصحيح المخرَّج على كتاب مسلم بن الحجاج ؛ كان أبو عَوانة أحد الحفاظ الجوّالين والمحدثين المكثرين ، طاف الشام ومصر والبصرة والكوفة وواسط والحجاز والجزيرة واليمن وأصبهان والري وفارس .

قال الحافظ أبو القاسم المعروف بابن عساكر في « تاريخ دمشق » : : سمع أبو عَوانة بدمشق يزيد بن محمد بن عبد الصمد وإسماعيل بن محمد بن قيراط وشعيب بن شعيب بن إسحاق وغيرهم ؛ وبمصر يونس بن عبد الأعلى وابن أخي ابن وهب والمزني والربيع ، ومحمداً وسعداً ابني عبد الحكم ، وبالعراق سعدان بن نصر والحسن الزعفراني وعمر بن شبة وغيرهم ؛ وبخراسان محمد ابن يحيى الذهلي ومسلم بن الحجاج ومحمد بن رجاء السندي وغيرهم ؛ وبالجزيرة عليّ بن حرب وغيره . روى عنه أبو بكر الإسماعيلي وأحمد بن علي الرازي وأبو علي الحسين بن علي وأبو أحمد ابن علي وسليمان الطبراني ومحمد بن يعقوب ابن إسماعيل الحُفّاظ وأبو الوليد الفقيه وابنه أبو مصعب محمد بن أبي عوانة .

وحج خمس مرات . وقال : كنت بالمصيصة ، فكتب إليّ أخي محمد بن إسحاق ، فكان في كتابه :

فإن نحنُ التقينا قبلَ مَوتٍ ... شفينا النفسَ من مَضَضِ العتابِ
وإن سبقتْ بنا أيدي المنايا ... فكم من عاتبٍ تحت الترابِ

وقال أبو عبد الله الحاكم : أبو عوانة من علماء الحديث وأثباتهم ، ومن

---

٨٢٦ - ترجمته في تذكرة الحفاظ : ٧٧٩ ومرآة الجنان ٢ : ٢٦٩ وطبقات السبكي ٢ : ٣٢١ وعبر الذهبي ٢ : ١٦٥ والشذرات ٢ : ٢٧٤ .

الرحّالة في أقطار الأرض لطلب الحديث . توفي سنة ست عشرة وثلثمائة .

وقال حمزه بن يوسف السهمي : روى بجرجان سنة اثنتين وتسعين ومائتين .

قال الحافظ أبو القاسم ابن عساكر : حدثني الشيخ الصالح الأصيل أبو عبد الله محمد بن محمد بن عمر ابن الصفار الإسفرايني قال : قبر أبي عوانة بإسفرايين[1] مزار العالم ، ومتبرَّك الخلق ، وبجنب قبره قبر الراوية عنه أبي نعيم عبد الملك ابن الحسن الأزهري الإسفرايني في مشهد واحد داخل المدينة ، على يسار الداخل من باب نيسابور من إسفرايين[1] ، وقريب من مشهده مشهد الإمام الأستاذ أبي إسحاق الإسفرايني على يمين الداخل من باب نيسابور ، وبجنب قبره قبر الأستاذ أبي منصور البغدادي الإمام الفقيه المتكلم صاحبه ، الصاحب بالجنب حياً وميتاً ، المتظاهرين لنصرة الدين بالحجج والبراهين . سمعت جدي الإمام عمر ابن الصفار ، رحمه الله تعالى ، ونظر إلى القبور حول قبر الإمام الأستاذ أبي إسحاق ، وأشار إلى المشهد وخارج المشهد وقال : قد قيل هاهنا من الأئمة والفقهاء على مذهب الإمام الشافعي ، رضي الله عنه ، أربعون إماماً ، كل واحد منهم لو تصرف في المذهب وأفتى برأيه واجتهاده – يعني على مذهب الشافعي – لكان حقيقاً بذلك ، والعوام يتقربون إلى مشهد الأستاذ أبي إسحاق أكثر مما يتقربون إلى أبي عوانة ، وهم لا يعرفون قدر هذا الإمام الكبير المحدث أبي عَوانة لبعْد العهد بوفاته ، وقرب العهد بوفاة الأستاذ أبي إسحاق ، وأبو عَوانة هو الذي أظهر لهم مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه بإسفرايين[1] بعد ما رجع عن مصر وأخذ العلم عن أبي إبراهيم المزني رحمه الله تعالى ؛ وكان جدي إذا وصل إلى مشهد الأستاذ رأيته لا يدخله احتراماً ، بل كان يقبل عتبة المشهد وهي مرتفعة بدرجات ، ويقف ساعة على هيئة التعظيم والتوقير ثم يعبر عنه كالمودع لعظيم عظيمِ الهيبة ، وإذا وصل إلى مشهد أبي عوانة كان أشد تعظيماً له وإجلالاً وتوقيراً ويقف أكثر من ذلك ، رحمهم الله تعالى أجمعين .

وعَوَانة : بفتح العين المهملة وبعد الألف نون .

وقد تقدم الكلام على النيسابوري والإسفرايني فلا حاجة إلى الإعادة .

---

١ أثبت الياءين في هذا الموضع في المسودة .

٨٢٧

ابن السكيت

أبو يوسف يعقوب بن إسحاق ، المعروف بابن السكيت ، صاحب كتاب « إصلاح المنطق » وغيره ؛ ذكره الحافظ ابن عساكر في « تاريخ دمشق » فقال: حكى عن أبي عمرو إسحاق بن مِرّار الشيباني ومحمد بن مُهنّا ومحمد بن صُبْح[١] ابن السماك الواعظ ؛ حكى عنه أحمد بن فرح المقرىء ومحمد بن عجلان الأخباري وأبو عكرمة الضبي وأبو سعيد السكري وميمون بن هارون الكاتب وغيرهم . وكان يؤدب أولاد المتوكل . وقال ، قال محمد ابن السماك : مَن عرف الناس داراهم ومن جهلهم ماراهم ورأس المداراة ترك المماراة . وروى ابن السكيت أيضاً عن الأصمعي وأبي عبيدة والفرّاء وجماعة غيرهم .

وكتبه جيدة صحيحة منها : « إصلاح المنطق » وكتاب « الألفاظ » وكتاب في « معاني الشعر » وكتاب « القلب والإبدال » ولم يكن له نفاذ في علم النحو ، وكان يميل في رأيه واعتقاده إلى مذهب مَن يرى تقديم علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قال أحمد بن عبيد[٢] : شاورني ابن السكيت في منادمة المتوكل فنهيته ، فحمل قولي على الحسد ، وأجاب إلى ما دُعي إليه من المنادمة ، فبينا هو مع المتوكل يوماً جاء المعتز والمؤيد ، فقال المتوكل : يا يعقوب أيما أحب إليك ،

---

٨٢٧ – ترجمته في تاريخ بغداد ١٤ : ٢٧٣ والفهرست : ٧٢ ونزهة الألبا : ١٢٢ ومراتب النحويين : ٩٥ وطبقات الزبيدي : ٢٢١ وبغية الوعاة : ٤١٨ ونور القبس : ٣١٩ وقد نشرت عنه دراسة لمحيي الدين توفيق إبراهيم (بغداد : ١٩٦٩) .

١ قد أثبتناه في ترجمته « محمد بن صبيح » اعتماداً على النسخ والمصادر المختلفة ، وهو هنا بخط المؤلف « صبح » إلا أن صورة الياء مرسومة دون إعجام ؛ ولذلك اضطربت فيه النسخ بين صبح وصبيح .

٢ انظر الزبيدي : ٢٢١ .

ابناي هذان أم الحسن والحسين ؟ فغض ابن السكيت من ابنيه وذكر من الحسن والحسين رضي الله عنهما ما هما أهله ، فأمر الأتراك فداسوا بطنه ، فحمل إلى داره ، فمات بعد غد ذلك اليوم ، وكان ذلك في سنة أربع وأربعين ومائتين .

وقال عبد الله بن عبد العزيز ، وكان نهى يعقوب عن اتصاله بالمتوكل :

نهيتك يا يعقوب عن قرب شادن إذا ماسطا أربى على كل ضيغم[1]
فذق واحسُ ما استحسيته لا أقول إذ عثرتَ : لَعاً ، بل : لليدين وللفم

وحكي أن الفراء سأل السكيت عن نسبه فقال : خُوزِيّ أصلحك الله من دَوْرَق – قلت : بفتح الدال المهملة وبعد الواو الساكنة راء ثم قاف ، وهي بليدة من أعمال خُوزْسَتان ، قال : من كور الأهواز – قلت : والأهواز من خوزستان أيضاً – قال : فبقي الفراء أربعين يوماً في بيته لا يظهر لأحد من أصحابه ، فسئل عن ذلك ، فقال : سبحان الله ، أستحي أن أرى السكيت ، لأنني سألته عن نسبه فصدقني ، وفيه بعضُ القبح .

قال أبو الحسن الطوسي : كنا في مجلس أبي الحسن علي اللحياني ، وكان عازماً على أن يملي نوادره ضعف ما أملى ، فقال يوماً : تقول العرب « مُثْقَل استعان بذقنه » فقام إليه ابن السكيت وهو حدث فقال : يا أبا الحسن إنّما هو « مثقل استعان بدفّيه » يريدون الجمل إذا نهض بحمله استعان بجنبيه ، فقطع الإملاء . فلما كان المجلس الثاني أملى فقال : تقول العرب « وهو جاري مكاشري » فقام له ابن السكيت فقال : أعزك الله وما معنى مكاشري ؟ إنّما هو « هو مكاسري ، كِسرُ بيتي إلى كِسْرِ بيته » ، قال : فقطع اللحياني الإملاء فما أملى بعد ذلك شيئاً .

وقال أبو العباس المبرد : ما رأيت للبغداديين كتاباً أحسن من كتاب ابن السكيت في المنطق .

وقال أحمد بن محمد بن أبي شدّاد : شكوت إلى ابن السكيت ضائقة فقال : هل قلت شيئاً ؟ قلت : لا ، قال : فأقول أنا ، ثم أنشدني :

---

[1] بهامش المسودة : خ : أم قشعم ؛ وكذلك كتب في س وفي طبقات الزبيدي .

نفسي تروم أموراً لستُ مدركَها ... ما دمتُ أحذر ما يأتي به القدرُ
ليس ارتحالك في كسب الغنى سفَراً ... لكن مُقامُكَ في ضرّ هو السفر

وقال ابن السكيت : كتب رجل إلى صديق له : قد عرضت لي قبلَكَ حاجة ، فإن نجحت فالفاني منها حظي والباقي حظك ، وإن تعذرت فالخير مظنون بك ، والعذر مُقَدّم لك[1] ، والسلام .

ونقل من خطه ما مثاله : عرض سَلْمانُ بن ربيعة الباهلي الخيل ، فمرّ عمرو بن معدي كرب الزبيدي على فرس له ، فقال سلمان : هذا الفرس هجين ، فقال عمرو : بل هو عتيق ، فقال سلمان : هو هجين ، فقال عمرو : هو عتيق ، فأمر سلمان فعُطّش ، ثم دعا بطست فيه ماء ، ودعا بخيل عتاق فشربت ، وجاء فرس عمرو فثنى يده وشرب ، وهذا صنيع الهجين ، فقال له سلمان : أترى[2] ؟ فقال عمرو : أجل ، الهجين يعرف الهجين ، فبلغ ذلك عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ، فكتب إلى عمرو : قد بلغني ما قلتَ لأميرك ، وبلغني أن لك سيفاً تسميه الصمصامة ، وعندي سيف أسميه مصمماً ، وايم الله لئن وضعتُه على هامتك لا أقلع حتى أبلغَ به رَهابتك ، فإن سرك أن تعلم أحق ما أقول فعد ، والسلام .

الرهابة : على وزن السحابة ، عَظْم في الصدر مشرف على البطن مثل اللسان ، والله أعلم .

وقال أبو عثمان المازني[3] : اجتمعت بابن السكيت عند محمد بن عبد الملك الزيات الوزير ، فقال محمد بن عبد الملك : سل أبا يوسف عن مسألة ، فكرهت ذلك وجعلت أتبأطا وأدافع مخافة أن أوحشه لأنّه كان لي صديقاً ، فألح علي محمد بن عبد الملك وقال : لم لا تسأله ؟ فاجتهدت في اختيار مسألة سهلة لأقارب يعقوب ، فقلت له : ما وزن نكتل من الفعل من قول الله تعالى : ﴿ فأَرْسِلْ

١ المختار : ممهد لك .
٢ المختار : أما ترى .
٣ طبقات الزبيدي : ٢٢٢ .

مَعنا أخانا نَكْتل ﴾ (يوسف : ٦٣) فقال لي : نفعل ، قلت : ينبغي أن يكون ماضيه كتل ، فقال : لا ، ليس هذا وزنه إنّما هو نفتعل ، فقلت له : نفتعل كم حرف هو ؟ قال : خمسة أحرف ، قلت : فنكتل كم حرفاً هو ؟ قال : أربعة أحرف ، فقلت : أيكون أربعة أحرف بوزن خمسة أحرف ؟ فانقطع وخجل وسكت ، فقال محمد بن عبد الملك : فإنّما تأخذ كل شهر ألفي درهم على أنك لا تحسن وَزْنَ نكتل ؟! قال : فلما خرجنا قال لي يعقوب : يا أبا عثمان هل تدري ما صنعت ؟ فقلت له : والله لقد قاربتك جَهْدي ، وما لي في هذا ذنب .

قلت : وذكر أبو الحسن ابن سيده هذه الحكاية في أوّل خطبة كتابه « المحكم في اللغة » لكنه قال : إن ذلك كان بين يدي المتوكل ، والله أعلم .

وقال غير ابن عساكر : كان يعقوب بن السكيت يؤدّب مع أبيه بمدينة السلام في درب القنطرة صبيانَ العامة ، حتّى احتاج إلى الكسب ، فجعل يتعلم النحو . وحكى عن أبيه أنّه كان قد حج فطاف بالبيت وسعى وسأل الله تعالى أن يعلم ابنه النحو فتعلم النحو واللغة ، وجعل يختلف إلى قوم من أهل القنطرة فأجروا له كل دفعة عشرة دراهم وأكثر حتّى اختلف إلى بشر وهارون ابني هارون ، أخوين كانا يكتبان لمحمد بن عبد الله بن طاهر الخزاعي[1] ، فما زال يختلف إليهما وإلى أولادهما دهراً ، فاحتاج ابن طاهر إلى رجل يعلم أولاده ، وجعل ولده في حجر إبراهيم بن إسحاق المصعبي ، فرتب يعقوب وجعل له رزقاً خمسمائة درهم ، ثم جعلها ألف درهم .

وقال أبو العباس ثعلب : كان ابن السكيت يتصرف في أنواع العلوم ، وكان أبوه رجلاً صالحاً ، وكان من أصحاب أبي الحسن الكسائي حسن المعرفة بالعربية . وكان سبب[2] قعود يعقوب للناس وقصدهم إياه أنّه عمل شعر أبي النجم العجلي وجرده فقلت : ادفعه لي لأنسخه فقال : يا أبا العباس ، حلفت بالطلاق

---

١ من عادة المؤلف أن يحيل على التراجم ، وقد وردت ترجمة محمد بن عبدالله بن طاهر في النسخة مج (انظر ج ٥ : ٩٢) ولم يشر إليها ، أتراها من الزيادات الموضوعة عليه ؟

٢ قارن بما عند الزبيدي : ٢٢٣

أنّه لا يخرج من يدي ، ولكنه بين يديك فانسخه ، واحضر يوم الخميس ، فلما وصلت إليه عُرِفَ بي ، فحضر بحضوري[1] قوم ، ثم انتشر ذلك فحضر الناس .

وقال ثعلب أيضاً : أجمع أصحابنا أنّه لم يكن بعد ابن الأعرابي أعلم باللغة من ابن السكيت ، وكان المتوكل قد ألزمه تأديب ولده المعتز بالله ، فلما جلس عنده قال له : بأي شيء يحب الأمير أن نبدأ – يريد من العلوم – فقال المعتز : بالانصراف ، قال يعقوب : فأقوم ، قال المعتز : فأنا أخف نُهُوضاً منك ، وقام فاستعجل فعثر بسراويله فسقط ، والتفت إلى يعقوب خجلاً وقد احمرّ وجهُه ، فأنشد يعقوب :

يصابُ الفتى من عثرةٍ بلسانه ... وليس يصابُ المرءُ من عثرةِ الرجلِ

فعثرته في القول تُذْهِبُ رأسه ... وعثرته بالرجل تَبْرأ في[2] مَهْلِ

فلما كان من الغد دخل يعقوب على المتوكل فأخبره بما جرى ، فأمر له بخمسين ألف درهم وقال : قد بلغني البيتان .

وكان يعقوب يقول : أنا أعلم من أبي بالنحو ، وأبي أعلم مني بالشعر واللغة .

وقال الحسين بن عبد المجيب الموصلي : سمعت ابن السكيت يقول في مجلس أبي بكر بن أبي شيبة :

ومن الناس من يحبُّك حبّاً ... ظاهرَ الحبِّ ليس بالتقصير

فإذا ما سألتَهُ عُشْرَ فلسٍ ... ألحقَ الحبَّ باللطيف الخبير

وكان لابن السكيت شعر وهو مما تثقُ النفسُ به ، فمن ذلك قوله :

إذا اشتملتْ على اليأسِ القلوبُ ... وضاق لما به الصدرُ الرحيبُ

وأُوطنَتِ المكارهُ واستقرت ... وأرستْ في أماكنها الخطوب

ولم ترَ لانكشافِ الضرّ وجهاً ... ولا أغنى بحيلته الأريب

---

١ ر : لحضوري .

٢ ق : تبرا على .

أتاك على قنوطٍ منك غَوْثٌ يمنّ به اللطيف المستجيب
وكلٌّ الحادثاتِ إذا تناهتْ فموصولٌ بها فَرَجٌ قريب

وكان العلماء يقولون : « إصلاح المنطق » كتاب بلا خطبة ، و« أدب الكاتب » تأليف ابن قتيبة خطبة بلا كتاب ، لأنّه طول الخطبة وأودعها فوائد .

وقال بعض العلماء : ما عبر على جسر بغداد كتاب في اللغة مثل « إصلاح المنطق » ، ولا شك أنّه من الكتب النافعة الممتعة الجامعة لكثير من اللغة ، ولا نعرف في حجمه مثله في بابه ، وقد عني به جماعة ، فاختصره الوزير أبو القاسم الحسين بن علي المعروف بابن المغربي — المقدم ذكره [1] — وهذبه الخطيب أبو زكريّا التبريزي ، وتكلم على الأبيات المودعة فيه ابن السيرافي ، وهو كتاب مفيد .

ولابن السكيت من التصانيف أيضاً كتاب « الزبرج » وكتاب « الألفاظ » وكتاب « الأمثال » وكتاب « المقصور والممدود » وكتاب « المذكر والمؤنث » وكتاب « الأجناس » وهو كبير ، وكتاب « الفرق » وكتاب « السرج واللجام » وكتاب « فَعلَ وأفعل » وكتاب « الحشرات » وكتاب « الأصوات » وكتاب « الأضداد » وكتاب « الشجروالنبات » (وكتاب « الوحوش » وكتاب « الإبل » وكتاب « النوادر » وكتاب « معاني الشعر الكبير » وكتاب « معاني الشعر الصغير » وكتاب « سرقات الشعراء [2] وما اتفقوا عليه » وغير ذلك من الكتب ، ومع شهرته لا حاجة إلى الإطالة في ذكر فضله .

وقد روي في قتله غير ما ذكرته أولاً ، فقيل إن المتوكل كان كثير التحامل على علي بن أبي طالب وابنيه الحسن والحسين رضي الله عنهم أجمعين — وقد تقدم في ترجمة أبي الحسن علي بن محمد المعروف بابن بسام أبيات تدل على هذا أيضاً [3] — وكان ابن السكيت من المغالين في محبتهم والتوالي لهم ، فلما قال له المتوكل تلك المقالة قال ابن السكيت : والله إن قَنْبر خادم علي رضي الله عنه خير

---

١ انظر ج ٢ : ١٧٢ .

٢ في ق والمسودة : سرقات الشعر .

٣ انظر ج ٣ : ٣٦٥ .

منك ومن ابنيك . فقال المتوكل : سُلوا لسانه من قفاه ، ففعلوا ذلك به فمات ، وذلك في ليلة الاثنين لخمس خلون من رجب سنة أربع وأربعين ومائتين ، وقيل سنة ست وأربعين ، وقيل سنة ثلاث وأربعين ، والله أعلم بالصواب . وبلغ عمره ثمانياً وخمسين سنة . ولمّا مات سير المتوكل لولده يوسف عشرة آلاف درهم وقال : هذه دِيَةُ والدك ، رحمه الله تعالى .

وقال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن النحاس النحوي : كان أول كلام المتوكل مع ابن السكيت مُزاحاً ثم صار جداً ؛ وقيل إن المتوكل أمره أن يشتم رجلاً من قريش وأن ينال منه فلم يفعل ، فأمر القرشي أن ينال منه ، فأجابه ابن السكيت ، فقال له المتوكل : أمرتك فلم تفعل ، فلما شتمك فعلت ، وأمر به فضرب وحمل من عنده وقيذاً صريعاً ، والله أعلم أي ذلك كان . — وقد تقدم في ترجمة عبد الله بن المبارك مثل هذه القضية لما سئل عن معاوية وعمر بن عبد العزيز وأيهما أفضل [1] — .

والسكيت : بكسر السين المهملة والكاف المشددة وبعدها ياء مثناة من تحتها ثم تاء مثناة من فوقها ، وعرف بذلك لأنّه كان كثير السكوت طويل الصمت . وكل ما كان على وزن فِعِّيل أو فِعْليل فإنّه مكسور الأول .

وقوله : خوزي بضم ، الخاء المعجمة وبعد الواو زاي ، هذه النسبة إلى خوزَستان ، وهو إقليم بين البصرة وبلاد فارس .

---

١ انظر ٣ : ٣٣ .

٨٢٨
يعقوب الصفار

أبو يوسف يعقوب بن الليث الصفار الخارجي ؛ قد أكثر أهل التاريخ من ذكر هذا الرجل وذكر أخيه عمرو وما ملكا من البلاد وقتلا من العباد ، وما جرى للخلفاء معهما من الوقائع . وقد اخترت من ذلك ما أودعته في هذه الأوراق فأقول :

قال أبو عبد الله بن محمد الأزهر الأخباري : حدثني علي بن محمد . وكان عالماً بأمور يعقوب بن الليث الصفار ومحاربته . وأول أمره أنّه وأخاه عمراً كانا صفارين في حداثتهما . وكانا يظهران الزهد . وأن رجلاً من أهل سجستان كان مشهوراً بالتطوّع [١] في قتال الخوارج ، يقال له صالح بن النضر الكناني المطوعي [٢] من أهل بست . فصحباه وحظيا به . فقتلت الخوارج الذين يقال لهم الشُّراة أخا يعقوب المذكور . وأقام صالح المذكور يعقوب المذكور مقام الخليفة . ثم هلك صالح فتولى مكانه درهم بن الحسين [٣] من المطوعة أيضاً . فصار يعقوب مع درهم كما كان مع صالح . ثم إن صاحب خراسان احتال لدرهم حتى ظفر به . فحمل إلى بغداد فحبس بها ثم أطلق وخدم السلطان ، ثم لزم بيته يظهر النسك والحج والاقتصاد . حتى غلظ أمر يعقوب .

وذكر شيخنا عز الدين أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن الأثير في

---

٨٢٨ – هذه الترجمة لم ترد في القسم الموجود من المسودة ولم ترد في النسخ س بر من. ووردت في ر بعد ترجمة يعقوب بن داود ، وهي كاملة في ق ع . ومنها في المختار مقتطفات. وأخبار يعقوب الصفار في الكتب التاريخية أمثال الطبري وابن الأثير والمسعودي وابن خلدون والنجوم الزاهرة ٣ : ٤٠ ومرآة الجنان ٢ : ١٨٠ وصورة الأرض : ٣٥٣ .

١ زاد في ع : والزهد .

٢ ع : المتطوعي ، وكذلك ترد « المتطوعة » أيضاً في النسخ ، وأحياناً « المطوعة » في ر .

٣ وردت « الحسن » في ابن الأثير والنسخة ر ومواضع من ق ع .

تاريخه[1] في سنة سبع وثلاثين ومائتين ابتداء أمر يعقوب المذكور، فقال : في هذه السنةِ تغلب إنسان من أهل بست اسمه صالح بن النضر الكناني على سجستان ومعه يعقوب بن الليث ، فعاد طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين ، أمير خراسان ، واستنقذها منه ، ثم ظهر بها إنسان اسمه درهم بن الحسين من المطوعة فغلب عليها ، وكانَ غير ضابط لأمور عسكره ، وكان يعقوب بن الليث قائد عسكره ، فلما رأى أصحاب درهم ضعفه وعجزه اجتمعوا على يعقوب بن الليث ، وملكوه أمرهم ، لمّا رأوا من تدبيره وحسن سياسته وقيامه بأمرهم ، فلما تبين ذلك له لم ينازعه في الأمر وسلمه إليه ، واعتزل عنه ، فاستبدّ يعقوب بالأمر وضبط البلاد وقويت شوكته ، وقصدته العساكر من كل ناحية، فصار من أمره ما سنذكره .

رجعنا إلى تمام ما ذكره عليّ بن محمد بن أحمد[2] :

قال : فلما دخل درهم بن الحسين بغداد تولى يعقوب أمر المطوعة ، وحارب الخوارج الشراة فرزق الظفر بهم حتى أفناهم وأخرب ضياعهم ، وأطاعه أصحابه بمكره ودهائه طاعة لم يطيعوها أحداً كان قبله . ثم اشتدت شوكته وزادت صولته[3] ، فغلب على سجستان وهَرَاة وبوشنج وما والاها . وكان التّرك بتخوم سجستان وملكهم رتبيل ، ويسمى هذا القبيل من التّرك الدراري ، فحرضه أهل سجستان على قتالهم ، وأعلموه أنهم أضرّ من الشراة الخوارج وأوجب محاربة ، فغزا التّرك فقتل رتبيل ملكهم ، وقتل ثلاثة من ملوكهم بعد رتبيل ، ويسمى كل ملك لهم رتبيل ، وانصرف يعقوب إلى سجستان ، وقد حمل رؤوسهم مع رؤوس ألوف منهم ، فرهبته الملوك الذين حوله ، منهم ملك المولتان وملك

---

١ ابن الأثير ٧ : ٦٤ .

٢ ابن أحمد : سقطت من ق .

٣ ع ق : ثم اشتدت صولته .

الرخج وملك الطبسين وملك زابلستان ، وملك[1] السند ومكران وغيرهم ، وأذعنوا له . وكان قصده هَراة وبوشنج في سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، وأمير خراسان يومئذ محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين الخزاعي ، وعامله عليها محمد بن أوس الأنباري ، فخرج لمحاربته في تعبئة وبأس شديد وزي جميل ، فحاربه وأحسن مقاومته حتّى احتال له يعقوب ، فحال بينه وبين دخول المدينة ، وهي بوشنج ، وانحاز ابن أوس منهزماً ، فقيل إنّه لم يقاتله أحد أحسن مواقفته[2] كما أحسنها ابن أوس ، ودخل يعقوب بوشنج وهراة ، وصارت المدينتان في يده ، وظفر بجماعة من الطاهرية ، وهم المنسوبون إلى طاهر بن الحسين الخزاعي ، فحملهم إلى سجستان ، حتّى وجه المعتز بالله الخليفة إليه المعروف بابن بلعم ، وهو رجل من الشيعة ، برسالة وكتاب ، فأطلقهم .

قال ابن الأزهر الأخباري المذكور : حدثني محمد بن عبد الله بن مروان ، قال : حدثني ابن بلعم المذكور قال : صرت إليه بكتاب أمير المؤمنين المعتز بالله إلى زَرَنْجَ — قلت : وهي بفتح الزاي والراء وسكون النون وبعدها جيم ، وهي كرسي بلاد سجستان — قال ابن بلعم : فاستأذنت عليه فأذن لي ، فدخلت[3] ولم أسلم عليه ، وجلست بين يديه من غير أمره ، ودفعت الكتاب إليه فلما أخذه قلت له : قَبِّلْ كتاب أمير المؤمنين فلم يقبله ، وفضه ، فتراجعت القهقرى إلى باب مجلسه الذي كان فيه ثم قلت : السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله ، فأعجبه ذلك ، وأحسن مَثْوَاي ووصلني ، وأطلق الطاهرية[4] .

وقال ابن بلعم المذكور أيضاً : دخلت على يعقوب الصفار يوماً فقال لي : ينبغي أن يجيئنا رجل من ناحية فارس مستأمن ، ومعه ثلاثة أنفس أو أربعة ، بل هو تمام الخمسة ، قال : فأنكرت هذا منه ، وأمسك ، فما علمت إلا وحاجبه قد دخل فسلم ، وقال : أيها الأمير ، بالباب رجل مستأمن ومعه أربعة أنفس ،

---

١ ع ق : وملوك .

٢ رق : موافقته .

٣ المختار : فدخلت عليه .

٤ المختار : وأطلق الذين جئت بسببهم .

فقال : أدخله ، فدخل وسلم وقال : أيها الأمير ، معي أربعة أنفس ، فأذن لهم فدخلوا عليه ، فالتفتُّ إلى الحاجب وقلت : قد أخذتم في المخاريق ، فحلف لي أيماناً مغلظة أنهم جاؤوا بغتة ما علم بهم أحد من الناس ، وسألت يعقوب بعد ذلك ، وقلت له : أيها الأمير ، لقد رأيت منك عجباً في أمر المستأمنة فكيف علمت بهم ؟ فقال : أخبرك أنّي فكرت في أمر فارس ، ورأيت غراباً واقفاً بإزاء طريقها[1] واختلجت إحدى أصابع رجلي ، ثم تبع بعضها بعضاً ، فعلمت أنّه عضو غير شريف ، وأنّه سيأتينا من ذلك الصقع قوم مستأمنة ، أو رسل ليسوا بأجلة ، فكانوا هؤلاء .

وقال عليّ بن الحكم : سألت يعقوب بن الليث الصفار عن الضربة التي على وجهه ، وهي منكرة على قصبة أنفه ووجنته ، فذكر أن ذلك أصابه في بعض وقائع الشراة ، وأنّه طعن رجلاً منهم ، فرجع عليه فضربه هذه الضربة ، فسقط نصف وجهه حتّى رد وخيط ، قال : فمكثت عشرين يوماً في فمي أنبوبة قصب ، وفمي مفتوح لئلا يتقرح رأسي ، وكان يصب في حلقي الشيء بعد الشيء من الغذاء . قال حاجبه : وقد كان مع هذه الضربة يخرج ويعبي أصحابه للحرب ويقاتل .

وأرسل يعقوب إلى المعتز بالله هدية سنية ، من جملتها مسجد فضة مخلع يصلي فيه خمسة عشر إنساناً ، وسأل أن يعطى بلاد فارس ، ويقرر عليه خمسة عشر ألف ألف درهم ، على أن يتولى إخراج عليّ بن الحسين بن قريش ، وكان على فارس ، ثم شخص يعقوب من سجستان في أثر كتابه إلى المعتز ، يريد كرمان ، ثم نزل بَم — قلت : وهي بالباء الموحدة المفتوحة وبعدها ميم مخففة ، وهي الحد الفاصل بين سجستان وكرمان — قال : وكان بكرمان العباس بن الحسين بن قريش ، أخو علي بن الحسين المذكور ، ومعه أحمد بن الليث الكردي ، فخرجا عن كرمان يريدان شيراز ، وقدّم يعقوب أخاه علي بن الليث إلى السِّيرجان — قلت : وهي بكسر السين المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها ثم راء وجيم وبعد الألف نون ، وهي مدينة كرمان — قال : وضم إليه جماعة ،

[1] المختار : الطريق التي لها .

فأقام هو على بَـم ، فرد أحمد بن الليث الكردي إليه من الطريق في جمع كثير من الأكراد وغيرهم ، فصاروا إلى دَرَابَجِرْدَ — قلت : وهي بفتح الدال المهملة ثم راء وألف وبعدها باء موحدة ثم جيم مكسورة ثم راء وبعدها دال مهملة ، وهذا الاسم يقع بالاشتراك على ثلاثة مواضع : الأول : كورة عظيمة مشهورة بفارس ، قصبتها دَرَابَجِرْدَ ؛ والثاني : قرية بفارس أيضاً من أعمال اصطخر فيها معدن الزئبق ، فيحتمل أن يكون مصيرهم إلى الأولى أو إلى الثانية ؛ وأما الثالثة : فهو موضع بنيسابور ، ولا يحتمل مصيرهم إليه ، لأنّه بخراسان فلا تعلق له بفارس .

قال الراوي : فظفر أحمد بن الليث بجماعة من أصحاب يعقوب يطلبون العلف ، فقتل بعضهم [1] وهرب منهم جماعة، ووجه أحمد بن الليث برؤوس [2] من قتل من أصحاب يعقوب إلى فارس ، فنصب علي بن الحسين رؤوسهم ، فبلغ الخبر يعقوب ، فدخل كرمان ، فندب علي بن الحسين لمحاربته طوق بن المغلس في خمسة آلاف من الأكراد ،سوى من تقدم مع أحمد بن الليث الكردي، وسار طوق حتّى نزل على مدينة إياس من عمل كرمان ، فورد عليه كتاب يعقوب يعلمه أنّه أخطأ إذ دخل عملاً ليس إليه ، فرد عليه طوق : أنت بعمل الصُّفْر أعلم منك بعمل الحروب ، فعظم ذلك على يعقوب . وكان في عسكر طوق ثلثمائة رجل من الأبناء . فوافى يعقوب مدينة إياس فأوقع بطوق وقتل أصحابه وهزم من بقي منهم ، وصبر الأبناء الثلثمائة حتّى أشجوا يعقوب فأعطاهم الأمان ، فلم يقبلوا [3] حتّى قتلوا عن آخرهم ، وقتل يعقوب في هذه الوقعة ألفي رجل وأسر ألفاً ، وأسر طوق بن المغلس وقيده بقيد خفيف ، ووسع عليه في مطعمه وغيره ، واستخرج منه الأموال ، ورحل يعقوب عن إياس ودخل عمل فارس ، فخندق علي بن الحسين على نفسه بشيراز ، وذلك

---

١ ق ع ر : فقتلهم .

٢ ق ع : رؤوس .

٣ ع : يفعلوا .

في يوم الثلاثاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين ومائتين .

وكتب علي بن الحسين إلى يعقوب يعلمه أن طوق بن المغلس فعل ما فعل من غير أمره ، وأنّه لم يأمره بمحاربته وقال له : إن كنت تطلب كرمان فقد خلفتها وراءك ، وإن كنت تطلب فارس فكتاب من أمير المؤمنين بتسليم العمل لأنصرف . فرد عليه يعقوب : إن كتاباً من السلطان معه لا يتهيأ أن يوصله حتى يدخل البلد وإنّه إن أخلى له البلد فقد ودع [1] وأزاح علته ، وإلا فالسيف بيننا والموعد مرج سنكان ، وهو مرج واسع بينه وبين شيراز ثلاثة فراسخ ، وكتب صاحب البريد ووجوه البلد إلى يعقوب يعلمونه أنه ما ينبغي له ، مع ما وهب له الله تعالى من التطوع والديانة وقتل الخوارج ونفيهم عن بلاد خراسان وسجستان ، التسرعُ إلى سفك الدماء ، لأن علي بن الحسين لن يسلم البلد إلا بكتاب الخليفة ، واعتد أهل شيراز للحصار ، وقد كانت المنهزمة من أصحاب طوق أسروا ثلاثة أنفس من أصحاب يعقوب ، فحبسهم علي بن الحسين . وقد كان طوق وقت خروجه إلى يعقوب اشترى داراً بشيراز بسبعين ألف درهم ، وقدر للنفقة عليها مالاً ، فكتب طوق إلى ابنه : لا تقطع البناء عن الدار ، فإن الأمير يعقوب قد أكرمني وأحسن إلي ، وسأل في إطلاق الثلاثة المأسورين من أصحاب يعقوب ، وكان يعقوب سأله ذلك ليطلقه إذا وافوا إليه ، فقال علي بن الحسين : اكتبوا إلى يعقوب ليصلب طوق بن المغلس ، وإن أقل عبد من عبيده أكبر عنده منه. وسأل يعقوب طوق بن المغلس عن أمور علي بن الحسين ، فضعف أمره عنده ، فتقرب طوق إلى يعقوب بمال عنده بشيراز ، وأنّه يكتب إلى أهله في حمله إليه ليقوى به على حربه ، فأمره يعقوب أن يفعل ذلك ، فكتب إلى ابنه فوقع الكتاب في يد علي بن الحسين ، فأخذ المال وغيره من دار طوق ، وحمله إلى داره ، وزحف يعقوب ، واحتشد علي بن الحسين .

قال أحمدُ بن الحكم ، قال لي يعقوب : أخبرني عن علي بن الحسين أمسلم

[1] ع ق : ورع .

هو ؟ قلت : نعم ، قال : أفرَأيت مسلماً يوجه بالأكراد الكفار إلى بلاد المسلمين فيقتلونهم ويحملون نساءهم ويأخذون أموالهم ؟ ألم تعلم أن أحمد ابن الليث الكردي قتل بكرمان سبعمائة إنسان على دم واحد ، وافتض الأكراد مائتي بكر من أهل البيوتات ، وحملوا معهم نحو ألفي امرأة إلى بلادهم ؟ أفرأيت مسلماً يرضى بهذا ؟ قال ، قلت : فعل أحمد هذا من غير أمره . ثم قال له يعقوب في بعض مناظراته : قل لعلي بن الحسين : إن معي قوماً أحراراً جئت بهم وليس[1] يتأتى لي ردهم إلا بما يحبون ، فوجه إلي بما يرضيهم ووجه لي في نفسي ما يشبه مثلي من البرّ ، فإذا فعلت فأنا أخوك وعونك على من حاربك وأدفع لك كرمان تأكلها ، وأنصرف إلى عملي . وارتحل يعقوب ، فنزل قرية يقال لها خوزاستان[2] ، ووافى أحمد بن الحكم إلى علي بن الحسين يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة ، وعلى يده كتاب يعقوب .

قال ابن الحكم : فلم يفهم علي بن الحسين شيئاً مما جئت[3] به من الدهش ، وحاصل الكتاب بعد الدعاء له : فهمت كتابك ، وذكرك ورودي هذا البلد العظيم خَطَرُه بغير[4] إذن أمير المؤمنين ، فإنّي لست ممن تطمع نفسه في محاولة ظلم ، ولا ممن يمكنه ذلك ، وقد أسقطت عنك مؤونة الاهتمام في هذا الباب ، فإن البلد لأمير المؤمنين ، ونحن عبيده نتصرف بأمره في أرضه وسلطانه ، وفي طاعة الله وطاعته ، وقد استمعت من رسولك، ورجعت إليه في جواب ما عملته وأدائه ما يورده عليك مما رجوت لنا ولك فيه صلاحاً ، فإن استعملته ففيه السلامة إن شاء الله تعالى ، وإن أبيت فإن قدر الله تعالى نافذ لا محيص عنه ، ونحن نعتصم بالله من الهلكة ، ونعوذ به من دواعي البغي ومصارع الخذلان، ونرغب إليه في السلامة ديناً ودنياً بلطفه ، مدّ الله في عمرك ؛ وكتب يوم الاثنين ، لليلة خلت من جمادى الأولى ، سنة خمس وخمسين ومائتين .

---

١ ع : ولن .

٢ ع : حور أستان .

٣ ع ق : جئته .

٤ ر : بدون .

ثم تزاحف الفريقان ، وقد اجتمع في عسكر علي بن الحسين خمسة عشر ألف إنسان ، ووجه أحمد بن الليث الطلائع ، وذلك في غداة الأربعاء لأربع خلون من الشهر المذكور . ولما كان يوم الخميس وافت طلائع يعقوب ، ثم التقى [1] الجيشان ، فحملوا حملة ، وفي الثانية أزالوا أصحاب عليّ بن الحسين عن مواضعهم ، وصدقت المجالدة ، فانهزموا ومروا على وجوههم لا يلوي أحد على أحد ، وعلي بن الحسين يتبع أصحابه ويصيح فيهم : أن ارجعوا وقفوا ، يناشدهم [2] الله تعالى ، فلم يلتفتوا إليه ، وبقي في عدة من أصحابه ، فوافت المنهزمة أبواب شيراز مع العصر يوم الخميس المذكور ، وكانت الوقعة بعد الظهر ، فضاقت عليهم الأبواب ، فمروا على وجوههم في نواحي شيراز ، وبلغت هزيمتهم الأهواز ، وكانت القتلى معهم منهم مقدار خمسة آلاف . وأصابت علي بن الحسين ثلاث ضربات ، واعتورته أسياف أصحاب يعقوب ، وسقط عن دابته فأرادوا قتله ، فأعلمهم أنه علي بن الحسين ، فأخذوا عمامته ووضعوها في وسطه ، وقادوه إلى يعقوب ، وطلب الذي أسره الثواب من يعقوب ، فأمر له بعشرة آلاف درهم ، فأبى أن يأخذها ، فقال : إنما جئتني بكلب أسرته ، مالك عندي غيرها ، فانصرف الرجل . وقَنَّعَ يعقوب علياً عشرة أسواط بيده ، وأخذ حاجبه بلحيته فنتف أكثرها ، وأمر يعقوب أن يقيد بقيد فيه عشرون رطلاً ، وصيره مع طوق بن المغلس في الخيمة ، وكان قد أنفذ إلى ابن المغلس وقيده أيضاً ؛ وصار يعقوب من فوره إلى شيراز ، وتفرق أصحاب علي بن الحسين في النواحي . ثم دخل يعقوب إلى شيراز والطبول تضرب بين يديه ، وظن أهلُ شيراز يؤذيهم ويستحل دماءهم وأموالهم بحربهم . فلم ينطق [3] أحد لأنه كان وعد أصحابه إن هو ظفر أن يطلقهم وينهب شيراز ، وبلغ القوم ذلك فلزموا بيوتهم . ورجع يعقوب من ليلته إلى عسكره بعد أن طاف شيراز ، فلما أصبح نادى بالأمان ليخرجوا إلى الأسواق ، فخرج الناس ، ونادى في كتاب

---

١ ع : ووافت . . . يعقوب التقي .

٢ ع : ويناشدهم .

٣ ع : يطلق ؛ وسقطت « أحد » من ر .

علي بن الحسين : أن برئت الذمة ممن آواهم ، وحضرت الجمعة فأمر الخطيب فدعا للإمام المعتز بالله ولم يدع لنفسه ، فقيل له في ذلك فقال : الأمير لم يقدم بعد ، وقال : إنّما مقامي عندكم عشرة أيام ، ثم أرجع إلى عمل سجستان ؛ وبعث أخاه إلى منزل علي بن الحسين فأحضر الفرش والأثاث ، وفتش على الأموال فلم يقف عليها ، فأحضر علياً فتهدده [1] وتوعده ، فذكر أنّه يدلهم على المال ، فحمل إلى منزله فاستخرج أربعمائة بدرة ، وقيل إنه أخذ منه ألف بدرة ، وعوض يعقوب أصحابه من نهب [2] شيراز كل رجل ثلثمائة درهم .

ثم عذب يعقوب علياً بأنواع [3] العذاب ، وعصر أنثييه وشد الجوزتين على صدغيه ، فقال علي : قد أخذت ما أخذت ، أخذت مني فرشي [4] وقيمته أربعون ألف دينار ، وألح عليه بالعذاب وأعلمه أنّه لا يقنعه [5] منه دون ثلاثين ألف ألف دينار ، وخلط ووسوس من شدة العذاب وقيده بأربعين رطلاً ، فدلهم على موضع في داره ، فاستخرجوا منه أربعة آلاف ألف درهم ، وجوهراً كثيراً ، ثم ألح عليه بالعذاب وسلمه إلى الحسن بن درهم فضربه وعذبه وشتمه ، وعذب طوق بن المغلس أيضاً ، وحبسهما في بيت واحد . وارتحل يعقوب من شيراز يوم السبت لليلتين بقيتا من جمادى الأولى من السنة إلى بلاده ، وحمل علي بن الحسين وطوق بن المغلس معه ، فلما أتى كرمان ألبسهما المصبغ من الثياب . وقنعهما بمقانع ، ونادى عليهما وحبسهما ، ومضى إلى سجستان .

وخلع الخليفة المعتز بالله لثلاث خلون من رجب من هذه السنة وتولى الخلافة الإمام المهتدي بالله في ذلك اليوم وخلع المهتدي بالله مع صلاة الظهر من يوم الثلاثاء لأربع عشرة بقيت من رجب سنة ست وخمسين ومائتين ، وبويع المعتمد على الله . ولم يكن ليعقوب الصفار في خلافة المهتدي كبير أمر ، بل كان

---

١ ر : فهدده .

٢ ع : من بيت مال .

٣ ع ق : أنواع .

٤ ع ق : فرسي .

٥ ع ق : ينفعه .

يغزو ويحارب من يليه من الملوك بسجستان وأعمالها ، ويتطرف كور خراسان وما قرب من قوهستان ونواحي هراة وبوشنج وما اتصل بسجستان . ثم عاد يعقوب إلى بلاد فارس وجبى غلاتها ورجع بثلاثين ألف ألف درهم ، وصار إلى سجستان ، وأقام محمد بن واصل بفارس يتولى الحرب والخراج ، ويكاتب الخليفة ، ويحمل بعض ما يجبي من الأموال ، فكان مقدار ما يحمل في السنة خمسة آلاف ألف درهم من الخراج ببلاد فارس ، وكان مقيماً بها غلبة عليها ، ولو أمكن الخليفة صرفه عنها ببعض أوليائه لما أقره .

ثم ورد الخبر في جمادى الآخرة من سنة ثمان وخمسين ومائتين بدخول يعقوب مدينة بلخ ، ثم خرج منها ودخل نيسابور في ذي القعدة من سنة تسع وخمسين ومائتين ، واحتاط على محمد بن طاهر الخزاعي أمير خراسان وجميع الطاهرية ، ثم خرج عنها في المحرم من سنة ستين ومائتين ومعه محمد بن طاهر مقيداً، ونيف وستون من أهله . وتوجه نحو جرجان للقاء الحسن بن زيد العلوي أمير طبرستان وجرجان، ولما بلغ الحسن بن زيد أن يعقوب يقصده أخذ من أموال الخراج ثلاثة عشر ألف ألف درهم بقايا وسلفاً ، وتخلص من جرجان إلى طبرستان ، ودخل يعقوب جرجان ، ووجه من أصحابه من أخذ سارية طبرستان، وكان بجرجان يعلق على دوابه كل يوم ألف قفيز شعيراً. ثم خرج يعقوب إلى طبرستان وخرج إليه الحسن بن زيد في خلق كثير . وأعلم يعقوب أصحابه أنه يقتل من انهزم منهم ، وتقدم بنفسه للحرب . فتبعه خمسمائة من عبيده ، فحمل على الحسن وأصحابه حملة واحدة فكانت الهزيمة على القوم ، وكان الحسن بن زيد قد أعد في كل قرية في طريقه[1] لانهزامه برذوناً وبغلاً لأنه كان رجلاً ثقيلاً كثير اللحم ، وتلاحق أصحاب يعقوب به فتبع الحسن بن زيد في خمسة آلاف خيل[2] جريدة ، وأخذ يعقوب مما كان مع الحسن بن زيد ثلثمائة وقر مالاً أكثرها عين ، وظفر بجماعة من آل أبي طالب فأساء إليهم وأسرهم ، وكانت الوقعة يوم الاثنين لأربع بقين من رجب سنة ستين ومائتين .

---

١ في طريقه : سقطت من ق ر .

٢ ع : من الخيل .

ثم تقدم يعقوب فدخل آمُلَ – قلت : وهي بالهمزة الممدودة والميم المضمومة وبعدها لام ، وهي كرسي بلاد طبرستان – قال : وهرب الحسن بن زيد إلى مدينة يقال لها سالوس ، فلم يجد من أهلها ما كان يعرفه منهم ، فتنحى عنهم ، ثم خرج يعقوب من آمُل فطلب الحسن بن زيد ، فرحل مرحلة واحدة ، وبلغه الخبر أن الحسين بن طاهر بن عبد الله بن طاهر قد دخل مرو الروذ ومعه صاحب خوارزم في ألفي تركي ، فانزعج يعقوب لذلك ، وقصر من الإيغال في طلب الحسن بن زيد ، فرجع وكتب إلى أمير الري في ذي الحجة من سنة ستين يأمره أن يخرج من الري ، ويعلمه أن أمير المؤمنين قد ولاه إياه ، فبلغ ذلك الخليفة فأنكره وعاقب غلمانه الذين كانوا ببغداد بالحبس وأخذ الأموال .

ثم دخلت سنة إحدى وستين ومائتين و يعقوب ببلاد طبرستان ، فخرج في المحرم يريد جرجان ، فلحقه الحسن بن زيد من ناحية البحر فيمن اجتمع إليه من الديلم وأهل الجبال وطبرستان فشعّث من يعقوب وقتل من لحق من أصحابه ، فانهزم يعقوب إلى جرجان ، فجاءت بها زلزلة عظيمة قتلت من أصحابه ألفي إنسان ورجعت طبرستان إلى الحسن بن زيد ، وهي آمل وسارية وما يتصل بهما ، وأقام يعقوب بجرجان يعسف أهلها بالخراج ، ويأخذ أموال الناس ، ودامت الزلزلة ثلاثة أيام ، وأتى جماعة من أهل جرجان إلى بغداد فسئلوا عن يعقوب الصفار ، فذكروه بالجبروت والعسف ، فعزم الخليفة على النهوض إليه واستعد لذلك ، ولما رجع الصفار إلى جوار [1] الري ورجع الحاج عن الموسم كتب الخليفة المعتمد على الله إلى عبيد الله بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وهو يومئذ متولي [2] العراق بأن يجمع الحاج من أهل خراسان وطبرستان وجرجان والري ويقرأ عليهم كتاباً منه إليه ، فجمع الحاج القادمين من أقاصي البلاد ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين بالوقوع في الصفار ، وعمل ثلاثين نسخة ، ودفع إلى أهل كل كورة نسخة لتذيع الأخبار بهذه النسخ في الآفاق . ونمي الخبر إلى يعقوب الصفار بما كان من حبس غلمانه ، وما كان من جمع الحاج في دار عبيد الله ، وما دفع

---

١ ق : خوارى .

٢ ر : يتولى .

إليه من النسخ ، وانكشف له رأي الخليفة في قصده ، فرجع إلى نيسابور ، وإنّما رجع لأنه لم يجد عدة تصلح للقاء الخليفة ، ولما دخل إلى نيسابور أساء إلى أهلها بأخذ الأموال ورجع يريد جهة سجستان في جمادى الأولى من سنة إحدى وستين ومائتين .

ولما رجع إلى سجستان خرجت كتبُ الخليفةِ إلى أصحـاب الممالك بخراسان وذوي الجـاه والعدد بتولية كل رجل ناحية ، فوردت الكتب وأصحاب الصفار متفرقون في كور خراسان . ثم إن الصفار وصل إلى عسكر مكرم من أعمال خوزستان وكاتب الخليفة ، وسأله ولاية خراسان وبلاد فارس وما كان مضموماً إلى آل طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور وشرطتي بغداد وسر من رأى ، وأن يعقد له على طبرستان وجرجان والري وأذربيجان وقزوين ، وأن يعقد له على كرمان وسجستان والسند ، وأن يحضر من قرئت عليهم الكتب التي نسخت في دار عبيد الله بن عبد الله بن طاهر ويقرأ عليهم خلاف ما قرىء عليهم أولاً من ذكره ، ليبطل ذلك الكتاب بهذا الكتاب ، ففعل ذلك الموفق بالله أبو أحمد طلحة بن المتوكل على الله ، وهو أخو الخليفة المعتمد على الله والد المعتضد بالله الخليفة القائم بعد عمّه المعتمد على الله ، وكان الموفق مستولياً على الأمور كلها وليس للمعتمد معه سوى اسم الخلافة لا غير ، وأجابه إلى ما طلب ، وجمع الناس وقرأ عليهم ما أحبه الصفار ، وأجيب إلى الولاية التي طلبها ، واضطربت الموالي بسر من رأى من إجابة الخليفة إلى ما طلبه الصفار ، وتحركوا . ثم إن الصفار لم يلتفت إلى ما أجيب إليه من ذلك ، ودخل السوس وهي أيضاً مدينة من أعمال خوزستان بالقرب من عسكر مكرم ، ولما دخلها عزم على محاربة الخليفة المعتمد وتأهب له الخليفة لينحدر إليه في دجلة ، ثم تقدم الصفار وتقدم إليه عسكر الخليفة ، وقد كانت الموالي ارتابت واتهمت الأمير الموفق ، وتوهمت أن إقبال الصفار بسبب ما أنفذ إليه من الكتب ، وإلا فأي عجيب أعجب من خارج قصد من زرنج كرسي سجستان ، وهي الحد الفاصل بين السند والترك وخراسان ، والوصول إلى بلاد العراق لمحاربة الخليفة ، وهو في جيوشه وعدده وتقادم مملكته في شرق الأرض وغربها ، والصفار منفرد

بجيشه[1] ليس معه من يعضده ولا يشاركه في هذا الأمر؟! ولمّا بلغ الخليفة ذلك دعا ببرد النبي صلى الله عليه وسلّم وقضيبه ، وأخذ القوس ليكون أول من رمى ، ولعن الصفار ، فطابت أنفس الموالي .

ولمّا كان صبيحة الأحد لتسع خلون من رجب وردت عساكر الصفار في التعبية إلى موضع يقال له اصطربند[2] ، وهي قرية بين السيب ودير العاقول من النهروان الأوسط ، وجمع أصحابه ليحمل بهم ، وتقدم بنفسه كما كان يفعل قبل ذلك ، وأقبل وعليه دراعة ديباج سوداء ، ولمّا تواقف الصفان خرج من الموالي خشتج القائد فقام بين الصفين وقال لأصحاب الصفار : يا أهل خراسان وسجستان ، ما عرفناكم إلا بطاعة السلطان وتلاوة القرآن وحج البيت وطلب الإنكار[3] ، وإن دينكم لا يتم إلا باتباع الإمام[4] ، وما نشك أن هذا الملعون قد موّه عليكم ، وقال لكم : إن السلطان قد كتب إليه بالحضور ، وهذا السلطان قد خرج لمحاربته ، فمن آثر منكم الحق وتمسك بدينه وشرائع الإسلام فلينفرد عنه إذ كان شاقاً للعصا محارباً للسلطان ، فلم يجيبوه عن كلامه ، وكان هذا خشتج شجاعاً مقداماً .

ولمّا تخلص محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين أمير خراسان من أسر الصفار — وقد تقدّم ذكر أسره وحمله مقيداً — قال له خشتج : يا آل طاهر ، اشتريتمونا بأموالكم وأهديتمونا إلى ولد العباس ، فاستخلفونا وملكونا الضياع والأموال ، حتى قدنا الجيوش وحاربنا عن بيضة الإسلام ، فلم نخرج من الدنيا حتى حاربنا الصفار عنك يا والي خراسان مع مولانا أمير المؤمنين ، وخلصناك بعد الأسر والقيد الثقيل من مدينة إلى مدينة على بغل إكاف ورددناك من العراق إلى خراسان ، فالحمد لله على ما تفضل به مولانا من خلاصك ، وأولانا هذا الفعل الجميل فيك .

---

١ ر : متفرد في جيشه .
٢ ع : اصطربيد ؛ ق : اصطرنبد .
٣ ر : الأذكار .
٤ ع : بطاعة السلطان .

رجعنا إلى تتمة خبر الصفار :

قال الراوي : وحزر عسكر الصفار فكانت مساحة معسكره ميلا في ميل ، وكانت دوابهم في غاية الفراهة ، وقيل إن جمعهم كان يزيد على عشرة آلاف إنسان ، ووضع الخليفة العطاء في الجند وقطع ما في الطريق من الشجر والدغل ، واستعدوا للحرب وجدوا فيها وشمروا ، وقيل ما هو إلا أن تنصروا أو تنهزموا فلا ترجع دولتكم إليكم ، ووقف الخليفة المعتمد بنفسه وإلى جانب ركابه محمد بن خالد بن يزيد بن مزيد بن زائدة الشيباني — وقد تقدم ذكر جده يزيد بن مزيد — ووقف معه جماعة اكتنفوا الخليفة من أهل البأس والنجدة ، وتقدم بين يديه الرماة بالنشاب ، وكشف الموفق أخو الخليفة رأسه وقال : أنا الغلام الهاشمي ، وحمل على أصحاب الصفار ، وقتل بين الطائفتين خلق كثير ، فلما رأى الصفار تلك الحال ولى راجعاً تاركاً أمواله وخزائنه وذخائره ، ومرّ على وجهه فلم تتبعه العساكر ، وما أفلت من أصحابه رجل إلا بسهم أصابه ، وأدركهم الليل فتساقطوا في الأنهار لازدحامهم وثقل الجراح بهم، قال أبوالساج داود ابن دوست الذي[1] تنسب إليه الأجناد الساجية ببغداد للصفار لما انهزم : ما رأيت معك شيئاً من تدبير الحروب ، وكيف كنت تغلب الناس، فإنّك جعلت ثقلك وأموالك وأسراك أمامك وقصدت بلداً على قلة المعرفة منك به وبمغايصه وأنهاره بغير دليل ، وقاتلت يوم الأحد والريح عليك ، وسرت من السوس إلى واسط في أربعين يوماً ، وأحوال العساكر مختلة ، فلما توافت عددهم ، وجاءتهم أموالهم واستحكم أمرهم عليك أقبلت من واسط إلى دير العاقول في يومين ، وتأخرت عند إمكان الفرصة وأقبلت تعدو في موضع التثبت ، فقال الصفار : لم أعلم أنّي أحارب ولم أشك في الظفر ، وتوهمت أن الرسل ترد علي ، فبدروا الأمر فأتيت بما قدرت عليه .

قلت : هذا آخر ما نقلته من كلام ابن الأزهر مع الاختصار .

---

١ ع : هو الذي .

ونقلت من تاريخ أبي الحسين عبيد الله بن أحمد بن أبي [1] طاهر الذي جعله ذيلاً على تاريخ أبيه في « أخبار ببغداد » وقد أطال القول فيه فاختصرته وحذفت ما تكرر منه ، فقال : كان وثوب يعقوب بن الليث على درهم وغلبته على سجستان يوم السبت لخمس خلون من المحرم سنة سبع وأربعين ومائتين ، وكانت ولاية درهم بن نضر (كذا) [2] ثلاث سنين بعد إخراجه صالح بن النضر ، وهو رجل من بني كنانة ، من سجستان في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين ومائتين ، ولم يزل يعقوب الصفار مقيماً بسجستان يحارب الشراة والأتراك ويظهر أنّه متطوعي ، حتّى كانت سنة ثلاث وخمسين ومائتين ، فخرج إلى هراة ثم قصد بوشنج وحاصرها وأخذها عنوة ، وكان ذلك في خلافة المعتز ومات المعتز ويعقوب على حاله ، ولم يزل على ذلك إلى أيام المعتمد على الله ، ثم دخل بلخ وخرج منها ، ثم وصل إلى رامهرمز وهو يظهر الطاعة للخليفة المعتمد، وذلك في المحرم من سنة اثنتين وستين ومائتين ، ثم أرسل رسله إلى المعتمد فدخلوا بغداد لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة من السنة المذكورة ، ثم صار إلى واسط ، وأقام بها نائباً عنه ثم صار إلى دير العاقول يوم السبت لثمان خلون من رجب ، ثم صار إلى اصطربند فنزل بها ، ولما اتصل خبره بالمعتمد وأنّه يقصد بغداد جمع أصحابه من الأطراف ، وخرج من سر من رأى قاصداً لمحاربته ، ودخل بغداد يوم الأحد لخمس بقين من ذي الحجة من السنة .

قال أبو الفرج كاتب القاضي أبي عمر : لما نهض الخليفة لمحاربة الصفار لم تزل كتبه تسير إليه من الطريق يؤمر بالانصراف ، ويحذر سوء عاقبة فعله ، وأن أمير المؤمنين قد نهض إليه في العَدد والعُدد، وكتبُ الصفار واردةٌ بأنّي قد علمت نهوض أمير المؤمنين ليشرفني وينبه على موقعي منه ، ثم عَبّى الخليفة جيشه للقتال على القرية المذكورة ، وأرسلوا الماء على طريق الصفار ، فكان سبب هزيمته ، فإنهم أخذوا عليه الطريق وهو لا يدري ، واصطف الفريقان ، ولم

---

[1] أبي : سقطت من ق .

[2] وردت « كذا » في الأصل ، لأن اسمه من قبل ورد « درهم بن الحسن » .

يزل القوم يحمل بعضهم على بعض حتى انهزم الصفار ، فغنم الناس من أثقاله غنيمة عظيمة ، وتوهموا أن ذلك حيلة منه ومكر ، ولولا ذلك لاتبعوه . ولقد حدثني من حضر ذلك أن رشق الجند الموالي كان في ذلك الوقت عشرين ألف سهم . وانصرف الخليفة مسروراً بما فتح الله عليه .

وكان ممن تخلص من أسره ذلك اليوم أبو عبد الله محمد بن طاهر أمير خراسان وجاء إلى الخليفة وهو في قيده ، ففك الخليفة عنه القيد ، وخلع عليه خلعة سلطانية . وذكر المعتمد ذلك النهار أنّه رأى تلك الليلة في المنام كأن إنساناً كتب على صدره ﴿ إنّا فَتَحْنا لكَ فَتْحاً مُبينا ﴾ (الفتح : ١) وقص الرؤيا على خواصه ، وقال لهم : قد وثقت بنصر الله تعالى .

وقبل الوقعة وردت كتب الصفار إلى الخليفة وفيها خضوع وتضرع [١] . ويخبر بأنّه لم يجيء إلا لخدمة أمير المؤمنين ، والتشرف بالمثول بين يديه ، والنظر إليه ، وأن يموت تحت ركابه ، فقال المعتمد : نحن في مخاريق الصفار بعد . أعلموه أنّه ما له عندي إلا السيف . وأمر الخليفة بالكتاب إلى أبي أحمد عبيد الله بن عبد الله بن طاهر . وهو عم محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر ، يخبره بالفتح وخلاص ابن أخيه محمد بن طاهر . فكتب إليه وهو يومئذٍ يتولى الشرطة ببغداد نيابة عن ابن أخيه المذكور . فإنّه كان يتولى خراسان وشرطيّ بغداد وسر من رأى وفي الكتاب فصول طويلة ، وحاصله أنّه عدّدَ ذنوب الصفار . وما قابله به الخليفة من الإحسان والإنعام . وأنّه قلده خراسان والبلاد التي تقدم ذكرها قبل هذا ، وأنّه رفع مرتبته وأمر بتكنيته في كتبه وأقطعه الضياع السنية . ولم يَبْقَ شيء مما يقدر فيه استصلاحه إلا فعله . فما زاده ذلك إلا البغي والطغيان ، والتمس أشياء إن رد عنها قصد أبواب أمير المؤمنين لإثارة الفتنة وابتغاء الغلبة . فلم ير أمير المؤمنين إجابته إلى ما التمسه ، وتابع الكتب بالرجوع إلى أعماله الجليلة التي ولاه إياها . وحذره التعرض لزوال النعم التي أنعم الله عليه بها ، فقد خالفه وعصاه وخرج عن طاعته . وعرفه أنّه إن أقام على المصير إلى الباب فقد عصاه وخرج عن طاعته ، ثم وجه إليه في ذلك مرة بعد أخرى مع جماعة

١ ر : تضرع وخضوع .

من القضاة والفقهاء والقواد ، وقدر بتوجههم إليه أنّه يرجع إلى ما هو ألزم به وأوجب عليه ، فأقام على سبيل واحد في البغي والعناد والعصيان ، ولم يثنه الإرشاد ، ولم يزل استحواذ الشيطان عليه يقوده إلى الحين ويصده عن سبيل النجاة إلى مهاوي الهلكة ، فلما تبين أمير المؤمنين ذلك منه رأى أن يقضي عليه في أمر مثله ، فنهض متوكلاً على الله تعالى معتمداً على كفايته لدفع الملعون عما يحاوله ، وهو يغذّ السير إلى المصرع الذي سبق به قضاء الله تعالى فيه ، حتّى توسط الطريق بين مدينة السلام وواسط ، وأظهر أعلاماً على بعضها الصلبان ، واستنجد أهل الشرك على أهل الإيمان ، وبارز الله بسريرته ليسلمه بجريرته ، وفارق شرائع الإسلام وأحكامه ، نقضاً للعهود ونكثاً وخفراً للذمة وإعلاناً للمشاقة ، فقدم أمير المؤمنين أخاه الموفق بالله أحمد ولي عهد المسلمين ومعه جماعة من موالي أمير المؤمنين الذين أخلصوا لله طاعتهم وثبت في المحاماة عن دولته بصائرهم ، وأتبعهم أمير المؤمنين الرغبة إلى الله تعالى في تأييدهم ونصرهم على عدوهم ، ولعنه أمير المؤمنين في الأوقات والمواقف التي علم الله صدق نيته فيها ، وألحقه وبالها ، ووقف أمير المؤمنين يتأمل ما يكون من أخيه ومواليه وأوليائه ، ويواصل الإمداد والجيوش إليهم ، وكان الموفق بالله في قلب العسكر ، وظهر الملعون عدو الله في أشياع ضلالته قد ادرع العصيان ، وتسربل البغي واعتمد على وفور حشده وكثرة أتباعه ، فلما تراءى الجمعان شهر عدو الله وأشياع ضلالته السلاح ، وأسرعوا إلى موالي أمير المؤمنين وأوليائه ، وشرعت في الملعون وضلاله سيوف الحق باترة ورماحه طاعنة وسهامه نافذة ، حتى أثخن الملعون بالجراح ، ورأى أتباع ضلالته ما حل به ، فبادروا بالويل والثبور ، وأكب عليهم موالي أمير المؤمنين وأوليائه ، يقتلون فيهم ويأسرون منهم ، وعجل الله إلى النار من جماعته من لا يُحصى عدده ، ولم يزل الأمر كذلك حتى انتزع أبو عبد الله محمد بن طاهر مولى أمير المؤمنين سالماً من أيديهم ، وحسروا عن مستقرهم ، فولّى الباقون منهزمين مفلولين ، لا يلوون على شيء ، وأسلم الله تعالى الملعون ، وهم وما كانوا حووه وملكوه في سالف الأيام التي أملى الله تعالى لهم فيها أقطار الأرض من الأموال والأمتعة والأثاث والإبل

والدواب والبغال والحمير . فأفاءه الله على الموالي وسائر الأولياء وملكهم إياه، وصاروا به إلى رحالهم .

وعلى الجملة فإن هذا الكاتب أطال القول في ذلك فاختصرته ، ثم كتب في آخره : وكتبه عبيد الله بن يحيى يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة خلت من رجب سنة اثنتين وستين ومائتين .

ثم قال هذا المؤرخ بعد هذا : ومضى الصفار منهزماً إلى واسط يتخطف أصحابه أهل القرى ، وتؤخذ أسلحتهم وأسلابهم ، ولم تتبعه الموالي مخافة رجعته ولاشتغالهم بالكسب[1] والنهب . فأمسكوا عنه ، ورجع الخليفة إلى معسكره ، ثم رجع الصفار إلى السوس وجبى الأموال ، ثم قصد تستر وحاصرها وأخذها ورتب فيها نائباً ، وكثر جمعه ، ثم رحل إلى فارس في شوال . وكان الخليفة قد رجع إلى المدائن وأقام بها يومين ، ثم رحل إلى بغداد ومنها إلى سر من رأى، ودخلها يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان .

ثم ذكر المؤرخ بعد هذا : وورد[2] الخبر على الخليفة بوفاة يعقوب بن الليث الصفار يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال ،والذي أصيب في بيوت أمواله من العين أربعة آلاف ألف دينار . ومن الورق خمسون ألف ألف درهم . ووافى أحمد بن أبي الأصبغ يوم الخميس لسبع بقين من شوال . وقد كان الخليفة أنفذه ليصلح أمر يعقوب . فانصرف من عند يعقوب . فلما قرب من واسط اتصل به وفاة يعقوب . وقد كان قلد خراسان وفارس وكرمان والري وقم وأصبهان . وصيرت إليه الشرطتان ببغداد وسر من رأى ، على أن يوليها من أحب . وعلى أن يوجه ثلثي ما يجبى من خراج البلاد التي يتولاها من جميع الأعمال .

وتولى أخوه عمرو بن الليث مكانه باجتماع عسكر يعقوب عليه ، ووردت كتب عمرو إلى الموفق أخي الخليفة المعتمد على الله بالسمع والطاعة ، وأن يتولى ما كان أخوه يتولاه . فأجيب إلى سؤاله ، وولاه في ذي القعدة من السنة .

---

١ بالكسب ، سقطت من ع .

٢ ع : ورود .

قلت : سياقة هذا التاريخ يدل على أن يعقوب الصفار توفي في بقية سنة اثنتين وستين ومائتين ، لأنّه حكى الوقعة في هذه السنة ، وأن يعقوب انهزم . ثم قال عقيب هذا : وورد الخبر بوفاة يعقوب في شوال ، ولم يذكر السنة ، فيدل على موته في تلك السنة . والذي أعرفه من عدة تواريخ خلاف هذا ، فإن أبا الحسين السلامي ذكر في كتاب «تاريخ أخبار ولاة خراسان» ، في أول الفصل المختص بعمرو بن الليث الصفار فقال : كان سبب وفاة يعقوب بن الليث أنّه أصابه القولنج ، فأشير عليه بالعلاج فامتنع منه واختار الموت عليه ، فمات بجنديسابور من خوزستان يوم الثلاثاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال من سنة خمس وستين ومائتين .

قال أبو الوفاء الفارسي : رأيت على قبر يعقوب بن الليث صحيفة ، وقد كتبوا عليها :

ملكتَ خَراسانا وأكنافَ فارس ... وما كنت من ملكِ العراقِ بآيسِ
سلامٌ على الدنيا وطيبِ نسيمها ... إذا لم يكنْ يعقوبُ فيها بجالس

ورأيت بخطي في جملة[1] مسوداتي : أن يعقوب بن الليث الصفار توفي سنة خمس وستين ومائتين بالأهواز ، وحمل تابوته إلى جنديسابور فدفن بها ، وكتب على قبره : هذا قبر يعقوب المسكين ، وكتب بعده :

أحسنت ظنكَ بالأيام إذ حسنت ... ولم تَخَفْ سوء ما يأتي به القدرُ
وسالمتكَ الليالي فاغترَرْت بها ... وعند صفوِ الليالي يحدثُ الكدر

ورأيت بخطي أيضاً في موضع آخر أنّه توفي بجنديسابور ودفن بميدانه ، والله أعلم ، وهو قاصد العراق في التاريخ المذكور . وكانت وفاته بعلة القولنج ، وأخبره طبيبه أن لا دواء له إلا الحقنة ، فامتنع منها واختار الموت عليها ، وكانت مدة علته بالقولنج والفُوَاق ستة عشر يوماً . ومدة تغلبه على سجستان وتلك النواحي أربع عشرة سنة وشهوراً .

---

١ جملة : سقطت من ع .

وذكر شيخنا ابن الأثير في تاريخه في سنة خمس وستين ومائتين أنّه مات فيها يعقوب بن الليث في تاسع عشر شوال من السنة ، وذكر حديث القولنج وامتناعه من الحقنة ، وأنّه مات بجنديسابور من كور الأهواز — قلت : وهي من أعمال خوزستان بين العراق وبلاد فارس — وقال شيخنا أيضاً : وكان الخليفة المعتمد قد أنفذ إليه رسولاً يترضّاه ويستميله ويقلده أعمال فارس ، فوصل الرسول إليه ويعقوب مريض ، فجلس له ، وجعل عنده سيفاً ورغيفاً من خبز الخشكار ومعه بصل . وأحضر الرسول ، فأدى الرسالة وقال له : قل للخليفة إنّي عليل، فإن مت فقد استرحت منك واسترحت مني ، وإن عوفيت فليس بيني وبينك إلا هذا السيف حتى آخذ بثأري أو تكسرني وتفقرني ، فأعود إلى هذا الخبز والبصل ، وعاد الرسول ، فلم يلبث يعقوب أن مات .

وقال ابن حوقل في كتاب « المسالك والممالك » إن جنديسابور مدينة حصينة واسعة الخير ، وبها نخل وزروعٌ كثيرة ومياه ، وقَطَنَها يعقوب بن الليث الصفار لخصبها واتصالها بالمير الكثيرة .

وكان الحسن بن زيد العلوي يسمى يعقوب « السندان » لثباته ، وكان قل أن يرى متبسماً ، وكان عاقلاً حازماً ، وكان يقول : كل من عاشرته أربعين يوماً ولا تعرف أخلاقه لا تعرفها في أربعين سنة .

(351) ولما تولى عمرو أحسن في التدبير والسياسة غاية الإحسان ، حتى يقال ما أدرك في حسن السياسة للجنود والهداية إلى قوانين المملكة منذ زمن طويل مثل عمرو بن الليث . وذكر السلامي في كتاب « أخبار خراسان » شيئاً كثيراً من كفايته ونهضته ، وقيامه بقواعد الولاية ، فتركته طلباً للاختصار . وذكر أنه كان ينفق في الجند في كل ثلاثة أشهر مرة ، ويحضر بنفسه على ذلك ، وأن عارض الجيش يقعد والأموال بين يديه ، والجند بأسرهم حاضرون وينادي المنادي أولاً باسم عمرو بن الليث ، فتقدم دابته إلى العارض بجميع آلة الفارس ، فيفتقدها ويأمر بوزن ثلثمائة درهم باسم عمرو ، فتحمل إليه في صرة فيأخذ الصرة فيقبلها ويقول : الحمد لله الذي وفقني لطاعة أمير المؤمنين حتى استوجبت منه الرزق ، ثم يضعها في خفه ، فتكون لمن ينزع خفه ، ثم يدعى بعد ذلك

بأصحاب الرسوم على مراتبهم ، فيستعرضون بآلاتهم التامة وبدوابهم الفره ، ويطالبون بجميع ما يحتاج إليه الفارس والراجل من صغير آلة وكبيرها ، فمن أخلّ بإحضار شيء منها حرموه رزقه ، فاعترض يوماً فارساً كانت دابته في غاية الهزال ، فقال له عمرو : يا هذا تأخذ مالنا تنفقه على امرأتك فتسمنها ، وتهزل دابتك التي عليها تحارب وبها تجد الأرزاق ؟ امض فليس لك عندي شيء ، فقال له الجندي : جعلت لك الفداء ، لو اعترضت امرأتي لاستسمنتَ دابتي ، فضحك عمرو وأمر بإعطائه وقال : استبدل بدابتك .

قلت : ذكر القاضي كمال الدين ، المعروف بابن العديم الحلبي رحمه الله تعالى ، في «تاريخ حلب» حكاية يليق أن أذكرها هاهنا ، لأنها مثل هذه الحكاية ، وهي :

كان كسرى أنوشروان بن قباذ قد ولى رجلاً من الكتاب نبيهاً ، معروفاً بالعقل والكفاية ، يقال له بابك بن النهروان ، ديوانَ الجند ، فقال لكسرى : أيها الملك ، إنك قد قلدتني أمراً من صلاحه أن تحتمل لي بعض الغلظة في الأمور وهي عرض الجنود في كل أربعة أشهر ، وآخذ كل طبقة بكمال آلتها ومحاسبة المؤدبين على ما يأخذون على تأديب الرجال بالفروسية والرمي والنظر في مبالغتهم في ذلك وتقصيرهم ، فإن ذلك ذريعة إلى إجراء السياسة مجاريها ، فقال كسرى : ما المجاب بما سأل بأحظى من المجيب ، لاشتراكهما في فضله ، وانفراد المجيب بعد بالراحة ، حقق مقالتك، فأمر فبنيت له في موضع العرض مصطبة، وبسط له عليها الفرش الفاخرة ، ثم جلس ونادى مناديه : لا يبقين أحد من المقاتلة إلا حضر للعرض ، فاجتمعوا ولم ير كسرى ، فأمرهم فانصرفوا ، وفعل ذلك في اليوم الثاني ، ولم ير كسرى فيهم فأمرهم فانصرفوا ، فنادى في اليوم الثالث : أيها الناس لا يتخلفن من المقاتلة أحد ، ولا مَنْ أكرم بالتاج والسرير ، فإنه عَرْض لا رخصة فيه ولا محاباة ، وبلغ كسرى ذلك ، فتسلح بسلاحه ثم ركب فاعترض على بابك ، وكان الذي يؤخذ به الفارس تجفافاً ودرعاً وجوشناً وبيضة ومغفراً وساعدين وساقين ورمحاً وترساً وجرزاً تلزمه منطقة وطبرزينا وعموداً ، وجعبة فيها قوسان بوتريهما وثلاثين نشابة ، ووترين

ملفوفين يعلقهما الفارس في مغفره ظهرياً ، فاعترض كسرى على بابك بسلاح تام ، خلا الوترين اللذين يستظهر بهما ، فلم يجز بابك على اسمه ، فذكر كسرى الوترين فعلقهما في مغفره ، واعترض على بابك ، فأجاز على اسمه ، وقال : لسيد الكماة أربعة آلاف درهم ودرهم ، وكان أكثر ماله من الرزق[1] أربعة آلاف درهم ، ففضل كسرى بدرهم واحد .

فلما قام بابك من مجلسه دخل على كسرى فقال : أيها الملك ، لا تلمني على ما كان من إغلاظي ، فما أردت به إلا الدربة للمعدلة والإنصاف ، وحسم مادة المحاباة . قال كسرى : ما أغلظ علينا أحد فيما يريد به إقامة أودنا وصلاح ملكنا إلا احتملنا له غلظته ، كاحتمال الرجل شرب الدواء الكريه ، لما يرجوه من منفعته .

رجعنا إلى تتمة أخبار عمرو بن الليث الصفار :

قال السلامي أيضاً : كان رافع بن هرثمة تبعاً لأبي ثور ، وكان أبو ثور أحد قواد محمد بن طاهر الخزاعي ، فلما وافى يعقوب الصفار نيسابور كان أبو ثور من جملة مَن مايل يعقوب على محمد بن طاهر ، فلما انصرف يعقوب إلى سجستان صحبه أبو ثور ، ومعه رافع بن هرثمة ، وكان رجلاً طويل اللحية كريه الوجه قليل الطلاقة ، فدخل يوماً إلى يعقوب ، فلما خرج من عنده قال يعقوب : إنّي لا أميل إلى هذا الرجل فليلحق بحيث شاء ، فباع رافع جميع آلاته ثم انصرف إلى منزله بيامين ، وهي من قرى كنج رستاق . وأقام هناك إلى أن استقدمه أحمد بن عبد الله الخجستاني – وخجستان : من جبل هرَاة ، من قرى بادغيس – ؛ وكان الخجستاني من أتباع يعقوب الصفار ، ثم خلع طاعته وتغلب على نيسابور وبسطام في سنة إحدى وستين ومائتين ، وكان يظهر الميل إلى الطاهرية مستميلاً بذلك قلوب أهل نيسابور إليه ، حتى إنّه كان يكتب في كتبه : أحمد بن عبد الله الطاهري .

---

١ ر : الورق .

ثم كتب الخجستاني إلى رافع بن هرثمة ، وهو في بلده ، يستقدمه ، فقدم عليه ، فجعله صاحب جيشه . وللخجستاني حروب ومواقف مشهورة ، وليس الغرض ذكر شيء منها هاهنا . ثم إن غلامين من غلمانه اتفقا عليه وقتلاه ، وقد سكر ونام ، وذلك في ليلة الأربعاء لست بقين من شوال سنة ثمان وستين ومائتين . وكان رافع بن هرثمة غائباً ، فقدم بعد ذلك على جيش الخجستاني ، فقدموه عليهم وبايعوه بمدينة هراة ، وقيل بنيسابور .

ثم عزل الموفق بالله عمرو بن الليث الصفار عن ولاية خراسان ، وجعلها لأبي عبد الله محمد بن طاهر الخزاعي في سنة إحدى وسبعين ومائتين ، وهومقيم ببغداد ، فاستخلف محمد بن طاهر عليها رافع بن هرثمة ، ما خلا أعمال ما وراء النهر فإن الموفق بالله أقر عليها نصر بن أحمد بن أسد الساماني خليفة لمحمد بن طاهر .

ثم وردت كتب الموفق على رافع بقصد جرجان وطبرستان ، وكانتا للحسن ابن زيد العلوي[1] ، وتوفي سنة سبعين ومائتين ، واستولى عليهما أخوه محمد ابن زيد ، فجاءه رافع في سنة أربع وسبعين ، ففارقها محمد بن زيد إلى استراباذ فحاصره بها رافع مدة سنتين ، ثم فارقها ليلاً في نفر يسير إلى بلاد الديلم . واستولى رافع على طبرستان في سنة سبع وسبعين ومائتين .

ثم توفي الخليفة المعتمد على الله في رجب سنة تسع وسبعين ومائتين وتولى الخلافة بعده المعتضد بالله أبو العباس أحمد بن الموفق المذكور ، وولى المعتضد أبا إبراهيم إسماعيل بن أحمد الساماني[2] ما وراء النهر بعد وفاة أخيه نصر بن أحمد المذكور – قلت : وكانت وفاة نصر لسبع بقين من جمادى الآخرة ، سنة تسع وسبعين بسمرقند – قال : وعزل رافع بن هرثمة عن خراسان وولاها عمرو بن الليث ، وبقي رافع بالري ، ثم إنه هادن الملوك المجاورين له ليستعين بهم على عمرو بن الليث ، فلما تم له ذلك خرج إلى نيسابور ، فواقعه عمرو بن الليث في شهر ربيع الآخر من سنة ثلاث وثمانين ، وهزمه عمرو وتبعه إلى

١ العلوي : سقطت من ر .

٢ ر والمختار : السلماني .

أبيورد ، وقصد رافع أن يخرج منها إلى هراة أو مرو ، فعلم عمرو أن مقصده سرخس ، فقصدها عمرو ليأخذ عليه الطريق ، فعلم رافع ذلك ، فخرج من أبيورد ومعه دليل ، فأخذ به على جبال طوس حتى أورده باب نيسابور فدخلها ، فعاد عمرو إليها ، وحاصره بها فانهزم رافع وأصحابه ووصل إلى نواحي خوارزم على الجمازات ، وحمل ما كان معه من آلة ومال في شرذمة قليلة ، وذلك يوم السبت لخمس بقين من شهر رمضان سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، فوجه إليه أمير خوارزم نائباً يقوم بخدمته وما يحتاج إليه إلى أن يصل خوارزم ، فوجده النائب في خف من أصحابه ، فقتله لسبع خلون من شوال يوم الجمعة سنة ثلاث وثمانين ، وحزّ رأسه ، وحمله إلى عمرو بن الليث وهو بنيسابور ، فأنفذ عمرو رأسه إلى المعتضد بالله ، ولم يكن رافع ابن هرثمة ، وإنما هرثمة زوج أمه ، فانتسب رافع إليه لأنه أشهر ، ورافع ابن تومرد[1] .

وقال ابن جرير الطبري في تاريخه في سنة ثلاث وثمانين[2] : وفي يوم الجمعة لثمان بقين من ذي القعدة قرئت الكتب على المنابر بقتل رافع بن هرثمة ، وقدم رسول عمرو بن الليث برأس رافع إلى بغداد يوم الخميس لأربع خلون من المحرم سنة أربع وثمانين ومائتين على المعتضد ، فأمر بنصبه في الجانب الشرقي إلى الظهر ، ثم تحويله إلى الجانب الغربي بقية النهار إلى الليل ، ثم ردوه إلى دار السلطان ، قال السلامي : وصفت خراسان إلى شط جيحون لعمرو بن الليث .

قلت : وقد مدح البحتري الشاعر المشهور رافع بن هرثمة ، وكناه أبا يوسف في مديحه ، وأرسلها إليه ، فأرسل له عشرين ألف درهم وهو بالعراق .

قال السلامي : ولما وجه عمرو بن الليث برأس رافع بن هرثمة إلى المعتضد سأل أن يولوه عمل ما وراء النهر مثل ما كان برسم عبد الله بن طاهر ، فوعدوه بذلك ثم أرسل إليه المعتضد هدايا فوصلته وهو في نيسابور ، فأبى أن يقبلها دون الوفاء بما وعدوه من تولية أعمال ما وراء النهر ، فكتب الرسول إلى المكتفي بالله بن المعتضد ، وكان بالري وعنده جماعة من خواص أبيه ، بما سأله عمرو ، فأنفذوا إليه العهد بها ، فحمل إليه العهد والهدايا التي سيرها له المعتضد بالله

---

١ ق : نومرد .

٢ تاريخ الطبري ٣ : ٢١٥٩ – ٢١٦٠ .

وامتنع من أخذها ، وكان في الهدايا سبع دسوت[1] خلع ، فوضعت بين يديه ، وأفاض عليه الرسول الخلع واحدة بعد أخرى ، وكلما لبس خلعة صلى ركعتين ، ثم وضع العهد قدامه ، فقال : ما هذا ؟ قال : الذي سألته ، فقال عمرو : ما أصنع به ؟ فإن إسماعيل ابن أحمد لا يسلم إلي ذلك إلا بمائة ألف سيف ، فقال : أنت سألته فشمر الآن لتتولى العمل في ناحيته ، فأخذ العهد وقبله ووضعه بين يديه ، ثم أنفذ عمرو إلى الرسول ومن معه سبعمائة ألف درهم وصرفهم ، ثم جهز عمرو جيشاً إلى إسماعيل بن أحمد ، فعبر إسماعيل إليهم نهر جيحون وقاتلهم ، فقتل بعضهم وهزم الباقين ، وعمرو بن الليث الصفار في نيسابور ، وكانت الوقعة يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من شوال سنة ست وثمانين ومائتين ، وعاد إسماعيل إلى بخارا ، وهي من أعمال ما وراء النهر .

قال السلامي : انتدب عمرو بن الليث لمحاربة إسماعيل ، محمد بن بشر ، فلما عبر إسماعيل جيحون دخل موسى السجزي على محمد بن بشر وهو يحلق رأسه فقال له : هل استأذنت إسماعيل في حلق رأسك ؟ يعني أن رأسه لإسماعيل لأنه انتصب لمحاربته ، فقال له محمد : اغرب عني لعنك الله ، ثم تحاربوا من الغد ، فانكشف أصحاب بشر وقبضوا عليه وحز رأسه في جملة سائر الرؤوس وحملوها إلى إسماعيل ، وأدخلوا جماعة من أصحابه ليميزوا الرؤوس عن رأس ابن بشر ، فأعلم بعضهم إسماعيل بما قال موسى السجزي لابن بشر ، فتعجب مما جرى الفأل به .

وذكر الطبري في تاريخه في سنة سبع وثمانين ومائتين ما مثاله : وفي يوم الأربعاء لخمس بقين من جمادى الأولى ورد كتاب فيما ذكر على السلطان أنه كانت بين إسماعيل بن أحمد وبين عمرو بن الليث وقعة ، فأسر عمراً واستباح عسكره . وكان من خبر عمرو وإسماعيل[2] أن عمراً سأل السلطان أن يوليه ما وراء النهر فولاه ذلك ، ووجه إليه وهو مقيم بنيسابور بالخلع واللواء على ما وراء النهر ، لمحاربة إسماعيل بن أحمد ، فكتب إليه إسماعيل : إنك قد وليت

---

١ دسوت : سقطت من ر .

٢ ع : إسماعيل بن أحمد وعمرو .

دنيا عريضة ، وأنا في يدي ما وراء النهر ، وأنا في ثغر ، فاقنع بما في يدك ، واتركني مقيماً بهذا الثغر ، فأبى إجابته إلى ذلك ، وذكر له من أمر نهر بلخ وشدة عبوره ، فقال عمرو : لو أشاء أن أسكره ببدر الأموال وأعبره لفعلت . فلما يئس إسماعيل من انصرافه عنه جمع من معه من التنّاء والدهاقين وعبر النهر إلى الجانب الغربي ، وجاء عمرو بن الليث فنزل بلخ ، وأخذ إسماعيل عليه النواحي ، فصار كالمحاصر ، وندم على ما فعل ، وطلب المحاجزة فيما ذكر ، فأبى إسماعيل عليه ذلك ، ولم يكن بينهم قتال كثير حتى هزم عمرو ، فولى هارباً ، ومر بأجمة في طريقه قيل له إنها أقرب ، فقال لعامة من معه : امضوا في الطريق الواضح ، ومضى في نفر يسير ، فدخل الأجمة ، ووحلت به دابته فوقعت ، ولم يكن له في نفسه حيلة ، ومضى من معه ولم يلووا عليه ، وجاء أصحاب إسماعيل فأخذوه أسيراً ، فلما بلغ المعتضد ما جرى مدح إسماعيل وذم عمراً ، وقال : يقلد أبو إبراهيم إسماعيل كل ما في يد عمرو ، ويوجه إليه بالخلع .

ثم ذكر الطبري أيضاً في سنة ثمان وثمانين ما مثاله[1] : وفي أول جمادى الأولى يوم الخميس أدخل عمرو بن الليث بغداد ، وذكر لي أن إسماعيل بن أحمد خيره بين المقام عنده أسيراً[2] وبين توجيهه إلى أمير المؤمنين ، فاختار توجيهه إلى أمير المؤمنين ، فوجهه .

وقال السلامي في « أخبار خراسان » : ثم خرج عمرو إلى بلخ فلاقاه بها إسماعيل فهزمه وقبض عليه ، وذلك يوم الثلاثاء النصف من ربيع الأول سنة سبع وثمانين ومائتين ، وأنفذه مقيداً إلى سمرقند – قلت : وهي من بلاد ما وراء النهر أيضاً ، وهذا النهر هو جيحون – قال : وضمّ إليه أخاه أبا يوسف ليخدمه ، إلى أن ورد عليه من عند المعتضد عبد الله بن الفتح بعهد خراسان واللواء والتاج والخلع في سنة ثمان وثمانين ، وقدم معه إنسان[3] ليتولى حمل عمرو بن

---

١ الطبري ٣ : ٢٢٠٣ .

٢ ع ر ق : أميراً .

٣ ر : اسناس ؛ ق : استاسن .

الليث إلى بغداد فسلمه إسماعيل إليه ، فحمله .

وقال ابن أبي طاهر المذكور قبل هذا في تاريخه : إن عمرو بن الليث الصفار انهزم وقتل خلق كثير من أصحابه . وكانت الوقعة على باب بلخ يوم الأربعاء لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ربيع الآخر سنة سبع وثمانين ومائتين ،وقبل ذلك هرب ابن أبي ربيعة كاتب عمرو بن الليث إلى إسماعيل بن أحمد، ومعه قائد من قواده في خلق كثير ، فأصبح عمرو في يوم الوقعة وقد عرف الخبر ،ثم كثر هرب[1] أصحابه إلى إسماعيل ، فضعف قلب عمرو وهرب ، واشتغل إسماعيل بالعسكر ، وبعث في طلب عمرو جيشاً ، فوجدوه واقفاً على فرس ، فقبضوا عليه ، وسيره إسماعيل إلى المعتضد ، وأخبره بما جرى ، وأنه سيره إلى سمرقند ، حتى يرد عليه أمر أمير المؤمنين ، فاشتد سرور الخليفة بذلك ، وقلد الخليفة إسماعيل ما كان مقلده عمرو مضافاً إلى عمله . وتوجه عبد الله بن الفتح إلى إسماعيل في طلب عمرو ، فلما وصل إلى إسماعيل وجه إليه ، فأحضر عمراً ، فقيده وأرسله وإلى جانبه رجل من أصحاب إسماعيل بيده سيف مشهور ، وقيل لعمرو : إن تحرك في أمرك أحد رمينا رأسك إليهم ، فلم يتحرك أحد ، ووصلوا إلى النهروان يوم الثلاثاء لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة ثمان وثمانين ، وحلّ قيد عمرو ، فلما كان يوم الخميس مستهلّ جمادى الأولى ركب الجند للقائه وعمرو في القبة قد أرخى جلالها[2] عليه ، فلما بلغ باب السلامة أنزل عمرو من القبة ، وألبس دُرّاعة ديباج وبرنس السخط ، وحمل على جمل له سنامان ، يقال له إذا كان ضخماً على هذه الصورة «الفالج» ، في غاية الارتفاع ، وكان عمرو قد أهداه فيما أهدى للخليفة ، وقد ألبس الجمل الديباج وحلي بذوائب وأرسان مفضضة ، وأدخل بغداد فاشتقها في الشارع الأعظم إلى دار الخليفة بقصر الحسني ، وعمرو رافعٌ يديه يدعو ويتضرع دهاء منه ، فرقت له العامة ، وأمسكت عن الدعاء عليه ، ثم أُدخل على الخليفة وقد جلس له واحتفل به ، فوقف بين يديه ساعة ، وبينهما قدر خمسين ذراعاً ، وقال له : هذا ببغيك يا عمرو ، ثم أخرج من

---

[1] ر : هرب أكثر .

[2] ر : جلاجلها .

بين يديه إلى حجرة قد أعدت له ، وكان أخوه يعقوب الصفار قد تزوّج امرأة من العرب من بلد سجستان ، فلما توفي يعقوب تزوّجها أخوه عمرو ، ثم توفيت ولم تخلف ولدا ، وكان لها ألف وسبعمائة جارية .

قال بعضهم : كنت عند أبي عليّ الحسين بن محمد بن الفهم المحدث ، فدخل رجلٌ من أصحاب الحديث فقال له: يا أبا علي، رأيت عمرو بن الصفار أمس على جمل فالج من الجمال التي كان أهداها عمرو منذ ثلاث سنين للخليفة فأنشد أبو علي :

وحسبك بالصفار نبلاً وعزة   يروح ويغدو في الجيوش أميرا
حباهمْ بأجمالٍ ولم يدْرِ أنه   على جملٍ منها يُقادُ أسيرا

وعمل في ذلك علي بن محمد بن نصر بن بسام الشاعر — المقدم ذكره :

أيها المغتر بالدنـ   يا أما أبصرتَ عمرا
أُركِبَ الفالجَ بعد الـ   ملك والعزةِ قسرا
وعليه برنسٌ للسخـ   ط إذلالاً وقهرا
رافعاً كفيه يدعو   الله إسراراً وجهرا
أن ينجيه من القتـ   ل وأن يعمل صفرا

قال الطبري[1] : وتوفي المعتضد بالله ليلة الاثنين لثمان بقين من شهر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين ومائتين . وتولى الخلافة ولده المكتفي بالله أبو محمد علي، وكان غائباً في الرقة عند موت أبيه، فقدم بغداد، وأمر يوم الثلاثاء لثمان خلون من جمادى الآخرة من السنة المذكورة بهدم المطامير التي كان أبوه احتفرها لأهل الجرائم . ومات عمرو بن الليث الصفار في غد هذا اليوم ودفن بالقرب من القصر الحسني ، وقد كان المعتضد عند موته لما امتنع من الكلام أمر بقتل عمرو بالإيماء والإشارة ووضع يده على رقبته وعلى عينه : أي اذبحوا[2] الأعور ،

١ تاريخ الطبري ١٣ : ٢٢٠٧ — ٢٢٠٨ .
٢ ع : اقتل ، الطبري : أراد ذبح .

وكان عمرو أعور فلم يفعل صافي الحرمي ذلك ، وهو الذي أمره المعتضد بقتله ، وإنما امتنع من قتله لعلمه بحال المعتضد وقرب وفاته ، وكره قتل عمرو . ولما دخل المكتفي بغداد سأل ، فيما قيل ، القاسم بن عبيد الله عن عمرو : أحيٌّ هو ؟ فقال : نعم ، فسر بحياته وقال : أريد أن أحسن إليه . وكان عمرو يهدي إلى المكتفي ويبرّه براً كثيراً أيام مقامه بالري في حياة أبيه المعتضد ، فذكر أن القاسم كره سؤاله عنه ، ودس إليه من قتله . وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين سنة تقريباً .

قلت : وإنما قيل ليعقوب : الصفار ، لأنه كان يعمل الصفْر ، وهو النحاس وهو بضم الصاد المهملة وسكون الفاء وبعدها راء . وكان أخوه عمرو يكري الحمير .

حكى شيخ من الصفارين قال : كان يعقوب وهو غلام في دكانه يتعلم عمل الصفر ، ولم أزل أتأمل بين عينيه وهو صغير ما آل أمره إليه ، قيل له : وكيف ذلك ؟ قال : ما تأملته قط من حيث لا يعلم بتأملي إياه إلا وجدته مطرقاً إطراق ذي همة وفكر وروية ، فكان من أمره ما كان .

وقال علي بن المرزبان الأصفهاني الكاتب : سألت بعض أصحاب بني الصفار عن عمرو بن الليث أخي يعقوب بن الليث الصفار وصناعته ، وعمر يومئذ محبوس بمدينة السلام ، فسكت عني ، فلما توفي عمرو قال لي : كنت سألتني عن عمرو وصناعته ، ولم يكن من الحزم إخبارك وهو يرجى ويخشى ، فاعلم الآن أنه لم يزل مكاريا إلى أن عظم شأن أخيه يعقوب وتمكن من خراسان ، فلحق به وترك إكراء الحمير .

قلت : ذكر جماعة من أرباب التواريخ في كتبهم أن أبا أحمد عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر [1] بن الحسين الخزاعي — المقدم ذكره في هذا الكتاب — كان يقول : عجائب الدنيا ثلاث : جيش العباس بن عمرو الغنوي يؤسر العباس وحده وينجو من القتل ثم يطلق ويقتل جميع جيشه ، وكانوا عشرة آلاف . وجيش عمرو بن الليث يؤسر عمرو وحده ويموت في السجن ويسلم جميع جيشه وكانوا

---

١ ع : أبا أحمد عبد الله بن طاهر ؛ ق : عبيد الله بن طاهر .

خمسين ألفاً ، وأنا أترك في بيتي بطالاً ويتولى ابني أبو العباس الجسرين ببغداد .

(352) قلت : وكان من حديث العباس بن عمرو الغنوي [1] أن القرامطة لما اشتد أمرهم وانتشروا في البلاد وبالغوا في الفتك أرسل إليهم المعتضد بالله في سنة سبع وثمانين ومائتين جيشاً مقدمه العباس المذكور ، فأسره أبو سعيد القرمطي رئيس القرامطة في الوقعة ، وأسر جميع من معه من الجيش . وفي اليوم الثاني من الوقعة أحضر أبو سعيد القرمطي الأسرى فقتلهم بأسرهم وأحرقهم ، وأطلق العباس ، فجاء إلى المعتضد وحده ، وكان ذلك في آخر شعبان من السنة ، وكانت الوقعة بين البصرة والبحرين . وهي قصة طويلة مشهورة ، وهذا خلاصتها إذ ليس هذا موضع التطويل في شرحها – وسيأتي ذكرها مع الاستقصاء في **التاريخ الكبير** إن شاء الله تعالى .

قلت : والبيتان المذكوران قبل هذا ، وأنهما مكتوبان على قبر يعقوب الصفار ، وآخر البيت الأول منهما :

وما كنت من ملك العراق بآيس

هذا نصف بيت من جملة أبيات ترنم بها معاوية بن أبي سفيان الأموي لما تغلب على الشام ، وجاءه جرير بن عبد الله البَجَلي برسالة من علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه ، وكان علي إذ ذاك مقيماً بالكوفة ، فلما أدى جرير الرسالة إلى معاوية وانفض المجلس أمر معاوية بنزول جرير في مكان قريب منه ، وجعل يترنم بهذه الأبيات تلك الليلة ليسمع جرير ، فيعيد ذلك على علي رضي الله عنه ، والأبيات المشار إليها هي :

تطاول ليلي واعتراني وساوسي	لآتٍ أتى بالتُّرَّهات البسابسِ
أتاني جريرٌ والحوادثُ جمةٌ	بتلك التي فيها اجتداع المعاطس
أكايده والسيفُ [2] بيني وبينه	ولست لأثوابِ الدنيِّ بلابس
إنِ الشامُ أعطت طاعةً يمنيةً	تواصَفها أشياخها في المجالس

---

[1] انظر الطبري ٣ : ٢١٩٦ .

[2] ر : والبيض .

فإن يفعلوا أصدمْ علياً بجبهةٍ تفتّ عليه كلّ رطبٍ ويآبس
وإني لأرجو خير ما نال نائلٌ وما أنا من ملك العراق بآيس

قلت : «الترهات» بضم التاء المثناة من فوقها وتشديد الراء وبعد الهاء والألف تاء ثانية . والبسابس : بفتح الباء الموحدة وبعدها سين مهملة وبعد الألف باء ثانية مكسورة ثم سين ثانية ، وهي الباطل . وأصل الترهات : الطرق الصغار غير الجادة تتشعب عنها ، الواحدة: ترهة فارسي معرب ، ثم استعير في الباطل ، فقيل: الترهات البسابس ، والجبهة : الخيل ، والجبهة : الجماعة من الناس أيضاً ، فكأنه قال : أصدره بالخيل والرجال ، والباقي معروف لا حاجة إلى تفسيره .

(353) ورأيت بخط بعض أهل هذا الفن أن عمرو بن الليث لما أسر ملك بعده بلاد فارس حفيده طاهر بن محمد بن عمرو بن الليث المذكور لاثنتي عشرة ليلة بقيت من صفر سنة ثمان وثمانين ومائتين ، ثم قبض عليه غلام جده سبك السبكري في سنة ست وتسعين ومائتين ومعه أخوه يعقوب بن محمد ، وبعث بهما إلى مدينة السلام .

(354) ثم ولي بعده الليث بن علي بن الليث ، وهو ابن أخي يعقوب وعمرو بن الليث المذكورين ، كان تغلب على بلاد سجستان في سنة ست وتسعين ومائتين ، وجرى بين سبك السبكري وطاهر بن محمد المذكور ما جرى ، واستقرت البلاد بيد السبكري ، فاستخلف الليث المذكور على سجستان أخاه المعدل بن الليث ، وسار إلى بلاد فارس ، فهرب السبكري منه يطلب من الخليفة النجدة ، فجرد المقتدر بالله الجيوش في شهر رمضان سنة ست وتسعين ، وقدّم عليها مؤنساً المظفر وبدراً الكبير والحسين بن حمدان ، والتقوا مع الليث بن علي ، فانهزم جيشَه وأُسر هو وأخوه محمد وابنه إسماعيل ، وعاد مؤنس إلى بغداد ومعه الأسرى في المحرم سنة سبع وتسعين ، وشهر الليث بن علي على الفيل ، وولي المعدل ابن علي بن الليث على سجستان ، فسار إليه أحمد بن إسماعيل الساماني في خلق كثير من الفارس والراجل ، فأخذ منه البلاد . ثم ملك سبك السبكري الصفار مدة ، ثم حمل معه محمد بن علي بن الليث إلى بغداد ، وانقضى أمر الصفارية ، والله أعلم .

محتويات الكتاب

حرف الواو :

حرف الهاء :

فهرست التراجم العارضة

---

١ تكرر الرقم خطأ .

١ تكرر الرقم هنا خطأ .